

تأريخ الآداب العربية

من الجاهلية حتى عصر بني أمية

نص المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية

في سنة ١٩١٠ - ١٩١١

المرحوم الأستاذ

كارلوتاليانو

تقديم

الدكتور طه حسين



دار المعارف بمصر

تاريخ الآداب العربية

تاريخ الآداب العربية

من الجاهلية حتى عصر بني أمية

نص

المحاضرات التي ألقاها بالجامعة المصرية في سنة ١٩١٠ - ١٩١١

المرحوم الأستاذ

كارلوناينو

اعتنت بنشرها مريم نالينو

تقديم

الدكتور طه حسين

الطبعة الثانية



دار المغارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م.

تقديم

هذا كتاب في تاريخ الأدب العربي . قرأته كما تعودت أن أقرأ أمثاله من الكتب التي تعرض للأدب العربي وغيره من الآداب الأخرى . ولكني لم أقرأه بعقلي وحده ، كما تعودت أن أقرأ كتب التاريخ الأدبي ، وإنما قرأته بعقلي وقلبي ومشعوري وبهذه العواطف الكثيرة المختلفة التي تنور في نفس الشيوخ حين يستحضرون أطرافاً من حياتهم في عصر من عصور شبابهم الأول . عواطف هذا الحنين إلى شيء لا سبيل إليه أو إلى أشياء لا سبيل إليها . وعواطف هذا الحب لما لا سبيل إلى بلوغه ولا مطمع في تحقيقه . وعواطف هذا الحزن على هذا الحرمان الذي لا سبيل إلى استدراكه ولا إلى اتقاء ما يثيره في النفس من المفضض واللوعة والأسى .

ثم عواطف الأُنس بتلك الآمال العذاب التي طالما تعلقت بها النفس واثقة مطمئنة ، والتي صدقت ولم تكذب وتحققت ولم تخب ، فلأت القلب غبطة وبهجة وسروراً ، وأعانت على العمل والجد والكد والنشاط ، وأتاحت لكثير من المنى أن تتحقق ثم انقضت وانقضت أيامها ، فأصبحت وكأنها حلم رائع رائق مضى مع تلك الليلة الجميلة التي أثارته وأثارت الرضى به ، ثم مضت إلى غير رجعة ومضى معها حلمها ذلك السعيد .

نعم هذا كتاب يتجه إلى العقل لأنه يؤرخ عصراً من عصور الشعر العربي القديم . ولكنه بالقياس إلى وإلى نفر من رفاقي في ذلك الجيل الذي مضى ، يتجه إلى القلب أيضاً لأنه قطعة من شبابنا ، ولأنه يصور لنا لوناً من ألوان تلك الحياة التي كنا نحياها في أول هذا القرن ، والتي لا يحياها الشباب الآن بعد أن تغيرت الحياة المصرية وذهبت معالم تلك الحياة القريبة البعيدة ، وأصبحنا لا نستطيع أن نستحضرها إلا بالذكرى حينما تتيح لنا الحياة الحاضرة وأعمالها وأثقالها أن نخلو

إلى نفوسنا ونفرغ الذكرياتنا . وما أقل ما تتاح لنا الخلوقة إلى النفوس وما أندر ما يتاح لنا هذا الفراغ إلى الذكريات .

نعم ! وهذا الكتاب لا يتجه إلى هذه الناحية وحدها من نواحي قلوبنا وحياتنا في أول الشباب ، وإنما يتجه إلى ناحية أخرى هي ناحية الحب الرفيع النقي الكريم الذى لا تشوبه نقيصة ولا تتعلق به آفة من هذه الآفات التى تتعاقب بحسب الإنسان للإنسان ، فتفسده أو تشيع فيه ما يحزن ويسوء . ذلك هو حب الشباب الطامع الطامع المتطلع للأستاذ الذى يرضى الطاموح والطامع والتطلع ، ويخرج النفوس عن أطوارها ويرفعها إلى حيث تستطيع نفوس الشباب أن ترتقى إليه من منازل الإكبار والإعجاب والثقة والاتصال بالمثل العليا ، لا يصددها عن ذلك صداد ، ولا يرددها عنه راد ، ولا يحول بينها وبينه حائل من تلك المعوقات التى تملأ حياة الشباب على اختلافها وتباين أشكالها وألوانها .

هذا كتاب فى تاريخ الأدب العربى سمعناه فى أول شبابنا فى تلك الجامعة المصرية القديمة من أستاذنا الإيطالى العظيم « كارلو نالينو » منذ أربعة وأربعين عاماً .

فى ذلك الوقت كنت طالباً فى الأزهر أقيم فى ذلك الحى الذى وصفته فى كتاب الأيام ، والذى زرتة منذ حين لأحدث به عهداً ، ولأظهر عليه صديقاً لى من أساتذة « مدريد » ترجم كتاب الأيام وشاقه هذا الحى فأراد أن يراه . فلم نكد نلم به حين ارتفع الضحى من ذلك اليوم حتى رأيت هذين البيتين يترددان فى نفسى :

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلاً لا أسائلها أعيت جواباً وما بالربع من أحد

نعم ! أشهد لقد أقوت ولقد طال عليها سالف الأمد ، ولقد سألتها فلم تجب ولم أجد فيها أحداً يستطيع أن يجيب . وما أذهب فى هذا مذهب الحجاز وإنما هو مذهب الحق الذى يستطيع الناس جميعاً أن يروه إذا ذهبوا إلى هذا الحى ورأوا فيه تلك الأطلال التى عبث بها الزمان ، وأهملها الإنسان ونحلى بينها وبين البلى والحراب .

كنت أعيش في ذلك الحى أخرج منه مصباحاً إلى الأزهر فأسمع فيه دروس الأدب من الأستاذ العظيم السيد على المرصني ، وأخرج منه مع المساء إلى الجامعة المصرية فأسمع فيها دروس الأدب من الأستاذ العظيم « كارلو نالينو » . وكانت دروس الأدب تلك التي كنت أسمعها في الأزهر حين يرتفع الضحى تردني إلى حياة الطلاب القدماء الذين كانوا يختلفون إلى العلماء في مساجد البصرة والكوفة وبغداد . وكانت دروس الأدب التي كنت أسمعها في الجامعة حين يقبل المساء تدفعني إلى حياة الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات في روما وباريس وغيرهما من المدن الجامعية الأوروبية الكبرى . فكنت أعيش مع الماضي البعيد وجه النهار ، وأعيش مع الحاضر الأوربي الحديث آخر النهار ، وتشغلي خطوب الحياة المصرية الراكدة الممضبة بين ذينك الوقتين . وكان الرفاق يجدون من هذه الحياة مثل ما كنت أجد ، يسعدون حين يعودون إلى الماضي ، ويسعدون حين يدفعون إلى الحياة الغربية التي كانوا يتطلعون إليها ، ويشقون بين ذلك بالركود والجمود .

ويجب أن يتصور القراء من الشباب المعاصرين حياة أولئك الشيوخ الشباب من طلاب الأزهر في أول القرن ، حياتهم المادية وحياتهم العقلية أيضاً . وأن يقدرُوا ما كان يملأ قلوب بعضهم من الرضى والغبطة ، وهذا الغرور الحلو البريء الذي كان يمازج نفوسهم تلك الغضة المتواضعة حين كانوا يدفعون من حى الأزهر إلى حى قصر النيل ، وحين كانوا يتحلقون مصبحين حول أعمدة الأزهر متربعين على الحصر البالية ، ثم يجلسون إذا كان المساء إلى أساتذتهم في غرفات الجامعة لا يتربعون على الحصر وإنما يجلسون على الكراسي إلى تلك الموائد الصغار . وحين كانوا يسمعون من شيوخهم وجه النهار أحاديث الفقه والنحو كما كانت تلقى في تلك الأوقات ، وبأيديهم ملازمهم تلك العتيقة يتبعون فيها ما يقرأ الشيوخ عليهم من الكتب ويسمعون لما يلقي عليهم الشيوخ من التأويل والتعليل والتحليل ، فيفهمون قليلاً ويعجزون عن فهم كثير مما كانوا يسمعون . فإذا كان المساء جلسوا إلى أساتذتهم أولئك من الأوربيين فسمعوا منهم أحاديث لا عهد لهم بمثلها تلقى عليهم باللغة العربية الفصحى مع شيء من التواء الألسنة بهذه اللغة ، فتقع تلك الأحاديث من آذانهم موقع الغرابة ومن قلوبهم مواقع الماء من ذى الغلة الصادى ، فإذا خلوا إلى أنفسهم بعد ذلك وازنوا بين ما يسمعون وما يرون أول النهار ،

وما يسمعون وما يرون آخر النهار . فأثارت هذه الموازنة في نفوسهم عواطف وأهواء وميولا أقل ما توصف به أنها كانت تصور لهم هذه الآماد البعيدة إلى أقصى غايات البعد ، بين قديم سقيم شئوه وضاقوا به ، وبين جديد أحبوه وتهالكوا عليه .

ووازنوا كذلك بين شيونهم أولئك الذين كانوا لا يعربون إلا حين يقرءون في الكتب ، فإذا تكلموا غرقوا وأغرقوا طلابهم في اللغة العامية إلى أذقانهم أو إلى آذانهم ، وبين أساتذتهم أولئك الأوربيين الذين كانوا يعربون حين يقرءون وحين يفسرون وحين يخوضون معهم فيما شاء الله من ألوان الحديث . وكانوا يسألون أنفسهم كيف أتيج هؤلاء الأوربيين ما أتيج لهم من العلم بأسرار اللغة العربية ودقائق آدابها ، وكيف لم يتبح هذا النوع من العلم لشيونهم أولئك الأجلاء .

وكانت هذه الموازنات تثير في قلوبهم فنونا من التمرد وتدفع نفوسهم إلى ضروب من الثورة والحموح . وكان هذا كله يعرضهم لكثير من الشر . وحسبك أنهم كانوا مقسمين بين الأزهر القديم والجامعة الجديدة .

وكان هذا يجعل حياتهم قلقاً كلها . وأى شيء أجدى على النفوس الشابة من هذا القلق الخصب الذي هو الأساس المتين لكل تطور منتج في الحياة العقلية والمادية جميعاً . وما أظن حياة الشباب « المطربشين » الذين كانوا يختلفون إلى الجامعة إلا مشبهة من كثير من الوجوه لحياة زملائهم المعممين .

من أجل هذا كله يستطيع القارئ المعاصر أن يقدر ما كان للجامعة المصرية القديمة من أثر بعيد فيما طرأ من تغير خصب على حياة ذلك الجيل من أجيال الشباب .

أما إذا فقد سجلات غير مرة وأسجل الآن أنى مدين بحياتي العقلية كلها لمدين الأستاذين العظيمين : سيد على المرصني ، الذي كنت أسمع دروسه وجه النهار ، و « كارلو نالينو » الذي كنت أسمع دروسه آخر النهار . أحدهما علمنى كيف أقرأ النص العربى القديم وكيف أفهمه وكيف أتمثله فى نفسى وكيف أحاول محاكاته : وعلمنى الآخر كيف أستنبط الحقائق من ذلك النص ، وكيف ألاثم بينها ،

وكيف أصوغها آخر الأمر علماً يقرؤه الناس فيفهمونه ويجادون فيه شيئاً ذا بال .
وكل ما أتيج لي بعد هذين الأستاذين العظيمين من الدرس والتحصيل في مصر
وفي خارج مصر فهو قد أقيم على هذا الأساس الذي تلقيته منهما في ذلك الطور
الأول من أطوار الشباب . بفضلهما لم أحس الغربة حين أمعنت في قراءة كتب
الأدب القديم ، وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوربيين في جامعة باريس ، وحين
أمعنت في قراءة كتب الأدب الحديث .

فلا غرابة إذاً في أن تكون حياتي كلها برّاً بهذين الأستاذين وإكباراً لهما
واعترافاً بفضلهما وشكراً لما أهديا إلى من معروف وما أسديا إلى من جميل . وشهد
الله ما قرأت في كتاب قديم ولا حديث ولا حاولت كتابة في الأدب إلا ذكرت
أحدهما أو كليهما وأرسلت إليهما من أعماق نفسي تحية الحب والإعجاب والشكر
والوفاء .

والذين يقرءون هذا الكتاب الذي أقدمه اليوم إلى القراء المتأدين يحسن بهم
أن يقرءوا ما كان يدرس لشبابنا في ذلك الوقت من أدب في معاهدنا ومدارسنا على
اختلافها ، ليقدروا الفرق الهائل بين ما كان الأستاذ « نالينو » يلقي علينا في الجامعة ،
وبين ما كان يلقي علينا في المعاهد والمدارس ، وأثر هذا الفرق في تطور حياتنا العقلية
وفي تطور تصورنا للأدب العربي قراءة وفهماً وإنتاجاً .

فلأول مرة درس لنا الأدب العربي القديم درساً منظماً ، وألقى في روعنا أن
الشعر العربي لا يختلف باختلاف فنونه التقليدية مدحاً ورثاء ووصفاً وهجاءً ونسيباً
وتشبيهاً فحسب ، وإنما يختلف باختلاف موضوعاته التي قيل فيها وظروفه التي
أحاطت به حين قيل ، والمؤثرات المختلفة التي أثرت في قائله وفي سامعيه أيضاً .
ولأول مرة ألقى في روعنا ما كان للسياسة من آثار دقيقة عميقة في نشأة فنون مختلفة من
الشعر العربي في العصر الإسلامي أيام الخلفاء الراشدين وأيام بني أمية .

ولأول مرة ألقى في روعنا الفرق بين الشعر التقليدي وبين الشعر الذي استحدثته
السياسة الإسلامية في العراق ، وبين النسيب التقليدي القديم والغزل
الذي استحدثته النظام الاجتماعي الإسلامي في الحجاز ، وبين الغزل المحقق الذي

نشأ في حواضر الحجاز والغزل العذرى النقى الذى نشأ في البادية العربية في الحجاز ونجد والعراق .

ولأول مرة عرفنا أن من الممكن أن ندرس الأدب العربى على أساس من الموازنة بينه وبين الآداب القديمة الكبرى ، وأن الحياة الإنسانية تتشابه وتتقارب مهما تختلف ظروفها ومهما يتنوع ما يختلف عليها من الخطوب .

ولأول مرة تعلمنا كيف نحقق هذه الموازنة بين أدبنا القديم والآداب القديمة الأخرى ، ملائمين بين ما ينبغى أن نلائم بينه ومخالفين بين ما ينبغى أن نمخالف بينه من الظواهر المتباينة التى يذخر بها التاريخ والتى تؤثر في حياة الناس .

ثم لأول مرة تعلمنا أن الأدب مرآة لحياة العصر الذى ينتج فيه ؛ لأنه إما أن يكون صدى من أصداؤها ، وإما أن يكون دافعاً من دوافعها ، فهو متصل بها على كل حال وهو مصور لها على كل حال ، ولا سبيل إلى درسه وفقهه إلا إذا درست الحياة التى سبقت فأنثرت فى إنشائه ، والتى عاصرته فتأثرت به وأثرت فيه ، والتى جاءت فى إثر عصره فتلقت نتائجه وتأثرت بها . فللأدب مظهران إذاً ، مظهره الفردى لأنه لا يستطيع أن يبرأ من الصلة بينه وبين الأديب الذى أنتجه ، ومظهره الاجتماعى لأن هذا الأديب نفسه ليس إلا فرداً من جماعة فحياته لا تتصور ولا تفهم ولا تحقق إلا على أنه متأثر بالجماعة التى يعيش فيها . هو فى نفسه ظاهرة اجتماعية فلا يمكن أن يكون أدبه إلا ظاهرة اجتماعية .

كل هذا سمعناه وفهمناه فى تلك الدروس التى كان الأستاذ «نالىنو» يلقيها علينا ، حين كان هذا القرن فى العاشرة من عمره . وكل هذا كان جديداً بالقياس إلينا فى تلك الأيام وبالقياس إلى الأزهرين منا بنوع خاص . فن الطبيعى أن يحدث فى نفوسنا أعمق الآثار وأبعدها مدى ، وأن يطبع حياتنا العقلية بطابع النقد الحديث . وليس من شك فى أن حقائق التاريخ الأدبى العربى قد تغيرت منذ ذلك الوقت فى كثير من أنحائها وفى كثير من تفصيلاتها كذلك .

وليس من شك أيضاً فى أن العلماء المصريين كان لهم أعظم الأثر فيما حدث من هذا التغير ، فهم تعمقوا دراسة الأدب أثناء هذه الأربعين سنة الأخيرة ، فاستكشفوا أشياء لم تكن معروفة فى حياة الأدب العربى أثناء القرون الأولى

للهجرة ، وهم قد نشروا آثاراً قديمة لم تكن قد خضعت لبحث العلماء ، فيسروا للباحثين درسها وفقهها واستكشاف ما كانت تخفى من الحقائق : وهم بعد ذلك قد كسبوا بالدراسات الأدبية المصرية منزلة لها قيمتها الخطيرة في الدراسات العالمية لأدبنا العربي القديم .

كل هذا شيء ليس فيه شك ودلائله تلمس بالأيدى في هذه الكتب القديمة التي نشرت ، وفي هذه الكتب الجديدة التي ألقت ، وفي الدروس الأدبية التي تلقى في جامعاتنا ومعاهدنا المختلفة ، وفي إنتاجنا الأدبي الخالص الذي شغلت بدرسه وعنيت بفقهه ونقله إلى اللغات المختلفة البيئات العلمية في غرب أوروبا وشرقها وفي شمال أمريكا وجنوبها . ولكن هناك شيئاً ليس أقل من هذا ثبوتاً واستقراراً ووضوحاً ، وهو أن دروس الأستاذ « نالينو » في الجامعة المصرية القديمة كانت هي الموجة الأولى لنهضتنا العلمية في دراسة الأدب مباشرة أو بالواسطة ، وجهت تلاميذ الأستاذ الذين سمعوا منه فبحثوا وتعمقوا وأحسنوا الفقه ، ثم وجهت أجيالاً من الشباب سمعوا على هؤلاء الطلاب حين أصبحوا أساتذة وقرءوا لهم حين أصبحوا مؤلفين »

وكذلك مضى المذهب الحديث في تاريخ الأدب بين الأجيال المتعاقبة من الدارسين والباحثين . وما أعرف للأستاذ « نالينو » نظيراً في التوجيه العميق للنهضة المصرية إلا زميله الأستاذ « سنلانا » الذي أحدث في مصر نهضة خطيرة في دراسة الفلسفة الإسلامية ، وفي الصلة بين هذه الفلسفة وبين الفلسفة اليونانية القديمة .

وقد أتيج للأستاذ « نالينو » من البرّ به بعد وفاته ما أرجو أن يتاح لزميله . والفضل في نشر هذا الكتاب يرجع قبل كل شيء وقبل كل إنسان إلى ابنته الكريمة الآنسة « ماريا نالينو » . فهي التي حفظت آثار والدها العظيم وجدت في إعدادها للنشر ، وظفرت بالمعونة على نشر هذه الآثار في إيطاليا ، فأهدت للعلم والعلماء كنوزاً لا سبيل إلى تقويمها ولا إلى استقصاء آثارها الخطيرة ، فيما أنتج الباحثون من الشرقيين والغربيين وما سينتجون من الدراسات الأدبية العربية على اختلاف موضوعاتها .

وأعدت هذه الدروس للنشر كما تركها الأستاذ لم تغير فيها شيئاً وإنما وفت لأبيها أصدق الوفاء وأجدره بالإكبار والإجلال . ووجدت من دار المعارف للطبع والنشر معونة صادقة على إذاعة هذا الكتاب . فكان للدار وللأستاذة « ماري نالينو » فضل أى فضل ، لأنهما بنشر هذا الكتاب قد برّتا بأستاذ جدير بالبر ، وهياتا لشباب المصريين والشرقيين أن يعرفوا أصول نهضتنا الأدبية المعاصرة .
فلهما على جهدهما الخالص لخدمة العلم ، الشكر أجمل ما يكون الشكر ،
والثناء أصدق ما يكون الثناء .

أما أنا فلم أمل هذه الصفحات إلا لأسجل برّى بأستاذى العظيم ، وشكرى لابنته الكريمة ولدار المعارف على ما أتاحت لى من أن أرى لوناً من ألوان حياتى فى طور من أطوار الشباب .

طه حسين

تنبيه

لا يكون هذا الكتاب إلا نص الدروس التي ألقاها المرحوم الأستاذ كرلو نالينو (المتوفى سنة ١٩٣٨) في الجامعة المصرية سنة ١٩١٠ - ١٩١١ دراسية، فقد كان المرحوم ألف نص الدروس باللغة العربية ولكنه كتب الحواشي بالإيطالية بشديد الإيجاز والاختصار، فاعتنيتُ بنقل الحواشي إلى اللغة العربية وأضفتُ إليها ما عثرت عليه من الأخبار المفيدة الموجودة في بعض الكتب التي طُبعت بعد إلقاء هذه الدروس وإنما وضعتُ هذه الإضافات بين نصي مستطيل [] .

ومن الواجبات على أن أشكر الدكتور طه حسين شكراً جزيلاً لإرادته أن يؤسس ذكرى للمحبة الخالصة بينه وبين المرحوم بنشر هذا النص غير المطبوع إلى الآن .

مریم نالینو

مُتَلِمَة

لَمَّا افْتَتَحْتُ دُرُوسِي فِي السَّنَةِ الْفَائِتَةِ كَانَ أَوَّلُ كَلَامِي لِابْتِدَاءِ شُكْرِ خَالِصِ حَمِيمٍ صَادِرٍ عَنْ خَفَايَا قَلْبِي لِلْقَائِمِينَ بِالْجَامِعَةِ الْمَصْرِیَّةِ عَلَى مَا شَرَّفُونِي بِهِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى إِلْقَاءِ مُحَاضَرَاتٍ فِي هَذَا الْمَعْهَدِ الْعَامِيِّ الَّذِي عَلَى حَدَاثَةِ عَهْدِهِ أَضْحَى قَبِيلَةَ آمَالِ الْمُجْدِّينَ فِي تَرْقِيَةِ هَذِهِ الدِّيَارِ الشَّرِيفَةِ وَمَرْكَزاً تَحُومُ حَوْلَهُ قُلُوبُ الْآخِذِينَ بِأَيْدِي الْأُمَّةِ الْمَصْرِیَّةِ فِي سَبِيلِ الْفُوزِ وَالتَّقَدُّمِ . وَكَذَلِكَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ لَيْسَ لِتَدْرِيسِي افْتِتَاحٌ أَوَّلِي وَلَا ابْتِدَاءٌ أُخَرِي مِنْ إِعَادَةِ جَزِيلِ الشُّكْرِ عَلَى مَا أَظْهَرَهُ لِي دَوْلَةُ الْأَمِيرِ أَحْمَدَ بَاشَا فُؤَادٍ وَمَجْلِسُ إِدَارَةِ الْجَامِعَةِ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِي وَاسْتِحْسَانِ عَمَلِي السَّابِقِ حَيْثُ تَكَرَّرَ مَا عَلَى بَتَكَرَّارِ الدَّعْوَةِ فِي هَذَا الْعَامِ وَإِنْ عَجَزَ لِسَانِي عَنْ تَوْفِيَةِ مَا يَقْتَضِيهِ مِثْلُ هَذَا الشُّرْفِ مِنْ عِبَارَاتِ الشُّكْرِ وَالْعُرْفَانِ :

وَالَّذِي حَمَلَنِي عَلَى تَلْبِيَةِ الدَّعْوَةِ مَعَ مَعْرِفَةِ قَلَّةِ عِلْمِي وَضَعْفِ قُوَّايِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى خَطَرِ الْمَوْضُوعِ وَجَلَالَتِهِ وَغَلَبِ فِي نَفْسِي عَلَى الْخَافَةِ مِنَ النِّقْصَانِ عَنْ نَهْضِضِ أَعْبَاءِ هَذَا الْمَنْصَبِ وَالتَّقْصِيرِ عَنْ إِحْسَانِ الْقِيَامِ بِمِثْلِ هَذَا التَّدْرِيسِ الصَّعْبِ الْوَعِرِ أَنَّ الْجَامِعَةَ الْمَصْرِیَّةَ تَدْخُلُ هَذِهِ السَّنَةَ فِي دَوْرٍ جَدِيدٍ وَطُورٍ مَجِيدٍ يُرْجَى مِنْهُ فَضْلاً عَنْ تَرْقِيَةِ الْعِلْمِ إِصْلَاحُ أَحْوَالِ التَّعْلِيمِ بِالْقَطْرِ الْمَصْرِیِّ فِي الْمُسْتَقْبَلِ غَيْرِ الْبَعِيدِ وَتَجْهِيزُ الْمُعَلِّمِينَ الْأَكْفِيَاءِ لِتَحْسِينِ جَمِيعِ الْمَدَارِسِ الْوِطْنِيَّةِ وَجَعْلِهَا أَهْلاً لِنِهَايَتِهَا تِلْكَ الْعُلْيَا الَّتِي هِيَ مَرَامُ أَوَّلَى الْأَفْكَارِ السَّامِيَةِ وَالْأُمِّيَالِ الْعَالِيَةِ أَعْنَى تَكْوِينِ الْقَرَائِحِ وَتَثْقِيفِ الْعُقُولِ وَتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ وَبَثِّ رُوحِ الْجِدِّ وَالْعَمَلِ وَإِيجَادِ الرِّجَالِ الْخَادِمِينَ لَوْطَنِهِمْ بِهِمَّةٍ وَصِدْقٍ وَاسْتِقْلَالٍ . وَإِنَّ الْأَفْضَلَ الْكَرَامَ الْمُعْتَنِينَ بِأُمُورِ الْجَامِعَةِ هُمْ كِفْلَاءُ النِّجَاحِ وَزَعْمَاءُ الْفَلَاحِ .

فَلِذَلِكَ سُرِّرْتُ أَيْ سُرُورٍ وَحَسِبْتُ أَنِّي قَدْ نَأَتْ أَسْمَى الْمَنَى بِوَقُوفِي الْيَوْمَ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ مُشْتَرِكاً وَإِنْ لَمْ أَكُنْ كَفْتِشاً فِي هَذَا الْأَمْرِ الْجَلِيلِ وَالْعَمَلِ الْخَطِيرِ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ مَا يَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْنَاقُ الْهَمِّ وَأَعْظَمُ مَا يَتَنَافَسُ فِيهِ نِبَالُ الْأُمَمِ .

قد سبقت أمّتي الإيطالية أيّ سبق جميع الأمم الإفرنجية الأخرى إلى عقد
العهود وتثبيت روابط المحبة والوثام بينها وبين الديار المصرية فكان في القرون الوسطى
تجار البندقية وجنوة وغيرهما من المدن الإيطالية قاصدين مصر أفواجاً مقتحمين
لحج البحر مغرّغين الجهد في توسيع نطاق التجارة فأصبحوا في أثناء أمد مديد
بل أجيال متوالية متفرّدين بالاتجار في الشرق مستبدّين بعلاقات الودّ والسلام
بهذه الأراضي الشريفة . وربّما لم يقتصروا على مقايضة البضائع : ذهبوا بقصص
وحكايات سمعوها من القصّاصين المصريين وأشاعوها في الأنحاء الإيطالية حتى
اشتهرت فيها فألبسها أدباء أمّتي ثوباً قشيباً في مؤلّفاتهم المنظومة
والمنثورة . وكذلك بعض المصوّرين المشهورين من بني جلدتي في القرن الخامس
والسادس عشر ربّما في تصاويرهم المحفوظة الآن في المتاحف رسموا أشعة الأمراء
والسلاطين من دولة المماليك أو صوّروا رجالاً عليهم الحالُ المحلاةُ بكتابات
عربية منقولة ممّا رأوه منقوشاً في الصواني والقناديل وما أشبهها من المصنوعات
المصرية . وإن تصفّحتم الكتب العربية في صناعة إنشاء الدواوين (مثل كتاب
تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف للشيخ تقي الدين عبد الرحمن من علماء
القرن الثامن للهجرة أو كتاب صبح الأعشى للعلّامة شندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ -
١٤١٨ م) وجدتم فيها قوانين رسم مكاتب سلاطين دولة المماليك لأرباب الولايات
أى الحكومات الإيطالية . وعلى تهادى الزمن لم تزل هذه العلائق بين وطنكم ووطني
موقوفة على محض المحبة والمسالمة فلا كدّرتها أبداً شرّ العداوة أو سوء الطمع
والغضب ولم يصل أبداً مركبٌ إيطالىّ إلى مرافئ القطر المصرى إلاّ بصفة
صديق يزور الصديق . فأحسبُ من أحسن التفاؤل لتوثيق علائق الارتباط بين
الأمّتين إن بعضنا الإيطاليين دُعينا إلى الاشتراك في هذه النهضة العلمية الجديدة
التي تعود على بلادكم بالزائدة العظمى وتكون سبباً في زيادة رفعة القطر وعزة
الشعب . فأتمنى كلّ التمنى ازدياد المؤلفة والاتفاق وتبادل المحبة والصداقة
على الدوام .

إنّ الموادّ التي ستدور دروسى عليها هذه السنة ليست في كتاب واحد موضحة
أو في كتب قليلة مدوّنة بل هي في جملة وافرة من المصنّفات الكبيرة والصغيرة في

لغات شتى شرقية وغربية متفرقة فضلاً عما يكون من مبتكرات أفكارى .
فلذلك أرى من المناسب أن أكرّر نصيحة قد نصحتها للطلبة عند ابتداء
السنة الدراسية السابقة أعنى أن أحثكم كل الحث على أخذ مذكرات فى أثناء
الدرس ثم على تقييدها وترتيبها فى منازلكم ببذل الجهد وإنعام النظر فيما قيّدتم لئلا
تنسوا ما سمعتم ولا تحفظوا شيئاً من المسموع إلا فهمتم معناه واستقصيتم فحواه .
وأنتم تعلمون أن التعلم بشيئين : حسن الحفظ وإدمان الفكر فى المحفوظ فإن قل
أحدهما قل ونقص المتعلم . وذلك خصوصاً فى المدارس الجامعات التى منتهى
ما يُرجى منها ليس كما فى المدارس الثانوية محض إفادة الطلبة ما سينفعهم فى
الحياة العادية من المعارف بل هو هداية الطلاب فى طريق النبوغ فى الفنون
وتمرينهم على آداب البحث العلمى باستقلال الفكر ودقة الانتقاد السالم . فمشكل
المدرّس بالجامعات كمشكل دليل رافق السائحين مدّة ما فاماً رآهم قادرين على
تذليل عقبات الطريق عارفين بما يجب عليهم من التجهّز لباقي السفر والتحرّز من
أخطار السّيّر ودعهم وتركهم لوحدهم داعياً لهم بالطائر الميمون ونيل المرام متمنياً
أن يسعّهم اكتشاف طرق جديدة وسلوك مسالك لم يدخلوها أحد قبلهم وقطع
بقاع لم يسبق إليها غيرهم . كذلك الأستاذ بجامعة يختار كل سنة قطعة صغيرة من
فنه ويتبحر فيها أثناء دروسه ليعرف الطلبة أساليب البحث الدقيق والفحص
العميق التى لا سبيل دونها إلى ترقية العلم وتوسيع حلبة المعارف . فقصارى القول
أن غاية الجامعات ليست فقط أن يصبح الطالب واعياً لما تلقاه عن أستاذه من
الفوائد والأخبار بل هى خاصة تدريب ذهن الطالب بإجراء الاعتبار والانتقاد فيما
وعاه ليُضحى بعد ذلك التدريب أهلاً للتدرّج فى مراقب الارتقاء العلمى باستقلال
الفكر قادراً على سدّ الخلل الذى ربّما وقع فيه السلف جديراً بالإيجاد فيما اختص به
من العلوم يجوز لطالب المدارس الثانوية الاقتناع بما دونه وبيئته المدرّس أو
بمضمون الكتب القليلة الابتدائية المقررة لتلك المدارس ليكون مقصد التعليم الثانوى
أن يقتبس الشاب قدراً معيناً من المعارف بفنون مخصوصة مناسبة للمقتضى القيام
بأمر الحياة العادية العملية . ولكن لا يجوز ذلك لمن طلب العلم بالجامعات التى
غايتهما القصوى إنّما هو تأهيل أخيار الشبان للتوصل إلى أعلى درجة من المهارة

بالبحث العلمي المبدع ولإتقان الوسائل والأسباب المبنى عليها سَيْرُ الوطن والعلم والاجتماع الإنساني في سبيل الرقي الدائم والتمدُّن الزائد . إنَّ عمل الأستاذ بالجامعات كعمل الزراع في حقولهم لأنَّ دروسنا ليست إلاَّ بذرٍ بزرٍ صغير في عقول المستمعين فلا يذُرُّ ذلك البزر ولا ينبت ولا يُسمي شجرة وارقة مُثمرة إن لم يلقَّحه المتعلِّم بقوة الحافظة ورياض العقل وإمعان النظر وسعة مطالعة جسم من مصنفات أشهر العلماء على ما دون ذلك من النَّصب والجهد والعناء والجهد لأنَّه كما قيل :

بقدر الكد تُكتسب المعالي فن طلب العلل سهر الليالي

وحيث إنَّ حفظ جميع ما سُمع مرَّة واحدة لَشَيْءٌ "مستحيل" (ولا يخفى على أحد صحَّةُ المثل السائر أن كلَّ علم ليس في القُرطاس ضاع) . كيف لكم بإعمال الفكر فيما استمعتُموه بالجامعة والاستفادة منه بعد ما رجعتُم إلى منازلكم إن لم تكن لكم كراريسٌ قيِّدتم فيها خلاصة الدرس ؟ ثم كيف لكم بالتجهُّز لتأدية الامتحان في آخر السنة إذا كان ما دُرِّس بالجامعة أكثر المادة التي ستُمتَحَنون فيها ؟ لا بدَّ لكم من احتذاء مثال زملائكم بالجامعات الأوربائية في تقييد مذكِّرات بسرعة أثناء درس الأستاذ ثم في تكميلها واستخراج نخبها وترتيبها مستعينين بمراجعة ما يتيسَّر لكم من الكتب المشار إليها في الدرس .

ثمَّ أحرَّضكم كلَّ التحريض على الاتِّساع في المطالعة فإنَّه ممَّا لا غِنَى عنه لمن يريد التَّرقى الرَّحْبَ في أيِّ علم . وهو أيضًا من أعظم الواجبات عليكم خصوصًا في هذا الفن الذي أتشرف بتدريسه هذه السنة لأنَّ شدة الاعتناء بآداب لغتكم الشريفة وتاريخها ليست فقط مسألة علمية بل خدمة جليلة لوطنكم يحقُّ عليكم القيامُ بها . إنَّ الذي يعيَّن ويصون وحدة أُمَّة هو بالأخصَّ وحدة اللغة والآداب والأخلاق والأميال والأفكار المتوارثة منذ الزمان القديم دون انقطاع وانفصال فإنَّ أغفلت صيانتُها انحدرت الأُمَّة إلى ورطة انحطاطها بل إبطال وحدتها . وإن راجعتم كتب تواريخ الغرب أَلْفَيْتُمْ أنَّ بعض الأمم الإفريقية قد تراكت عليها الفتن والحروب والبلايا والفساد وقهرها العدو وجعلها في حال شرِّ العبودية سلَّمت من الفناء التام لِمَسَّكها بحفظ آداب لغتها والعناية بتخليد ذكر ما ثر قدامها العلمية

والأدبيّة. ورُبَّ أمةٍ قد ألقاها تقلّبات الأمور وصروف الدهور في غاية الانحطاط السياسيّ أخذت تُصلح شأنها الدليل وتعود إلى ما كانت أولاً عليه من العمارة والصلاح السياسيّ والاستقلال لمّا صارت علماؤها مُفْرِغِينَ كَنَانَهُمْ في البحث العميق عن تاريخها وأحوالها السالفة وفي إحياء آداب لغتها وآثارها ومفاخرها كأنهم بعملهم هذا قد ألقوا روح الحياة في جسم الأمة المنهوك القريب من الموت - فويل لكل أمة غلب فيها الفتور عن صون كنوزها الأدبيّة وإبقاء ذكر مآثرها .

ستسمعونني يا سادةُ أسرُدُ في أثناء دروسى عدداً غير قليل من أسماء علماء معتبرين قدماء كانوا أم معاصرين شرقيين أم غربيين فانتقيد أقوالهم وأبندى فكرى فيها بالحرية التامة مستحسناً تارة؛ لآرائهم وراداً تارة عليها بعد تقديم الاستنادات والدلائل والحجج . وليس غرضى من ذلك الخط من شأن أولئك العلماء الأفاضل والحكماء الأماجد الذين سبقوني في هذه الأبحاث الخطيرة ومهدوا السبيل لمن جاء إثرهم وحدا حدوهم . كلا . وإنّما غرضى الانتفاع بأعمالهم العلميّة المهمّة وتقدير فضائلها حقّ القدر واقتداءً بمثالهم في المسعى إلى الفحص عن حقائق الأمور قدر ما استطعت ، لأنّه بسبب قلّة الطبيعة البشريّة بالنسبة إلى جلاله أسرار الكائنات وعظم المخلوقات ربّما يعرض للباحث القليل الشأن أن تمكّنه إضافة شيء ولو يسيراً إلى ما اكتشفه واخترعه السابقون له من الراسخين في العلم . إنّ مشكل العلم الذى لا نهاية لسعته كمشكل جبل شامخ ذى وعور هائلة وصخور مُرعبة راسٍ في وسط بقاع كادت تكون ممتنعة لا تُقطّع لِمَسّاً فيها من الخشونة والصلابة فيرتفع ذلك الجبل بخراشيمه إلى فضاء الجو ارتفاعاً لا يُحدّد مقداره حتى لا يمكن أحداً أن يرى قمّته . وفي قديم الزمان تجاهد أجراً الناس وأقوامهم في التقرب من سفح الجبل ونجحوا بعد مقاساة متاعب لا تُحصى ثمّ جاء ناسٌ آخر جسورون مثلهم أولو حزم وعزم وأخذوا في السعى إلى صعود الجبل وتوطئة طريق تسلّك في الأحجار والصخور فبعد المشاقّ المهيّدة والزلاّت العديدة تمكّنوا من إنفاذ جزء صغير من المشروع . فتبعهم أجيالٌ آخر وانتفعوا بعمل سلفهم وأصلحوه أحياناً وواصلوا فيه وربّما لم يتقدّموا إلا بعد ترك المسالك المأخوذة المألوفة والرجوع

إلى ما أسفل منها لإيجاد طرق غيرها تكون أهلاً لمشروعهم فترقوا شيئاً يسيراً بعد كثرة الشغل والضلال واليأس وقللوا مسافة ما بينهم وبين القمة المرغوب فيها - هذا مشكلٌ مسعنا إلى الحصول على الحقائق العلمية الغامضة فإن الحقيقة التامة المطلقة هي القمة المقصودة غير المدركة على تزايد تقربنا منها ، والأقدمون يفيدون المتأخرين علماً ويمكنونهم من التوصل إلى ما هو أعلى من منزلتهم ، وكذلك من المرتقين في مرقاة العلم ممن يعتبر ويشرح من مبحث وجهاً وممن يلاحظ ويبين منه وجهاً آخر فنقتبس من بنات أفكارهما نوراً على نور .

ومن ذلك يتضح جلياً أن تقدم العلوم النظرية العقلية مرتبط بل متعلق بامتحان آراء السلف واختبار جميع ما يسعنا من تجاربهم ومعارفهم بدقة التحصيل والنظر فيجب علينا أن ننتقد أقوال السابقين لنا انتقاداً صحيحاً سالماً خالياً عن كل غرض دني وميل شخصي . إن ذلك الانتقاد المقرون بالاجتهاد يفيدنا علماً ويساعدنا على تحسين العمل وهو الذي يسوقنا إلى المقصود سياقة موثوقة بها . راجعوا يا سادة تواريخ الأمم الشرقية وتأملوا فيها حق التأمل تجدوا أن انحطاط علومهم وسياستهم إنما ابتدأ لما انصرف حكماؤهم عن سبيل الاجتهاد المستقل في العلوم واقتنعوا في المباحث النظرية بالتقليد الذي كما لا يخفى عليكم هو قبول قول الغير دون مطالبته بحجة فعدلوا عن تأليف الكتب المبهمة المطولة ملنجهين إلى الاختصار والتلخيص وتصنيف الحواشي اللاغية على المتون والشروح أو التقايد والتقارير الباطلة على ذات الحواشي . ليس لأمة تمدن صحيح ولا تقدم إذا لم يكن فيها رجال مستقلون بالعلوم النظرية مترقون عن رتبة تقليد من سبقهم . فلذلك لا تقتصروا أيها الطلبة على جمع أقوال أساتذتكم وتكريرها بل سرحوا فيها أنظاركم وأعملوا فيها قوة فطنتكم فإن سمعتم ما لا يقنعكم دلياً وبرهاناً فعليكم أن تسألوا أستاذكم وتطلبوا منه شرحاً أوسع وأوفى . وحيث إن العصمة لله وحده فلا يسلم إنسان من الخطأ تماماً على جليل قدره وعلو منزلته ووفر علمه وعقله ، ليس من المستحيل أن يزل الأستاذ أحياناً في كلامه أو لا يدرك غاية الوضوح في بيانه فتقودنا إذ ذاك المباحثة إلى كشف القيناع عن الغوامض ورفع الحجاب عن كل مبهمة مرتاب فيه .

الباب الأول

١ - لفظ الأدب : بحث عن معناه الأصل وما تفرع منه من المعاني
المتعددة المختلفة . ٢ - تعريف تاريخ الكتاب . ٣ - كيف ينقسم
تاريخ الآداب العربية .

وهذا أو أن الخوض فيما ستدور دروسى عليه :

١ - يجب على من يأخذ فى بيان علم أن يقدم تعريف ذلك العلم وتعيين
موضوعه فأبتدى أنا أيضاً بشرح اسم الفن الذى أختص بتدريسه هذه السنة
وهو تاريخ الآداب العربية .

إن اللغة لكائنٌ حتى فعلى مثل كلِّ حتى تقبل النمو والتجدد والفساد .
وكذلك الألفاظ المفردة فكثيراً ما يطرأ عليها من التغير والانتقال من معنى
إلى آخر حسبما يقتضيه تغير أحوال الأمة الاجتماعية والسياسية والتقدم أو
التقهقر فى الصنائع والعلوم . ومن الألفاظ العربية التى كثر فيها تغير المعنى
الأصلى على تهادى الزمان وتقلبات العوائد والأفكار والأميال هو لفظ الأدب
حتى إن أحداً من عرب الجاهلية أو القرن الأول من الإسلام لو أخبى الآن
وسمع اسم الفن المعين لى تدريسهُ لما فهم من حقيقة موضوعه شيئاً . فلنفحص
عن معنى لفظ الأدب الأصلى ثم عما عرض له من الانحراف عن أصله
والإطلاق والحصر مدة الأجيال التالية لظهور الإسلام إلى عصرنا هذا .

إذا راجعتم القواميس المطولة ما وجدتم فيها لهذا اللفظ تعريفاً كافياً
ولا شرحاً وافياً فلا عجب فى ذلك لأن لغوى العرب عند شغفهم وعنايتهم
المحمودة بلم غريب الألفاظ كثيراً ما أغفلوا إتقان تعريف المفردات

المألوفة كأنها غير^١ حرية بالذكر . فتجدون مثلاً أن ابن منظور الإفريقي المتوفى بمصر سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م لم يقيّد في قاموسه العظيم الجسيم المترجم بكتاب لسان العرب لفظ « الحَرْف » بمعنى الكلمة مع أنه قديم متداول ، ولا أحد من علماء اللغة سجّل في كتبه ذلك اللفظ . بمعنى الشيء اليسير والقطعة الصغيرة على كثرة استعماله عند أظرف الكتاب منذ القرن الأوّل للهجرة النبوية^(١) . أمّا لفظ « الأدب » فأكثر اللغويين اقتصروا على تعريفه هكذا : « الأدبُ الظرفُ وحُسنُ التناول » . وفي المصباح المنير^(٢) لأحمد ابن محمد المقرئ الفيومي المتوفى سنة نيّف وسبعين وسبعمائة ما نصّه : « أدبته أدباً من باب ضَرَبَ علّمته رياضة النفس ومحاسن الأخلاق . قال أبو زيد الأنصاري^(٣) : الأدب يقع على كلّ رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل . وقال الأزهري^(٤) نحوه » . وقال السيد الشريف عليّ بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م في كتاب التعريفات^(٥) : « الأدب عبارة عن معرفة ما يُحتَرَز به عن جميع أنواع الخطأ - آداب البحث صناعة نظريّة يستفيد منها الإنسان كيفية المناظرة وشرائطها صيانة له عن الخبط . في البحث وإلزاماً للخصم وإفحامه . كذا في قطب الكيلاني^(٦) . آداب القاضي وهو التزامه لما ندب إليه الشرع من بسط .

(١) راجع J. WEISS, *Die arabischen Nationalgrammatiker und die Lateiner* في المجلة الألمانية (Z. D. M. G.) Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft 64, 1910, p. 368-374.

(٢) المصباح المنير ج ١ ص ٦ من طبعة بولاق ١٣١٦ .

(٣) توفي أبو زيد الأنصاري سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ هـ .

(٤) أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري المولود سنة ٢٨٢ والمتوفى في ربيع الثاني ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ألف كتاب تهذيب اللغة .

(٥) كتاب التعريفات ص ١٤ من طبعة ليبسك سنة ١٨٤٥ .

(٦) عاش قطب الدين الكيلاني هذا في النصف الثاني من القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) وله شرح على رسالة في آداب البحث لشمس الدين محمد السمرقندي .

العدل ورفع الظلم وترك الميل « - والذي توسّع في بيان معنى الأدب من أهل اللغة هو السيّد المرتضى الحسينيّ الزبيديّ المتوفى بمصر سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩١ م قال في كتاب تاج العروس^(١) الذي هو أوسع كتب اللغة العربية ألفه بصفة شرح على القاموس للفيروزابادي^(٢) : « (الأدب محرّكة) ^(٣) الذي يتأدّب به الأديب من الناس سُمّي به لأنّه يؤدّب الناس إلى المحامد وينهاكم عن المقابح وأصل الأدب الدعاء . وقال شيخنا^(٤) ناقلاً عن تقارير شيخه الأدب ملكة تعصم من قامت به عمّا يشينه . وفي المصباح^(٥) هو تعلّم رياضة النفس ومحاسن الأخلاق . وقال أبو زيد الأنصاري^(٦) الأدب يقع على كل رياضة محمودة يتخرّج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل . ومثله في التهذيب^(٧) . وفي التبشيع هو استعمال ما يُحمد قولاً وفعلًا أو الأخذ أو الوقوف مع المستحسنات أو تعظيم من فوقك والرفق بمن دونك . ونقل الخفاجي^(٨) في العناية عن الجواليقي^(٩) في شرح أدب الكاتب الأدب في اللغة حُسن الأخلاق وفعل المكارم وإطلاقة على العلوم العربيّة مولّد حدث في الإسلام . وقال ابن السيّد البطليّوسي^(١٠) الأدب أدب

(١) ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) محمد بن يعقوب الفيروزابادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ / ١٤١٤ م .

(٣) ما بين القوسين هو من القاموس .

(٤) و « شيخنا » يعنى أبا عبد الله محمد بن الطيب الفاسي المولود سنة ١١١٠ هـ بفاس والمتوفى سنة ١١٧٠ هـ بالمدينة .

(٥) يعنى المصباح المنير لأحمد بن محمد المقرئ القيوي الذي تقدّم ذكره .

(٦) أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري المتوفى سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ .

(٧) يعنى كتاب تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري الذي تقدّم ذكره .

(٨) أحمد بن محمد الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ . فانظر كتابه « شفاء الغليل فيما في كلام

العرب من الدخيل » ص ٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٩) توفي أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي سنة ٥٣٩ هـ - [وراجع شرحه على أدب

الكاتب لابن قتيبة ص ١٣ من طبعة مصر ١٣٥٠] .

(١٠) ولد ابن السيّد البطليّوسي سنة ٤٤٤ هـ ومات سنة ٥٢١ هـ أما اسمه ابن السيّد فهو بكسر

السين المهملة وياء ساكنة فراجع كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ترجمة عدد ٣٥٤ من طبعة غوننجن أو عدد ٣٢٠ من الطبقات المصرية .

النفس والدرس . والأدب (الظرف) بالفتح (وحسن التناول) وهذا القول شامل لغالب الأقوال المذكورة ولذا اقتصر عليه المصنف « اهـ » .

إنَّ هذا النصَّ على طوله ليس غاية الوضوح ولا يفيدنا ما كان معنى الأدب أصلاً وكيف تفرَّعت منه المعاني المتعددة المشهورة التي ربما لا تُرى بينها علاقةٌ باديةٌ نظروذلك فضلاً عما في شرح المؤلف من الخلل والنقصان فعلياً أن نستخرج من تأليفات العرب النظمية والنثرية شواهداً ونصوصاً نافعة لتوضيح معنى ذلك اللفظ. أصلاً وفرعاً ونوردها مرتبةً ترتيباً تاريخياً دون خلط. القديم بالحديث لتجلو لنا حقيقة الأمر .

لا شك في أنَّ الأدب عند قدماء العرب إنما كان السُّنَّة (١) أي طريقة العمل والتصرف التي سنَّها (أي سار فيها) الأوائل فصارت مسلكاً لمن بعدهم أعني جملة العوائد القديمة الواجب على الإنسان سبورها على رأى عرب الجاهلية . وأنتم تدرون أن علم الأخلاق عندهم إنما كان مراعاة سيرة أسلافهم فيها كانوا يفتخرون كما قال لبيد في معلقته (٢) : (من بحر الكامل)

إنَّا إذا التقتِ المجامعُ لم يَزَلْ منَّا ليزازُ عظيمةٌ جشامُها
ومُقَسِّمٌ يُعْطَى العشيرةَ حقَّها ومُعْذِمٌ لِحَقُوقِها هَضَامُها
من مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمُ آبَاؤُهُمْ ولكلِّ قومٍ سُنَّةٌ وإمامُها

(١) في السُّنَّة انظر : DE LANDBERG, *Etudes sur les dialectes de L'Arabie méridionale*

Leiden 1901, II, P. 891-893; NOELDEKE, *Fünf mo' allaqât*, II, Wien 1900, P. 91-92 ;

I. GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, Halle 1888-1890, I p. 41; II p. 13.

(٢) ليزاز الخشبة التي يشد بها الباب ولزاز عظيمة لازم لها موكل بها والجشام المتكلف للأمر القائم بها . مُعْذِمٌ ؟ قال الأصمعي : المُعْذِمُ الذي يضرب بعض حقوق الناس ببعض فيأخذ من هذا ويعطى هذا . وقال أبو عبيدة هو الذي يُعْصَى ولا يُرد . هَضَامُ الهضام الذي ينقص قوماً ويعطى قوماً بتدبير وقد وثق به في ذلك .

أو كما جاء في شعر المتلمس^(١) : (من بحر الطويل)
 وقد كنت ترجو أن أكون لعقبكم زنيماً فما أجرت أن أتكلماً
 لأورث بعدى سنة يقتدى بها وأجلدو عن ذى شبهة إن توهماً

فعلى معنى السنة والسيرة ورد لفظ الأدب في قصيدة لسهم بن حنظلة
 الغنوي^(٢) من الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام : (من
 بحر البسيط).

قد يعلم الناس أنى من خيارهم في الدين ديناً وفي أحسابهم حسباً
 لا يمنع الناس منى ما أردت ولا أعطيهم ما أرادوا حسن ذأ أدباً
 فظاهر أن الأدب هنا هو السيرة والطريقة .

وحيث أن ركن التربية وتشقيف العقول كان عندهم تعليم سنة الأوائل
 أطلقوا الأدب والتأديب على حسن الشيم وتهذيب الأخلاق . ومن هذا الباب
 قول بعض الفزاريين رواه أبو تمام الطائي في حماسته^(٣) : (من بحر البسيط)

(١) ديوان المتلمس المطبوع بليبسك سنة ١٩٠٣ م عدد ١ بيت ١٥ - ١٦ وزيم المعلق
 في القوم ليس منهم . أجر شق طرف لسان الفصيل أو الجدى لنلا يرتفع .

(٢) خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ج ٤ ص ١٢٤ من طبعة بولاق ١٢٩٩ والبيت الثاني
 موجود أيضاً في لسان العرب ج ١٦ ص ٢٦٩ .

(شرح البيتين) الدين السيرة . والحسب ما للإنسان من الشرف والمجد بسبب كثرة آبائه المجيدين
 وبفاخرهم . وحسن من أفعال الملاح أو الدم مثل حب وبعد وسرع ونعم وبش ، واختلف اللغويون
 في معنى البيت الأخير فهاكم ما جاء في شرحه في كتاب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر
 ابن عمر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م بمصر (ج ١ ص ١٢٥) « قال التبريزي في شرح
 إصلاح المنطق لابن السكيت يريد أنه يقهر الناس فيمنعهم ما يريدون منه ولا يمنونه ما يريد منهم
 لعزته وجعله أدباً حسناً . هذا تفسير أبي محمد . وقال أبو العلاء في معنى هذا البيت كأنه ينكر على نفسه
 أن يعطيه الناس ولا يعطيهم ويمنعهم . وهو الصواب لأن ما قبله يدل عليه . وإذا فاعل حسن وأدباً
 تمييز وأراد حسن لخفف ولقل لأن هذا مذهب التعجب . وقال الصوار إن الشاعر أنكر على نفسه بأن
 الناس يعطونه ويمنعهم ثم قال حسن ذأ أدباً أى ما أحسن هذا الأدب على سبيل الإنكار والتهكم . انتهى » .

(٣) الحامسة ص ٥١٠ - ٥١١ من طبعة بَن ١٨٢٨ - ١٨٥١ أوج ٣ ص ٨٧ من طبعة
 بولاق ١٢٩٦ .

أَكْنِيهِ حِينَ أَنْادِيهِ لِأَكْرَمِهِ وَلَا أَلْقِيَهُ وَالسَّوَاءَ اللَّقَبَا
كَذَلِكَ أَذْبْتُ حَتَّى صَارَ مِنْ خُلُقِي إِنِّي وَجَدْتُ مِلَاكَ الشُّيْمَةِ الْأَدْبَا
ومنه أيضاً قول امرأة من بنى هِزَانَ سُمِّيت بِأَمِّ الثَّوَابِ فِي ابْنِ لَهَا عَقَّهَا^(١) :
(من بحر البسيط.)

أَنْشَا يُمَزِّقُ أَثْوَابِي يُودِّبُنِي أَبْعَدَ شَيْئِي عِنْدِي يَبْتَغِي الْأَدْبَا
ومنه أيضاً قول عبد الله بن المخارق الشهير بـنابغة بنى شَيْبَانَ^(٢) من شعراء
عصر الأمويين :

إِنَّ الْغَلَامَ مُطِيعٌ مِنْ يُودِّبُهُ وَلَا يُطِيعُكَ أَذْوَسِنْ لِتَأْدِيبِ
ثُمَّ لَضِيقِ الْمَعَارِفِ عِنْدَ الْعَرَبِ الْقَدَمَاءِ (وتعلمون أَنَّ أَغْلِبَهُ الْعِلْمُ بِسُنَّةِ
آبَائِهِمْ وَمَكَارِمِهِمْ وَمَفَاخِرِهِمْ) صَارَتْ كَلِمَةُ الْأَدَبِ عِبَارَةً أَيْضاً عَنِ الْمَعْرِفَةِ
بَشْيءٍ ، وَالتَّأْدِيبُ عِبَارَةً عَنِ الْإِنْخِبَارِ بِشْيءٍ ، وَالتَّعْلِيمِ ، وَالْأَدِيبُ عِبَارَةً عَنِ
الْمُخْبِرِ بِأَمْرٍ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ^(٣) مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ

= (شرح البيهقي) الألقاب أعلام تشمر بمدح شخص أو ذمه باعتبار معناها الأصل ف جاء في القرآن
الشريف في سورة الحجرات : « وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ » . وفي شعر حريث بن عتاب النهدي من
معاصري الخلفاء الراشدين : (من بحر البسيط) .

لَا يَرْتَجَى الْجَارُ خَيْراً فِي بَيْتِهِمْ وَلَا مُحَالَةً مِنْ شَمِّ وَالْقَابِ
واختلفوا في شرح « وَالسَّوَاءَ » ومنهم من قال إنه مفعول مع اللقبا أى لَا أَلْقِيَهُ اللَّقَبُ مَعَ السَّوَاءِ
ومنهم من قال إنه مفعول به كما يقال مَا زِلْتُ وَزَيْداً حَتَّى فَعَلَ كَذَا أَيْ مَا زِلْتُ بِزَيْدٍ حَتَّى فَعَلَ كَذَا
ومنهم من قال بالتقديم والتأخير كأن المراد وَلَا أَلْقِيَهُ اللَّقَبُ وَالسَّوَاءَ . وَمِلَاكَ الْأَمْرِ قَوَامُهُ الَّذِي يَقُومُ بِهِ أَيْ
نِظَامُهُ وَعِمَادُهُ .

(١) كذا في كتاب الحماسة لأبي تمام ص ٣٥٦ من طبعة بَنَّا أوج ٢ ص ١٣٤ من طبعة بولاق .
وفي الكامل للمبرد ص ١٣٦ من طبعة ليبسك أوج ١ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤
أَنْشَا يَخْرُقُ أَثْوَابِي وَيَضْرِبُنِي أَبْعَدَ سَتِينَ عَنِّي تَبْتَغِي الْأَدْبَا
(٢) كتاب الحماسة للبحرئى ص ٣٤٠ من طبعة ليدن وديوان نابغة بنى شيبان ص ٧٥ من
طبعة مصر ١٣٥١ .

(٣) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج ١ ص ٣ من طبعة مصر ١٣١١ . وقال
السيوطي في كتابه الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (ص ١٣ - ١٤ من طبعة مصر ١٣٠٧ =

ابن أبي طالب حين سمع النبي يعاظم وقد بنى نهْد : « يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تُكَلِّمُ وفود العرب بما لا نفهم أكثره . فقال أدبني ربِّي فأحسن تأديبي وربيت في بني سَعْدِ » .

ومنه أيضاً بيت لمقاتل بن مسعود العبدي رواه البُحْثَرِيُّ في حماسته (١) :
(من بحر الطويل)

عَرَفْتُ اللَّيَالِي بُؤْسَهَا وَنَعِيمَهَا وَحَنَكَنِي صَرْفُ الزَّمَانِ وَأَدَبًا
أَي جَعَلَنِي ذَا خِبْرَةٍ بِالْأُمُورِ . - ومنه قول أبي عطاء أفلح بن يسار السندي (٢)
من شعراء أواخر الدولة الأموية : (من بحر الوافر)
إِذَا أَرْسَلْتَ فِي أَمْرٍ رَسُولًا فَأَفْهِمَهُ وَأَرْسَلَهُ أَدِيبًا
وَإِنْ ضَيَّعْتَ ذَاكَ فَلَا تَلْمُهُ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ عَلِيمَ الْغُيُوبَا
فَجَلَى أَنْ الْمَرَادَ بِالْأَدِيبِ الْمُخْبِرُ بِأَمْرِ مَخْصُوصٍ .

هذه كانت معاني لفظ الأدب في زمان الجاهلية والقرن الأول للهجرة لا غير - فلسائل أن يسأل : ما لكل هذه الألفاظ والمعاني من العلاقة بسائر المفردات المشتقة أيضاً من حروف أدب مثل الأذَّب وهو العَجَب والأُدْبَةُ والمَأْدُبَةُ والمَأْدُبَةُ التي هي طعام صُنِعَ لدعوة أو عِرْس ومثل أَدْبَ يَأْدُبُ أَدْبًا معناه عَمِلَ مَأْدُبَةً أو دعا فلاناً إلى الطعام ؟ إن علماء اللغة من العرب اجتمعوا على جواب هذا السؤال بما تقدّم ذكره في النص المنقول آنفاً

= بهامش الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي) مانعه : « (حديث) أدبني ربِّي فأحسن تأديبي أبو سعيد ابن السمعاني في أدب الإملاء من حديث ابن مسعود والمسكوي في الأمثال وابن الجوزي في الأحاديث الواهية من حديث علي وقال لا يصح ومصححه أبو الفضل بن ناصر قلت وأخرج ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الرحمن الزهري عن أبيه عن جده أن أبا بكر قال يا رسول الله لقد طفت في العرب وسمعت فصحاها فما سمعت أحصح منك فمن أدبك ؟ قال أدبني ربِّي ونشأت في بني سعد . انتهى » .

(١) الحماسة للبُحْثَرِيُّ ص ١٥٤ من طبعة ليدن - حنكته هذبه .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٨٦ من طبعة بولاق .

من كتاب تاج العروس . فيوافقه مثلاً قول أبي زكرياء يحيى التبريزي في شرحه على كتاب الحماسة لأبي تمام ^(١) : «والأدب اسم لما يفعله الإنسان فيتزین به في الناس . وأصله من الدعاء والأدب يدعو إلى نفسه بحُسْنِه .» وقال عبد القادر البغدادي في كتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ١٢٤ من طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ : «واشتقاقه من شيئين يجوز أن يكون من الأدب وهو العجب ومن الأدب مصدر قولك أدب فلان القوم يأدبهم إذا دعاهم قال طرفة ^(٢) :

(من بحر الرمل)

نحن في المَشْتَاة ندعو الجفلى لا ترى الأدبَ فينا يَنْتَقِرُ
فإذا كان من الأدب الذى هو العجب فكأنه الشيء الذى يُعْجَبُ منه
لحُسْنِه لأنَّ صاحبه الرجل الذى يُعْجَبُ منه لفضله وإذا كان من الأدب
الذى هو الدعاء فكأنه الشيء الذى يدعو الناس إلى المحامد والفضل فينهلهم
عن المقابح والجهل .»

بيد أن هذا الاشتقاق ليس بعريٍّ من الشكِّ واللُّبس الشديد لما فيه من
التكلف البعيد عن مقتضى قوانين نمو اللغة الطبيعي وطريقة انتقال معاني
المفردات إلى غيرها . ولكن إذا طلب أحدكم منى إظهار رأيي في حقيقة
الامر أجبت أنى لا أستطيع إلا إبداء تخمين قد لمح إليه عرضاً في بعض
تصانيفه الأستاذ فُلْدُرس (Vollers) ^(٣) المرحوم ناظر دار الكتب الخديوية
سابقاً . لا يخفى عليكم كثرة ورود لفظ الأدب في أشعار الجاهلية وأن

(١) الحماسة ص ٥١١ من طبعة بَنّ أو ج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق .

(٢) البيت مروي في الديوان : قصيدة رقم ٥ بيت ٤٦ من طبعة لندن (The Divans of the six

ancient Arabic poets edited by Ahlwardt, p. 62.) الجفلى قال في المصباح هي أن تدعو الناس إلى طعماك دعوة عامة من غير اختصاص . التقر اختار .

(٣) انظر : VOLLERS, Katalog der islamischen. . . Handschriften der Universitäts Biblioth.,

Leipzig 1906, p. 180 n. 1.

معناه أى العادة والملازمة ليس بعيداً عن معنى السُّنة والأدب . ومع أن جمعة لا يُذكر في كتب اللغة ليس من المحال أن العرب قد جمعوه على آداب أعنى على وزن أعفال بتخفيف الهمزة ومدّ الألف الأولى كما يُجمع بشر على آبار وثأر على آثار ورأس على آراس ورأى على آراء . وحيث إنَّ حُسن السيرة والأدب إنَّما كان عند العرب بحفظ ما كانوا توارثوا عن أسلافهم من العوائد المسنَّحة لعلَّهم استعملوا لفظ الآداب عبارة عن تلك العوائد أى السُّنة المحمودة . ثمَّ على تِمادى الزمان اشتقوا من ذلك الجمع المتداول اصطلاحه صيغة جديدة لمفرده أعنى الأدب كما اشتقوا تقى والتقى والتقى من اتقى أو تخذ يتخذ تخذاً من اتخذ أو تله يتله تلهاً (أى حار وذهل) من اتله وهلمَّ جرّاً . فأصبح لفظاً الأدب والأدب (أى الدعاء إلى الطعام) كأنهما قرعان من أصل واحد على عدم علاقة حقيقية بينهما كما اتفق مثلاً للفظى الزور والزور فأولهما عربى محض معناه وسط، الصدر وقوة العزم والثانى فارسى الأصل معناه الكذب .

وإن التفتنا إلى ما سلّم من التلّف ووصل إلينا من مصنفات القرن الثانى للهجرة وجدنا أن المراد بالأدب لم يزل مقصوراً على طريقة التصرف ولاسيّما المحمودة وحُسن الأخلاق الناشئ عن حسن التربية والميل إلى المحامد ثمَّ على المعارف سوى ما يتعلّق بالدين والشريعة الذى قد اختصَّ به اسم العلم منذ أواسط القرن الأوّل . ومما يدلُّ على ذلك كُتَيْبٌ لعبد الله بن المقفع ناقل كتاب كيلة ودمنة المتوفى نحو سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م وهو كُتَيْبٌ فى الحِكَم والنصائح والأخلاق اسمه كتاب الأدب الصغير نشره حضرة الشيخ طاهر الجزائريّ فى مجلّة المقتبس سنة ١٣٢٦ هـ ثمَّ طبعه

مستقلاً في المجموعة المسماة برسائل البلغاء^(١). وقال حديثاً الأديب الأريب أحمد بك زكي^(٢) إنَّ عنوان ذلك الكتاب يجوز نقله إلى الفرنسية هكذا : *Le petit savoir faire* ولكني لا أرى تمام الموافقة بين العبارتين العربية والفرنسية وحدَّ ابن المقفَّع موضوع كتيبته هكذا^(٣) : « قد وضعتُ في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ. حروفاً فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصِقالها وتجلية أبصارها وإحياء للتفكير وإقامة للتدبير ودليلٌ على محامد الأمور ومكارم الأخلاق إن شاء الله ». فترون من هذا الكلام أنَّ مراد المؤلف جمعُ حِكَمٍ ونصائح وإنَّ الأدبَ عنده قسم من علم الأخلاق العمليّ. فجاء في ضِمْنِ كتابه الأدب والآداب بمعنى طريقة التصبُّف وخصوصاً الحسنة فقال مثلاً المؤلف ص ٤ : « وعلى العاقل أن يُخصِّيَ على نفسه مَساوِئَها في الدين وفي الرأى وفي الأخلاق وفي الآداب فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتاب » ، وقال ص ٧ : « قد يسعَى إلى أبواب السلطان أجناس من الناس كثيراً أمّا الصالح فمدعوٌ وأمّا الطالح فمقتحمٌ وأمّا ذو الأدب فطالب وأمّا من لا أدب له فمختلِسٌ » .

وفي ص ١٢ : « أمورٌ لا تصلح إلاَّ بقرائنها : لا ينفع العقل بغير ورع ولا الحفظ بغير عقل ولا شِدَّة البَطْش بغير شِدَّة القلب ولا الجمال بغير حلاوة ولا الحَسَب بغير أدب إلخ » .

وفي ص ١٥ : « لا يطمَعَنَّ ذو الكِبَر في حُسْن الثناء ولا العُخْبُ في كثرة

(١) رسائل البلغاء ص ١ - ١٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ . فطلبه أيضاً أحمد باشا زكي في سنة ١٣٢٩ هـ بالإسكندرية (ونقله الأستاذ Rescher إلى الألمانية سنة ١٩١٥) .

(٢) AHMED ZEKI BEY, *Mémoire sur les moyens propres à déterminer en Egypte une renaissance des lettres arabes*, Cairo 1910, P. 20.

(٣) رسائل البلغاء ص ٢ من الطبعة المذكورة .

الصديق ولا السيئ الأدب في الشرف ولا الشحيح في المَحْمَدة « وربما جاء الأدب بمعنى حُسن التربية وتعليم مكارم الأخلاق فقال ابن المقفع ص ٧ : « كلام اللبيب وإن كان نَزْرًا أدب عظيم » . وربما جاء أيضاً الأدب بمعنى المعارف الدنيوية فقال ص ١٣ : « مَنْ حَاوَلَ الْأُمُور احتاج فيها إلى ستِّ الرأى والتوفيق والفرصة والأعوان والأدب والاجتهاد . ومن أزواج فالرأى والأدب زوج لا يكمل الأدب إلا بالرأى ولا يكمل الرأى بغير الأدب . والأعوان والفرصة زوج إلخ » .

وفى ص ١٥ : « فضل العلم في غير الدين مهلكة وكثرة الأدب في غير رضوان الله ومنفعة الأخيار قاتل إلى النار » . وأختم إيراد النصوص المنقولة من كتاب ابن المقفع بما ورد في أول نفس الكتاب (ص ٢) : « فغاية الناس وحاجاتهم صلاح المعاش والمعاد . والسبيل إلى دركها العقل الصحيح . وأمانة صحة العقل اختيار الأمور بالبصر وتنفيذ البصر بالعزم . وللعقول سجيئات وغرائز بها تقبل الأدب وبالأدب تنمي العقول وتزكو . فكما أن الحبة المدفونة في الأرض لا تقدر على أن تخلق يابسها وتظهر قوتها وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها وريعها ونعائها إلا بمعونة الماء الذي يغور إليها في مستودعها فيذهب عنها أذى اليبس والموت ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة فكذلك سليقة^(١) العقل مكنونة في مغزها من القلب لا قوة لها ولا حياة بها ولا منفعة عندها حتى يعتملها الأدب الذي هو نماؤها وحياتها ولقاحها . وجل الأدب بالمنطق وكل المنطق بالتعلم ليس منه حرف من حروف معجمه ولا اسم من أنواع أسمائه إلا وهو مروي متعلم مأخوذ عن إمام سابق

(١) سليقة طبيعة .

من كلام أو كتاب . اه فيلوح أن المراد هنا بالأدب هي المعارف على الإطلاق .

وكذلك لا يخرج عن العرف اللغوي القديم استعمال لفظ الأدب في عنوان الباب الثالث من كتاب الحماسة^(١) لأبي تمام المتوفى سنة ٢٢٨ هـ على أصح الأقوال فإن ذلك الباب يتضمن الأشعار في الحكيم وفي الأخلاق المحمودة من حياء وعفة وإغضاء عن الفحشاء وحسن معاملة الناس ومسامحة الأئلاء وهلم جرا ليكون ذلك كله هداية للناس في سيرتهم . وأنتم تعلمون أن الإمام أبا عبد الله البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م أفرد كتاب الأدب من كتاب الجامع الصحيح^(٢) لعلم الأخلاق العملي وقوانين الأنس فإن مدار الأحاديث النبوية المجموعة في ذلك الكتاب إنما هو ما على الأولاد للوالدين والعناية بالأرامل واليتامى والفقراء ومراعاة حقوق الجيران وطيب الكلام والرفق في كل الأمور ورحمة الناس بالبهاائم وتعاون المؤمنين بعضهم بعضاً وحسن الخلق والسخاء وما يُكره من البخل وما يجوز من اغتياب أدل الفساد والريب وما يُكره من التمايح والنهي عن التحاسد والتدابير والصبر على الأذى والتبسم والضحك والإخاء والحلف والزيارة والحياء والحذر من الغضب والضيغ وما يُستحب من العطاس وما يُكره من التثاؤب وما يُشبه ذلك . وكذلك كتاب الأدب لأبن المعتز الشاعر الشهير المتوفى سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م لا يشتمل إلا على الحكيم في الأخلاق . ولكني لا أريد الإطناب في سرد النصوص والشواهد على ذلك لأن استعمال كلمة الأدب

(١) كتاب الحماسة ٤٩٨ - ٥٣٧ من طبعة بن أوج ٣ ص ٧٥ - ١١٢ من طبعة بولاق .

(٢) صحيح البخاري ٢ ص ٣٩ - ٧١ من طبعة بولاق ١٢٨٩ أوج ٣ ص ١٠٨ - ١٦٥ من

طبعة ليدن .

بمعنى مكارم الأخلاق وحسن الأنس والتصرف معروف لم يزل متداولاً إلى وقتنا هذا ، وهو المسمى عند بعض الكتّاب بأدب النفس .

وفي أواخر القرن الثاني وأوائل الثالث ابتدأت تتفرع من تلك المعاني الأصلية معانٍ جديدة على طريق الإطلاق والحضر مع بقاء القديمة في عُرْف الناس . وكان سبب ذلك فضلاً عن نمو اللغة الطبيعي ما حصل للعرب من الرقي في سبيل التمدن والتغير في حضارتهم والتجدد في أحوال حياتهم والتقلب في سياستهم منذ اتسعت مملكاتهم وامتد سلطانهم على أمم مختلفة الجنس واللغة والدين والعوائد والأميال الذين اختلطوا شيئاً فشيئاً بالمتغلبين عليهم وأثروا في عمرانهم وعلومهم ما لا يخفى على أحد من التأثير العظيم . ولا سيما بعد ما قويت شوكة بني العباس وانتقلت دار الخلافة من دمشق إلى بغداد سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م أعنى إلى المدينة الجديدة الواقعة في وسط تلك الأراضي العراقية التي قد أدرك فيها التمدن الفارسي الساساني أوج عزته ورونقه . فنالت أشرف العجم المراتب العليا عند الخلفاء العباسيين حتى كاد لا يُستوْزَر إلا أكابر أهل الفرس .

قد ذكرنا آنفاً أنَّ العرب أحياناً عبروا بلفظ الأدب عن جملة ما كان لهم من المعارف الدنيوية القليلة . وحُفظ هذا المعنى المطلق إلى ما يلي منتصف القرن الرابع حسبما يُستنتج من رسائل إخوان الصفاء . وفيها ما نصّه ^(١) : « واعلم يا أخى بأن العلوم التي يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس

(١) انظر الرسالة السابعة من القسم الثاني من رسائل إخوان الصفاء ج ١ ص ١٨ - ١٩ من طبعة بمبي سنة ١٣٠٥ - ١٣٠٦ . أما تسميتهم أنفسهم بإخوان الصفاء فأصلها عبارة توجد في أول باب الحماة المطبوعة من كتاب كليله ودمنة وذلك لظنهم أن تلك الحكاية مثل ضرب في احتياجنا إلى معاونة إخوان لنا نصحاء وأصدقاء لنا فضلاء متبصرين بأمر الدين علماء بحقائق طريق الأمور لتنجو من الورطة التي وقعنا فيها كلنا بجمالية أبينا آدم (اطلب الرسالة الثانية من القسم الأول من رسائلهم ج ١ ص ٥٣ من الطبعة المذكورة) . فثلوا أنفسهم بأولئك الإخوان النصحاء . أما رأيهم هذا في آدم فهو أقرب إلى اعتقادات النصاري منه إلى الدين الإسلامي .

فمنها الرياضية ومنها الشرعية الوضعية ومنها الفلسفية الحقيقية . فالرياضية هي علم الآداب التي وُضع أكثرها لطلب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا وهي تسعة أنواع أولها علم الكتابة والقراءة ومنها علم اللغة والنحو ومنها علم الحساب والمعاملات ومنها علم الشعر والعروض ومنها علم الزجر والفأل وما يشاكله ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما يشاكلها ومنها علم الحرف والصنائع ومنها علم البيع والشري والتجارات أو الحرث والنسل ومنها علم السير والأخبار . - فليس هذا بعيداً عن قول الوزير المشهور الحسن بن سهل المتوفى سنة ٢٣٦ هـ أو ٨٥٠ - ٨٥١ م . قال : الآداب عشرة فثلاثة شهرجانية وثلاثة أنوشروانية وثلاثة عربية وواحدة أُرِبتَ عليهن . فأما الشهرجانية ^(١) فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج . وأما الأنوشروانية ^(٢) فالطب والهندسة والفروسيّة . وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التي أُرِبتَ عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس ^(٣) . فظاهر أنه أراد

(١) الشهارجية أو الشهاريج هم من أشرف الفرس .

(٢) من كسرى أنوشروان الذي كان ملك الفرس من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٧٩ م .

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب للحضري ج ١ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ بهامش العقد الفريد لابن عبد ربه [أو ج ١ ص ١٤٠ من طبعة مصر ١٩٢٥] . فنسب جعفر بن محمد البيهقي العلوي (المتوفى سنة ١١٨٢ هـ) مثل هذا القول إلى ذي الرئاستين وهو أبو العباس الفضل بن سهل أخو الحسن بن سهل وتولى وزارة المأمون ومات سنة ٢٠٢ هـ . فهذا نص البيهقي في كتابه مواسم الأدب وأثار العجم والعرب ج ١ ص ٢ - ٣ من طبعة مصر ١٣٢٦ : « وفي سلاسل الذهب للعلامة أمين صفر الملقب قال العلامة جابر الله الزمخشري كان ذو الرئاستين يقول الأدب عشرة أجزاء ثلاثة أنوشروانية لعب الشطرنج والضرب بالعود والضرب بالصوالج (في الطبعة بالصوالج وهو تحريف) وثلاثة شهرجانية (في الطبعة شهرخانية وهو تحريف) الهندسة والطب والنجوم وثلاثة عربية النحو والشعر وأيام العرب وواحدة وهي السمر أراد المحاضرة . اهـ . فراجع أيضاً محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصفهاني (المتوفى سنة ٥٠٢ هـ) ج ١ ص ٧٢ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

فعني الأدب هذا (أعني جملة العلوم والفنون والصنائع والألعاب التي يتميز الإنسان بمعرفتها من سلفة الناس) فارسي تماماً ، فليراجع كتاب المعلمين للجاحظ في كتاب الفصول المختارة من كتب الجاحظ (بهامش الكامل للمبرد) ج ١ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ .

بالآداب جميع الفنون غير الدينية وكل ما كان يصلح على رأى الفرس للظريف الشريف الأصل من المهارة بأنواع الألعاب ورياضة الجسم .

وفى نفس ذلك القرن الثالث ربما حصروا الأدب (بمعنى المعارف والقوانين الضرورية مراعاتها) فى ما تجب معرفته على طبقة مخصوصة من الناس . فألف ابن قتيبة الدينورى اللغوى والمؤرخ والمتأدب الشهير المتوفى سنة ٢٧٦ (وقيل ٢٧٠ أو ٢٧١) كتاباً سماه أدب الكاتب أو أدب الكتاب جمع فيه ما لا غنى عنه لكل كاتب ماهر من العلوم اللغوية . وصنف أبو الفتح محمود بن الحسين المعروف بابن كشاجم المتوفى فى حدود سنة ٣٥٠ (وقيل ٣٦٠) كتاب أدب النديم وهو عبارة عن مجموعة نكت وأبيات ونوادر يليق حفظها وروايتها فى المنادمة ترويحاً للنفوس . ومن ألف كتباً فى أدب الوزراء دُون فيها النصائح المفيدة للوزير فى فروع الحكمة العملية والسياسية . ومن ألف التصانيف المترجمة بأدب القاضى شرح فيها قوانين القضاء الشرعى .

قد سبق أن الأدب والآداب أصلاً كانت السيرة أو السنة الحميدة . وفى أواخر القرن الثالث أطلق هذا المعنى على ما دون الأخلاق دلالة على المنهج الواجب سلوكه فى فن من الفنون والعلوم أو فى عمل من الأعمال . ففى كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م نجد مثلاً باباً فى آداب الحكماء والعلماء وأبواباً موسومة بالأدب فى الحديث والاستماع أو الأدب فى المجالسة أو الأدب فى الماشاة وهلم جراً . ودون الإمام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١م فى كتاب إحياء علوم الدين آداب الأكل وآداب النكاح وآداب الكسب وآداب الألفة والأخوة والصُحبة والمعاشرة وآداب السفر وآداب السماع والوجد وغير ذلك ممّا يطول نقله هنا . وألف محمد بن

عليّ بن طباطبّا المعروف بابن الطُّقْطَقِيّ كتاباً في التاريخ سمّاه كتاب الفخرى في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة^(١) وقال^(٢) إنّه «إنّما هو موضوعٌ للسياسات والآداب التي يُنتَفَعُ بها في الحوادث الواقعة والوقائع الحادثة وفي سياسة الرعيّة وتحصين المملكة وفي إصلاح الأخلاق والسيرة». وكثيراً ما صنّفوا مصنّفات في آداب الدرس أي في طريقة التعليم والتعلم. وكلّكم تدرّون أنّ آداب المريدين هي مناهج طالب الترقى في مدارج الطرق الصوفيّة وأنّ آداب البحث هي قوانين المناظرة يسوغ للمتناظرين مراعاتها في الردّ والقبول.

فلننتقل إلى بيان أصل سائر معاني الأدب. إنّ التّرف والرّفه والنعم واتّساع الأحوال قد بلغت غايتها في مدن العراق والجزيرة وخصوصاً ببغداد في أوائل القرن الثالث للهجرة فقد حصل هناك للعرب ما أجاد وصفه ابن خلدون حيث قال في مقدمته الشهيرة^(٣): «إنّ الأُمّة إذا تغلّبت وملكّت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياسُها ونعمتُها فتكثر عوائدُهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله وزيّنته ويذهبون إلى اتّباع مَنْ قبلهم في عوائدِهم وأحوالهم وتصير لتلك النواقل عوائدُ ضروريّة في تحصيلها وينزعون مع ذلك إلى رِقّة الأحوال في المطاعم والملابس والفُرُش والآنية ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيّب ولُبس الأنيق وركوب الفاره^(٤)... وعلى قدر مُلكهم يكون حظّهم من ذلك وتَرَفُّهم

(١) ألف ابن الطقّطي كتابه في سنة ٥٧٠١ / ١٣٠١ م لفخر الدين عيسى بن إبراهيم عامل الموصل.

(٢) الفصل الأول من الفخرى ص ١٩ من طبعة غريغزولد بألمانيا سنة ١٨٥٨.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٧ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أوج ١ ص ٣٤٢ من الترجمة الفرنسية لدى سِلان (De Slane).

(٤) الفاره الحصان الجارى المليح.

فيه إلى أن يبلغوا من ذلك الغاية . هـ . ا . هـ . ومن طالع كتاب الأغاني
 لأبي الفرج عليّ الإصصهاني المتوفى سنة ٨٣٥٦ / ٩٦٧ م وكتاب مروج الذهب
 للمسعودي المتوفى سنة ٨٣٤٥ / ٩٥٦ م وما يشاكلها من الكتب أو تصفح
 دواوين شعراء ذلك العصر عرّف إفراط شغف الناس بالمجالسة والمنادمة
 والمحادثة على الشراب في أيام هارون الرشيد والأمين والمأمون ومن تبعهم من
 الخلفاء وتلقن قدر ما بلغه حينئذ قصد الأناقة في كل شيء وفعل والتفنن
 في جميع المعارف المستظرفة حتى إن غاية التربية في بعض طبقات الناس
 إنما كان الظرف في اللبس والتصرف ورشاقة الكلام ورقّة المعاني وحسن
 الاستئناس . وإن أردتم الوقوف التام على كنه أولئك المتظرفين فراجعوا كتاب
 الموشى^(١) لأبي الطيب محمد بن إسحاق بن يحيى الأعرابي المعروف بالوشاء
 المتوفى سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٧ م توصف فيه سنن الظرف بتفصيل فتجدون فيه
 أبواباً في ذكر زى الظرفاء في اللباس المستحسن عند سرات الناس وفي
 زى الظرفاء في التكلّم والنعال والخفاف وفي زيتهم المخصوص في الخواتم
 والفضوص وفي زيتهم في التعطر والطيب الذي من خالفه كان غير مصيب
 وفي ذكر زى الظرفاء في الطعام الذي بانوا به من منزلة اللثام وفي ذكر زيتهم
 في الشراب الذي يتخير ذو الألباب وفي ذكر الأشياء التي ينطير الظرفاء
 من إهدائها ويرغبون عنها لشناعة أسمائها وفيما اختير من ألفاظ الأدباء في
 المكاتبات واستحسن من الظرفاء من ملبح المعاتبات وفيما ضمّنوه كتبهم من
 الأشعار وتكاتب به ذوو الظرف والخطار وفيما ضمّنوه كتبهم من السلام
 وجعلوه تلوا للشعر والنظام وهلمّ جرأ .

فلماذا لا غرو أن لفظ الأدب عندهم أخذ يعدل عن معنى محض الأخلاق

(١) طبع بليدن سنة ١٨٨٧ وبمصر سنة ١٣٢٤ بعنوان كتاب الظرف والظرفاء .

المحمودة الحاصلة من حسن تربية النفوس حتى صار عبارة عن كل ما وجب مراعاته ومعرفته والتحلي به على من أراد مجالسة اللطفاء والوجهاء وتعمد جميع أنواع التطرف في أعماله وأفكاره وحديثه ، فذلك لا فرق في كتاب الموشى المذكور بين الظريف والأديب . وخلاصة القول أن المراد بالأدب عند بعض طبقات الناس ببغداد منذ ابتداء القرن الثالث كان إظهار الأخلاق المرصية للجلساء والظرف والأتافة في اللباس والطعام والشراب وسائر أحوال الحياة والأنس والفصاحة وعدوبة الكلام ثم حفظ الأبيات والنكت مع أخذ شيء من كل علم لتوشية الحديث به . فهذا أعنى الأخلاق الحميدة والتطرف والمعارف المستطابة هو معنى الأدب مثلاً في كتاب العقد الفريد لأحمد بن عبد ربّه الأندلسي المتوفى سنة ٥٣٢٨ / ٩٤٠ م كما يلوح من جميع كتابه وخصوصاً من الباب في آداب الحكماء والعلماء ^(١) .

ومن هذا المعنى المجدث العام تفرّع معنيان خاصان مطابقة لاختصاص أميال بعض المتطرفين بنوع معين من الظرف . فإن الذين مالوا إلى ما يلد للعقول وفضلوه على غيره رأوا غاية الظرف في حضور المجالس والمقامات ورواية الأمثال والحكايات والتحدث بالملح والنوادر والأخبار وتذاكر القصص والأشعار على ما تجرّ المحادثة من شجون الكلام وذلك مع كراهة كل إطناب ممل . فإن الإسام كان عندهم من شرّ العيوب فكثيراً ما جاء التحذير منه في تأليفات القرن الثالث والرابع . وروى مثلاً عن الأشجع السلمي الشاعر في أيام هارون الرشيد أن أنس بن أبي شَيْخٍ النصيري صاحب الوزير جعفر بن يحيى لما عاشره أول مرة طلب منه إنشاد بعض شعره .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٩ من طبعة مصر ١٣٠٥ [وإن أردت المقابلة بصحائف الطبقات الأخرى فانظر : *to the Kitāb al-Ikd* : Mohammad Shafic, *Analytical Indices* [*al-farid*, Calcutta 1935] . - أما لفظ الأدب في « فصول في الأدب » (المقد ج ٢ ص ١٨٩-١٩١) وفي « فصول لمرو بن بحر الجاحظ في الأدب » (العقد ج ٢ ص ١٩١) فعناه الحكم .

« قال الأشجع فأنشدته فقال إنك لشاعرٌ فما يمنعك من جعفر بن يحيى فقلت ومن لي بجعفر بن يحيى فقال أنا فقلت أبياتاً ولا تُطِلْ فإنه يملُ الإطالة . فقلتُ لست بصاحب إطالة فقلت أبياتاً على نحو ما رسم لي ^(١) . وفي الباب السابع بعد المائة من كتاب مروج الذهب للمسعودي ^(٢) ما نصُّه : « وقد ذكر بعض المحدثين من أهل الأدب أن من الأدب عدم إطالة الحديث من النديم وأن أحلى لحديثه وأحسن لموقعه أن يجتنب منه الأحاديث الطوال ذات المعاني المغلَّلة ^(٣) والألفاظ الحشوية التي افتن باقتصاصها سمارُ المجلس وتعلَّق بها النفوس وتُحْتَسَى ^(٤) على أواخرها الكؤوس فإن ذلك بمجالس القصَّاص أشبه منه بمجالس الخواص . وقد ذكر هذا المعنى فأجاد فيه عبد الله ابن المعتز ووصف ذلك من أوصاف أصحاب الشراب على المعاقرة ^(٥) فقال ^(٦) : (من بحر الخفيف)

بين أقداحهم حديث قصير هو سخرٌ وما سواه كلامٌ
وكان السقا بين الندامى آفاتٌ على سطورٍ قيام

فلتفتنهم في المعارف المستظرفة المقرون بالخوف الشديد من الملل اشتهر في عرفهم أن علم الأدب عبارة عن الملح واللطائف والنكت والأمثال والنوادر والإبيات الرقيقة والتواريخ وذكر الشيء بالشيء بالاستطراد أو بالمناسبة مع

(١) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ٣٣ من طبعة بولاق سنة ١٢٨٥ وراجع A. MEZ, *Abulhasim*, Heidelberg 1902, P. VII-IX.

(٢) مروج الذهب للمسعودي في الباب السابع بعد المائة ج ٦ ص ١٣٢ - ١٣٣ من طبعة باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧ .

(٣) الرسالة المغلفة المحمولة من بلد إلى بلد .

(٤) أحسأ يحسو واحتس شربه شيئاً بعد شيء .

(٥) عافر الخمر آدم شربه .

(٦) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٦٣ (الباب الخامس في الشراب والخمریات) من طبعة مصر

سنة ١٨٩١ .

مراعاة مقتضى الحال . فقل إن « الفرق بين الأديب والعالم أن الأديب من يأخذ من كل شيء أحسنه فيألفه والعالم من يقصد لفن من العلم فيعلمه »^(١) . وقال شاعر^(٢) :

أرى العلم نوراً والتأديب حليةً فخذ منهما في رغبة بنصيب

وليس يتم العلم في الناس للفتى إذا لم يكن في علمه بأديب

ولا يخفى عليكم كم كتاب أُلّف في فنّ الأدب بهذا المعنى الخاص أعنى في جمع مقطّعات الأشعار وطُرف الأخبار وغرائب النوادر ترويحاً للنفوس وتفكيهاً للألباب . وأوّل من سلك هذا المنهج في التأليف وصار أنموذجاً في ذلك للمتأخرين هو أبو عثمان عمّرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م فإنه في مصنفاته النفيسة الشهيرة يهيم في كلّ واحد ويجمع بين المنظوم والمنثور والنوادر والفكاهات والأخبار من غير ترتيب واضح مخافة من ملل القارئ . ومن الغريب أن المسعودي^(٣) قال إنه نظم تصانيفه أحسن نظم . ومن أحسن بيان لمادّة التأليفات من ذلك الفن ما قال أبو إسحاق إبراهيم ابن عليّ الحُصَريّ القيرواني المتوفى سنة ٤١٣ وقيل ٤٥٣ في وصف موضوع كتابه المسمّى بزهر الآداب وثمر الألباب^(٤) : « هذا كتاب اخترت فيه قطعة كافية من البلاغات في الشعر والخبر والفصول والفقر ممّا حسن لفظه

(١) انظر إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت ج ١ ص ١٧ من طبعة لندن بعناية الأستاذ مرجليوث (Margoliouth) سنة ١٩٠٧ [إلى ١٩٣١] في النسخة الخطية : فيعلمه وهو غلط فأقرأه : فيعلمه فقرأ الأستاذ مرجليوث : فيتقنه .

(٢) إرشاد الإريب ج ١ ص ١٦ .

(٣) مروج الذهب في الباب الأحد والعشرين بعد المائة (ج ٨ ص ٣٤ من الطبعة البارسية المذكورة) .

(٤) زهر الآداب ج ١ ص ٢ - ٤ من الطبعة المصرية سنة ١٢٠٥ [أو ج ١ ص ١ - ٣ من طبعة سنة ١٩٢٥] .

ومعناه واستدلّ بفحواه عن مغزاه ولم يكن شاردًا حُوشيًا ولا ساقطًا سُوقيًا بل كان جميعُ ما فيه من ألفاظه ومعانيه كما قال البُحترى^(١) :

في نظام من البلاغة ما شـ لكُ امرؤ أنه نظامٌ فريدٌ
حُزنٌ مستعملُ الكلام اختيارًا وتَجَنَّبُ ظلمةَ التعقيدِ
ورَكِبَ اللفظَ القريبَ فأدركَ من به غاية المراد البعيد

ولم أذهب في هذا الاختيار إلى مطوّلات الأخبار . . وهو كتاب يتصرف الناظر فيه من نشره إلى شعره ومطبوعه إلى مصنوعه ومحاورته إلى مفاخرته ومناقشته إلى مساجلته^(٢) وخطابه المُبْهِت إلى جوابه المُسَكِّت وتشبيهاته المصيبة إلى اختراعاته الغريبة . . وكان السبب الذي دعاني إلى تأليفه وتديّني إلى تصنيفه ما رأيته من رغبة أبي الفضل العباس بن سليمان أطل الله مدته وأدام نعمته في الأدب وإنفاق عمره في الطلب وماليه في الكتب وأن اجتهاده في ذلك حمله على أن أرتحل إلى المشرق بسببها وأغمض في طلبها باذلاً في ذلك ماله مستعذباً فيه تعباً إلى أن أورد من كلام بلغاء عصره وفصحاء دهره طرائف طريفة وغرائب غريبة وسألني أن أجمع له من مختارها كتاباً يكتب به عن جملتها وأضيف إلى ذلك من كلام المتقدمين ما قاربه وقارنه وشابهه ومائله فسارعت إلى مراده وأعنته على اجتهاده وألّفت له هذا الكتاب ليستغنى به عن جميع كتب الآداب إذ كان موشحاً من بديع البديع^(٣) ولآلى

(١) انظر ديوان البُحترى ج ٣ ص ١٩٥ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ أو ج ١ ص ٢٠٦ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٩ هـ أو ص ٦٩٣ و ٦٩٤ من طبعة بيروت سنة ١٩١١ وبلدح البُحترى (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ) في هذا الشعر محمد بن عبد الملك بن الزيات . الأبيات مروية أيضاً في إعجاز القرآن للباقلاني ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣١٥ والبيتان الآخران مرويان في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٣٧٢ من طبعة مصر ١٣٢١ .

(٢) مساجلته : وساجله فاخره وعارضه .

(٣) يعني بديع الزمان أحمد بن الحسين الحمداني المولود سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٩ م والمتوفى سنة ٣٩٨ هـ ١٠٠٧ م [وفيه انظر النثر الفنى في القرن الرابع لزكى مبارك ج ٢ ص ٣٢٥ إلى ٣٥٦] .

الميكالي^(١) وشهبي الخوارزمي^(٢) وغرائب الصاحب^(٣) ونفيس قابوس^(٤) وشذور أبي منصور^(٥) . وهذا النوع من الأدب أي أخذ شيء مستظرف وطرائف وغرائب من كل فن ولا سيما من مقطعات الأشعار ولطائف الأخبار هو المقصود في أكثر ما جاء في مدح الأدب ومحاسنه وفضيلته في عدة تأليفات مشهورة مثل كتاب العقد الفريد السابق ذكره وكتاب المحاسن والمساوي لإبراهيم ابن محمد البيهقي^(٦) من علماء القرن الخامس وكتاب إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب^(٧) لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦/١٢٢٩ وشرح أبي العباس أحمد ابن عبد المؤمن الشريشي^(٨) - المتوفى سنة ٦١٩/١٢٢٢ على المقامات الحريرية وكتب أخرى يطول سرد أسماؤها .

أما المعنى الخاص الثاني الملمح إليه فيما تقدم فأصله عند قوم من الظرفاء فضلوا صناعة الشعر والإنشاء البليغ ودقائق اللغة على سائر أجناس الظرف فاصطلحوا بلفظ الأدب على جميع الفنون الكتابية المستظرفة لا على مجرد

-
- (١) وهو أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد الميكالي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ١٠٣٨ م . [راجع النثر الفني المذكر آنفاً ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٤] .
- (٢) المراد هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ولد سنة ٣٢٢ هـ ٩٣٥ م ومات سنة ٣٨٣ هـ ٩٩٣ م (وقيل ٣٩٣) [راجع النثر الفني المذكر سابقاً ج ٢ ص ٢٥٩ إلى ٢٧٦] .
- (٣) يعني الصاحب بن عباد ولد سنة ٣٢٤ هـ ٩٣٦ م (وقيل ٣٢٦) وتوفى سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٥ م [انظر النثر الفني ج ٢ ص ٢٤٣ - ٢٥] .
- (٤) وهو شمس المعالي قابوس وشمكير المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ١٠١٢ م [انظر النثر الفني ج ٢ ص ٢٧٧ - ٢٨٩] .
- (٥) وهو أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ولد سنة ٣٥٠ هـ ٩٦١ م ومات سنة ٤٢٩ هـ ١٠٣٨ م [انظر النثر الفني ج ٢ ص ١٧٩ - ١٩٠] .
- (٦) راجع كتاب الحسن ج ١ ص ٢٠١ وج ٢ ص ٧٤ - ٧٥ من طبع مصر سنة ١٣٢٥ هـ ١٩٠٦ م [وراجع أيضاً ج ٢ ص ٧٥ - ٩٢] .
- (٧) إرشاد الأريب ج ١ ص ١٣ - ٢٧ من الطبعة اليدنية .
- (٨) شرح المقامات الحريرية للشريشي في آخر المقامة الثامنة والثلاثين (ج ٢ ص ١٨٠ من طبعة مصر ١٣٠٦) .

المقطعات منها ولفظ. الأديب على من يُحسِن العربية ويتعاطى صناعتى النظم والنثر . وابتدأ استعمال كلمة الأدب هذا فى نفس النصف الأول من القرن الثالث حسبما يتضح من جملة من النصوص . منها قول الجاحظ. ^(١) المتوفى سنة ٢٥٥/٨٦٩ : « طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يُحسِن إلا غريبه فرجعت إلى الأنخس فوجدته لا يُتقِن إلا إعرابه فعطفت إلى أبى عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالآيām والأنساب فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات . فجلى أن الأدباء هنا هم الذين يُسمون بالفرنسية gens de lettres أو lettrés . وقال الجاحظ. ^(٢) أيضاً فى موضع آخر : « وأنشد رجل قوماً شعراً فاستغربه فقال والله ما هو بغريب ولكنكم فى الأدب غرباء » ، فظاهر أن الأدب هنا صناعتنا النظم والنثر البليغ . وهذا أيضاً المراد بالآداب فى قول المبرّد المتوفى سنة ٢٨٥ فى خطبة كتابه الموسوم بالكامل فى اللغة والأدب ج ١ ص ٢ من طبعة مصر سنة ١٣٢٣ إلى ١٣٢٤ : « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منشور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة » . وكتب الآداب هى جميع التصانيف المستظرفة نظماً ونثراً كما يلوح من ذكر كتب ذلك الفن فى إحدى رسائل أبى بكر الخوارزمى ^(٣) المتوفى سنة ٣٨٣ وقيل ٣٩٣ : « ذكر السيّد أنه كتب جواب كتابى من وقت الظهور إلى وقت العصر . ولقد استبطأته مع ما أعرفه من بُعد غوره وغزارة بحره . ولكننى أغلقت لهذا

(١) المروى فى العمدة لابن رشيّق ج ٢ ص ٨٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٥ .

(٢) وقول الجاحظ هذا مروى فى عمدة ابن رشيّق ج ١ ص ٨٦ من الطبع المذكور .

(٣) رسائل الخوارزمى ص ٢٢ من طبعة مصر سنة ١٣١٢ أو ص ٢٠ - ٣٦ من طبعة

قسطنطينية سنة ١٢٩٧ ولكن فى هذه الطبعة الأخيرة روايات غير صحيحة .

الجواب بابي وأرخيت له حجابي وضُمَّت إلى نشر كتب آدابی وجلست
من الدواوين بين آل الجراح^(١) وآل ثوابة^(٢) وبين بنى الخصيب وبنى مقلة^(٣)
ونشرت من المقابر آل يزداد وآل شدّاد^(٤) وحشرت من الآخرة ابن المقفّع
البصري^(٥) وسهل بن هارون الفارسي^(٦) وابن عبدان المصري والحسن بن وهب
الحارثي وأحمد بن يوسف المأموني^(٧) ووضععت عن يميني عهد أردشير بن بابكان
وعن يساري كتاب التبيين والبيان^(٨) وبين يديّ فصول بزرجمهر بن
البختكان^(٩) وقبل ذلك رسائل مولانا الصاحب^(١٠) عين الزمان وزين الشيب
والشُبَّان ، فما زلت أسرق من هذا كلمة وأطُرّ من ذاك فقرة وأستعير من هناك
نادرة وثيقة أغصِبُ الأحياء على بيانهم وأنبشُ الموتى من أكفانهم » - وعلى

-
- (١) يشير بآل الجراح إلى داود بن الجراح الذي عاش في أيام المستعين ٢٤٨ - ٢٥١ / ٨٦٦ - ٨٦٩ وابنه محمد وحفيده علي بن عيسى وابني حفيده عيسى بن علي وعبد الله بن علي فكلهم من الأدباء والمؤرخين فراجع فهرست ابن النديم ص ١٢٨ - ١٢٩ من طبع ليبسك سنة ١٨٧١ .
- (٢) أما آل ثوابة فهم أبو العباس أحمد بن محمد بن ثوابة بن يونس المتوفى سنة ٢٧٧ وابنه أبو عبد الله محمد وهما مؤلفا رسائل (انظر كتاب الفهرست ص ١٣٠) .
- (٣) ومن بنى مقلة الوزير الكاتب أبو علي محمد بن علي بن مقلة الذي ولد سنة ٢٧٢ ومات سنة ٣٢٨ (راجع ابن خلكان عدد ٧٠٨ من طبعة غوتنبج أو عدد ٦٦٩ من الطبقات المصرية) وأخوه أبو عبد الله القاسم الذي ولد سنة ٢٧٨ وتوفى سنة ٣٣٠ (انظر كتاب الفهرست ص ٩ والإرشاد لياقوت ج ٣ ص ١٥٠ - ١٥٢) .
- (٤) ابن يزداد هو أبو عبد الله محمد بن يزداد بن سويد المتوفى سنة ٢٣٠ وكان وزير المأمون وله ديوان ورسائل . راجع كتاب الفهرست ص ١٢٤ .
- (٥) يعنى عبد الله بن المقفّع المشهور الذي أمر الخليفة المنصور بقتله سنة ١٤٠ / ٧٥٧ م .
- (٦) هو سهل بن هرون كاتب المأمون ومدير خزانة الحكمة مات سنة ٢١٥ هـ [انظر الإرشاد لياقوت ج ٤ ص ٢٥٨] .
- (٧) [لعله أحمد بن يوسف بن القاسم مات سنة ٢١٣ أو ٢١٤ وتولى ديوان رسائل المأمون فليراجع الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٦٠ - ١٧١] .
- (٨) وهو كتاب مشهور للجاحظ .
- (٩) انظر ما قلت فيه في كتابي علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى (روما ١٩١١) . ص ١٩٠ - ١٩٦ .
- (١٠) يعنى الصاحب بن عباد الذي قد تقدم ذكره (انظر الحاشية ٣ من ص ٣٠) .

مثل ذلك يستعمل ياقوت في كتاب إرشاد الأريب لفظ الأدباء لتعريف الذين يعتنون بفنّ النظم والنثر لا غير . وهذا المعنى لم يزل في عرف الناطقين بالضاد إلى أيامنا .

ولنتنقل إلى بيان معنى آخر أصله في قوم من العلماء اشتغلوا بعلوم الدين والشريعة ورأوا من موجباتها التدقيق في معرفة أسرار العربية لتفسير القرآن من جهة المفردات والعبارات اللغوية أو لشرح الغريب الوارد في الأحاديث النبوية فجعلوا الاستقصاء في جميع أنواع العلوم المتعلقة باللغة والشواهد الشعرية جلّ المعارف الدنيوية بل توطئة لكل العلوم الشرعية . فقال مثلاً الإمام أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ١١١٠ هـ في كتاب إحياء علوم الدين^(١) إنّ العلوم الشرعية تنقسم إلى أربعة أضرب الأول منها أصول الفقه والثاني فروع الفقه والثالث المقدمات والرابع التّمّمات يعنى تفسير القرآن وعلم الحديث . ثم قال : « والضرب الثالث المقدمات وهي التي تجرى منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فإنّهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه (صلعم) . وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكلّ شريعة لا تظهر إلّا بلغة فيصير تعلّم تلك اللغة آلة » . فإذا لا غرو أن الذين جعلوا جلّ المعارف الدنيوية في علوم اللغة العربية حصروا فيها الأدب الذي - كما مرّ بيانه فيما سبق - قد أطلق اسمه أحياناً على جملة المعارف غير الدينية الشرعية . إلّا أنّهم سلكوا في هذا الحصر طريقتين مختلفتين فمنهم من ذهب إلى أن علم الأدب أو الآداب الاعتناء بالأشعار القديمة والتأليفات

(١) إحياء علوم الدين ج ١ ص ١٤ - ١٥ من طبعة مصر ١٣٠٢ (وفي آخرها ١٣٠٣) وراجع أيضاً كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢ من طبعة لندن ١٩٠٤ م والمفصل للزنجشري ص ٣ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٣ ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٧ من طبعة مصر ١٣٢١ .

والرسائل البليغة من جهة اللغة الفصيحة واستخراج الشواهد النافعة والتوصل إلى المعرفة التامة بدقة الكلام وأسرار الفصاحة والبلاغة لا من جهة قصد النزهة أو مجرد الظريف البديع . هذا هو المراد بالأدب في كتاب روضة العقلاء ونزهة الفضلاء للإمام الحافظ. المحدث أبي حاتم محمد بن حبان البستي المتوفى سنة ٣٥٤ الذي أفرد فيه باباً للبحث على تعلم الأدب ولزوم الفصاحة^(١) وعلى مثاله ما قال عبد الله بن محمد المعروف بابن السيد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ في كتاب الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ص ١٤ - ١٥ من طبعة بيروت سنة ١٩٠١ م : «إن الأدب له غرضان أحدهما يقال له الغرض الأدنى والثاني الغرض الأعلى . فالغرض الأدنى أن يحصل للمتأدب بالنظر في الأدب والتمهرفيه قوة يقدر بها على النظم والنثر . والغرض الأعلى أن يحصل للمتأدب قوة على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله (صلعم) وصحابته ويعلم كيف تُبنى الألفاظ . الواردة في القرآن والحديث بعضها على بعض حتى تُستنبط منها الأحكام وتُفرعُ الفروع وتنتج النتائج وتُقرن القرائن على ما تقتضيه مبانى كلام العرب ومجازاته كما يفعل أصحاب الأصول . وفي الأدب لمن حصل في هذه المرتبة منه أعظم معونة على فهم علم الكلام وكثير من العلوم النظرية . فقد زهد الناس في علم الأدب وجهلوا قدر الفائدة الحاصلة منه حتى ظن المتأدب أن أقصى غاياته أن يقول أبياتاً من الشعر . والشعر عند العلماء أدنى مراتب الأدب لأنه باطل يُجلى في وعرض حق وكذب يُصور بصورة صدق . وهذا الدم إنما يتعلق بمن ظن صناعة الشعر غاية الفضل وأفضل حلى أهل النبيل . فأنما من كان الشعر بعض حلاله وكان له فضائل سواه ولم يتخذ مكسباً وصناعة ولم يُرضيه لنفسه

(١) روضة العقلاء لابن حبان ص ١٩٥ - ٢٠٠ من طبعة مصر ١٣٢٨ .

حِرْفَةً وَبِضَاعَةً فَإِنَّهُ زَائِدٌ فِي جَلَالَةِ قَدْرِهِ وَنِبَاهَةِ ذِكْرِهِ . ثم قال : « وَحَدُّ
الْمَنْطِقِ كِتَابٌ يَتَّخِذُهُ الْمُتَفَلِّسُونَ مَقْدَمَةً لِلْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ كَمَا يَتَّخِذُ الْمُتَأَدِّبُونَ
صِنَاعَةَ النِّحْوِ مَقْدَمَةً لِلْعُلُومِ الْأَدَبِيَّةِ » . - وَحَدُّ عِلْمِ الْأَدَبِ (أَوْ الْآدَابِ)
بِهَذَا الْمَعْنَى وَمُرْتَبَتُهُ فِي مَرَاتِبِ الْعُلُومِ حَدُّهُمَا ابْنُ خَلْدُونِ فِي مَقْدَمَتِهِ بِغَايَةِ
الْوَضُوحِ فَقَالَ فِي مَوْضِعٍ ^(١) « إِنَّ « النَّظَرَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ لَا بُدَّ أَنْ تَتَقَدَّمَ
الْعُلُومُ اللَّسَانِيَّةُ لِأَنَّهُ مَتَوَقَّفٌ عَلَيْهَا وَهِيَ أَصْنَافٌ فَمِنْهَا عِلْمُ اللُّغَةِ وَعِلْمُ النِّحْوِ
وَعِلْمُ الْبَيَانِ وَعِلْمُ الْآدَابِ » . وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ^(٢) « إِنَّ عِلْمَ اللَّسَانِ الْعَرَبِيِّ
« أَرْكَانُهُ أَرْبَعَةٌ وَهِيَ اللُّغَةُ وَالنِّحْوُ وَالْبَيَانُ وَالْأَدَبُ . وَمَعْرِفَتُهَا ضَرُورِيَّةٌ عَلَى
أَهْلِ الشَّرِيعَةِ إِذْ مَأْخُذُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ كُلُّهَا مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهِيَ بَلْغَةُ
الْعَرَبِ وَنَقْلَتُهَا مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ عَرَبٌ وَشَرَحَ مُشْكَلَاتِهَا مِنْ لَفْظِهِمْ فَلَا
بَدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الْعُلُومِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهَذَا اللَّسَانِ لِمَنْ أَرَادَ عِلْمَ الشَّرِيعَةِ » . وَفِي مَوْضِعٍ
ثَالِثٍ أَتَى بِتَعْرِيفِ عِلْمِ الْأَدَبِ فَقَالَ ^(٣) : « هَذَا الْعِلْمُ لَا مَوْضُوعَ لَهُ يُنْظَرُ
فِي إِثْبَاتِ عَوَارِضِهِ أَوْ نَفْيِهَا . وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ عِنْدَ أَهْلِ اللَّسَانِ ثَمَرَتُهُ
وَهِيَ الْإِجَادَةُ فِي فَتَى الْمَنْظُومِ وَالْمَنْثُورِ عَلَى أَسَالِيبِ الْعَرَبِ وَمِنَاحِيهِمْ ^(٤) فَيَجْمَعُونَ
لِلذِّكْرِ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مَا عَسَاهُ تَحْصُلُ بِهِ الْكَلِمَةُ مِنْ شَعْرِ عَالِي الطَّبَقَةِ
وَسَجْعٍ مُتَسَاوٍ فِي الْإِجَادَةِ وَمَسَائِلَ مِنَ اللُّغَةِ وَالنِّحْوِ مَبْثُوثَةٌ أَثْنَاءَ ذَلِكَ مُتَفَرِّقَةٌ
يَسْتَقْرِئُ مِنْهَا النَّاضِرُ فِي الْغَالِبِ مُعْظَمَ قَوَانِينِ الْعَرَبِيَّةِ مَعَ ذِكْرِ بَعْضٍ مِنْ أَيَّامِ

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨١ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٤٣٦ من طبعة بيروت

١٩٠٠ أو ٤٨٦ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٢ ص ٤٥٢ - ٤٥٣ من الترجمة الفرنسية لدى سِلاَن .

(٢) مقدمة ص ٤٩٩ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٥٤٦ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ص

٦٢٨ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٣ ص ٣٠٧ من الترجمة الفرنسية .

(٣) ص ٥٠٦ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٥٥٣ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ص ٦٤٧

من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ج ٣ ص ٣٢٨ إلى ٣٣٠ من الترجمة الفرنسية .

(٤) المنحاة : المسيل الملتوى .

العرب يَفْهَمُ به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المُهِمِّ من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة ثمَّ إنَّهم إذا أرادوا حِدًّا هذا الفنَّ قالوا : الأدبُ هو حفظُ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كِلِّ علمٍ بطَرَفٍ . يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط . إذ لا مدخلَ لغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلَّا ما ذهب إليه المتأخرون عند كَلْفِهِم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحبُ هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائماً على فهمها . وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرِّد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ . وكتاب النوادر لأبي عليّ القالي البغدادي « اهـ .

أمَّا المسلك الثاني في حَضْر علم الأدب في علوم اللغة العربية فهو مسلك الذين عنوا بالأدب علم الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان مع ما يتصل بها من علمي القوافي والعروض وكلِّ ذلك خلافاً لما نقلته عن ابن السِّيد البطليَّوسيّ وابن خلدون . والمحتمل عندي أن هذا المعنى الخاص لم يتولَّد إلَّا نحو انقضاء القرن الخامس فلنَّي ما عثرتُ عليه فيما صُنِّف قبل القرن السادس . ومن أمثلة ذلك الاستعمال أن أبا البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري المتوفى سنة $\frac{577}{1181}$ ألف كتاباً جيداً سمَّاه بنزهة الألباء في طبقات الأدباء ، فإن راجعتموه وجدتم أنه لم يذكر فيه إلَّا اللغويين والنحويين . فقال ابن خَلِّكان^(١) المتوفى سنة $\frac{681}{1282}$ في ترجمة أبي زكرياء يحيى التبريزي : « كانت له معرفة تامة بالأدب من النحو واللغة وغيرهما وصنَّف

(١) وفيات الأعيان ترجمة عدد ٨١٠ من طبعة غوتنجن أو ٧٧١ من الطبقات المصرية .

في الأدب كتباً كثيرة مفيدة منها شرح الحماسة وكتاب شرح ديوان المتنبي وكتاب شرح سقط الزند . . وشرح المعلقات السبع وشرح المفضليات وله تهذيب غريب الحديث وتهذيب إصلاح المنطق وله في النحو مقدمات حسنة إلخ . . فيتضح من هذا الكلام أن علم الأدب عند ابن خلكان كالأدب عند أبي البركات ابن الأنباري المذكور وعند أبي يعقوب يوسف، ابن محمد السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ الذي قال في كتاب مفتاح العلوم (١) إنَّ الغرض من علم الأدب هو الاحتراز عن الخطأ في كلام العرب وأنه مشتمل على علم الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان . ومن المشهور أن علماء هذا الفن اختلفوا في أقسامه لأنَّ بعضهم جعل قسمًا مستقلاً ما ليس على رأى غيره إلاَّ جزء من أجزاء أحد الأقسام الأصلية فمن ذكر لعلم الأدب أربعة أقسام ومن ذكر ثمانية ومن ذكر اثني عشر ومن ذكر أربعة عشر وهلم جرا . فقال مثلاً السيّد الشريف عليّ بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦/١٤١٣ إنَّ الاشتقاق قسم مستقل خلافاً لرأى سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة ٧٩٢ الذي جعله ذيلًا لعلم الصرف . وذهب قوم من العلماء إلى أن البديع قسم برأسه وعمده آخرون من تنمّة علمي المعاني والبيان . ولكنّي لا أريد الخوض في مثل هذه المسائل الخارجة عن مقصودنا الحالي .

فتمّ كلامنا على ما عرض لكيفية استعمال لفظ الأدب من التغيّر والحصر والإطلاق والتفرّع بتغيّر أحوال العمران وتباين أصناف الناس في الأجيال السابقة لتأثير علوم الإفرنج في علوم الشرق . وأرى من المناسب أن ألخص الآن نتائج البحث المتقدم بغاية الاختصار أعني مجردة عن الشواهد

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ٣ من طبعة مصر سنة ١٣١٧ .

والنصوص التي إنما أتيت بها قبلاً لئلا تأخذوا مني شيئاً بدون حجة . فإنني لا أخاف من الإطالة إذا لا بدَّ منها لإثبات البراهين على أقوالى فلست حينئذ من أولئك المتطرفين السابق ذكرهم الذين كان الإسلامُ عندهم شرَّ الكبائر . إنَّ الأدب كان على المحتمل في عرف عرب الجاهليَّة عبارةً عن العوائد الحميدة المتوارثة خلفاً عن سلف فليس من البعيد أنَّ اسمه مشتقُّ في قديم الزمان من الآداب جمع الدُّأب . ثمَّ لكون تلك العوائد المتوارثة عمدةً للناس في أعمالهم المستحسنَة عبَّروا بالأدب عن السُنَّة والسيرة لا سيما المحمودَة وعن حُسن الأخلاق . وبما أنَّ تعليم العوائد القديمة الماثورة كان عندهم أساس كلِّ تعليم وتربية ، بل مُعظَم معارفهم . أطلقوا الأدب أيضاً على جملة المعارف فاستعملوا لفظي التأديب والتعليم بدون فرق بينهما وكان الأديب المُخبر بشئ .

ثمَّ بعد ظهور الإسلام إلى ما يلي أواخر القرن الثاني لم تزل معاني الأدب على ما كانت عليه في الجاهليَّة أعني عبارة عن المنهج المسلك وعن حسن الأخلاق طبيعَّةً كانت أم كسبيَّة وعن جملة المعارف . إلّا أنَّ المقصود من هذه المعارف انحصر في الأمور الدنيويَّة ولم يُطلَق على العلوم الدينيَّة . وإثر ما وقع للعرب من التقلُّب العظيم في هيئتهم الاجتماعية وأميالهم بسبب اختلاطهم بأُمم غيرهم تولَّدت من معاني الأدب القديمة معاني أخرى حديثة وذلك في القرن الثالث حين بلوغ التمدُّن الإسلامي أوجهُ بمدينة بغداد . ونارة وسَّعوا نطاق المعارف المدلول عليها بلفظ الآداب قبلاً واصطلحوا بهذا الاسم على كل أنواع العلوم والفنون والصنائع والحِرَف والألعاب الشريفة سوى ما يتعلَّق بأمور الدين والشريعة .

ثمَّ اندرس استعمال الآداب بهذا المعنى العام الذي ما عثرت على أمثلة

منه فيما صُنِّف بعد انقضاء القرن الرابع . وتارةً حصروا الأدب والآداب فيما تَمَسُّ إلى معرفته حاجةً تعاطى فنَّ مخصوص من العلوم فقالوا مثلاً أدب الكاتب دلالةً على جميع ما لا يستغنى الكاتب عن تعلُّمه ليقوم بصناعته قياماً حسناً . وتارةً اتُّخذوا الأدب بمعنى السُّنة وأطلقوه على ما غير الأخلاق عبارةً عن الأساليب والقواعد الواجب التمسُّكُ بها في عمل من الأعمال فقالوا بآداب الأكل وآداب السفر وآداب الدرس وآداب البحث وهلمَّ جراً . أمَّا الناس الذين جعلوا أسمى مقصدهم في الظرف واتَّخذوه سُنَّةً في جميع أفعالهم فاصطلحوا الأدب (أى السُّنة) على كلِّ أنواع الظرف والأديب على المتظَرِّف في كلِّ شيء . وحيث إنَّ التفنُّن والمعرفة بما يُعجِب من كلِّ علم أو صناعة كان عندهم أيضاً جزءاً من المتظَرِّف حصر بعضهم الأدب في النكت والملح والنوادر واللطائف ومقطَّعات الشعر غير الطويلة المُملَّة وسمَّوا أديباً من أخذ نُتفاً ظريفة لطيفة من كلِّ علم وفنَّ . ومن حرَّص منهم على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ووجد غاية الالتذاذ بما تُسج من الكلام على أحسن منوال حصر الأدب في صناعتي النظم والنثر وسمَّى أديباً المتعاطى الفنون الكتابية المستظرفة . فقُصارى القول أنَّ المتظَرِّفين اتَّبَعُوا ثلاث طرائق مختلفة في حدِّ الأدب موافقةً لما كان عنده أرجح من سائر أنواع الظرف .

وفي ذات القرن الثالث سلك صنفٌ من الناس منهجاً خاصاً في تعريف الأدب وهم الذين بذلوا عنايتهم في علوم الدين والشريعة . وذلك أنَّهم لم يجدوا علماً من العلوم الإسلامية لا يثبِّينُ افتقاره إلى العربية وما يتعلَّق بها من الأخبار والأشعار لأنَّها الاحتجاج في تفسير القرآن الكريم والحديث النبويِّ المتوقَّف عليهما جميعاً الأحكام الشرعية ورأوا الكلام في مُعظَم أبواب أصول الفقه وفروعه مبنيّاً على علم العربية والتفاسير مشحونةً (كما قال

الزمخشري^(١) بالروايات عن سيبويه والأخفش والكسائي والفرّاء وغيرهم من النحويّين البصريين والكوفيّين والاستظهار في مآخذ النصوص بأقواويلهم . فحملهم ذلك على التبحر في أسرار اللغة ودقائق النحو وعلى جمع الأشعار القديمة وما يتّصل بها . ففريق منهم حصروا الأدب في الشواهد الشعرية والنثرية مع جملة المعارف النافعة لشرحها لغة ومعنى . وفريق ذهب في القرن السادس وما يتلوّه إلى أنّ الأدب علم الصرف والنحو واللغة والبيان . فمما أوضحتّه ترون أنّ تشعب لفظ من أصل معناه إلى معان مغايرة له ربّما هو أيضاً خلاصة تاريخ ما عرّض للهيئة الاجتماعية من التقلّب والتشعب .

وبعد منتصف القرن المنصرم لما كثرت العلائق وشدّت الارتباطات العلميّة والأدبيّة بين بلاد الشرق وأمم الغرب ونقلت كتب فرنسيّة وإنكليزيّة في كلّ فنّ إلى اللسان العربيّ أخذ المترجمون يستعملون لفظ الآداب استعمال *littérature* عند الإفرنج . فكان ذلك انحرافاً عن العرف العربيّ السابق من وجوه . أولاً لأنّ الإفرنج ومن يقلّدهم في الشرق يُطلقون الآداب على مآثر أيّ لغة خلافاً للسلف من العرب فإنّهم على وفرة المعاني التي وضعوا لها لفظ الآداب لم يستعملوه أبداً للدلالة على الكتب والعلوم الأعجميّة . وسبب مثل هذا الحصر أنّهم كما هو مشهور أغفلوا في كلّ وقت البحث عن آداب اللغات الأجنبية فلم نقف على أحد منهم ألف شيئاً في لغة اليونان والرومان والعبرانيّين والهند والسرّيان والقبط . وأنّ الذين اعتنوا في غابر الزمان بلغة الترك والفرس قليلون جداً لا يكادون يجاوزون عدد أنامل اليد مثل أبي حيّان محمّد بن يوسف الغرناطيّ المتوفى سنة ٧٤٥/١٣٤٤ صاحب كتاب الإدراك

(١) الفصل للزمخشري ص ٣ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٣ .

للسان الأتراك ^(١) والزَمْخَشَرِيُّ المتوفى سنة ٥٣٨/١٣٤٤ الذي وضع كتاب مقدّمة الأدب على صفة قاموس عربيّ فارسيّ ^(٢). نُقل إلى لسان العرب عدد وافر من كتب العلوم الرياضيّة والفلسفيّة والطبيّة والكماوية والفلاحيّة ممّا صُنّف بلغات الهند والفرس واليونان ولكن لم يُترجم لأحد أدباء اليونان والرومان والهند تاريخ ^(٣) ما عدا تاريخاً مختصراً لهروسيوس ^(٤) ولا خطبة بليغة ولا شعر ولا رواية من رواياتهم المستظرفة. ومع أنّ العرب وجدوا في تأليفات أرسطوطاليس الثناء الوافر على شعراء اليونان وعلو مرتبة فنون البلاغة والخطابة عندهم واستفادوا من كتب أفلاطون قدير اعتبار اليونان للشعر والبلاغة وسائر الفنون المستظرفة في تربية الأطفال والأحداث ما رغبوا في معرفة تلك الآداب وبلغوا في شأنها غاية الجهل حتّى إنّ أبا عثمان عمراً الجاحظ. وهو من أحذق كتّاب العرب وأوسعهم علماً وأدقهم بحثاً قال في كتابه المسمّى بالبيان والتبيين ما نصّه ^(٥): «إنّا لا نعرف الخطب إلاّ للعرب والفرس، وأمّا الهند فإنّما لهم معاني مدوّنة وكتب مخلّدة ^(٦) لا تُضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف وإنّما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة. ولليونانيّين فلسفة وصناعة منطقيّ وكان صاحب المنطق

(١) راجع L. BOUVAT, *Une grammaire turque du huitième siècle de L'hégire : "La pénétration dans la langue des Turcs" d'abol Hayyên al-Gharndî* (Actes du XIV^{ème} Congrès international des Orientalistes, Alger 1905), Paris 1907 suiv., III, p. 44-78.

وكتاب الإدراك هذا مطبوع بقسطنطينية سنة ١٣٠٩ (سنة ١٩٣١).

(٢) Samachsharii *Lexicon arabicum-persicum*, ed. J.G. Wetzstein, Leipzig 1844, 2 voll. (٢)

(٣) هو من مؤلّفي القرن الخامس بعد الميلاد.

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ج ٣ ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ج ٣ ص ٢٠ من طبعة مصر سنة ١٣٥١] وقول الجاحظ هذا موجود أيضاً في منتخبات البيان والتبيين للإمام الجاحظ المطبوعة في مجموعة خمس رسائل (ص ٢٢٣ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠١) وفي كتاب علم الأدب مقالات لمشاهير العرب للأب شيخوخ ج ٢ ص ٢٣١ من طبعة بيروت سنة ١٨٨٩.

(٥) وفي طبعات مصر: مجلدة وهو تصحيف.

نفسه بكى اللسان غير موصوف بالبيان مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة « ١ هـ . وإن هذا الكلام من أغرب الأقوال حيث إنه من المشهور أن الخطب اليونانية صارت أنموذجاً لخطباء الرومان وجميع الأمم الإفرنجية وهى متداولة إلى الآن غير مجهولة لكل من له ذوق سليم في الأدب في بلاد الغرب^(١) . - وكذلك ترجمت العرب بعض الحكايات والأمثال من تصانيف الهند والفرس ولكنهم لم ينقلوا حرفاً من أناشيدهم الشهيرة الطويلة . فلعدم اهتمامهم بالفنون الكتابية المستظرفة الأجنبية حصروا الآداب في علومهم العربية .

ثم إن المعاصرين لنا من أبناء الشرق قلّدوا الإفرنج في وضع معنيين للفظ. الآداب معنى متنها عام ومعنى خاص . والمعنى العام عبارة عن جميع ما صُنّف في لغة ما سواء في العلوم أم من الشعر والنثر البليغ ، فالآداب حينئذ تشتمل على جملة ما قيّد في الكتب والدفاتر من نتائج أفكار علماء الأمة وأدبائها. أمّا الآداب بمعناها الخاصّ فعبارة عما سبّك في قالب ظريف وصيغ على نمط. الإنشاء الأنيق من الكلام المنشور والمنظوم أعنى أنها عبارة عن حواصل الفنون الكتابية المستظرفة فتشتمل على أنواع الشعر والحكايات والروايات والقصص والأمثال والحكم والمحاضرات والمقامات والمناظرات والخطب

(١) وكذلك ما ذكر أبو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري (المتوفى سنة ٣٨٢ هـ ٩٩٣ م) من الآداب الأجنبية إلا حكماً وجيزة نسبها إلى اليونان والفرس وبعض توقيعات ملوك الفرس ، فانظر كتابه المسمى برسالة التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم وقد طبعت هذه الرسالة في التحفة البهية والطرفة الشبية ص ٢١٨ - ٢٢١ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٢ وطبعت أيضاً (بغير اسم مؤلفها وبالعنوان : في بلاغة كلام العرب وكلام العجم) في ج ٢ ص ١٢٦ - ١٣٦ من مقالات لمشاهير العرب المذكورة آنفاً وكان هذا العسكري معلّم أبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل صاحب كتاب الصناعتين المتوفى سنة ٨٣٩٥ هـ وأنها توافقاً في الاسم واسم الأب والنسبة (راجع بغية الوعاة للسيوطي ص ٢٢١ من طبعة مصر ١٣٢٦) .

مع ما أُلِّفَ بفضيح العبارة وطلاوة الإنشاء من التواريخ ووصف الرُّحَل والأسفار وما يشاكل ذلك . - فإذا كان الأمر كذلك أصاب الأب لويس شيخو في قوله^(١) : « تحيا الأمم بآدابها لأنَّ الآداب تُرقى المرء فوق الحياة المادية وتسمُقُ به إلى المدارك الشريفة وتُقربُه إلى عالم الأرواح وإلى الجمال الذي منه يستعير كلُّ مخلوق جماله . وعليه فإنَّ أراد العاقل أن يعرف درجة التمدُّن التي بلغها شعب من الشعوب بحث عن انتشار الآداب بين أهله . ولذلك ترى المؤرِّخين يقدِّمون في تاريخهم تاريخ الآداب على تاريخ الوقائع وربما أفردوا للآداب تاريخاً قائماً بذاته يُثبِت ما يختصُّ بالعلوم والمعارف في كلِّ ملَّة مُخْبِراً عن نشأة الآداب بينها واتِّساع نطاقها وأسباب ترقِّيها ونتائجها الطيِّبة في إصلاح القوم وتحسين أخلاقهم ودفعهم إلى المشروعات الأثيرة والمساعى الخطيرة » .

٢ - أمَّا تاريخ الآداب فما هو؟ إذا اتُّخِذَت الآدابُ بمعناها الخاصِّ وبالنظر إلى العربيَّة أجاد في وصفه وصيبي الأديب حضرة حَفَنِي (بك) ناصف حين قال فيما طُبِع من محاضراته^(٢) أن « يدخل في ذلك التاريخ وصفُ الكلام من شعر ونثر في كلِّ عصر من عصور التاريخ وذكرُ نوابغ الشعراء والخطباء والكتَّاب والمؤلِّفين وبيانُ تأثير كلامهم في من بعدهم وتأثيرهم بمن قبلهم وما حولهم والموازنةُ بينهم والإلمامُ بمؤلِّفاتهم » . - فإذا اتُّخِذَت الآداب بمعناها العامِّ يفضروى أن تُدْخِل في تاريخها أيضاً ذكر جميع أصناف العلماء والحكماء والمؤلِّفين البارعين مع بيان مشارب أفكارهم وشرح مناهج أعمالهم في العلوم وتقدير علوِّ منزلتهم في الفنِّ الذي تعاطوه . فيصف حينئذٍ تاريخُ

(١) الآداب العربية في القرن التاسع عشر ج ١ ص ١ (ألف) من طبعة بيروت سنة ١٩٠٨ -

١٩١٠ .

(٢) تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية المطبوع في مصر سنة ١٩١٠ - ١٩١١ ص ٦ .

الآداب سائر العلوم في مدارج الترقى وأحوال مشاهير أصحاب الحكمة والفلسفة والرياضيات والفلك والطب وهلم جرا فلا يتميز في قسمة هذا من التواريخ المختصة بعلم من العلوم أو فن من الفنون إلا لقدر التبحر في تلك المباحث ولصفة النظر فيها . مثال ذلك أن مؤرخ الحكمة والفلسفة يتوسع في الشرح التام لمذاهب الفلاسفة وينتقدها ويقدرها تقديرًا دقيقًا . أما مؤرخ الآداب فيمتنع عن الخوض في المسائل الخاصة والانتقاد العلمي مقتصرًا على جوامع ما توصل إليه مؤرخ الفلسفة في أبحاثه المستقصاة ومقدرًا تصانيف الحكماء من حيث جنس إنشائهم أكثر منه من حيث أفكارهم العلمية المحضة .

إن تاريخ الآداب علم جديد في بلاد الشرق لم يسبق إليه علماء العرب اللهم إلا في نبد وجيرة وأشياء قليلة جدًا وردت في كتبهم مبعثرة دون أن استقصوا فيها بدقة النظر والانتقاد . وسبب ذلك حال علم التاريخ عند العرب . فلمهم لم يتقنوه قدر ما أتقنه اليونان والرومان في الزمن القديم أو الأمم الإفرنجية منذ القرن الخامس عشر للمسيح بل اقتصر أكثرهم على تفصيل ذكر الحوادث والوقائع سنة سنة بدون البحث عن الأسباب والأحوال الاجتماعية وعن ارتباط الوقائع ببعضها ونشأتها ومن غير مدّ بصرهم إلى ما هو أسمى من محض ذكر ما طرأ على أمة من الطوائر الظاهرة . فلا يخفى عليكم أن أكثر الذين حكيم لهم بالتقدم وحازوا قصب السبق في ميدان التاريخ عند العرب مثل أبي جرير الطبري وابن الأثير وأبي الفداء الحموي وزين الدين عمر بن الوردي لم يسلكوا في تصانيفهم غير هذا السلوك . ومن اتخذ منهجاً غيره ودون الحوادث مسرودة آخذة بعضها ببعض لم يؤلف إلا كتساً مختصرة ولم يُجرِ التححيص والنقد في مصادره ولم يتأمل تأثير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الحوادث السياسية ولم يُدقّ النظر في

سائر العوامل في ترقية العمران أو انحطاطه . ومن أغرب الغرائب أنَّ ابن خلدون الذي أوضح في مقدّمته قواعد علم التاريخ الصحيحة وأمعن الفكر في كلّ مبحث يتعلّق بالاجتماع الإنسانيّ إمعاناً يستوجب العجب العجائب انصرف عن أصوله تلك الجسيمة العالية لمّا صنّف سائر الأجزاء في تاريخ الأمم وتابّع فيه طريقة لا تفوق طريقة الأقدمين قدراً جزيلاً .

وكذلك في تاريخ الآداب ما ألّف العرب إلّا مكنياً تتضمّن التراجم المفردة المرتبة على حروف الهجاء أو على الطبقات بدون التعمّق في البحث عن أصل كلّ جنس من الفنون الأدبيّة وعن كينيّة نموه أو انحطاطه وعن تأثير الأدباء بعضهم في بعض وأسباب تغيير الذوق والأمّال . فأكثروا مثلاً في رواية أخبار أفراد الشعراء وأقصروا عن بيان تقلّب أساليب الشعر وأغراضه بتقلّب الهيئة الاجتماعية وتماذى العصور .

أطلتُ الكلامَ في هذا الموضوع ليتبيّن لكم سبب تكليفي بتدريس آدابكم مع أنّي رجل أجنبيّ بعيد أيّ بُعد عن إمكان مسابقة الوطنيّين في معرفة اللغة والتضلع من علم أسرارها وخصائصها . إن المطلوب منّي ليس إلّا أن أطبّق على الآداب العربيّة أساليب البحث التاريخيّ التي عادت على تاريخ آدابنا الإفرنجيّة بطائل عظيم . والمرجو أنكم في آخر السنة المكتبيّة لا تجدون عملي باطلاً مجرداً عن كلّ فائدة .

٣- إن تاريخ الآداب العربيّة يجوز قسمته إلى ستة أطوار أو أعصر .

(١) عصر الجاهليّة المنتهى من زمان لا تُذكر أوائله إلى ظهور الإسلام .

وهو عصر عربيّ صريح لغةً وأدباً وبلاداً .

(٢) العصر العربيّ الإسلامي من ظهور الدين الإسلاميّ إلى انقراض

الدولة الأموية سنة ١٣٢. وفيه انتشر استعمال اللغة العربية في بلاد متباعدة بتوسيع حدود المملكة بالفتوحات المشهورة فأخذت الآداب العربية تزدهر أيضاً فيما خارج جزيرة العرب لا سيما في بلاد الشام إلا أنها لم تنزل محصورة في ميدان آداب الجاهلية ما عدا العلوم المتعلقة بأمور الدين .

(٣) العصر العباسي الأول من سقوط الدولة الأموية وابتداء دولة العباسيين إلى نحو سنة ٤٥٨. وصار فيه للأمم الأعجمية القسم الأوفر من أمور الدنيا والدين بل غلبت العجم على العرب في تكوين التمدن الإسلامي فأدخلت كتب العلم العجمية القديمة واتسع التفنن في الآداب وسليكت فيها مسالك جديدة وصيغت صناعة النظم والنثر في بعض القوالب المستحدثة وبلغت العلوم والفنون وبعض أنواع الآداب مداها الأقصى من الكمال والإتقان والرونق والبهاء . وذلك ثمرة ما سببه الإسلام من تعاون الأمم المختلفة الأصل والأخلاق والأميال وتشاركهم في العلم والعمل كأن لسان حالهم قول أبي تمام ^(١) : (من بحر الكامل)

إن يكدي مطرف الإخاء فإننا نسرى ونغدو في إخاء تاليد
أو نفترق نسباً يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد

(٤) العصر العباسي الثاني من نحو سنة ٤٥٨ إلى فتح التتار مدينة بغداد وانقطاع دولة بني العباس سنة ٦٥٦. وفي هذا العصر أخذت الآداب والعلوم تنحط مما كانت عليه من الكمال تبعة للانحطاط السياسي

(١) الأبيات مروية في إرشاد الأريب لياقوت، ١ ص ١٨ من طبعة ليدن فراجع ديوان أبي تمام ص ٧٩ من طبعة بيروت ١٨٨٩ أو ص ٨٦ من طبعة بيروت ١٩٠٥ . أكدي : قل غيره ، وأطرف الشيء : اشتراه حديثاً ، وتالد : (مال) قديم .

الذى قد ابتدأ في العصر السابق حين تجاسر الجند التركي على الخلافة في أيام المتوكل (٢٣٢-٢٤٧) فاستولى على الدولة أمراء الجيوش مثل وصيف وبغا وأتامش كما قال الشاعر^(١) : (من بحر الخفيف)

أصبح الترك مالكي الأمر والعالم لم ما بين سامع ومطيع

وزاد تفرع الدولة إلى دول صغيرة في أنحاء مختلفة فربما تلاشت العلائق بينها فاختلفت أحوال الآداب على اختلاف البلاد .

(٥) عصر الانحطاط من انقطاع الدولة العباسية إلى استيلاء محمد علي ياشا على مصر سنة ١٢٢٠ . وفيه خمدت جذوة الآداب والعلوم التي لم تنزل مائلة إلى الهبوط حتى كادت تنطفئ جمرتها كلية في بعض الأصقاع الإسلامية . وفترت همم أهل العلم فأصبح أكثرهم ممسكين عن الاجتهاد المستقل في المباحث مقتنعين بالنظر في كتب من تقدمهم بدون خروج عن رتبة المقلدين وبغير طمع في مباراة السلف . وكذلك الشعراء والأدباء اقتصر أغلبهم على حذو السابقين فنجد أشعارهم كأنها تصدر عن المتصنع المتشبه الذي يكتفي بتنميق العبارة وزخرف الكلام وإشكال البديع ولا يهتم بالتعبير عن حقيقة ما يكتنه صدره من العواطف والخواطر . فلإن نجد بين أهل ذلك العصر من فاق غيره فوقاً عظيماً (وحسبنا ذكر نصير الدين الطوسي وابن خلدون) يصلح له بالنظر إلى معاصريه ما قيل عن انحطاط الدول إنه^(٢) «ربما يحدث عند آخر الدولة قوة يؤهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويؤخذ

(١) البيت مروي في الباب العشرين بعد المائة من مروج الذهب للمسعودي ج ٧ ص ٤٠٠ من الطبعة الباريسية .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٦ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ٢٩٤ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ٢ ص ١٢١ من الترجمة الفرنسية .

ذُبَالُهَا إِيمَاضَةُ الْخُمُودِ كَمَا يَقَعُ فِي الذُّبَالِ الْمُسْتَعِيلِ فَإِنَّهُ عِنْدَ مَقَارِبَةِ انْطِفَائِهِ
يُؤَمِّضُ إِيمَاضَةً تُؤْهِمُ أَنَّهَا اشْتِعَالٌ وَهِيَ انْطِفَاءٌ»

(٦) النهضة الأخيرة من ابتداء ولاية محمد علي باشا سنة ١٢٢٠ إلى

آيامنا هذه . وفي هذا العصر شاعت العلوم الإفرنجية في كثير من بلاد
الشرق فكانت خميرة اختمرت بها العقول بعد مدة العقم والسقم وانتشرت
أهل الإسلام مما قد قضت الصروف لأغلبهم من الاستكانة والتفريط . في
التعلم والتأليف والاعتناء بالفنون والصنائع . وانتشر فن الطباعة في الشام
ومصر وغيرهما من الأنحاء الإسلامية وذاعت الجرائد والمجلات بنافع المعارف
والأخبار وعادت أسواق الآداب والعلوم قائمة وبضائعها رائجة لا سيما في
القطر المصري وشقيقته الشام والقسطنطينية وبغداد فتحقق وتم لأهلها
مراد قول الشاعر^(١) :

لعلَّ إلمامةً بالجزع ثانيةً يدبُّ منها نسيمُ البرء في عِدْلِي

إِلَّا أَنَّ إفراط التأثير الإفرنجي لم يخلُ عن الإضرار بآداب الشرق لأنَّه
ربَّما أبعد الناس عن شدة العناية بلغتهم وأدخل في تأليف بعض المحدثين
وفي بعض المجلات والجرائد العجمة المستقبحة والتراكيب الشائنة السقيمة
وركاكة الكلام وسخافة الإنشاء وغير ذلك مما يستنكف منه صاحب الدوق
السليم : فاتَّفَق لبعض الكتبة ما اتَّفَق لبعض الناس الذين قلَّدوا الإفرنج
وعوائدهم بدون بصيرة وخلطوا الغث بالسمين والبخس بالثمين :

إِنَّ هَذِهِ الْحُدُودَ الَّتِي ذَكَرْتُهَا لِكُلِّ غَصَرٍ مِنَ الْأَعْصَرِ السَّنَةِ لَيْسَتْ إِلَّا حُدُودًا

(١) البيت مروي للطغرائي المولود سنة ٤٥٣ والمتوفى سنة ٥١٥ وهو البيت السادس والعشرون من

شعره المسمى بلامية العجم ، فانظر كتاب نشر العلم في شرح لامية العجم للشيخ جمال الدين محمد بن
عمر الحضري ص ٣٠ من طبعة مصر ١٣١٩ - وألم به نزل به . جزع : منعطف الوادي ومحلة القوم .
دب : سري . برء : شفاء .

صناعية اصطلاحية أثبتتها على التقريب فإنَّ عصرًا ما سواء من التاريخ السياسي أم من تاريخ الآداب والعلوم لا يُحصر في مواقيت معينة بدقَّة .
 فلذلك أسباب . أولاً أنَّ كلَّ حيٍّ وكلَّ نوعٍ أو فرع من الهيئة الاجتماعية لا تتغيَّر أحواله بديهاً أبداً بل من المشهور أنَّ الانتقال من حال إلى حال لا يحصل إلا بالتدرُّج الباطي حتَّى لا يُشعر في الأغلب بالفرق بين الدرجة القادمة والدرجة التالية لها . فإنَّ أعملنا الفكر فيما يظهر باديَّ نظر أنَّه تقلُّب فاجئ ألقينا أنَّه في الحقيقة نتيجة عدَّة أسباب مرتبطة بعضها ببعض عاملة منذ زمان طويل . قال إبقراط ^(١) ومن اتَّبعه من أطباء اليونان والعرب إنَّ الإنسانَ يبتدئ طفلاً ثمَّ يصير صبياً إلى أربع عشرة سنة من عمره ثمَّ غلاماً إلى إحدى وعشرين سنة ثمَّ شاباً ما دام يشبُّ ويقبل الزيادة إلى خمس وثلاثين سنة ثمَّ كهلاً إلى تسع وأربعين سنة ثمَّ شيخاً ثمَّ هَرماً إلى آخر العمر الذي ينقسم إلى سبع أسنان على هذا القول ^(٢) . وظاهر أنَّ هذه القسمة لمُدَّة حياة الإنسان إنما هي اصطلاح محض لا يوافق حقيقة الأحوال الطبيعية إلا بالتقريب فلا يزعم أحدٌ أنَّ الإنسانَ عند انتقاله من سنٍّ إلى التالية لها على ذلك القول يتغيَّر تغيُّراً محسوساً . وكذلك تقلُّبات الأمم والدول إنما تقع قليلاً قليلاً فلا يُشعر بها إلا بعد مُضيَّ أمدٍ مديد حين يمكن مقابلة الحال الحاضر بالحال الماضي البعيد . فمن قال من المؤرِّخين بانتهاء القرون الوسطى وابتداء العصر الحديث سنة اكتشاف أمريكا أعنى سنة $\frac{897}{1492}$ ما أراد أنَّ الدنيا قد تغيَّرت أحوالها بَغْتَةً في تلك السنة أو أنَّ أهل ذلك العهد أحسُّوا بشيء من التغيُّر العامِّ الواضح . ولا يخالف ذلك ما يقع في

(١) Hyppocrates الطبيب اليوناني المشهور الذي عاش من أواخر القرن الخامس إلى منتصف القرن الرابع قبل المسيح .

(٢) انظر الباب الثاني والستين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٤ ص ٣١ من الطبعة الباريسية) .

سير الآداب فإن أنواعها وفنونها بطيئة التحول فتختلط. في الأغلب الأساليب القديمة بالجديدة في عصر واحد، وتوازنت فيه مدة إلى أن يأخذ الأسلوب الجديد في الغلب على القديم شيئاً فشيئاً. فكم مرة ما انفرد به شاعر أو أديب طفق بعد مدة يتشبه به القليلون الذين استحسّنوه واستطابوه ورأوا أنه تألفه الأسماع وتقبله النفوس ثم سائر الأدباء اتبعوه أيضاً وتعملوه فعمّ ما كان يختص به أولاً الواحد. وفي أشعار الجاهلية تجدون أحياناً من التغزل^(١) ما يُشبه الأسلوب الذي اشتهر به عمر بن أبي ربيعة^(٢) بعد منتصف القرن الأول وترون الهجاء في القرن الثاني كأنه متردد متحيّر فيما بين منهجه القديم الملائم لأحوال أهل الوبر وبين الطريقة الجديدة اللائقة بأمر أهل المدر. ويحتذى المتنبي^(٣) حذو القدماء حين يدعى في بعض أشعاره بالحماسة وابن المعتز^(٤) حين شرع في نوع الافتخار، ومع ذلك إنهما من الشعراء المحدثين لا يفردان عن معاصريهما في المدح والفزل والوصف والطرديات. فإذا كيف يمكن أن سنة معينة تكون حداً حقيقياً طبيعياً بين عصرين من عصور تاريخ الآداب ؟

ثم لا يخفى عليكم أن آداب لغة ما إذا شاعت في أراض متباعدة وأقطار مختلفة ولم يساعد فن الطباعة في انتشار الكتب انتشاراً سريعاً بعيداً لا تتغير أحوالها ولا تتقلب آميالها على نمط واحد في كل قطر لا سيما إن

(١) راجع Th. NOELDEKE, *Fünf Mo'allagāt*, II, P. 43. *Encyclopédie de l'Islam*, I, P. 366 و (مادة عنزة).

(٢) عمر بن أبي ربيعة ولد $\frac{٢٣}{٦٤٤}$ م وتوفي سنة $\frac{١٠١}{٧٢٠-٧١٩}$ على القول الأرجح ونيأتى ذكره في باب الشعراء الغزليين الذين عاشوا بمدن الحجاز في عصر بني أمية.

(٣) توفي المتنبي سنة $\frac{٣٥٤}{٩٦٥}$.

(٤) مات ابن المعتز سنة $\frac{٢٩٦}{٩٠٨}$ وفي افتخاره راجع إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٢٤ - ١٢٥ من طبعة مصر ١٣١٥.

تشئت شملُ المملكة كما اتفق للأمم الإسلامية منذ قرون عديدة . فمثال ذلك اختصاص النهضة الأخيرة (التي جعلتها العصر السادس) بالقطر المصري والشام والعراق والهند لأن سائر الأنحاء الإسلامية العربية لم تنزل بالنظر إلى الآداب على ما كانت عليه في العصر السابق الذي سمّيناه عصر الانحطاط ففي عمان وحضرموت واليمن والمغرب الأقصى مثلاً لم ينبغ بعدُ عالم أو أديب أو شاعر طفيق يشرع في الأساليب الجديدة فما هبت هناك الآداب العربية من كرامها ولا نفَضت غبار نُحولها . ودعوا عنكم ما وقع في المغرب الأوسط . أي بلاد الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي فإن مصابيح العلوم العربية أطفئت هنالك وتلاشت الآدابُ كلياً حتى لا يجاوز عدد أنامل اليد من يتمكن من استعمال اللغة الفصحى في الكلام واندurst المكاتب العربية التي قد اشتهرت في الأجيال الخالية بالقُسْنطينة وبجاية وتلمسان وكادت تَضْمَحِلُ معرفة الآثار العربية عند الوطنيين كيف لا وهناك الشُّبانُ في نفس مدارس القضاء الشرعي يتلقون أكثر العلوم بلسان الفرنسي . ومثال مقدار ما بلغه الناس في برّ الجزائر من إغفال درس لسانهم أن أحد الجزائريين وهو حضرة محمد صوالح نشر قبل الآن بأربع سنين ترجمة باب أحكام صيام رمضان من رسالة ابن أبي زيد القيرواني^(١) في الفقه المالكي قائلاً : في مقدمة الترجمة إنّه رأى من المناسب نقل ذلك الباب إلى الفرنسية لكون أغلب الوطنيين المتأدّبين أعرف بها منهم بالعربية^(٢) . وهذا لعمري عيب يعود على أهل البلد وعلى من تسلط عليهم معاً .

(١) توفي سنة ٣٧٩ .

(٢) SOUALAH Mohammed, *le jeûne chez les Musulmans Malékites* (*Revue Africaine*, vol. (٢)

[كذلك كان في سنة ١٩١٠ عندما ألف الأستاذ نلينو محاضراته هذه . (٥٠, 1906, P. 993) في تاريخ الآداب العربية] .

وقصارى القول أن قسمة تاريخ الآداب أقساماً محصورةً محدودة إنما
هى وسيلة لتسهيل بيان سير الآداب فى مدارج الترقى أو رجوعها القهقرى .
فالحُدود المعينة لكلِّ عصر هى كالأعلام التى كان أهل البدو ينصبونها فى
البرارى والقفار ليهتدى بها ابن السبيل ولا يضلَّ فى تلك الأراضى المستوية
الجرداء والرمال المتساوية والكثبان المتشابهة المتوالية . فتكون فائدة استعمال
تلك الحدود الاصطلاحية مثل منفعة بل ضرورة وضع خيوط السدى التى
يُنسج عليها النسيج . - وربما زيادةً لوضوح البيان وتسهيلاً لنظم درر الأخبار
بأسلاك التاريخ ينبغى قسمة تلك العصور الأساسية أقساماً أخرى صغيرة
وذلك بالنظر إلى اختلاف البلدان أو أهمية بعض الوقائع السياسية والأدبية .
لكننى أمتنع الآن عن الخوض فى تعريف تلك الأقسام الفرعية التى سأذكرها
فى دروسى عند سنوح المناسبة إن شاء الله .

الباب الثاني

العصر الجاهلي

- ١ - شعر أهل البادية - ٢ - شعر الوثنيين الملازمين ملوك الحيرة وفسان -
- ٣ - شعر النصارى بالحيرة وفي مملكة بني فسان - ٤ - شعر أهل الحضرة
- في مدن الحجاز - ٥ - النثر الجاهلي - ٦ - المسائل المتعلقة بالقرآن

أما بعد هذه المقدمات وقبل الشروع في المواضيع الخاصة التي ستدور محاضراتي على البحث عنها بالتوسع أرى من المناسب لمنحة في أحوال الآداب العربية أثناء كل عصر من الأعصر الستة السابق تحديدًا بالإجمال - فأبتدى بالعصر الجاهلي^(١).

لا شك أن ما وصل إلينا من آثار الجاهلية نظمًا ونثرًا شيء يسير جدًا بالإضافة إلى جميع ما أنشدته العرب أو روتته في مسامراتهم ومواسمهم ومفاخراتهم وتهاجيهم وما قالوه ارتجالاً في غزواتهم وحروبهم وغيرها من الحوادث. ومن المشهور أن العرب القدماء من أكثر الأمم شعرًا لهم فيه التصرف العجيب والاقتدار اللطيف دونوا فيه عواطفهم وأعمالهم ومفاخرهم فأجاد أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ حين قال^(٢): «لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها فالشعر ديوان العرب وخزانة

(١) [في الشعر الجاهلي انظر (فضلا عن المؤلفات المذكورة في الحواشي التالية) الأدب الجاهلي للدكتور

طه حسين طبعة مصر ١٩٢٧ ثم E. BRÄUNLICH, *Versuch einer literarhistorischen Betrachtung der weise altarabischer Poesien* (Der Islam, XXIV, 1937, P. 201-269); G. VON GRUNEBAUM, *Die Wirklichkeit der früh-arabischen Dichtung*, Wien 1937; G. VON GRUNEBAUM, *Zur Chronologie der früh-arabischen Dichtung* (Orientalia, VIII, 1939, P. 328-345).

(٢) كتاب الصناعتين ص ١٠٤ من الطبعة المصرية سنة ١٣٢٠.

حكمتها ومستنبطُ آدابها ومستودع علومها » . وقال الجاحظ. ^(١) المتوقى سنة ٢٥٥ : « قال الهيثم وابن الكلبي وأبو عبيدة فكل أمة تعتمد في استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وشكل من الأشكال وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى وكان ذلك هو ديوانها ، وعلى أن الشعر يفيض فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح وفضيلة المأثرة على السيد المرغوب إليه والممدوح به . وذهبت العجم على أن تُقيد مآثرها بالبُنيان فبنوا مثل كرد بيداد ^(٢) وبني أزدشير بيضاء إصطخر وبيضاء المدائن والحضر والمدن والحصون والقناطر والجسور والنواويس . قال ثم إن العرب أحببت أن تشارك العجم في البناء وتنفرد بالشعر فبنوا غُمدان وكعبة نجران وقصر مارد وقصر مأرب وقصر شعوب والأبلق الفرد ومارد قالوا تَمَرْدَ مَارِدٌ وَعَزَّ الْأَبْلَقُ ^(٣) وغير ذلك من البنيان » . - ولكن كثيراً مما سارت به الركبان إلى أطراف بواديهم وأقاصي أنحاسهم من المنظوم والمنثور ضاع منذ زمان مديد فلم تطق الحصول على معرفته أهل اللغة في القرن الثاني للهجرة . إن أوائل آداب اللغات المتفرعة من اللاتينية مثل الإيطالية والفرنسية والإسبانية معروفة فنستطيع وصف تدرج تلك الآداب من ابتدائها إلى وقتنا . أما الآداب العربية فليست على مثل هذا الحال فلا نتمكن من الحصول على أوائلها لا بروايات العرب أنفسهم ولا بواسطة ما نعثر عليه من الأخبار في تصانيف اليونان والرومان .

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٣٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ .

(٢) في هذا الاسم تحريف وذكر المسعودي « بيت النار بسجستان يقال له كراكركان » (مروج الذهب في الباب الثامن والستين ج ٤ ص ٧٣ من الطبعة الباريسية) .

(٣) المثل مروي في مجمع الأمثال للميداني ج ١ ص ٨٤ من طبعة مصر ١٣١٠ (راجع G.W. FREITAG, *Arabum Proverbia sententiaeque proverbiales*, Bonn 1898-1843, I p.218. وفي أمثال العرب للمفضل الضبي ص ٦٤ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٠ .

ولم يُنْقَلْ إلينا بيتٌ عربيٌّ غيرُ مُرتابٍ بصحَّته أقدمُ من أواخر القرن الخامس للمسيح أعنى سابقاً للهجرة بأكثر من مائة وثلاثين سنة تقريباً . وقولُ هذا الذي سأتى بالبرهان عليه فيما بعد لا يبعدُ عن رأى علماء العرب بكثير . فقال مثلاً الجاحظ . في كتاب الحيوان ^(١) : « وأما الشعر فحديث الميلاد صغير السنَّ أوَّلُ من نهج سبيله وسهَّل الطريقَ إليه امرؤ القيس بن حُجْر ومهلهل بن ربيعة ، وكتب أرسطاطاليس وعلمه أفلاطون ثم بطلميوس وذو بقراط ^(٢) وفلان وفلان قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور والأحقاب قبل الأحقاب ويدلُّ على حداثة الشعر قول امرئ القيس بن حُجْر ^(٣) .
(من بحر المنسرح)

إِنَّ بَنِي عَوْفٍ ابْتَنَوْا حَسْبًا ^(٤) ضِيْعَةُ الدُّخْلُونِ ^(٥) إِذْ غَدَرُوا
أَدُّوا إِلَى جَارِهِمْ خُفَارَتَهُ وَلَمْ يَضِغْ بِالْمَغِيبِ مِنْ نَصَرُوا
لَا حِمْيَرِيٌّ وَفَى وَلَا عُدَسٌ وَلَا اسْتُ عَيْرٍ يَحْكُمُهَا الثَّفَرُ
لَكِنْ عَوَيْرٌ وَفَى بِذِمَّتِهِ لَا قِصْرٌ عَابَهُ وَلَا عَوْرٌ ^(٦)
فانظر كم كان عُمرُ زُرارةَ وكم كان بين موت زُرارة ومولد النبي عليه الصلاة والسلام . فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فماتى عام . قال وفضيلة الشعر تمصيرة

(١) كتاب الحيوان ج ١ ص ٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ .

(٢) [لعله Hyppocrates الطبيب اليوناني المشهور] .

(٣) راجع ديوان امرئ القيس ص ٣٩ من طبعة باريس ١٨٣٧ أو ص ١٤٢ - ١٤٣ من طبعة مصر ١٣٠٧ مع شرح أبي بكر عاصم بن أيوب البطليوسي أو عدد ٢٧ (ص ١٣٣) من طبعة لندن ١٨٧٠ : AHLWARDT, *The Divans of the six ancient Arabic poets*.

(٤) في كتاب الحيوان : حسناً وهو تصحيف .

(٥) في كتاب الحيوان : الداخلون وهو غلط - قال البطليوسي الدُّخْلُ والدُّخْلُ والدُّخْلُ الذي يداخل الرجل في أمره ويصاحبه عليه وهم الخاصة .

(٦) وروى الشطر في الديوان كذا « لا عور شانه ولا قصر » .

على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب والشعر لا يُستطاع أن يُترجم ولا يجوز عليه النقل إلخ - ولكن في كلام الجاحظ. هذا نظراً. فإنه خطأ أولاً لما قابل عهد الآداب اليونانية النثرية بعهد الشعر العربي ولم ينتبه لعدم كل علاقة بينهما. ثم لو أدق البحث في تاريخ الآداب لوجد أن الشعر سبق سائر الفنون الأدبية المستظرفة عند كل أمة متمدنة كانت أو همجية. ثم لا يلوح كيف تُستنتجُ حداثة الشعر من الأبيات التي أنشدناها لأمير القيس لأنه لا دلالة فيها على سابقية تلك الأبيات لغيرها. ولعله اغتر بقول كثير من علماء اللغة أن مهلهلاً وهو خال أمير القيس أول من قصد القصائد^(١) وهذا القول - ولو صح - لا يدل على عدم وجود أنواع غيرها من الشعر عند من تقدم مهلهلاً من العرب. والحق يقال إن من يسرّح أبصاره في رياض الشعر الجاهلي لا يجد في شذراته التي نجت من أيدي الضياع ما يدل على كونه فناً صغير السن فإن جميع ما نُقِل إلينا منه يظهر لنا في غاية الإتقان وزناً وتقفية وفي نهاية التفنن من الافتخار والتخفيض والزجر والإغراء والوعد والوعيد والتأديب والمدح والغزل والهجاء والوصف والرثاء، وهو يجمع رقة العبارة إلى دقة الإشارة وتأنية التراكيب إلى رشاقة الأساليب. فليس من الممكن مثل هذا الكمال في صناعة حديثة لأنه من المعلوم أن كل مبتدئ لشيء لم يُسبق إليه وكل مستدع لأمر لم يتقدم فيه عليه لا بد من أن يكون قليلاً ثم يكثر وصغيراً ثم يكبر وضعيفاً ثم يتقوى. ومصادقاً لقولنا هذا الإجمالي نأتى فيما بعد بنصوص قديمة غير عربية تدل على أن الكلام المنظوم عند أهل البادية سبق عهد شعر مهلهل وأمير القيس بمدة مديدة. وخلاصة الأمر أن العلماء من العرب الذين قالوا بمدة

(١) راجع كتاب الصلة لابن رثيق ج ١ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ مثلاً.

مائة وخمسين سنة تقريباً للشعر الجاهلي لم يبعدوا عن الصواب إذا فرضنا أنهم إنما أرادوا بذلك ما وصل إلينا من الأشعار القديمة .

ثم من الجدير بالذكر أن جميع ما نعرفه من شعر الجاهلية إنما هو لأهل نجد والحجاز والبحرين أو لمن سكن في هذه الأنحاء وأن أصله من قبائل اليمن . أمّا أهل الحضر من سكّان اليمن ومهرة وحضرموت وعمان فلا يُعرف لهم أبياتٌ صحيحة الرواية لا بالعربية ولا بالحميرية . فعلى مؤرّخ الآداب أن يفحص عن سبب ذلك باعتبار كيفية النقل وأحوال عرب الجاهلية في السياسة وفي نظامهم الاجتماعي . - ثم على الباحث عن آداب العرب القديمة حلّ مسائل أخرى خطيرة الشأن أذكرها هنا سريعاً . أكانت أصلاً علاقة بين الكلام المسجّع والكلام المنظوم ؟ وما السجع في أوائله ؟ وكيف نشأ الكلام الموزون المقفى ؟ أكان الشعر أولاً ذا وزن معين وقافية ؟ وما أصل الوزن والقافية ؟ وكيف توصلت العرب إلى اختراع القصيدة على نمطها الكامل المُتَقَن ؟ ولماذا جعلوا النسيب أول القصيدة ؟ وما كان الشاعر عند العرب القدماء ؟ أكانت لغة الأشعار لغة واحدة ؟ وكيف تكونت هذه اللغة ؟ وعلى أيّ وجه وصلت أشعارُ الجاهلية إلينا ؟ أيعجز لنا أن نثق بصحة رواياتها ؟ وأن نعتمد على الحكايات المروية لشرح الأبيات القديمة ؟ - إن هذه المسائل المهمة وغيرها التي لا نستطيع أن نحلّها جميعها خلاّ نهائياً قاطعاً تكون موضوعَ جملة من محاضراتي بعد إنجاز بيان المقدمات التي نحن بصددّها .

نستفيد من كتب الأدب واللغة أسماء نثف وثمانين شاعراً عاشوا في عصر الجاهلية ولكل واحد منهم تُنشد أبياتٌ وصلت إلينا متفرقة في جملة من الثصانيف : ولكن أكثر ما رُوي من أحوال حياتهم وسبب إنشادهم

الأبيات المنقولة ذو شبه واختلافات وأخبار متناقضة فضلاً عن الخرافات التي إن عرضناها على نار الانتقاد وجدناها لا تصبر عليها هنيئة من الزمان . فلا نستطيع ترتيب تراجمهم على توالي الأزمنة اللهم إلا القليلين منهم ولا نتمكن من تعيين سنة المولد أو الوفاة لأحد منهم فمن أغرب الغرائب أن بعض كتب عربية في آداب لغتكم صُنفت حديثاً وطُبعت بمصر وهي متداولة في المدارس تروى لكل شاعر تذكره من شعراء الجاهلية تاريخ وفاته كأنه معين ثابت ولا شك فيه وذلك من غير دلالة على مصدر تلك التواريخ . فالظاهر أن منبع تلك الأخبار كان أصلاً كتاب روضة الأدب في طبقات شعراء العرب تأليف إسكندر أغا إبكاريوس الذي مات سنة $\frac{1303}{1886}$ ونشر كتابه في بيروت سنة ١٨٥٨م دالاً فيه لكل شاعر على عام وفاته من غير أن يبين كيف استخرج تلك السنين . والمحتمل أنه توصل إليها بالحدس والتخمين مستنداً إلى إشارات غير كافية وجدها في الكتب القديمة ولا فحماً مقطعات الأخبار^(١) . ثم على جرى عادة كثير من المحدثين الناقلين كلام من تقدمهم بغير بصيرة وتمحيص وبغير ذكر مصادرهم أخذ بعض الكتبة في بيروت يقبل تلك التواريخ بلا انتباه ثم اتبعهم في مثل ذلك النقل بعض المتأدبين بمصر فشاعت تلك الأوهام ودخلت في الكتب المدرسية بعدما زيدت عليها غير مرة أغلاط طبع في أرقام الأعداد . - ولكن عدم تعيين التواريخ الموماً إليها ليس ضرراً عظيماً لسببين : الأول أن المدة التي عاش فيها شعراء الجاهلية المنقول إلينا شيء من أبياتهم لا تتجاوز مائة وثلاثين سنة تقريباً كما تقدم .

والثاني أننا نقدر على تعيين تتابع أكثر الفحول بإشارات وردت في نفس

(١) راجع R. GEYER, *Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter* II. (*Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, XVIII, 1904, P. 5, n. 1).

أشعارهم أو بأخبار محققة نُقلت إلينا من الزمان القديم .
 إذا أطلنا النظر والتأمل في شذرات الشعر الجاهلي التي سلّمت من
 التلف واعتبرنا خصائصها من جهة الصيغة والمعاني وجدناها تنقسم إلى أربعة
 أصناف أساسية : الصنف الأول ما نسجه أهل البادية أو من تقرب منهم
 سواء كانوا وثنيين أم يهوديين . الثاني أشعار الوثنيين الذين قصدوا ملوك
 الحيرة وبنى غسان وجالسوهم . الثالث أشعار النصارى بالحيرة أو في مملكة
 بنى غسان . الرابع أشعار أهل الحضر الوثنيين في مدن الحجاز . لا تستغربوا
 عدم الفرق بين الوثنيين واليهود من أهل البادية ووجوده بين الوثنيين والنصارى
 من أهل الحضر لأنكم إذا اطّلعتم على ما وصل إلينا من أشعار اليهود قبل
 الإسلام ما ألفتكم فيها شيئاً أو عبارة يميّزها من سائر أهل البادية . فمن
 طالع مثلاً أبيات السمّوع بن عادِيَاء (مع قطع النظر عن قصيدة واضحة
 التزوير منسوبة إليه لم تُعرف ولم تُطبع إلا حديثاً) لما توهم أن صاحبها تابع
 لدين اليهود . والأمر كذلك أيضاً في سائر أشعار يهود جزيرة العرب مثل
 شُعْبَة ^(١) بن غَرِيض والربيع بن أبي الحَقِيق وغيرهما التي اعتنى بجمعها
 نَوَلْدِك وفرانز دِلِيتش ^(٢) ليس من المستحيل أن ما فُقد من أشعارهم (وهو كثير
 بالإضافة إلى ما حُفِظَ) قد حوى أشياء مما يختصّ بدينهم وليس من المحال
 أيضاً أن الرواة المسلمين امتنعوا عن نقلها لهذا السبب ، ولكن لا يجوز لنا
 الحكم إلا في الموجود المعروف الذي لا يختلف عن شعر أهل البادية الوثنيين
 لا لغة ولا أسلوباً ولا مأخذاً كأن دينهم لم يؤثر في شعرهم البتة .

(١) [إن شعبة تصحيف سبعة (بفتح السين المهملة وسكون الياء) . انظر ما قال الأستاذ
 الإيطالي Levi Della Vida في المجلد P. 1919-21, VIII, Roma. *Rivista degli Studi Orientali*,
 627-628, فليراجع أيضاً ما قال الأستاذ المذكور في سبعة بن غريص في مقاله *A proposito di*
as-Sama' al المطبوعة بالمجلة 62. P. 1931-92, XIII, *Rivista degli Studi Orientali* .
 (٢) NOELDEKE, *Beiträge zur Kenntniss der Poesie der alten Araber*, P. 52-86; F. (٢)
 DELITZSCH, *Jüdisch-arabische Poesien aus vor-muhammedanischer Zeit*, Leipzig 1874.

١ - وإيضاحاً لما قلته من قسمة أشعار الجاهلية أربعة أصناف أذكر هنا أسماء أكبر الشعراء صنفاً صنفاً مع دلالات على خصائصهم بغاية الإيجاز . فأبتدى بالصنف الأول أى أشعار أهل البادية . لا يخفى على أحد وجود رجال بين قدماء العرب كانت أخلاقهم وعوائدهم أقرب للهمجية المحضة منها لأحوال أهل ذات نظام اجتماعي متين فسموا أولئك الرجال صعاليك أى فقراء ولصوصاً معاً وكانوا يعيشون متعزّلين عن نفس قبائلهم جائلين في القفار والبيادر بغاية الاستقلال طالبين رزقهم من الصيد والغصب والغزو كما يفعل في أيامنا المعروفون بالبواقين عند أهل شمر والحجاز الشمالية^(١) ومنهم من نبغ في الشعر على توحش عيشتهم فأشهرهم اثنان ضرب هما الأمثال لكونهما من محاضير العرب ومغاويرهم^(٢) فكثرت فيهما الأخبار العجينة والروايات الغريبة . وهما تَابُطٌ . شَرًّا الفهمي^(٣) والشنفرى الأزدي عاشا في القرن السادس للمسيح وتشاركا أحياناً في غزواتهما . وافتخر تَابُطٌ شراً في قصيدة بلقائه الغولة ومخاطبتها واتخاذها جارة في ليلة مظلمة^(٤) :

وأذهمَ قد جُبْتُ جِلْبَابُهُ كما اجْتَابَتِ الكاعبُ الخَيْعَلَا
إلى أن حَدَا الصُّبْحُ أَثْنَاءَهُ ومزَّقَ جِلْبَابَهُ الأَلْيَلَا
على شَيْمِ نَارٍ تَنَوَّرَتْهَا فَبِتُّ لَهَا مُذْبِرًا مُقْبِلَا
فَأَصْبَحْتُ والغُولُ لى جَارَةٍ فَيَا جَارَتَا أَنْتِ مَا أَهْوَلَا
وطالبتُها بضعها فالتوت بوجه تَهَوَّلَ فاستغولَا

(١) انظر : JACOB, *Altarabisches Beduinenleben*, 2 éd., Berlin 1897, P. 225.

(٢) محضير : كثير العدو . ومغوار : مقاتل كثير الغارات .

(٣) جمع المستشرق الإنكليزي LYALL أربعة أشعار لتابط شراً في المجلد *Journal of the Royal*

Asiatic Society سنة ١٩١٨ ص ٢١١ - ٢٢٧ .

(٤) الأبيات مروية في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٦ من طبعة ليدن ١٩٠٤ والباب التاسع والأربعين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٣ ص ٣١٠ - ٣١٤ من طبعة باريس) وإعجاز القرآن للباقلاني ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣١٥ . خيمل : قميص بدون أكمام - تنوره : تطلع نحوه ببعره .

وما أحسن وصف حال حياته في قصيدة مدح بها عمه شمس بن مالك^(١) :
(من بحر الطويل)

قليلُ التشكُّي للمُهمِّ يُصِيههُ كثيرُ الهوى شتى النوى والمسالِك
يظلُّ بمومةٍ ويُمسي بغيرها جعِيشاً ويعرورى ظهورَ المَهالكِ
ويسبقُ وقد الریح من حيث ينتحي بمنخرقٍ من شدِّ المتدارِكِ
إذا حاصَّ عينيه كرى النوم لم يزل له كالى من قلب شينحان فاتك
ويجعلُ عينيه ربيثة قلبه إلى سلةٍ من حدٍّ أخلق صائك
إذا هزه في عظم قرنٍ تهللت نواجذُ أفواه المنايا الضواحيك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدى بحيث أهدت أم النجوم الشوايك

أما الشنفرى الأزديُّ فصاحب اللامية المشهورة التي يفتخر فيها بانفراده
من قومه ووحشة عيشه في البزاري كأنه لم يعاشر إلا السباع . وهي قصيدة
غاية في الجمال تنطق بلسان حال الشاعر وإن كان بعض التحويين يزعمون
أنها من مصنوعات حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ . ومما يدل أيضاً توحش
عيشته شعر آخر له قال فيه^(٢) :

[و] لَا تَقْبِرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ
إِذَا أَحْتَمَلُوا رَأْسِي فِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي وَغَوْدِرَ عِنْدَ الْمُلتَقَى ثُمَّ سَائِرِي

(١) الأبيات مروية في حاسة أبي تمام من ٤١ - ٤٤ من طبعة بن أوج ١ ص ٤٦ - ٤٩
من طبعة بولاق . - اعروى الفرس : ركه عريا ليس تحته شيء - منخرق : سريع - فاتك :
فاجيء . وقيل إن أم النجوم الشمس وقيل إنها الهجرة .

(٢) الأبيات مروية في حاسة أبي تمام ص ٢٤٢ - ٢٤٣ من طبعة بن (أوج ٢ ص ٢٤ -
٢٥ من طبعة بولاق) وفي NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, Berlin 1890, P.30
- [في تأبط شرا والشنفرى راجع أيضاً مقالتي المستشرق الإيطالي] Francesco
GABRIELI المسماة *Sharr an Shanfarā e Khalaf al-Ahmar* (*Rendiconti dell'Accademia dei lincei, classe scienze morali, serie VIII, vol. I, Roma 1946, P.40-69*);
sull'Autenticità della «*Lamiyyat al-'Arab*» (*Rivista degli Studi Orientali*) XV, Roma 1934, 35
P. 358-361.]

هُنَالِكَ لَا أَرْجُو حَيَاةً تَسُرُّنِي سَجِيسَ الْمَيْلَالِي مُبَسَّلًا بِالْجَرَائِرِ

ثم من الصنف الأول مع بعدهم عن هَمَجِيَّة تَأَبَّط. شراً وَالشَّنْفَرَى أصحابُ ستٍّ من المعلقات السبع الشهيرة أعنى : امرأ القيس وهو أقدمهم ، والحرث بن حِلْزَة ، وَعَمَرَ بن كلثوم ، وعنترة العبسى وزُهَيْرًا ولبيدًا وهو أحدثهم . أمَّا طَرْفَة فمن شعراء الصنف الثاني المجالسين للملوك . وامرؤ القيس ابن حُجْر من آل ملوك كندة عاش في النصف الأول من القرن السادس للمسيح ويقال إنه أمير الشعر لما أدرك فيه من الإتقان فقال ابن قتيبة (١) المتوفى سنة ٢٧٠ أو ٢٧٦ إنه « سبق إلى أشياء ابتدعتها واستحسنها العرب وتبعته عليها الشعراء من استيقافه صَحْبَه في الديار ورقّة النسيب وقرب المأخذ » . وأجوداً أيضاً الوصف والتشابيه فكان كثيرٌ من أهل الأدب والشعر في القرون الماضية يفضلونه على سائر الشعراء واختصر القاضي أبو بكر الباقِلَانِي (٢) حكمهم فيه هكذا (٣) : « وأنت لا تشك في جَوْدَة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته ولا تتوقّف في فصاحته وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أموراً اتبعَ فيها من ذكر الديار والوقوف عليها إلى ما يتصل بذلك من البديع الذي أبدعه والتشبيه الذي أحدثه والتميح الذي يوجد في شعره والتصرف الكثير الذي تُصادِفُه في قوله ، والوجوه التي ينقسم إليها كلامه من صناعة وطبع وسلاسة وعلو ومتانة ورقّة وأسباب تُحمدُ وأُمُورٌ تؤثرُ وتُمدَحُ . وقد ترى الأدباء يوازنون بشعره فلاناً وفلاناً إلخ » . إلّا أنَّ القاضي الباقِلَانِي يقول بوجود ما يُعاب أيضاً في شعر امرئ القيس فيوضح ما يزعمه عواراً في

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٤٠ من طبعة ليدن ١٩٠٤ .

(٢) توفى الباقِلَانِي سنة ٤٠٣ ١٠١٣ هـ م .

(٣) إعجاز القرآن ص ٧٤ من طبعة مصر ١٣١٥ .

معلّقة بالتفصيل المفرط^(١) وربما عدل عن الإنصاف في أقواله لأنّ غرض كتابه إنّما هو البرهان على عدم إعجاز الشعر وإن كان صاحبه من فحول الشعراء وعلى أنّ^(٢) « طريقة الشعر شريعة مورودة ومنزلة مشهودة يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابها ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم وأنت تجد للمتقدم معنى قد طمسه المتأخّر بما أبرّ عليه فيه وتجد للمتأخّر معنى قد أغفله المتقدم وتجد معنى قد توافدا عليه وتوافيا إليه فهما فيه شريكا عنان وكأنهما فيه رضيعا لبان ». أمّا معلّقة امرئ القيس وسائر قصائد ديوانه فأشهر من أن يجب الإطناب في الكلام عليها في هذه النبذة الإجمالية الوجيزة .

ثمّ الذى يتبع امرأ القيس من أصحاب المعلّقات على الترتيب التاريخي هو الحارث بن حلزة اليشكريّ البكريّ الذى ألّف قصيدته المشهورة في أيام عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٥٤ - ٥٦٨ أو ٥٦٩ م) ولا ارتجالاً بين يديه كما يقوله خطأ أكثر كتبة العرب . وغرضها سياسى أعنى حثّ بنى بكر ابن وائل وبنى تغلب بن وائل على ترك التشاكي الباطل لئلا تعود تضرّم جدوة العداوة والحرب بينهما ولا يُنقَض الصلح المنعقد عند المنذر بن ماء السماء^(٣) ملك الحيرة (نحو ٥٠٦ - ٥٥٤ م) بعد الحرب الطويلة الشهيرة بحزب البسوس . وبعد الحارث بمدة غير مديدة ألّف عمرو بن كلثوم التغلبيّ^(٤) معلّقة التى تشير أيضاً إلى ما كان قد بدأ بين حيتى بكر وتغلب من

(١) إعجاز القرآن ص ٧٥ - ٨٥ من طبعة مصر ١٣١٥ م .

(٢) إعجاز القرآن ص ٨٦ .

(٣) ولا عند عمرو بن المنذر بن ماء السماء كما يقال أيضاً فليراجع في هذه المسألة ما كتب المنشرق NOELDEKE في كتابه (*Fünf Mo'allagat*, I., Wien 1899, P. 54).

(٤) [طبع ديوانا الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم في مجلة المشرق ص ٥٩١ - ٦١١ من السنة العشرين ١٩٢٢] .

العداوة . ويُندِر فيها الشاعر بل يرعب عمرو بن هند الملك لميله إلى بكر
ويوعِد البكرين وثوبَ بنى تغلب عليهم إن لم ينقطعوا عن التحريض .
وهي قصيدة غاية في الفخر لا تكاد تفوق فيه عليها غيرها فلا عجب أن
بنى تغلب لم تزل تعظمها جداً يرويها صغارها وكبارها في القرن التالي
لظهور الإسلام حتى قال بعض الشعراء يهجوهم ^(١) :

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عَنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ قَصِيدَةً قَالَهَا عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ
يُفَاخِرُونَ بِهَا مُذْ كَانَ أَوَّلُهُمْ يَا لَلرِّجَالِ لِفَخْرِ غَيْرِ مَشُومٍ
ومما تنفرد به معلقتنا الحارث وعمرو عن أغلب سائر قصائد الجاهلية أن
مُعْظَمَهَا يدور على الموضوع الأساسي فلا تبقى فيهما للغزل والوصف وسائر لواحق
القصائد إلا أبيات قليلة جداً . ثم تتشابهان أيضاً خلافاً للمعلقات الأخرى
لأن صاحبيهما كأنهما يقولان الشعر باسم قومهما جميعاً وهما يخاطبان ملكاً
ذا شأن عظيم ولا يدخلان في أمورهما أو أهوائهما الشخصية ما عدا النسب
الذي تبتدئ القصيدتان به .

وفي السنين العشرين الأخيرة من القرن السادس للمسيح قال عنتر بن
شداد العبسي معلقته في الفخر والحماسة وصف فيها فضله وأفعاله المجيدة
في الحرب وبسالته في القتال وقدر ما أهان هائل الأخطار والموت . كيف
لا وهو من أشجع العرب وأعلامهم همّة وأعزهم نفساً ضرب به الأمثال واتخذ
كأنموذج الفتي الكامل المروءة والشجاعة فلم يزل صيته يطير في كل الأنحاء
لما أُلِّف فيه من القصص والروايات العجيبة المتداولة بين العوام حتى الآن
المعروفة بسيرة عنتر . وديوان أشعاره أيضاً كله فخر وحماسة مع العرض

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٢٠ من طبعة ليدن ، والبيتان مرويان أيضاً في
الأغانى ج ٩ ص ١٨٣ من طبعة بولاق وكتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٢٠٤ من طبعة غوتنجن
سنة ١٨٥٤ .

فيه عن توحش الشنفرى وعن كل تنافر الألفاظ. وخشونة المعاني .
 ونحو سنة ستمائة للمسيح أى اثنتين وعشرين قبل الهجرة أنشد زهير
 ابن أبى سلمى المزنى معلقته يمدح فيها هرم بن سنان والهارث بن عوف
 من سرّوات العرب اللذين بتحملهما أغباء الدية أزالا الحرب^(١) وأتما الصلح
 بين قبيلتى عبس وذبيان ، ويحث الناس على الخير والمحبة . وهذه المعلقة
 تختلف عن المعلقات السابق ذكرها لما تحويه من عبارات الحلم والورع ومن
 النصائح والحكم تجنب زهير فيها فى سائر أشعاره عن الوحشية والفخر .
 فأحسن ما قيل فيه أنه لم يمدح أحداً إلا بما فيه . قال أبو منصور الثعالبي
 المتوفى سنة ٤٣٨ هـ فى كتاب خاص الخاص^(٢) : «لأنه أجمع الشعراء للكثير
 من المعاني فى القليل من الألفاظ . وأبياته التى فى آخر قصيدته التى أولها
 * أمِنَ أمِرٍ أوفى دمنة لم تكلم * تشبه كلام الأنبياء عليهم الصلاة
 والسلام وهى غرة حكم العرب ونهاية فى الحُسن والجودة تجرى مجرى الأمثال
 الرائعة الرائقة وهى^(٣) :

وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخُلْ بِفَضْلِهِ	على قومه يُسْتَفَنَ عنه وَيُذَمُّ
وَمَنْ يَغْتَرِبَ يَخْسِبُ عَدُوًّا صَدِيقَهُ	ومن لا يَكِرَّمُ نَفْسَهُ لا يُكْرَمُ
وَمَنْ لا يَذُّدُ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ	يُهْدَمُ ومن لا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ
ومهما تكنْ عند امرئ من خَلِيقَةٍ	ولو خالها تخفى على الناس تُعْلَمُ
وَمَنْ لا يُصَانِعُ فى أُمُورٍ كَثِيرَةٍ	يُضْرَرُّ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِحَنَسِمٍ

فترون من كل ما تقدم كم فرق بين أكثر أشعار زهير وبين أكثر أشعار

(١) يعنى الحرب المعروفة بحرب داحس والغبراء .

(٢) كتاب خاص الخاص ص ٧٥ من طبعة مصر ١٣٢٦ وانظر أيضاً كتابه الإعجاز والإيجاز

ص ٣٧ من القسطنطينية سنة ١٣٠١ .

(٣) هكذا روى أبو منصور الثعالبي الأبيات فى كتابه المذكور فليراجع معلقة زهير .

السابقين له كأنَّ زهيراً أحسَّ بتقرب عهد جديد أغنى عهد الإسلام الذي بُدِّلَ فيه التوحُّشُ والجهلُ القديم بتهذيب الأخلاق والحِلْمِ . - وممَّن اتَّبَعَ من هذه الجهة طريقة زهير ونظم في شعره درر المواعظ- والحِكمَ والتأمل لبَّيد ابن ربيعة العامري الذي أدرك الإسلام إلاَّ أنَّه لم يقلْ في عهده إلاَّ بيتاً واحداً اختلفت الرواة فيه . ومات على القول المرجَّح سنة ٦٦١-٦٦٢ وهو كبير السنِّ وألَّف معلقته بين سنة ٦١٠ و ٦٢٥ م تقريباً . ومن طالعها وجد فيها الفخر بيد أنَّ هذا الافتخار ليس بالشجاعة والأفعال الحربيَّة مثل ما ورد في معلقة عنتره بل إنَّما هو بالمكرِّمات ومكارم الأخلاق ، ومن المشهور ما في ديوانه من العبارات الدينيَّة بل الشبيهة بالعقائد الإسلاميَّة مثل ^(١) (من بحر الرمل) .

إِنَّ تَقْوَى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفَلٌ وبإذن الله رَيْثِي وَعَجَلٌ
أَحْمَدُ اللهَ فَلَإِ نِدًّا لَهُ بِيَدِيهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلٌ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ أَهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُّ

ولكن ليس كلُّ ما يُنسب إليه في ديوانه من هذا الباب صحيحاً بل لا اختلاف في بعض الأشعار أنَّها مصنوعة .

إنَّ أصحابَ المَلَقَاتِ السَّتِّ (أى ما عدا معلقة طرفة) أشعرُ الشعراء من الصنف الأول مع أنَّ شعراء آخرين نبَّغوا في عهدهم في قبائل العرب فوصلت إلينا جملةٌ من مآثرهم . منهم عُرْوَةُ بْنُ الْوَرْدِ وهو عَبَسِيٌّ مثل عنتره

(١) ديوان لبَّيد المطبوع بليدن سنة ١٨٩١ عدد ٣٩ بيت ١ - ٣ .

(٢) ديوان عروة بن الورد المطبوع بغوتنجن سنة ١٨٦٣ عدد ٣ بيت ١٣ - ٢١ . والأبيات مروية أيضاً في الأصمعيات عدد ٣١ (ص ٢٩ - ٣٠ من طبعة برلين سنة ١٩٠٢) وحامسة أبي تمام ص ٢٠٨ - ٢٠٩ من طبعة بن (أو ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ من طبعة بولاق) وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٤ - ١٩٦ من طبعة بولاق ١٢٩٩ . - وما يذلل على كراهة العرب للعمل اليدوي بيت جرير في ديوانه ج ١ ص ١١٧ سطر ١٣ من طبعة مصر سنة ١٣١٣ [ج ١ ص ٢٦٢ سطر ٨ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

ومات قُبَيْلَ الإسلام . واشتهر مثل عنترة بالشجاعة والفضل ، ومن أحسن شعره أبيات وصف فيها فضيلة الفقير الحرّ الباسل وذمّ الذي يُسْتَأْجَرُ شِغْلُهُ (٢) :

لَحَى اللَّهُ صُغْلُوكَا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ | مُصَافِي الْمُشَاشِ آلِفَا كُلَّ مَجْزَرٍ
يَعُدُّ الْغَنَى مِنْ دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ | أَصَابَ قِرَاحَا مِنْ صَدِيقٍ مُيَسَّرٍ
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ طَاوِيَا | يَحُبُّ الْحَصَى عَنْ جَنْبِهِ الْمُتَعَفَّرُ
قَلِيلَ التِّمَاسِ الزَّادِ إِلَّا لِنَفْسِهِ | إِذَا هُوَ أَهْتَى كَالْعَرِيشِ الْمُجَوَّرُ
يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَعِينُهُ | فَيُتَمَسِي طَلِيحًا كَالْبَعِيرِ الْمُحَسَّرِ
وَلَكِنْ صُغْلُوكَا صَحِيفَةً وَجْهَهُ | كَضَوْءِ شِهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوَّرِ
مُطِلًّا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ | بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمُشْهُرِ
فَإِنْ بَعُدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ | تَشَوُّفَ أَهْلِ الْغَائِبِ الْمُتَنَظَّرِ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَنِيَّةَ يَلْقَاهَا | حَمِيدًا وَإِنْ يَسْتَعْنِ يَوْمًا فَأَجْدِرِ

ومن الشعراء المجيدين حاتم بن عبد الله الطائي المضروب المثل بجوده الوافر. فقل إن بنته وصفته بين يدي النبي على هذه الصفة : « كان أبي يفك العاني ويخمي الذمار ويقري الضيف ويشبع الجائع ويفرج عن المكروب ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط. » (١) . وقال ابن الأعرابي إنه « كان جواداً يشبه شعره جوده ويصدق قوله فعله إذا غنم أنهب وإذا سئل وهب . . وإذا أسر أطلق » (٢) . عاش بعد منتصف القرن السادس للمسيح وأدرك أوائل السابع وله ديوان مشهور إلا أن في صحته بعض أشعاره نظراً فظاهر أن أبياتاً مجهولاً اسم منشدها إنما عزيت إلى حاتم لما فيها من مدح الجود والكرم .

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٩٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٩٧ - ٩٨ من طبعة بولاق .

وممن كان بعد منتصف القرن السادس الأفوه الأودى سيد قومهم وقائدهم
في حروبهم عدّه العرب من حكمائها لما ورد من الحكيم في أبياته منها (١)
(من بحر البسيط) :

لا يصلح الناس قَوْضَى لاسرّة لهم ولا سرّة إذا جهّالهم سادوا
والبيت لا يبتنى إلا له عمُد ولا عماد إذا لم تُرَس أوتادُ
وأن تَجْمَعَ أوتادُ وأعمدة يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

وممن كان وفاته قبل الإسلام بقليل ذو الإصْبَع العدواني صاحب الغارات
الكثيرة والوقائع المشهورة والحكم والوصايا . ومنهم سلامة بن جندل التميمي
من فرسان العرب الذي يروى عنه ديوان صغير (٢) أكثره في الحماسة والفخر
مع شيء جميل من الوصف والتشبيه .

وممن أدرك الإسلام مع وقوع جميع شعره في الجاهلية دُرَيْد بن الصَّمَّة
الجُشَمي أحد الشُّجْعان المشهورين وذوى الرأى الذى شهد يوم حُنَيْن
سنة ٦٢٩-٦٣٠ هـ فقتل فيه (وهو كبير السن جداً) فيمن قُتل من الوثنيين .
ومنهم أيضاً شعراء غير المذكورين لا فائدة في سرد أسمائهم في هذه النبذة .
وقبل أن نختم الكلام على هذا الصنف الأول من شعراء الجاهلية لابد
من الإشارة إلى جرّى النساء أيضاً من أهل البادية في ميدان الشعر لا سيما
في المراثى فإنهن استنبطن « في هذا الباب أساليب بديعة لم يتنبّه لها الفحول

(١) الأبيات مروية في العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٥ من طبعة مصر ١٣٠٢ . وروى
القالي في أماليه القصيدة كلها (راجع ج ٢ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أو ج
٢ ص ٢٢٤ - ٢٢٥ من طبعة مصر ١٣٤٤]) . [أما ديوان الأفوه فهو مطبوع في كتاب الطرائف
الأدبية بمصر سنة ١٩٣٧] .

(٢) - [عن بطبعه المستشرق Huart في المجلة الفرنسية, *Journal Asiatique*, série X, vol. 15, 1910, P. 71-105 والأب لويس شيخو في بيروت سنة ١٩٢١] .

لَمَّا طُبِعْنَ عَلَيْهِ مِنْ رِقَّةِ الطَّبَاعِ وَشِدَّةِ الْجَزَعِ فِي الْمَصَائِبِ وَصَدَقَ الْحِسُّ
فِيُبْرِزْنَ عَوَاطِفَهُنَّ بِشَعْرِ سَلِسٍ وَكَلَامٍ لَيِّنٍ قَرِيبٍ الْمَأْخُذِ يَكَادُ يَسِيلُ رِقَّةً
وَانْسِجَاماً^(١) . فتعلمون أَنَّ الْأَبَّ لُوَيْسَ شَيْخُو أَفْرَدَ لَهُنَّ كِتَاباً جَمَعَ فِيهِ
كُلَّ مَا تَسَّرَ لَهُ مِنْ مَرَاثِي إِحْدَى وَسِتِّينَ شَاعِراً مِنْ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ مَا عَدَا
دِيَوَانَ الْخَنْسَاءِ الَّذِي نَشَرَهُ عَلَى حِدَةٍ^(٢) . أمَّا أَشْعَارُ الْخَنْسَاءِ فِي رِثَاءِ
أَخَوَيْهَا صَخْرٍ وَمَعَاوِيَةَ فَشَهِيرَةٌ قَالَتْهَا جَمِيعُهَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ مَعَ أَنَّهَا أُدْرِكَتْ
خِلَافَةَ عُمَرَ^(٣) .

٢- فلننتقل إِلَى الصَّنْفِ الثَّانِي مِنْ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ أَعْنَى إِلَى الشُّعْرَاءِ
الْوُثْنِيِّينَ الَّذِينَ لَازَمُوا أَبْوَابَ مُلُوكِ الْحَيْرَةِ وَغَسَّانَ وَمَدَحُوهُمْ وَامْتَنَعُوا عَنْ خَشُونَةِ
أَهْلِ الْبَادِيَةِ لِتَقَرُّبِهِمْ مِنْ أَحْوَالِ سَكَّانِ الْمَدَنِ وَالرِّفَاحِيَّةِ وَالتَّرَفِّ . فَمَدَحُهُمْ
لِلْمُلُوكِ لَيْسَ كَمَدْحِ شُعْرَاءِ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ لِسَادَةِ قَوْمِهِمْ لَمَّا أَدْخَلُوا فِيهِ مِنْ إِفْرَاطِ
الْمَلَقِ وَافْتِخَارِهِمْ بِالْحِمَاسَةِ لَيْسَ إِلَّا قَلِيلاً وَوَصْفُهُمْ يَجْرِي أحياناً فِي مَجَالٍ
مُخْتَلَفٍ عَنْ مَجَالِ وَصْفِ أَهْلِ الْبَرَارِيِّ ، وَالْغَزَلِ وَذِكْرِ الْخَمْرِ فِي قِصَائِهِمْ يَتَّبَعَانِ
مَذْهَبَ أَهْلِ الْمَدَنِ . وَرَبِّمَا أَخَذُوا عَنْ نَصَارَى الْحَيْرَةِ وَغَسَّانَ مَعَانِي وَعِبَارَاتٍ
دِينِيَّةً جَدِيدَةً لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهَا أَحَدُ شُعْرَاءِ الصَّنْفِ الْأَوَّلِ .

لَكَانَ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ الْكَلْبِيُّ مِنْ أَقْدَمِ شُعْرَاءِ الصَّنْفِ الثَّانِي لَوْ صَحَّتْ
قِطْعَةُ شَعْرِ مَنْسُوبَةٍ إِلَيْهِ وَرَدَتْ فِي كِتَابِ الْأَغَانِيِّ لِأَبِي الْفَرَجِ عَلَى الْأَصْفَهَانِيِّ^(٤)

(١) رِيَاضُ الْأَدَبِ فِي مَرَاثِي شَوَاعِرِ الْعَرَبِ لِلْأَبِّ لُوَيْسِ شَيْخُو ص ١ مِنْ طَبْعَةِ بَيْرُوتِ
سَنَةِ ١٨٩٧ .

(٢) بَيْرُوتُ سَنَةِ ١٨٨٦ وَطُبِعَ أَيْضاً دِيَوَانُ الْخَنْسَاءِ فِي بَيْرُوتِ سَنَةِ ١٨٨٨ وَ ١٨٨٩ (وَيْلِيهِ
الترجمة الفرنسية) فِي مِصْرَ سَنَةِ ١٨٨٨ وَ ١٣٢٦ [و ١٣٤٨] .

(٣) فِي الْخَنْسَاءِ رَاجِعِ G. GABRIELI, *I tempi la vita nel conzoniere della postessa araba*
al-Khansa Firenze 1899 (2 ed., Roma 1944); N. RHODOKANAKIS, *al-Khansa und ihre*
Trauerlieder, Wien 1904.

(٤) الْأَغَانِي ج ٢١ (الطُبُوعُ بَلِيدَنْ سَنَةِ ١٣٠٦ هـ ١٨٨٨ م) ص ١٠٠ .

وفي كتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني^(١) المتوفى فيما بين سنتي ٢٥٠ و ٢٥٥ وفي عدة كتب أخرى :

لقد عُمِّرتُ حتى لا أبالي أحتفى في صباحي أو مساءي
وحق لمن أتت مائتان عاماً عليه أن يملّ من الشواء
شهدت الموقدين على خزازي وبالسلانِ جمعاً ذا زُهاء
ونادمتُ الملوك من آل عمرو وبعدهمُ بني ماء السماء

والمراد بآل عمرو على المحتمل ملوك كِنْدَة أي بني عمرو بن حُجْر والمراد ببني ماء السماء المنذر بن ماء السماء الذي تولى مُلْك الحيرة من سنة ٥٠٥ أو ٥٠٦ م إلى شهر يونيو سنة ٥٠٤ م . ولكن مع قطع النظر عما في صحة تلك الأبيات من الشك لا نجدُ فيما نُقل إلينا من أشعاره وأخباره شيئاً غير هذه الأبيات يدلّ على ملازمته ملوك الحيرة بل إن شعره شعرٌ بدويٌّ محض كما يصلح لمن قيل إنّه « كان سيّد بني كَلْب وقائدهم في حروبهم وكان شجاعاً مظفراً ميمون النقيبة في غزواته »^(٢) .

فأول من نتحقق ملازمته ملوك الحيرة من الشعراء الوثنيين عبيد بن الأبرص الأسديّ مجالس المنذر بن ماء السماء السابق ذكره . وشعره سليس اللفظ . ووصفه مصيب وهو يفتخر أحياناً على منوال أهل البادية فلما قُتل والد امرئ القيس الشاعر بيد بني أسد ورثاه امرؤ القيس وقال إنّه يأخذ ثأر أبيه بقتل جُمّة من الأسديين أنشد عبيد في قصيدة طويلة^(٣) :

(١) كتاب المعمرين ص ٢٦ - ٢٧ من طبعة ليدن ١٨٩٩ . أما خزازي والسلان فهما من أيام العرب قبل حرب البسوس بقليل أي في أواخر القرن الخامس للميلاد .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٩٣ - ٩٤ . [وفي نسخة شعر زهير بن جناب نظر فليراجع ما قال الأب Lammens في كتابه المسمى [*Le berceau de l'Islam*, Roma 1914, P. 319-321]

(٣) رويت الأبيات في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤٣-١٤٤ من طبعة ليدن ١٩٠٤ والأغاني ج ١٩ ص ٨٥ من طبعة بولاق [وديوان عبيد قصيدة عدد ١٧ بيت ١ إلى ٧ من طبعة ليدن ١٩١٣] .

يا ذا المُخَوِّفَنَّا بَقْتَهُ لَ أَبِيهِ إِذْ لَآ وَحَيْنَا
 أَزَعَمْتَ أَنَّكَ قَدْ قَتَلْتَ سَرَاتِنَا كَذِباً وَمِينَا
 هَلَّا عَلَى حُجْرٍ بَنٍ أَمْ قَطَامٍ تَبْكِي لَا عَلَيْنَا
 إِنَّا إِذَا عَضُّ الثِّقَا فُ بِرَأْسٍ صَعَدْتَنَا لَوِينَا
 نَحْمَى حَقِيقَتَنَا وَبَعْدَ ضُ الْقَوْمِ يَسْقُطُ بَيْنَ بَيْنَا
 هَلَّا سَأَلْتَ جُمُوعَ كِنْدَ مَدَّةٍ يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنَا
 أَيَّامَ نَضْرِبُ هَامَهُمْ بِبَوَاتِرٍ حَتَّى أَنْحَنِينَا

ولكن أكثر ما وصل إلينا من شعره يجرى في الحكمة والاعتبار فمن هذا الباب مُعْظَمُ قصيدته البائية الشهيرة التي عدّها بعض اللغويين من المعلقات. وفيها أيضاً من الوصف ما يدلُّ على معرفة الشاعر بنهر الفرات وتُرْعِهِ القريبة من الحيرة حين قال في الدموع (١):

أَوْ فَلَجَ بِبَطْنٍ وَادٍ لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهِ قَسِيبُ
 أَوْ جَدَوَلٍ فِي ظِلَالِ نَخْلٍ لِلْمَاءِ مِنْ تَحْتِهِ سُكُوبُ

فظاهر أنَّ هذا الوصف لا يوافق أحوال أقاليم جزيرة العرب المتوسطة التي ليس فيها أنهار . وعبيدُ أمر الملك المنذر بن ماء السماء بقتله في حكاية مشهورة يطول ذكرها هنا (٢) .

وممن جالس عمرو بن هند (٥٥٤ - ٥٦٨ أو ٥٦٩) طَرْفَةُ بن العبد أحد أصحاب المعلقات السبع وأقلهم عُمرًا لأنَّه قُتِلَ بِأَمْرِ الْمَلِكِ وَهُوَ ابْنُ سِتٍّ وَعِشْرِينَ سَنَةً . وهو يفتخر في شعره بشرب الخمر أكثر منه بالشجاعة

(١) كتاب شرح القصائد العشر . . . تصنيف أبي زكرياء . . . العبريزي طبعة كلكتة سنة ١٨٩٢ - ١٨٩٣ بيت ٩ و ١٠ من شعر عبيد [وديوان عبيد قصيدة عدد ١ بيت ٩ و ١٠] .

(٢) [راجع في عبيد مقالة الأستاذ FRANCESCO GABRIELI المسماة *La poesia di 'Abid Ibn al-Abras*

Rendiconti dell' Accademia d'Italia, classe scienze morali, serie VII, vol. I, Roma

1940, P. 240-251.]

والحماسة ويعتبر زوال كلِّ أمور الدنيا كما يعتبره لبيد ولكنه لا يستنتج من ذلك الاعتبار وجوبَ الزهد فإنَّما يقصِد لذات العيش . وفي معلقته أبيات تدلُّ على قربه من الفرات والبحر (من الطويل) (١) :

كَأَنَّ حُدُوجَ المَالِكِيَّةِ غُدُوَّةٌ خَلَايا سَفِينٍ بالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدٍ
عَدَوْلِيَّةٍ أَوْ مِنْ سَفِينٍ بِنِ يَمِينٍ يَجُورُ بِهَا المَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ حَبَابَ المَاءِ حَيَزُومُهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التَّرْبُ المُفَايِلُ بِالْيَدِ
وفي نفس معلقته عند وصف ناقتة قال (٢) :

وَأَتْلَعُ نَهَاضٌ إِذَا صَعِدَتْ بِهِ كُسُكَّانٍ بِوَصْيٍ بِدَجَلَةٍ مُضْعِدِ
ومن حاملي لواء الشعر أيضاً المتلمس خالُ طرفة وحكايته مع الملك عمرو ابن هند أشهر من أن أذكرها . وعاصره أوس بن حَجَر التميمي الذي قال فيه أبو عمرو بن العلاء (٣) : « كان أوس فحلَّ مُضَرَّ حَتَّى نَشَأَ النَابِغَةُ وَزَهِيرُ فَأَخْمَلَاهُ » . وقال أبو ذؤيب : « وكان أوس عاقلاً في شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق وهو من أوصفهم للحُمُر ولا سِيَّما للقوس وسبق إلى دقيق المعاني وإلى أمثال كثيرة » . وإذا اطلعنا على ما نُقِلَ إلينا من شعره وجدناه غير بعيد من أسلوب شعراء الصنف الأوَّل المعاصرين له مع تقربه من الملوك والمدن . ومن الجدير بالذكر أنه ربَّما استعمل في أبياته عبارات أقرب لدين النصارى منها للمذاهب الوثنيين ثم إنَّ زُهَيْر بن أَبِي سُلَمَى كان راوياً شعره .

ولكن الذي فاز في قريضه بالرتبة العُلْيَا من شعراء ملوك الحيرة وغسان وكان من أبرز المبرزين في ميدان الشعر هو النابغة الذبياني فقدَّمه بعض

(١) معلقة طرفة بيت ٣ إلى ٥ .

(٢) معلقة طرفة بيت ٢٨ .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٩ من الطبعة اليدنية .

أهل الأدب والشعر على امرئ القيس^(١) وقالوا إنه أوضح الشعراء القدماء معنى وأبعدهم غاية وأكثرهم فائدة^(٢). وقيل أيضاً إنه « أحسنهم^(٣) ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً كان شعره كلاماً ليس فيه تكلف ونبغ بعد ما احتنك وهدلك قبل أن يهتر^(٤) ». - كان مع المنذر بن ماء السماء (نحو ٥٠٦ - ٥٥٤ م) والمنذر بن المنذر (نحو ٥٧٦ - ٥٨٠ م) وأبي قابوس النعمان بن المنذر (نحو ٥٨٠ - ٦٠٢ م) فلماً وشى به إلى النعمان هرب منه إلى عمرو بن الحارث من ملوك غسان في الشام ومدحه بقصائد مشهورة ذكر فيها شجاعة الغسانيين في الحرب وكثرة من يقتلونهم من الأعداء^(٥) :
 إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدى بعصائب
 فهم يستاقون المنية بينهم بأيديهم بيض رقاق المضارب
 ووصف فيها أيضاً ما كان لهم من الترف والرّفه^(٥) :

محلّتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب
 رقاق النعال طيب حُجْراتهم يُحيون بالريحان يوم السباسب
 تُحييهم بيض الولائد بينهم وأكسية الإضرىج فوق المشاجب
 يصونون أجساداً قديماً نعيمها بمخالصة الأزدان خضر المناكب

(١) [راجع أيضاً كتاب فعلة الشعراء للأصمعي المطبوع في *Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft*, LXV, 1911, P. 492.]

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٢٦ من طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ - ١٣١٠ .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٧٠ من طبعة ليدن . - واحتنك : أحكته التجارب أى جعلته حكيماً . واهتر : فقد عقله من الكبر والمرض .

(٤) ديوان النابغة الذبياني عدد ١ بيت ١٠ و ١٧ من طبعة لندن ١٨٧٠ (*The Divans of the six Arabic poets*) وعدد ٣ بيت ١٠ و ١٧ من طبعة باريس ١٨٦٩ و ص ٤٣ و ٤٤ من طبعة مصر سنة ١٣٢٨ [وانظر ما قاله في هذه الطبعة الأستاذ نلينوف في *Raccolta di scritti editi e inediti*, vol. III, Roma 1941, P. 174-176] .

(٥) ديوان عدد ١ بيت ٢٤ إلى ٢٩ من طبعة لندن أو عدد ٣ أبيات ٢٤ إلى ٢٩ من طبعة باريس ١٨٦٩ أو ص ٤٥ من طبعة مصر ١٣٢٨ .

ولا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرًّا بَعْدَهُ ولا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةً لَا زِبِ
 حَبَوْتُ بِهَا غَسَّانَ إِذْ كُنْتُ لَاحِقًا بِقَوْمِي وَإِذْ أُغِيَتْ عَلَيَّ مَذاهِبِي
 فترون ما بين هذا المدح وبين مدح شعراء البادية من البون الشاسع .
 وبعد إقامة سنين عند بني غَسَّان رَجَعَ إلى الحيرة وجالس الملك النعمان
 ثانيةً إلى موت الملك سنة ٦٠٢ م ثم عاش في قبيلة ذبيان ومات قبل ظهور
 الإسلام . ووصف بديع الزمان الهمذاني في مقالته الأولى ^(١) شعر النابغة
 فقال : « ينسبُ إذا عَشِقَ ويثَلِّبُ إذا حَنَقَ ويمدِّح إذا رَغِبَ ويعتذر إذا
 رَهَبَ » . وقال الأصمعي ^(٢) : « كفاك من الشعراء أربعة زهير إذا طرب
 والنابغة إذا رهب والأعشى إذا غضب وعنترة إذا كلب » - أمّا ما يُلام
 النابغة عليه فإنه أوّل فحول الشعراء لم يقل الشعر إلاّ طَمَعًا في الكسب .
 قال ابن رشيق القيرواني المتوفى سنة ٤٦٣ في كتاب العمدة ^(٣) : « كانت
 العرب لا تتكسّب بالشعر وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن
 يدٍ لا يستطيع على أداء حقّها إلاّ بالشكر إعظاماً لها . . . حتى نشأ النابغة
 اللدبياني فمدح الملوك وقبيل الصلة على الشعر ونخّص للنعمان بن المنذر
 وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك
 غَسَّان فسقطت منزلته وتكسّب مالا جسيما حتى كان أكله وشربه في صحاف
 الذهب والفضة وأوانيّه من عطاء الملوك . وتكسّب زهير بن أبي سُلمى بالشعر
 يسيراً مع هَرَم بن سنان . فلمّا جاء الأعشى جعل الشعر متجزّراً يتجرّ به
 نحو البلدان » .

والأعشى هذا هو ميمون بن قيس من شعراء الصنف الثاني أيضاً المشهور

(١) ص ٢ من طبعة بيروت ١٨٨٩ .

(٢) جمهرة أشعار العرب ص ٢٦ من طبعة بولاق والمزهر للسيوطي ج ٢ ص ٢٩٧ من طبعة مصر

١٣٢٥ .

(٣) كتاب العمدة ج ١ ص ٤٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

برقة شعره لفظاً وتفننه بحراً ، نادم ملوك الحيرة . وكثر شعره في وصف التميّان والخمر كأنه من شعراء عصر العباسيين الأوّل في زمان هارون الرشيد . وفي أبياته أيضاً أقوالٌ تتقرّب من اعتقادات النصارى فجاء في ذلك في كتاب الأغاني^(١) ، ما نصّه : « قال لي يحيى بن متى راوية الأعشى وكان نصرانياً عبادياً وكان معمرًا قال كان الأعشى قدرياً وكان لبيد مثبّتاً قال لبيد : من هداه سُبُلُ الخير اهتدى ناعمُ البال ومن شاء أضلَّ وقال الأعشى :

إِسْتَأْذَرَ اللَّهَ بِالْوَفَاءِ وَبِالْعَدْلِ وَوَلَّى الْمَلَامَةَ الرَّجُلَا^(٢)

قلت فمن أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال من قبل العباديين نصارى الحيرة كان يأتِيهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك « . - وأدرك الأعشى الإسلام فقصيدته الجميلة التي مدح فيها النبيّ مشهورة .

ممن يدخل جزئياً في الصنف الثاني من شعراء الجاهلية لللازمته ملوك بني غسان مدة سنين وذلك قبل الهجرة النبوية هو حسان بن ثابت المأود بيشرب (المدينة) المتوفى سنة ٥٤ بعدما طعن في السن . فإن أجمل شعره ما قاله في الجاهلية واصفاً ملاذ عيشته في جلق وغيرها من قرى الشام رمادحاً الملوك الغسانيين الذين كان يفد عليهم لينال منهم الهدايا والجوائز . ففي كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٠ أو ٢٧٦ ما نصّه^(٣) : « قال الأضمعيّ الشعرُ نكدٌ بآبُهُ الشرُّ فإذا دخل في الخير ضُف . هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره .

(١) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٧٩ من طبعة بولاق .

(٢) استأثر به : استبد به ونخص به - ولّى : جعله والياً عليه .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٧٠ من طبعة ليدن .

وقال مرة أخرى شعرُ حَسَّان في الجاهليَّة من أجود الشعر فقطع متنهُ في الإسلام لحال النبيِّ صلعم ^(١). ومن جيّد شعره وأشهره قصيدة أولها «أسألت رَسْمَ الدار أم لم تسأل ^(٢) مدح فيها ملوك بني غَسَّان ووصف لذيذ عيشه في الشام وافتخر بعشيرته من الخَزَرَج . وهي لينة الألفاظ . أسهل فهمًا من قصائد شعراء الصنف الأول بكثير وفيها من المدح ما يليق بملوك أهل المَدَر المتمتعين بأنواع الترف والرفاهية ثم إن إطناب الشاعر في وصف الخمر يبعد عن أسلوب شعراء أهل البادية كما يبعد عنه أيضاً الافتخار بقومه المقصور في بلاغة خطّابهم ووفدهم على أبواب الملوك . - أمّا أشعار حَسَّان في عهد الإسلام فهي على نمط غير هذا فسيأتي الكلام عليها فيما بعد إن شاء الله .

٣- وهذا أوان ذكر الصنف الثالث من الشعر الجاهليّ أعنى شعر

النصارى المقيمين في مملكة اللخميّين بالبحيرة وما يليها وفي مملكة بني غَسَّان فيما بين الشام والبادية . - لا يخفى عليكم أن الأب لويس شيخو بما له من اليد الطولى في الآداب العربيّة نشر سنة ١٨٩١ م في بيروت القسم الأول من كتابه المسمّى بشعراء النصرانيّة وهو عبارة عن مجلد ضخّم جمع فيه من عدّة كتب جملة وافرة من أشعار عهد الجاهليّة زاعماً أن أصحابها كانوا يدينون بدين النصارى . ولكنّه بالغ في ظنّه هذا أيّ مبالغة كأنّه زعم نصرانيّاً كلّ شاعر جاهليّ لم يوصف صريحاً باليهوديّة وورد في شعره شيء ممّا يتقرّب

(١) وهذا الحكم الذي أثرت فيه كراهة بعض أهل الدين للشعر يوافق قول أبي منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٠ في كتاب خاص الخاص ص ٨٠ من طبعة مصر سنة ١٣٢٦/١٩٠٨ « من عجائب أمر حسان أنه كان رضى الله عنه يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جداً ويغير في نواصي الفحول ويدعى أن له شيطاناً يقول الشعر على لسانه كمادة الشعراء في ذلك . . . فلما أدرك الإسلام وتبدل الشيطان الملك تراجع شعره وكاد يرك قوله ليعلم أن الشيطان أصلح للشاعر وأليق به وأذهب في طريقه من الملك . » [وراجع كتاب الموشح للمرزباني ص ٦٥ من طبعة مصر ١٣٤٣] .

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص ٥٧ - ٥٨ من طبعة بمبي سنة ١٢٨١ أو ص ٧٢ - ٧٣ من طبعة تونس سنة ١٢٨١ أو ص ١٦ - ١٧ من طبعة لندن ١٩١٠ [أو ص ٣٠٧ - ٣١٣ من طبعة مصر ١٣٤٧] .

من اعتقاد وحدانية الله أو من التأمّلات والاعتبارات الدينية فعّد من النصارى امراً القيس والنابغة وطرفة ، وغيرهم من شعراء الصنف الأوّل والثاني الذين لا شك لكلّ منصف في أنّهم من أصحاب الوثنيّة . أمّا المؤكّد المثبت فإنّما هو أنّ دين النصرانيّة ذاع في القرن السابق للهجرة في شمالي جزيرة العرب^(١) فاعتنقه بعض القبائل مثل بني تغلب وقسم غير صغير من بني تميم فضمّلاً عن أكثر المقيمين بمملكة بني غسان وأكثر سكّان مدينة الحيرة وسميت نصارى الحيرة بالعباد^(٢) ولعلّ المقصود عبادة الله أو عبادة المسيح ، ونصرانيّتهم (وهي على مذهب النسطورية) قديمة لأنّنا نعرف أسماء أساقفة الحيرة من سنة ٤٠٠م تقريباً إلى نحو سنة ٦٠٤م . ومن أقدم شعراء النصارى الذين وصل إلينا شيء من أشعارهم أبو ذؤاد الإياديّ قد ولاه المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة (نحو ٥٠٦ - ٥٥٤م) على خيله « فكان وصافاً للخيل وأكثر أشعاره في وصفه ، وله في غير وصفه تصرف بين مدح وفخر وغير ذلك إلا أنّ شعره في وصف الفرس أكثر^(٣) . ولانت ألفاظه لقربه من حضارة ريف الفرات ، وبعد شعره عن أساليب عرب البادية . - وأشهر منه عديّ بن زيد العبادي^(٤) من عائلة قديمة بالحيرة تعلّم الفارسيّة وتولّى الأمور العربيّة بديوان كسرى

(١) [انظر ما قاله في هذا الموضوع الأستاذ فلينو في ج ٣ ص ١٢١ - ١٦٨ من كتابه

Raccolta di scritti editi e inediti, Roma 1941] .

(٢) راجع G. ROTHSTEIN, *Die Dynastie der Lahmidan in al-Hira*, Berlin 1899, P. 19-28

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٩٥ من طبعة بولاق - أما أبيات له فهي مروية في حماسة البحريّ ص ١٣١ من طبعة ليدن أو ص ٨٧ عدد ٣٩٦ من طبعة بيروت سنة ١٩١٠ (وفي هذه الأبيات يذكر الشاعر السلف من الناس) والأصمعيّات عدد ٢٩ ص ٢٧ - ٢٨ (١٥ بيتاً في الطرد) وعدد ٧٢ ص ٦٨ - ٧٠ (٤٠ بيتاً) من طبعة برلين ١٩٠٢ وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١١٨ من طبعة مصر ١٣٢٢ - ١٣٢٥ .

(٤) راجع : J. HOROVITZ, 'Adi ibn Zaid the poet of al-Hirah (Islamic Culture, P. 31-69); F. GABRIELI, 'Adi ibn Zaid il poeta di al-Hirah (Rendiconti Accademia di Lincei classe scienze morali, VIII serie, serie, vol. III, 1948, P. 81-96).

أَبْرُويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) من ملوك بني ساسان بالمداثن فأرسله مرة كسرى إلى ملك الروم بهديّة من طَرَفه ثمّ استدعاه النعمان بن المنذر (نحو ٥٨٠ - ٦٠٢ م) من المداثن إلى الحيرة وولّاه على جميع أمور المملكة إلى أن قتله لما وُشِت إليه به الحُساد . وشعره أقرب إلينا من شعر أهل البادية وأهل فهماً فلذلك لم يُعدّه علماء اللغة العربيّة من الفحول « وكان الأصمعيّ وأبو عبيدة يقولان : عدىّ بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم »^(١) يعارضها ولا يجرى معها مجراها «^(٢) . وعلى قول الأصمعيّ « كانت الرواة لا تروى شعر أبي دؤاد ولا عدىّ بن زيد لمخالفتهم مذهب الشعراء »^(٣) أو كما قيل « لأنّ ألفاظه ليست بنجدية »^(٤) . والحق يقال إنّ الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ كثيراً ما روى أبياتاً لعدىّ بن زيد في كتاب المعرب وذلك دليل قاطع على تأثير الحضارة الأرامية والفارسيّة في كلام عدىّ ومعاني شعره . وهو يخالف أيضاً شعراء نجد في استنكافه من الأعاريض الطويلة واختياره القصيرة ثمّ في أسلوب خمريّاته الشبيهة بخمريّات الأعشى وحسان بن ثابت . ومن المشهور أنّ الخليفتين الأمويّين هشام بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٦) والوليد بن يزيد (١٢٥ - ١٢٦) كانا يُحبّان سماع شعر عدىّ بن زيد في الشراب^(٥) . ولكن مع حبّه لوصف القيان والصهباء كعين الديك والصُّبوح حمّله دينه مراراً عديدة على اعتبار زوال أمور الدنيا كلّها ، وذكر ما هو قريب من الزهد في بعض قصائده لطيفة قلّها غير مرة المتأخرون فقال مثلاً

(١) يعني الكواكب السيارّة .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٩٧ سطر ١٥ - ١٦ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١٥ من طبعة ليدن .

(٥) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٦٧ و ج ٦ ص ١٢٣ من طبعة بولاق .

بلسان حال المقابر^(١) : (من بحر الرمل)

مَنْ رَأَى فَلْيُحَدِّثْ نَفْسَهُ أَنَّهُ مَوْفٍ عَلَى قَرْنٍ زَوَالٍ
وصروفُ الدهر لا يبقَى لها ولِما تَأْتِي به صُمُّ الجِبَالِ
رُبُّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا يَشْرَبُونَ الخمرَ بِالماءِ الزُّلَالِ
وأباريقُ عليها فُدُمٌ وجيادُ الخيلِ تَرْدِي فِي الجِلالِ
عَمَرُوا دَهْرًا بَعِيشَ حَسَنِ أُمْنِي دَهْرِهِمْ غَيْرُ عِجَالِ
ثم أَضْحَوْا عَصَفَ الدهرِ بهم وكذلك الدهرُ يُودِي بِالرَّجَالِ
وكذلك الدهر يرمى بالفتى فِي طِلَابِ العَيْشِ حالاً بعد حالٍ

فظاهر ما في هذا الشعر من مشابهة زهديات بعض الشعراء الإسلاميين لا سيما أبي العتاهية فليس من البعيد أن شعر عدى بن زيد ومن سلك منهجه من القدماء صار أنموذجاً للمتأخرين في وصف فناء الأمور الدنيوية وذكر عواطف الزهد الناشئة عن اعتباره . ثم من الجدير بالذكر أن عدى بن زيد أحب في زهدياته الإشارة إلى الحوادث العظيمة الماضية فكثير إيراد أبياته كأنها شواهد تاريخية في كتب التاريخ مثل كتاب الطبري المشهور . ومن هذا الباب ما قاله نحو سنة ٦٠١م وهو في الحبس^(٢) : (من بحر الخفيف)

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٣٤ من طبعة بولاق والأبيات مروية أيضاً في كتاب شعراء النصرانية ص ٤٤١ - ٤٤٢ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٠ . - قرن : طرف . وردى الفرس : رجعت الأرض بحوافرها . وأودى به الموت : ذهب به . وفدم : جمع قدام المصفاة تجعل على فم الإبريق ليصق به ما فيه من شراب . وإبريق وفدام كلمتان فارسيتان معربتان وأصل الأولى آب ريز وأصل الثانية pandam . راجع S. FRAENKEL, *De vocabulis in antiquis Arabum c. minibus et in Corano Peregrinis*, Lugduni Batavorum 1880, P. 3.

(٢) الأبيات مروية في كتاب الأغاني ج ٢ ص ٣٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١١ - ١١٢ من طبعة ليدن وشعراء النصرانية ص ٤٥٥ - ٤٥٦ وحماسة البحري عدد ٣٩٤ ص ١٢٩ - ١٣٠ من طبعة ليدن أو ص ٨٦ - ٨٧ من طبعة بيروت . ضام يضيئ : ظلمه وقهره . معرضاً : مبتدأ أمامه . إمة : رخاء العيش . أما كسرى أنو شروان فكان ملك الفرس بين سنتي =

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمُعِيرُ بِالْده . رَأَيْتَ الْمَبْرَأَ الْمَوْفُورُ
 أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الْآيِ . ام بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ
 مَنْ رَأَيْتَ الْمَنُونَ خَلَّدَنْ أَمْ مَنْ . ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرُ
 أَيْنَ كَسْرَى كَسْرَى الْمَلُوكِ أَنْوَشِرُ . وَانْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ
 وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكَرَامُ مَلُوكُ الْ . رُومَ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ
 وَأَخُو الْخَضِرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّ . لَمْ تُجَبِّ إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ
 شَادَهُ مَرْمَرًا وَجَلَّلَهُ كِذِّ . سَأَ فَلْلَطِيرِ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ
 لَمْ يَهَبْهُ رَيْبُ الْمَنُونَ فَبَادَ الْ . مُلْكُ عَنْهُ فَبَابَهُ مَهْجُورُ
 وَتَذَكَّرْ رَبَّ الْخَوَزَنْقِ إِذْ شَ . رُفَ يَوْمًا وَلِلْهُدَى تَفْكِيرُ
 سَرَّهُ مَالُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمُ . لِكَ وَالْحَرُّ مُعْرِضًا وَالسَّيْدِيرُ
 فَارْعَوَى قَلْبُهُ فَقَالَ وَمَا غِبَّ . طَةَ حَتَّى إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
 ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِ . مَةِ وَارْتَهُمْ هُنَاكَ الْقَهُورُ
 ثُمَّ بَصَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَ . فَ فَأَلَوْتُ بِهِ الصَّبَا وَالْدَبُورُ

وخلاصة القول أن شعر العباديين أصبح ذا تأثير لا يُنكر في المعاصرين
 المجاورين لهم من الوثنيين مثل الأعشى وفي بعض المتأخرين الإسلاميين
 لا سيما في مجال الزهديات والخمريات .

٤ - يبقى على أن أتكلّم بالإجمال في الصنف الرابع من شعراء الجاهلية ،
 أي في شعراء أهل المدر الذين لا يدخلون في الصنف الثاني والثالث فأقصر
 قولي على اثنين منهم : قيس بن الخطيم وأمّية بن أبي الصلت .

= ٥٣١ - ٥٧٩ م . أما سابور فهو اسم ثلاثة من ملوك الفرس تولى الأمر أولهم من سنة ٢٤١ إلى سنة
 ٢٧٢ م . والثاني من ٣٠٩ إلى ٣٧٩ والثالث من ٣٨٣ إلى ٣٨٨ . ويروى البحري في حماسه عدد ٣٩٣
 و ٣٩٥ مثل هذه الأبيات وهي أيضاً من أبيات زيد .

وُلد قيس بن الخطيم الأوسى بالمدينة بعد منتصف القرن السادس للمسيح
فقتل أبوه وهو صغير السنَّ جدًّا في حروب جرت بين الأوس والخزرج
فلما شبَّ قيس وعرف أخبار قومه وأبيه أراد أخذ ثأر قتل والده ولم يزل
يتربص بذلك في المواسم حتى ظفر بقاتل أبيه وقاتل جدّه فقتلها . فله في
ذلك قصيدة تقولون إنها من نسج أهل البادية^(١) : (من بحر الطويل)

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ الْقَيْسِ طَعْنَةً ثَائِرَ	لَهَا نَفَذٌ لَوْلَا الشَّعَاعُ أَضَاءَهَا
مَلَكْتُ بِهَا كَفَى فَأَنْهَرْتُ فَتَقَّهَا	يَرَى قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا
يَهُونَ عَلَى أَنْ تَرُدَّ جِرَاحُهَا	عُيُونُ الْأَوَاسِي إِذْ حَمِدَتْ بَلَاءَهَا
كُنْتُ امْرَأً لَا أَسْمَعُ الدَّهْرَ سُبَّةً	أَسْبُ بِهَا إِلَّا كَشَفْتُ غِظَاءَهَا
فَأَنِي فِي الْحَرْبِ الضَّرُوسِ مُوَكَّلٌ	بِإِقْدَامِ نَفْسٍ مَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا
مَتَى يَأْتِ هَذَا الْمَوْتُ لَا تُلَفْ حَاجَةٌ	لِنَفْسِي إِلَّا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا
ثَارَتْ عَدِيًّا وَالْخَطِيمَ فَلَمْ أَضِغْ	وَلَايَةَ أَشْيَاحٍ جُعِلْتُ إِزَاءَهَا

ولكنه مدني لا بدوي في نوع التغزل إذا قال القصائد المشهورة في عمرة
بنت رَوَاحَة ، ومات قبل الهجرة بقليل .

أما أمية بن أبي الصلت الثقفى فهو من أهل الطائف كان في الجاهلية
رغب عن عبادة الأوثان ويؤمن بالبعث وله أشعار مليحة حكى فيها قصص
الأنبياء وأتى بالفاظ لم يعرفها العرب أخذها من أهل الكتاب كما أخذ منهم
أيضاً الأحاديث التي جاء بها في شعره . ويكثر في أبياته ذكر الله والاستدلال
على وجوده وحكمته باعتبار عجائب المخلوقات ووصف رحمته تعالى وعدد

(١) حاسة أبي تمام ص ٨٥ - ٨٧ من طبعة بن أوج ١ ص ٩٤ - ٩٧ من طبعة بولاق لمراجع
أيضاً كتاب الأغاني ج ٢ ص ٦٠ من طبعة بولاق . [توجد قصيدته هذه في ديوانه ص ٣ - ٥ من طبعة
ليبسك ١٩١٤ بعناية الأستاذ Kowalski (انظر في ص ١ - ٦ الترجمة الألمانية والحواشي)] .

الأبيات المنسوبة إليه المتفرقة في كتب إسلامية شتى يزيد على الأربعمئة إلا أن لا شك في كون كثير منها مختلفة لا سيما المروية في كتاب البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسي من علماء القرن الرابع للهجرة فإنها مملوءة عبارات وألفاظاً قرآنية . ومن المشهور أن أمية لم يسلم بل رثى من قُتل من قريش في وقعة بدر ومات في السنة الثامنة للهجرة ^(١) . وإننى أمتنع عن إيراد أمثلة من أشعاره لأنها معروفة .

قد اتضح مما تقدم أن الشعر الجاهلي مصدر أكثر فنون الشعر العربي في عهد الإسلام . وفيه المدح والفخر والحماسة والثناء والهجاء والوصف والزهديات والطرديات والتشبيب والخمريات وهو غاية الجمال والإتقان لفظاً وعروضاً حتى لا يخفى أن الشعراء المتأخرين لم يزيدوا على البحور القديمة إلا شيئاً قليلاً جداً . كان الشعر ديوان أفكار العرب وخواطرهم وعواطفهم كأنه دفتر عظيم قيّدوا فيه عوائدهم واعتقاداتهم وأمثالهم ومآثرهم . ولولا الشعر الذي نشأ في نجد ثم شاع في سائر أنحاء جزيرة العرب الشمالية لما تهيأت قبل الإسلام وحدة اللغة الأدبية مع اختلاف شعوب العرب وقبائلهم وتباين لهجاتهم ^(٢) . وإن قابلنا فضائل شعر الجاهلية بفضائل الشعر بعد الإسلام استصوبنا قول ابن رشيح القيرواني في كتاب العمدة ^(٣) : « إنما مثل القدماء والمحدثين كممثل رجلين ابتداءً هذا بناءً فأحكمه وأتقنه ثم

(١) [اعتنى الدكتور Schlithess بجمع بقايا ديوان أمية (وهي ٥٠٠ بيت) ونقلها إلى اللغة الألمانية وبطبعها في ليبسك سنة ١٩١١ (Beiträge für Assyriologie vol VIII, 9) ثم في سنة ١٩٣٤م طبع في بيروت ديوان لامية بن أبي الصلت يحتوي على ٣٠٠ بيت فاعتنى بجمعه بشير يموت . لا توجد في طبعة ليبسك كل الأبيات المروية في طبعة بيروت] .

(٢) [في هذا الموضوع انظر مقالة الأستاذ نلينو « كيف نشأت اللغة العربية » في مجلة الهلال سنة ٢٦ عدد أكتوبر ١٩١٧ ص ٤١ - ٤٨] .

(٣) كتاب العمدة ج ١ ص ٥٧ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

أتى الآخر فنقشه وزينه فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن .

٥ - تقدمت لمحة في شعر عرب الجاهلية فقبل الشروع في الوصف الإجمالي للآداب بعد ظهور الإسلام يبقى على أن أقول كلمة في حال كلامهم المنشور . إنني ذكرت في أحد الدروس السابقة أن ابتداء الآداب عند كل أمة كان بالشعر مع كون الكلام المرسل المعتاد أقدم من المنظوم بكثير . وذلك أن الكلام العادي لا يأخذ بمجامع القلوب فليس كفيًا بالتعبير عن حُميا العواطف وشدة الطرب ؛ أما الشعر فبانسجامة ووزنه يحرك أهواء النفس ويثير كامن حركاتها وهو ألدُّ في الأسماع وأشدُّ وقعًا في القلوب من الكلام المنشور لا سيما إذا أنشد على الغناء وآلات الطرب كما كانت العادة فيه عند كل الأمم القديمة فالنثر أجدر من الشعر بإظهار بنات الأفكار والشعر أجدر من النثر بإبداء ما يكنه القلب أو تنصوُّره النفس بلا تفكُّر وتعمُّد . وبما أن القوة الخيالية عند كل أمة غلبت أولاً على القوة الفكرية والنظرية ومال الإنسان إلى ما استحسنه قبل ميله إلى إدمان التفكير في الأشياء لا عجب في سبق الشعر لسائر الفنون الأدبية المستظرفة . أما الإنشاء المنمَّق البعيد عن الكلام المرسل المعتاد فلم ينشأ إلا وقت بلوغ الأمم درجة أعلى في سير ترقُّيها في المدنية والآداب . ثمَّ لسبق الشعر سبب ثان وهو أن الغرض من الشعر أو المنشور المستظرف ليس فقط إبراز العواطف والأفكار بل هو أيضاً تخليدها وتداولها على ألسنة الناس . فإذا كانت صناعة الخطَّ مجهولة أو قلَّ استعمالها فلا سبيل إلى إبقاء المنشور وحفظه من ورود التغيير والنقص والزيادة في ألفاظه وعبارته فبتغيير العبارة والألفاظ يضع ما كان فيه من العذوبة والرشاقة والأناقة ولا يبقى إلا كلام ركيك معتاد لا يُعَدُّ من المستظرف ولا

تهش إليه الأسماعُ ولا ترتاح له القلوب . أما الكلام المقيد بالوزن والقافية فأسهل حفظاً وأكثر صبراً على توالى الزمان وأخف على ألسنة الرواة فيمكن أن يشيع في الآفاق ذكره ويعظم في الناس خطره وإن لم يحفظ. بالتخليد في بطون الصحف .

فلهذين السببين كان معظم براءة كلام العرب في الشعر على كثرة ما كانوا يروونه في أسماهم ومواسمهم من الحكايات المتعلقة بأنسابهم وغزواتهم وأيامهم (أى حروبهم ووقائعهم) فضلاً عن الروايات التي كانوا يشرحون بها أصل أمثالهم ومعانيها وهي من قبيل ما يوجد في كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال الحسن العسكري المتوفى سنة ٣٩٥/١٠٠٥ وفي كتاب مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد الميداني المتوفى سنة ٥١٨/١١٢٤ . وربما حفظوا شيئاً من تواريخ الأمم المجاورة لهم مثل أهل تدمر والفرس والروم والعبرانيين كما يظهر من إشارات إليها وردت في أشعارهم وإن كانت الأحاديث الخرافية قد انسربت إلى تلك الحكايات ولعلها هي أساطير الأولين التي كان كفار مكة يشبهون بها إنذارات القرآن وقصصه ^(١) . والذين ساعدوا على إشاعة الروايات الأعجمية في مدن الحجاز هم أهل الكتاب المقيمون بها أو ناس مسافرون إلى الشام والعراق للتجارة ومنهم النضر بن الحارث بن كلدة الذي قتله النبي صبراً يائئيل بعد وقعة بدر وهو قد أتى الحيرة وأخذ من أهلها أخبار العجم ثم رجع إلى مكة وعلم سكانها ضرب العود والغناء فإذا جلس النبي مجلساً دعا فيه الناس إلى الله قال هلموا إلي أحدثكم أحسن من قصص محمد ثم حدثهم أحاديث ملوك الفرس وأخبار رستم وإسفنديار ويُلهمهم من القرآن

(١) انظر القرآن : ٦ : ٢٥ و ٨ : ٣١ و ١٦ : ٢٤ و ٢٣ : ٨١ - ٨٣ و ٢٥ : ٤ -

٥ و ٢٧ : ٦٧ - ٦٨ و ٤٦ : ١٧ و ٦٨ : ١٥ و ٨٣ : ١٣ .

ومن ذكر الله، ففيه نُزلت الآية^(١) : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ . وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » . - وعند الكلام على آداب الجاهلية بالتفصيل سأشير إلى حكايات متداولة عند أمم أجنبية اتخذها العرب وخصصوها ببعض رجالهم المشهورين .

إلا أن أغلب المقصود من تلك الحكايات والروايات كان المنفعة أو التفكه فرأى العرب فيها المضمون ولم يروا وشى الكلام وحلى المعاني ودرر الألفاظ . أما الذى قصدوا فيه رقة الكلام وتنميق الإنشاء وغاية البلاغة فالحكم النثرية والخطب . ومن حكمهم لم يصل إلينا إلا شىء قليل جداً أغلبه على صورة أمثال قصيرة فلا شك أنها من قبيل وصايا لقمان المروية فى القرآن الشريف^(٢) . - أما فن الخطابة فله عند العرب مقام عال جداً فلو جمعنا الأبيات القديمة التى يُحمد فيها خطيبٌ لملأنا بضع صحائف . ولذلك أسباب مرتبطة بنظامهم السياسى المبني على الحرية ونوع من مجلس الشورى^(٣) فكان رجال كل قوم من أهل الوبر يباحثون أهم أمور القوم فى مجلسهم كما كان كبار أهل مكة يتفاوضون فيها فى دار الندوة المنسوب تأسيسها إلى قصي بن كلاب . فكان للخطيب البليغ شأن عظيم . ومن الحرى بالذكر أن الألفاظ التى كان العرب يعبرون بها عن متولّى حكم قوم من أقوامهم أعنى السيد والأمير عند عرب نجد والحجاز والقيلى فى أنحاء اليمن إذا بحثنا

(١) سورة ٣١ (لقمان) آية ٦ - ٧ .

(٢) سورة ٣١ (لقمان) آية ١٢ - ١٩ .

(٣) فى نظام قبائل العرب قبل الإسلام راجع C.A. NALLINO *sulla costituzione delle tribù arabe prima dell'islamismo. Raccolta di scritti editi e inediti* VOL. III, Roma 1941, P. 64-86.

تاريخ الآداب العربية

عن اشتقاقها بمقارنة سائر اللغات السامية وجدنا أنَّ معناها الأصليُّ إنما كان القائلُ أو المتكلمُ^(١). ثمَّ أثرت في ارتقاء فنِّ الخطابة سياسة العرب الخارجيّة ، أعني العلائق بين قوم وقوم أو بين قبيلة وملوك اليمن والحيرة والفرس وغسان فكان حينئذ الخطيبُ وكيلَ جميع قبيلته يخطُب باسمها في المواسم والوفود للمفاخرة والمشاجرة والدُّفاع عن حقوق قومه . فوصف أوس بن حجر منصب الخطيب في داخل قومه وخارجه حين قال^(٢) وهو يرثي أبا دُلَيْجَةَ فضالة بن كَلْدَةَ : (من بحر البسيط) .

أبا دُلَيْجَةَ مَنْ يَكْفِي العشيرة إِذْ أَمْسَوْا مِنَ الْخُطْبِ فِي لَبْسٍ وَبِلْبَالٍ
أَمْ مَنْ يَكُونُ خُطِيبَ الْقَوْمِ إِذْ حَفَلُوا لَدَى الْمُلُوكِ ذَوِي أَيْدٍ وَأَفْضَالٍ

ولهم عوائد خاصّة عند إلقاء الخطب الاحتفاليّة وعند أهل المدن الحجازيّة في أواخر القرن السادس للمسيح نوعٌ ثانٍ من الخطابة جارٍ في أمور الدين والأخلاق والزهد وهو نوع اشتهر به زيد بن عمرو بن نُفَيْلٍ من أهل مكّة وقُتَيْب بن ساعدة الإياديّ النصرانيّ أسقف مدينة نجران ، الذي ضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة . بيّد أنَّ القليل الذي بَلَّغْنَا من خطب زيد بن عمرو مختلّق من غير شك^(٣) وما يُروى عن قُتَيْب ليس إلّا قِطْع صغيرة

(١) قال التبريزي في شرحه على حاشية أبي تمام (ص ٧٠٥ من طبعة « بن » أوج ٤ ص ٧٧ من طبعة بولاق) ما نصه : « وسمى الرئيس زعيماً لأنه يزعم عنهم أي يقول كما قيل له قيل ومقول » وانظر أيضاً ما قاله المستشرق الكبير Th. Noeldeke في *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft* vol. 42, 1888, P. 481. وراجع أيضاً ما قاله Hommel في نفس المجلة الألمانية ج ٤٦ سنة ١٨٩٢ ص ٥٢٩ و GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, II, p. 52 note 4.

(٢) عدد ٣٢ بيت ٤ و ٥ من ديوان أوس بن حجر المطبوع بمدينة وينا سنة ١٨٩٢ اعتنى بجمعه ونشره ونقله إلى اللغة الألمانية الأستاذ R. Geyer وراجع ما قاله في هذا الطبع J. Barth (*Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft*, vol. 47, 1893, P. 323-334).

(٣) انظر Th. NOELDEKE, *Geschichte des Qorans*, 2ème édition, 1ère partie, Leipzig 1909. P. 18-19.

لا نعرف أهى ألفاظه أم لُبَاب كلامه فقط . وما يُنسَب إلى قس هو كُله بالكلام المسجّع الذى كان يألُفه الكُهانُ لارتباطه بالأصلَى بالسحر القديم حسبما سَأبينه إن شاء الله .

وقُصارى الأمر أن العرب فى الجاهليَّة لم يخرجُوا فى النشر عن قدر الإنشاء القصير والمقطَّعات فلو جاز قياس كتاب دينى جليل بسائر التصانيف لقلتُ إنَّ أولَ كتاب مطوَّل صدر بلغة الناطقين بالضاد كان القرآن الشريف .

٦- لا بُدُّ للباحث عن تاريخ الآداب العربيَّة من الفحص عما يتعلَّق بالقرآن من المسائل اللغوية والأدبيَّة ؛ منها مسألة لغته أهى لغة أهل قريش المعتادة أم لا ؟ ومسألة إنشائه الذى اجتمع أكثر العلماء المسلمين على أنَّه كلام منشور خارجٌ عن نوعى المنشور المتداولين لا يسمَّى مُرسَلاً مُطلقاً ولا مسجَّعاً . ومسألة جمع القرآن فى عهد أبى بكر الصديق وفى عهد عثمان بن عفَّان . ثمَّ مسألة تواتره وقراءاته . ومسألة بلاغته وإعجازه وهلمَّ جرَّاً . ولكنى فى هذه المقدِّمة المختصرة لا أريد بيانها ولا حلَّها مقتصرًا على التلميح إليها والإشارة إلى ما كان للقرآن من التأثير العظيم الذى لا يُقدَّر مقداره فى حياة الأمم الإسلاميَّة وآدابهم وعلومهم وهو أكبر من تأثير الإنجيل فى النصرارى لأنَّ مدار الإنجيل ليس إلَّا على العقائد والأخلاق خلافاً للقرآن الذى يتضمن أيضاً أحكاماً فقهيةً مهمَّة أساسية لا يجوز للمسلم الانصراف عنها فى التشريع . فالتشريع عند النصرارى عمَلٌ بشرى ليس له ارتباط متين بأقوال الإنجيل أمَّا التشريع فى الإسلام فلا يُتصوَّر إلَّا كفرع من العلوم النقلية الدينيَّة ، أصوله فى القرآن والسنة والإجماع . فلهذا السبب أيضاً تنطوى كتب الفقه الإسلامىة على العبادات التى لا مكان لها فى فقه الأمم النصرانيَّة .

وكفى ذلك برهاناً على عظيم شأن القرآن في الهيئة الاجتماعية الإسلامية ودخول أحكامه في أمور تكون دنيوية فقط. عند النصارى . ثم لا شك في أن القرآن كان أشد العوامل في انتشار لغة العرب في غير بلادهم القديمة وصيرورتها لغة العلم عند كافة المسلمين مهما كان بُعد مساكنهم عن أقطار الحجاز . ولا ريب أيضاً أن القرآن كان مصدر علوم شتى اختص بها المسلمون أو ساعدتهم على التقدم في علوم أخرى فقال جلال الدين السيوطي^(١) في النوع الخامس والستين من كتاب الإقتان في علوم القرآن نقلاً عن تفسير ابن أبي الفضل المرسي ما نصه^(٢) : « ثم [أي بعد التابعين] تقاصرت الهِمَم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه فاعتنى قوم بضبط لغاته وتحرير كلماته ومعرفة مخارج حروفه وعددها وعدد كلماته وآياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه وعدد سجدياته والتعليم عند كل عشر آيات ، إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة والآيات المتماثلة من غير تعرض لمعانيه ولا تدبر لما أودع فيه فسُموا القراء ، واعتنى النخاة بالمعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدى ورسوم خط الكلمات وجميع ما يتعلق به حتى إن بعضهم أعرب مشكله وبعضهم أعربه كلمة كلمة ، واعتنى المفسرون بألفاظه فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد ولفظاً يدل على معنيين ولفظاً يدل على أكثر ؛ فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفي منه وخاضوا في ترجيح أحد محتملات ذى المعنيين والمعاني وأعمل كل منهم فكرة

(١) توفى السيوطي سنة ٩١١ / ١٥١٥ .

(٢) الإقتان ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة مصر ١٣١٨ .

وقال بما اقتضاه نظره؛ واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية مثل قوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده وبقائه وقدمه وقدرته وعلمه وتنزيهه عما لا يليق به وسَمَّوْا هذا العلم بأصول الدين؛ وتَأَمَّلت طائفة منهم معاني خطابه فرأت منها ما يقتضى العموم ومنها ما يقتضى الخصوص إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز وتكلموا في التخصيص والإخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه والأمر والنهي والنسخ إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسَمَّوْا هذا الفن أصول الفقه؛ وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام وسائر الأحكام فأسسوا أصوله وفرَّعوا فروعه وبسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً وسَمَّوه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً؛ وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ونقلوا أخبارهم ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسَمَّوْا ذلك بالتاريخ والقصص؛ وتنبيه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ. التي تُقلِّل قلوبَ الرجال وتُكَاد تُدَكِّدُك الجبال فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد والتحذير والتبشير وذكر الموت والمعاد والنشر والحشر والحساب والعقاب والجنة والنار فصولاً من المواعظ وأصولاً من الزواجر فسَمَّوْا بذلك الخطباء والوعاظ؛ واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير مثل ما ورد في قصة يوسف في البقرات السماء وفي منامى صاحبى السجن وفي رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة، وسَمَّوه تعبير الرؤيا، واستنبطوا تفسير كل رؤيا من الكتاب فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التي هي شارحة للكتاب فإن عسر فمن الحكم والأمثال؛ ثم نظروا إلى اصطلاح العوام في مخاطباتهم وعُرف

عادتهم الذى أشار إليه القرآن بقوله وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وأخذ قوم مما فى آية
المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك علم الفرائض ، واستنبطوا منها
من ذكر النصف والثلث والرابع والسادس والثمن حساب الفرائض ومسائل العول
واستخرجوا منه أحكام الوصايا ؛ ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على المحكم
الباهرة فى الليل والنهار والشمس والقمر ومنازله والنجوم والبروج وغير ذلك ،
فاستخرجوا منه علم المواقيت ؛ ونظر الكتّاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ .
وبدیع النظم وحسن السياق والمبادئ والمقاطع والمخالص والتلوين فى الخطاب
والإطناب والإيجاز وغير ذلك ، واستنبطوا منه المعانى والبيان والبديع ، ونظر فيه
أرباب الإشارات وأصحاب الحقيقة فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق
جعلوا لها أعلاماً اصطالحوا عليها مثل الفناء والبقاء والحضور والخوف والهيبة
والأنس والوحشة والقبض والبسط وما أشبه ذلك ؛ هذه الفنون التى أخذتها
الملة الإسلامية منه .

الباب الثالث

الآداب في صدر الإسلام وفي أيام الخلفاء الراشدين

- ١ - الشعر في مدح النبي - ٢ - شعراء المشركين الحاقدون على النبي -
- ٣ - الشعراء الذين أسلموا من غير أن يهتموا في أبياتهم بأمور دينية -
- ٤ - شعراء الفتوحات - ٥ - الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب - ٦ - النثر .

أمّا حال الآداب العربيّة الدنيويّة في صدر الإسلام وأيام الخلفاء الراشدين فما هو^(١) ؟ قال ابن خلدون في مقدمته^(٢) : « ثمّ انصرف العرب عن ذلك [أى عن الشعر] أوّل الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي وما أذهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخترسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً ثمّ استقرّ ذلك وأونس الرشد من الملّة ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وحظره وسَمِعَةُ النبي (صلى الله عليه وسلم) وأثاب عليه فرجعوا حينئذ إلى دينهم منه » . وقال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلو بالجهاد وغزوا فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته »^(٣) - هذان القولان لا يوافقان حقيقة الأمر البتّة ؛ فما أوردتهما لو لم أعذر على مثل هذا الفكر في تواريخ الآداب العربيّة المتداولة في المدارس المصريّة مثل أدب اللغة العربيّة لمحمد حسن

(١) [في هذا الموضوع انظر أيضاً OMAR A. FARRUKH, *Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Higr bis Zum Tode des Kalifen 'Umar* Leipzig 1937.]

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٨١ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أوج ٣ ص ٤٠١ من الترجمة الفرنسية .

(٣) المزهري للسيوطي ج ٢ ص ٢٩٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ عن محمد بن سلام الجمحي

[فراجع طبقات الشعراء للجمحي ص ١٠ من طبعة لندن سنة ١٩١٦] .

المرصفي^(١) وأدبيات اللغة العربية لمحمد عاطف بك وصاحبيه^(٢) وخلاصة
أدب اللغة لإبراهيم عبد الخالق^(٣). فإذا طالعتم كتب التاريخ القديمة المطولة
مثل سيرة الرسول لابن هشام، وكتاب المغازي للواقدي وطبقات ابن سعد
وتاريخ الطبري وجدتم كثرة ما يروونه من أشعار صدر الإسلام، ثم إذا
تصفحتم كتب الأدب القديمة مثل كتاب الأغاني وغيره ألفت أن الآداب
العربية لم تنل في ذلك العصر زاهية وأن الشعراء لم ينصرفوا عن أنواع
قريضهم ولا الخطباء عن نسج نشرهم.

إنَّ الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في أوائل ظهور الإسلام أو في أيام
الخلفاء الراشدين يجوز تقسيمهم إلى ثلاثة أصناف بالإضافة إلى الدين
الإسلامي : ١ الذين قالوا الشعر في مدح النبي سواء أسلموا أم لم يُسلموا؛
فأكثرهم وأشهرهم من أهل المدر الذين كانوا يقدون في الجاهلية على الملوك .
٢ الشعراء الذين قالوا الشعر في رثاء قتلى الكفار وهجاء النبي وأغلبهم من
أهل مكة . ٣ شعراء أسلموا ولم يهتموا في أبياتهم بأمور النبي والدين وهم
أكثر شعراء أهل البادية .

١ - ومن الصنف الأول كعب بن زهير والأعشى وحسان بن ثابت
السابق ذكره . فإن تأملتم أشعارهم وجدتم بينهم فرقاً بالإضافة إلى الإسلام .
لأنَّ كعباً وهو بدوي الأصل مدح النبي سنة ٩ هـ بقصيدة شهيرة ألفها على
منوال قصائد أهل البادية في مدح سادتهم فلولا البيتان :

نُبِئتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيه مواعيطُ وتفصيلُ

(١) أدب اللغة العربية للمرصفي ج ١ ص ٩٣ - ٩٤ و ١٢١ و ١٤١ - ١٤٢ من طبعة
مصر ١٣٢٦ .

(٢) أدبيات اللغة العربية ج ١ ص ٢٨ من طبعة مصر ١٩٠٦ .

(٣) خلاصة أدب اللغة لإبراهيم عبد الخالق ص ٤٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

والبيت الثالث :

إِنَّ الرُّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مَهْنَدٌ مِنْ سِيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ
لَقَلْنَا إِنَّهُ إِنَّمَا أَرَادَ قَائِدًا أَوْ سَيِّدًا مِنْ قَوْمِهِ لَا نَبِيًّا جَلِيلًا أَتَى بِدِينٍ
جَدِيدٍ . ثُمَّ فِي نَفْسِ تِلْكَ الْقَصِيدَةِ مَدْحُ الْمُهَاجِرِينَ فَلَمْ يَصِفْهُمْ إِلَّا بِالْحِمَاسَةِ
وَالشُّجَاعَةِ . فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ أُسْلُوبِ هَذِهِ الْبُرْدَةِ الْبِدَوِيَّةِ وَبَيْنَ الْعَوَاطِفِ وَالْعِبَارَاتِ
الِدِينِيَّةِ الَّتِي تَتَحَلَّى بِهَا بُرْدَةُ الشَّيْخِ الْبُوصَيْرِيِّ^(١) ! وَفِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى^(٢) : «مَدْحُ
كَعْبِ الْأَنْصَارِ وَلَمْ يَجْعَلْ فِيهَا بَيْتًا يَخْرُجُ عَنْ مَنَهِجِ الْمَدْحِ الْبِدَوِيِّ وَيُشِيرُ
إِلَى مَحَاسِنِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ . - أَمَّا الْأَعَشَى فَمَدْحُ النَّبِيِّ (مَعَ أَنَّهُ لَمْ يُسَلِّمْ)
فِي سَنَةِ ٧ فَلْتَقَرُّبِهِ مِنْ نَصَارَى نَجْرَانَ وَالْحَيْرَةِ اسْتَعْمَلَ بِقَصِيدَتِهِ مَا دَلَّ بِهِ
عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَةِ النَّبِيِّ فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ فَقَالَ مَثَلًا^(٣) :

نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَذَكَرَهُ أَغَارَ لَعْمَرَى فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدَا
وَلَكِنْ أَوَّلُ مَنْ يَصْلُحُ لَهُ اسْمُ شَاعِرٍ إِسْلَامِيٍّ هُوَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ
الَّذِي مَرَّ ذِكْرُ شَعْرِهِ فِي عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ . وَهُوَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ رَبَّمَا هَجَا
الْكُفَّارَ عَلَى الْأُسْلُوبِ الْقَدِيمِ حَسْبَمَا كَانُوا هُمْ يَهْجُونَ النَّبِيَّ ، وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ
مَثَلًا مَا قَالَهُ فِي الْهُذَلِيِّينَ لَمَّا أُسْرُوا بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ وَبَاعُوهُمْ مِنْ قَرِيشٍ^(٤) :

(مِنْ بَحْرِ الْبَسِيطِ .)

لَوْ خُلِقَ الدُّوْمُ إِنْسَانًا يُكَلِّمُهُمْ لَكَانَ خَيْرَ هُدَيْلٍ حِينَ يَأْتِيهَا

(١) توفى شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري فيا بين سنتي ٦٩٤ و ٦٩٦ هـ .

(٢) نقل الأستاذ R.Basset معظمها إلى اللغة الفرنسية في كتابه *La Bānat So'ad ... de*

Ka'b ben Zohair Alger, 1910, P. 51-53. أما ديوان كعب بن زهير فهو غير مطبوع .

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٨٥ من طبعة بولاق [أو ديوان الأعشى قصيدة ١٧ ، بيت ١٤
من طبعة لندن ١٩٢٨] .

(٤) ديوان حسان ص ١٠٣ من طبعة تونس سنة ١٢٨١ أو ص ٨١ من طبعة بمبي سنة ١٢٨١
أو عدد ٦٧ من طبعة لندن ١٩١٠ [أو ص ٤٢٤ - ٤٢٥ من طبعة مصر ١٣٤٧] .

تَرَى من اللُّومِ رَقْماً بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ كما كَوَى أَذْرُعَ الْعَانَاتِ كَاوِيَهَا
تَبْكِي الْقُبُورَ إِذَا مَا مَاتَ مَيِّتُهُمْ حَتَّى يَصْبِيحَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ دَاعِيَهَا
مِثْلُ الْقَنَافِدِ تَحْزَى أَنْ تُفَاجِئَهَا شَدَّ النَّهَارِ وَيُلْقَى اللَّيْلُ سَارِيَهَا

ولكن حُسن إسلامه ظاهر في جملة من أشعاره مثل قصيدة أنشدتها بعد يوم أُحُد مجيباً لعبد الله بن الزُّبَيْرِ القُرَشِيِّ قال في آخرها (١) :

فَلَا تَذْكُرُوا قَتْلِي وَحِمَزَةَ فِيهِمْ قَتِيلٌ ثَوَى لِلَّهِ وَهُوَ مُطْبِعُ
فَإِنَّ جَنَانَ الْخُلْدِ مَنْزِلَةٌ لَهُ وَأَمْرٌ الَّذِي يَقْضِي الْأُمُورَ سَرِيعُ
وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ حَمِيمٌ مَعَا فِي جَوْفِهَا وَضَرِيعُ

وما أحلى وأرق القصيدة التي رثى بها النبي ومطلعها (٢) :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّهَا كُحِلَتْ مَاقِيهَا بِكُحْلِ الْأَرْمَدِ

وهي على سداجة نظمها وألفاظها واقعة في القلوب ظاهرة التفجع بينة الحسرة والتلهف والأسف.

ليست هذه المقدمة الوجيزة مكاناً يصلح لذكر سائر الشعراء الذين قاموا بمدح النبي وجمائه وحماء الصحابة في صدر الإسلام . كان عرب البادية في الجاهلية لا يغزون ولا يتحاربون إلا وشعراؤهم أنشدوا الأبيات في هجاء الأعداء والافتخار ورثاء القتلى وتخليد ذكر الوقائع فسلكت شعراء المسلمين والمشركين هذا المنهج أيضاً في المديح والثناء والتهاجي . وتناولت شعراء الكفار

(١) ديوان حسان ص ٦١ من طبعة تونس أو ص ٤٨ من طبعة بمبي* أو عدد ١٧٥، بيت ١٦ إلى ١٨ من طبعة أوربا [أو ص ٢٥٩ من طبعة مصر] . فليراجع أيضاً سيرة الرسول لابن هشام ص ٦٢١ من طبعة غوتنجن ١٨٥٩ وقال ابن هشام إن « بعض أهل العلم بالشعر ينكروا لحسان وابن الزبير » .

(٢) ديوان ص ٢٤ من طبعة تونس أو ص ١٩ من طبعة بمبي* أو قصيدة ١٣٣ من طبعة أوربا [أو ص ٩٧ - ٩٩ من طبعة مصر ١٣٤٧] وسيرة الرسول لابن هشام ص ١٠٢٤ - ١٠٢٥ .

النبيَّ وَمَنْ معه بالهجاء ومُسَوِّهٌ بِالْأَذَى؛ فانتصرت شعراء النبيَّ له وأجابوا المشركين عنه. وَيُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ لِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ أَهْجُوهُمْ، يَعْنِي قُرَيْشًا فَوَاللَّهِ لَهَاجَاؤُكَ عَلَيْهِمْ أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ السَّهَامِ فِي غَلَسِ الظَّلَامِ أَهْجُوهُمْ وَمَعَكَ جِبْرِيلُ رُوحُ الْقُدُسِ^(١). وَفِي كِتَابِ الْأَغَانِي مَا نَصَّهُ^(٢): «كَانَ يَهْجُوهُمْ يَعْنِي قُرَيْشًا ثَلَاثَةَ نَفَرٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يُجَبِّونَهُمْ: حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ وَكَعْبَ ابْنَ مَالِكٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ. وَكَانَ حَسَّانُ وَكَعْبُ يِعَارِضَانِهِمْ بِمِثْلِ قَوْلِهِمْ بِالْوَقَائِعِ وَالْأَيَّامِ وَالْمَآثِرِ وَيَعْبِرَانِهِمْ بِالْمَثَالِبِ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَعْيِّرُهُم بِالْكُفْرِ وَيَنْسِبُهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ شَرٌّ مِنَ الْكُفْرِ فَكَانُوا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ أَشَدَّ شَيْءَ عَلَيْهِمْ قَوْلُ حَسَّانَ وَكَعْبٍ؛ وَأَهْوَنُ شَيْءَ عَلَيْهِمْ قَوْلُ ابْنِ رَوَاحَةَ فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَفَقَّهُوا الْإِسْلَامَ كَانَ أَشَدَّ الْقَوْلِ عَلَيْهِمْ قَوْلُ ابْنِ رَوَاحَةَ». وَرَبَّمَا تَفَاخَرَ شُعْرَاءُ الْفَرِيقَيْنِ وَخَطَبَاؤُهُمَا أَمَامَ النَّبِيِّ عَلَى جَرَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ كَمَا اتَّفَقَ حِينَ وَقَدَتْ بَنُو تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ فِي السَّنَةِ الْتَاسِعَةِ لِلْهِجْرَةِ. قَالَ ابْنُ سَعْدٍ الْكَاتِبُ^(٣) الْمَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٣٠/٨: «فَقَالَ الْأَقْرَعُ [بَنُ حَابِسٍ مِنْ رُؤَسَاءِ بَنِي تَمِيمٍ] يَا مُحَمَّدُ ايْذَنْ لِي فَوَاللَّهِ إِنَّ جُهْدِي لَزَيْنٌ وَإِنْ ذُمِّي لَشَيْنٌ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ كَذَبْتَ ذَلِكَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ فَجَلَسَ وَخَطَبَ خَطِيبُهُمْ وَهُوَ عَطَارْدُ بْنُ حَاجِبٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ لثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ بَنِ شِمَّاسٍ أَجِبْهُ. فَأَجَابَهُ. ثُمَّ قَالُوا يَا مُحَمَّدُ

(١) العمدة لابن رشيقي ج ١ ص ١٢ من طبعة مصر ١٣٢٥ وانظر الأغاني ج ٤ ص ٧ من طبعة بولاق.

(٢) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٢٩ من طبعة بولاق

(٣) انظر الطبقات الكبرى لابن سعد في WELLHAUSEN, *Skizzen und*

Vorarbeiten, vol. IV, Berlin 1889, P. ٣١ [الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٤٠ سطر ١٧ - ٢٤ من طبعة ليدن] ونص الخطبتين والشعرين مروى في كتاب الأغاني ج ٤ ص ٨ - ٩ من طبعة بولاق وفي السيرة لابن هشام ص ٩٣٤ - ٩٣٨ من طبعة أوروبا وتاريخ الطبري ج ١ ص ١٧١٠ - ١٧١٧ من طبعة ليدن.

ايذن لشاعرنا . فأذن له فقام الزبيرقان بن بدر فنأشد . فقال رسول الله
لحسن بن ثابت أجبه فأجابه بمثل شعره . فقالوا والله اخطيبه أبلغ من
خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ولهم أحلم منا . ونزل بهم^(١) : « إِنَّ الَّذِينَ
يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » . - فتروون أذ الشعر
عند أهل المدينة ومكة في غرة الإسلام قد أصبح ذا شأن عظيم كأنه من
وسائلهم السياسية .

٢- أما شعراء الصنف الثاني أى الذين رثوا القتلى من المشركين وهجوا
النبي والمهاجرين والأنصار وأكثرهم من أهل مكة فأسماؤهم وأبياتهم مروية في
سيرة الرسول لابن هشام وغيرها من المصنفات القديمة في المغازى والتاريخ .
وأشهرهم عبد الله بن الزبيرى وضرار بن الخطّاب الفهرى والحارث بن هشام
ابن المغيرة وأبو سفيان بن حرب .

٣- وممن نبغ من شعراء الصنف الثالث أى الذين أسلموا بغير أن يؤثروا
إسلامهم في شعرهم تأثيراً شديداً جلياً وأغلبهم من أهل البادية متمم بن
نؤيرة اليربوعي صاحب المراثي المشهورة في أخيه مالك الذى قُتل في جملة
العرب المرتدين بعد موت النبي في أيام خلافة أبي بكر . فرثاه متمم بأشعار
تثير الأشجان وتقذح شرر النيران فضربت الشعراء الأمثال به وبأخيه مالك
في أشعارهم . ومما قال^(٢) :

أبى الصبر آيات أراها وأنى أرى كل حبلٍ بعد حبلك أقطعا

(١) القرآن سورة ٤٩ (الحجرات) آية ٤ .

(٢) الفضليات ج ٢ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أو عدد ٦٧ ، بيت ١٧ إلى ٣٥

(ما عدا بيت ١٩) من طبعة أكسفورد ١٩٢١] .

وَأَنْتَى مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِيبُ وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيعَةً حِقْبَةً
 وَكُنْتُ جَدِيرًا أَنْ تُجِيبَ وَتُسْمِعَا مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا
 فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا فَإِنْ تَكُنِ الْآيَامُ فَرَقْنَ بَيْنَنَا
 أَقُولُ وَقَدْ طَارَ السَّنَا فِي رَبَابِهِ وَغَيْثُ يَسُحُّ الْمَاءَ حَتَّى تَرِيَعَا
 سَقَى اللَّهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكِ دِهَابَ الْغَوَادِي الْمُدْجَنَاتِ فَأَمْرَعَا
 وَآثَرَ سَيْلِ الْوَادِيَيْنِ بِدِيمَةٍ تُرْشِحُ وَشَمِيًّا مِنَ النَّبْتِ خَيْرَوَعَا
 وَمِنَ النَّابِغِينَ أَيْضًا أَبُو مِخْجَنَ الثَّقَفِيِّ مِنْ فُرْسَانَ الْعَرَبِ شَهِدَ يَوْمَ الْقَادِسِيَّةِ
 سَنَةَ ١٦٦/٦٣٧^(١) وَقَصَّتْهُ فِيهِ مَشْهُورَةٌ. وَكَانَ مَوْلَعًا بِالْخَمْرِ الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهِ مَعْظَمُ شَعْرِهِ.
 وَمِنْ بَيْنِ أَبْيَانِهِ الشَّهِيرَةِ^(٢):

إِذَا مِتُّ فَأَذْفَنِي إِلَى أَصْلِ كَرْمَةٍ تَرَوِي عِظَامِي فِي التُّرَابِ عَرُوقَهَا
 وَلَا تَذْفِنَنِي بِالْفَلَاةِ فَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لَا أَذُوقَهَا
 وَمِنْهُمْ جَرُولُ بْنُ أَوْسِ الْحَطِيطَةِ « مِنْ فَحُولِ الشُّعْرَاءِ وَمُتَقَدِّمِيهِمْ وَفَصَحَائِهِمْ
 مُتَصَرِّفٍ فِي جَمِيعِ فَنُونِ الشُّعْرِ مِنَ الْمَدِيحِ وَالْهَجَاءِ وَالْفَخْرِ وَالنَّسِيبِ مُجِيدٍ
 فِي ذَلِكَ أَجْمَعِ »^(٣) وَلَكِنَّهُ دَنِيَ الطَّبْعَ لثِمِّ النَّفْسِ كَثِيرِ الطَّمَعِ^(٤) جَعَلَ
 الشُّعْرَ مَتَجَرًّا فَكَانَ لَهُ مِنَ الْهَجَاءِ مَعَاشٌ وَمُكْتَسَبٌ لِأَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَهْدُونَ
 لَهُ الْهَدَايَا خَوْفًا مِنْ شَرِّهِ فَقَالَ الْأَضْمَعِيُّ : « كَانَ الْحَطِيطَةُ جَشِيعًا سَوُولًا

(١) أما تاريخ يوم القادسية فانظر ما قاله فيه WELLHAUSEN, *Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islam* (*Skizzen und Vorarbeiten* VI), Berlin 1899, P. 72-74; CAETANI, *Annali dell'Islâm*, III, P. 629-633.

(٢) ديوان ص ١٤ من طبعة ليدن ١٨٨٧ بناية Abel و ص ٧٢ من طبعة ليدن ١٨٨٦ (في LANDBERG, *Primeurs arabes*, I) وعيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٣٨ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أوج ١ ص ٣٨ من طبعة مصر ١٣٤٣ - ١٣٤٨].

(٣) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٤٣ من طبعة بولاق .

(٤) انظر أيضاً كتاب العملة لابن رشيقي ج ١ ص ٥٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

مُلْحِفاً دَنَى النَّفْسِ كَثِيرَ الشَّرِّ قَلِيلَ الْخَيْرِ بِخَيْلٍ قَبِيحِ الْمَنْظَرِ رَثَّ الْهَيْئَةِ
مَغْمُوزِ النَّسَبِ فَاسِدِ الدِّينِ وَمَا تَشَاءُ أَنْ تَقُولَ فِي شَعْرِ شَاعِرٍ مِنْ عَيْبٍ إِلَّا
وَجَدْتَهُ وَقَلَّمَا تَجَدُّ ذَلِكَ فِي شَعْرِهِ « (١) . فَمِنْ غَرِيبِ الْإِتِّفَاقِ أَنَّ هَذَا الشَّاعِرَ
الْمُوصُوفَ بِدَنَاءَةِ الْخُلُقِ كَانَ رَاوِيَةً كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ بَلْ إِنْ صَحَّ الْخَبَرُ رَاوِيَةً
زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ الَّذِي شَعْرُهُ فِي طَلَبِ الْعُلَا وَالْمَكَارِمِ . وَكَانَ الْحُطَيْثَةُ قَدْ
ارْتَدَّ فِيمَنْ ارْتَدَّ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ وَهَجَا حِينَئِذٍ الْخَلِيفَةَ أَبَا بَكْرٍ فِي بَيْتَيْنِ
مَشْهُورَيْنِ (٢) ثُمَّ أَسْلَمَ ثَانِيَةً إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَهْجُو أَكْبَارَ النَّاسِ حَتَّى أَمَرَ عُمَرُ
ابْنَ الْخَطَّابِ بِحَبْسِهِ فَقَالَ فِي الْحَبْسِ أَبْيَاتاً أَشَارَ فِيهَا إِلَى حَالِ أَوْلَادِهِ الصِّغَارِ
الْمُقِيمِينَ بِذِي مَرْخٍ (وَهُوَ وَادٍ مِنْ أَوْدِيَةِ الْيَمَنِ) (٣) :

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحٍ بِذِي مَرْخٍ حُمِرَ الْحَوَاصِلُ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرٌ
أَلْقَيْتَ كَأْسِيهِمْ فِي قَعْرِ مُظْلَمَةٍ فَاغْفِرْ عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ
أَنْتَ الْأَمِينُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَى إِلَيْهِ مَقَالِيدَ النُّهْيِ الْبَشَرُ
لَمْ يُؤْثِرُوا بِهَا إِذْ قَدَّمُوا لَهَا لَكِنْ لِأَنْفُسِهِمْ كَانَتْ بِهَا الْخَيْرُ

فَعَفَا عَنْهُ . وَلَا يُعْرَفُ تَارِيخُ وَفَاتِهِ الَّذِي جَعَلَهُ أَبُو الْفَدَاءِ سَنَةَ
٦٩ بِدُونِ إِيرَادِ مَصْدَرِ هَذَا الْخَبَرِ . وَالْمَحَقِّقُ إِنَّمَا هُوَ أَنَّهُ أَدْرَكَ خِلَافَةَ عُثْمَانَ
عَلَى الْأَقْلَ . وَكَانَ الْحُطَيْثَةُ رَقِيقَ الْإِسْلَامِ فَكَثُرَتْ فِي ذَلِكَ الْحِكَايَاتِ .

وَمِنْ مَعَاصِرِهِ الشَّمَاخُ بْنُ ضِرَارٍ الدُّبْيَانِيُّ صَاحِبُ دِيْوَانِ طُبْعِ بَمْبَيْرِ سَنَةِ
١٣٢٧ هـ بِعِنَايَةِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ بْنِ الْأَمِينِ الشَّنْقِيطِيِّ وَقِيلَ إِنَّهُ أَوْصَفَ الشُّعْرَاءَ
لِلْحَمِيرِ وَالْقَوْسِ وَأَرْجَزَ النَّاسَ عَلَى الْبَلَدِيَّةِ . وَهُوَ كَثِيرُ الْهَجَاءِ أَيْضاً مَاتَ بَعْدَ

(١) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ٢ ص ٤٦ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاقِ .

(٢) دِيْوَانُ عَدَدِ ٣٤٤ ، بَيْت ٥-٦ مِنْ الطَّبْعَةِ بِعِنَايَةِ GOLDZIHNER فِي Zeitschrift der deutschen morgen-
ländischen Gesellschaft, 47, 1893, P. 43.

(٣) دِيْوَانُ عَدَدِ ٤٧ مِنْ الطَّبْعَةِ الْمَذْكُورَةِ .

قتل عمر بن الخطَّاب . وكان له أخوان شاعران أعنى مزردًا وجزءًا اللذين لم يُنقل إلينا إلا مقتطعات صغيرة من شعرهما .

ومن أشهر الشعراء المخضرمين أيضاً عمرو بن معديكرب الزبيدي من سادات أهل اليمن وأشجع العرب ، أسلم في يدى النبی في السنة العاشرة وشهد وقعة القادسية فله فيها أثر . وعلى أرجح الأقوال مات ببلاد العجم في آخر خلافة عمر . وأكثر شعره في الحماسة وذكر الفتوح . ولشجاعته وشهرته كثرت فيه وفي سيفه المسمى الصنصامة وفي كبر سنّه الحكايات المختلفة منها ما روى في كتاب الأغاني^(١) فيه مع عيينة بن حصن في تحريم الخمر وتحليله^(٢) . ومنهم أيضاً هذليان أحدهما أبو خراش خوئلد بن مرة الذي مات في خلافة عمر بن الخطَّاب « وكان ممن يعدو فيسبق الخيل في غارات قومه وحروبهم »^(٣) . والثاني وهو أشعر منه أبو ذؤيب خوئلد بن خالد الذي غزا إفريقية مع عبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٦/٢٧ فأخذه الموت بعد انتهاء الغزاة سنة ٢٨ تقريباً . وله ديوان لم يُطبع بعد^(٤) . ومما يُستجاد من شعره قصيدة طويلة يرويها صاحب كتاب جمهرة أشعار العرب^(٥) رثى بها بنيه

(١) كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٣٠ - ٣١ من طبعة بولاق .

(٢) وفي ذلك الخبر ذى الإسناد الضعيف جداً ترون عمر بن معديكرب وهيئة يتباحثان كأنهما فقيهان ويذكران المتكلف بمراعاة أحكام الدين وهذا لا يعقل في ذلك العهد عند رجلين فارسين في الحرب قليلي الإسلام بعيدين عن الميل إلى البحث عن أمور الدين فظاهر أن الخبر كله من الروايات التي اخترعت في أواخر أيام بني أمية لما أخذ أهل التقى والدين والفقهاء يبدلون جهنم في النقيض عن المنكر الشائع من شرب الخمر وإهمال الأحكام الشرعية في الحياة العادية فأشاع أولو الأغراض عدة حكايات مصنعة عذراً لأفعالهم وأعمالهم المكروهة . راجع - GOLDZIER Muham medanische Studien, I, P. 30-31.

(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٥٤ . [طبع ديوانه في مدينة ليسك سنة ١٩٣٣ بعناية J. Hell في المجلوعة *Neue Hudhailiten-Diwane* ج ٢] .

(٤) [طبع ديوانه في مدينة هانوفر سنة ١٩٢٦ بعناية J. Hell] .

(٥) جمهرة أشعار العرب ص ١٢٨ - ١٢٣ من طبعة بولاق سنة ١٣٠٨ - ١٣١٠ [ومفضليات =

الخمسَةَ أو الثمانية الذين قُتِلُوا له أو هلكوا بالطاعون في عام واحد .
وأولها :

أمن المنون ورَيْبِهَا تتوجعُ	والدهرُ ليس بمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ
قالت أميمةُ ما لجسمك شاحباً	مُنْذُ ابْتَدَأْتَ وَمِثْلُ مَالِكٍ يَنْفَعُ
أم ما لجسمك لا يلائم مَضْجَعاً	إِلَّا أَقْضَى عَلَيْكَ ذَاكَ الْمَضْجَعُ
فَأَجَبَتْهَا أَمَا لَجِسْمِي أَنَّهُ	أَوْدَى بَنِيَّ مِنْ الْبِلَادِ فَوَدَّعُوا
أودى بنى فاعقبوني حشرة	بعد الرُقَادِ وَعِبْرَةٌ مَا تُقْلِعُ
سَبَقُوا هَوًى وَأَعْنَقُوا لَهْوَاهُمْ	فَتُخْرِمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعُ
فغَبِرَتْ بعدهمُ بعيش ناصب	وإِخَالِ أُنَى لِأَحَقِّ مُسْتَبِيعُ
ولقد حرَّضت بآن أدافع عنهمُ	وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفَعُ
وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا	أَلْفَيْتَ كُلَّ نَمِيَةٍ لَا تَنْفَعُ

ولو أردتُ سرِّدُ أسماء جميع الذين زهوا في ذلك العصر من شعراء الصنف الثالث لضاق المكان . فإن سأل سائل لأي سبب لا يُظهر شعرهم على وفرة تأثير الدين الإسلامي في أفكارهم وعواطفهم وموضوع قريضهم كأن أحوالهم ما تغيَّرت منذ انتهاء عصر الجاهلية قلتُ إن أهل البادية كانوا من أبعد الناس عن روح الإسلام ولا ميل لهم إلى تأمل أمور الدين وفهمها فصعب دخول الإيمان في قلوبهم فلم يزالوا إلى أيامنا موصوفين بقلَّة عواطفهم الدينية . ونزل فيهم في سورة التوبة (١) : « الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا

عدد ١٢٦ من طبعة أكسفورد سنة ١٩٢١] وتوجد ١٥ بيتاً من هذه القصيدة في شرح شواهد المغنى للسيوطي ص ٩٢ - ٩٣ من طبعة مصر ١٣٢٢ وتروى ثلاثة عشر بيتاً في كتاب الاستيعاب لابن عبد البر ج ٢ ص ٦٦٧ عدد ٢٩١٤ من طبعة حيدر آباد ١٣١٩ وفيه أيضاً ترجمة الشاعر (ص ٦٦٥ - ٦٦٧) و ٧ أبيات من شعر يبكى أبو ذؤيب فيه النبي وفي آخر هذه الأبيات تفاؤل يشبه تفاؤل الجاهلية .
(١) القرآن ٩ (سورة التوبة) : ٩٧ - ٩٩ فراجع أيضاً ٤٩ (سورة الحجرات) : ١٤ .

يَقْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ . . . » . وَلَكِنْ قُلْتُ الْأَعْرَابُ

من هذا النوع الثاني فأغلب أهل الوبر لم يُسْلِمُوا إِلَّا كَارِهِينَ أو طامعين فيما كانوا يرجونه من الربح والمنفعة والغنيمة فلم يعتبروا النبيَّ إِلَّا كَأَنَّهُ مَلِكٌ من الملوكة القادرين الأعزَّاء الذين لا يمكن مُعَادَاتُهُمْ . وحال أكثرهم كحال بنى عامر بن صَعَصَعَةَ الذين لَمَّا وفدوا على النبيِّ قال رئيسهم^(١) : يا مُحَمَّدُ ما لي إن أسلمت ؟ قال لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين . قال أنجعل لي الأمرَ مِنْ بَعْدِكَ ؟ قال ليس ذلك لك ولا لقومك . قال أنجعل لي الوبر ولك المدر ؟ قال لا ولكنني أجعل لك أعنة الخيل فإنك امرؤ فارس . قال أوليست لي ؟ الْأَمْلَأْنَهَا عَلَيْكَ خَيْلًا وَرَجَالًا . ثُمَّ وَلَّى^(٢) . - ومع قطع النظر عما رأيناه من قلَّةِ ميلهم إلى جلالَةِ الدين لا شكَّ في أَنَّ لكرهاتهم تلك أسباباً خاصة . قد مرَّ في إحدى الصحائف السابقة أن مراعاة سنة أجدادهم كانت عند عرب الجاهلية أفضل الفضائل ومُعْظَمُ الأدب فظهر لهم الإسلام بدعةً مكروهةً لا يتبعها نيبال الناس كما قالت زوجة العباس ابن مرداس حين بلغها خبر إسلامه^(٣) : (من الطويل)

لَعَمْرِي لَشِنْ تَابَعْتَ دِينَ مُحَمَّدٍ وفارقتَ إِخْوَانَ الصِّفَا والصَّنَائِعِ
لَبَدَّلْتَ تِلْكَ النَّفْسَ ذُلًّا بِعِزَّةٍ غداةَ اخْتِلَافِ المُرْهَفَاتِ القَوَاطِعِ

(١) وهو عامر بن الطفيل الشاعر المشهور .

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد في ٤٢ WELLHAUSEN, skizzen und Vorarbeiten, [الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٥١ سطر ١٩ - ٢٣ من طبعة ليدن] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٦٦ من طبعة بولاق فراجع أيضاً GOLDZIHNER

Muhammedanische studien, I, P. 9-10.

أو كما قال كعب بن زهير وهو حينئذ وثني يذم أخاه بُجَيْرًا حين
أسلم^(١) :
(من الطويل)

ففارقَت أسباب الهدى واتَّبَعْتُهُ على أيّ شيء ويبُّ غيرُك دَلْكَا
على مذهبٍ لم تُلفِ أُمًّا ولا أَبًا عليه ولم تعرف عليه أخًا لكَا

ففي تمسك العرب بسنن آبائهم نُزِلَتْ بضع آيات منها في سورة البقرة^(٢) :
« إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » .
وفي سورة المائدة^(٣) : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ
قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا » . وفي سورة الأعراف^(٤) : « وَإِذَا فَعَلُوا
فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا » . وفي سورة الزخرف^(٥) :
« بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ » . وفي سورة
لقمان^(٦) : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا » . - وفي بعض الأشياء أن الشريعة الإسلامية خالفت سنن العرب
القديمة مخالفة شديدة . كانت العرب أفخرَ الناس بأنسابهم محتقرين
من لم يكن منهم أو كان مغموز النسب متكبرين بالحسب الطويل فجاء
القرآن بما يدلُّ على مساواة الناس عند الله^(٧) : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ
مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاكُمْ » . - كان العرب يُدِلُّون من لم يأخذ ثأر أقاربه ولا يرد الشرَّ
بمثلِه أو بأكثر منه كما قال عمرو بن كلثوم في معلقته^(٨) :

(١) انظر شرح بانث سعاد للشيخ جمال الدين ابن هشام الأنصاري ص ٤ من طبعة ليبسك
سنة ١٨٧١ - ١٨٧٤ بعناية I. Guidi
(٢) القرآن ٢ (سورة البقرة) : ١٧٠ .
(٣) القرآن ٥ (سورة المائدة) : ١٠٤ .
(٤) القرآن ٧ (سورة الأعراف) : ٢٨ .
(٥) القرآن ٤٣ (سورة الزخرف) : ٢٢ .
(٦) القرآن ٣١ (لقمان) : ٢١ .
(٧) القرآن ٤٩ (الحجرات) : ١٣ .
(٨) معلقة عمرو بن كلثوم بيت ٥٣ .

أَلَا لَا يَجْهَلْنَ أَحَدٌ عَلَيْنَا [فنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

أَمَّا الْإِسْلَامُ فَتَنَصَّحَ لِلنَّاسِ بِالْعَفْوِ وَالْحِلْمِ وَمَدَحَ « الْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ. وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ »^(١) بَلْ أَمَرَ الْمُؤْمِنَ : « اذْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السِّيْئَةِ »^(٢). وَكَانَ الْأَعْرَابُ مَوْلَعِينَ بِشُرْبِ الْخَمْرِ وَلِغَبِ الْمَيْسِرِ فَجَاءَ الْقُرْآنُ بِتَحْرِيمِهَا وَأَمَرَهُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَبَةِ لِأَبْنَاءِ الْفِيَاثِ . فَخِلَاصَةُ الْأَمْرِ أَنَّه كَانَ الْبُؤْسُ الْوَاسِعُ بَيْنَ قَوَاعِدِ الْمُرُوءَةِ عَلَى رَأْيِ الْأَعْرَابِ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ^(٣) فَلَا عَجَبَ أَنَّ أَهْلَ الْبَادِيَةِ لَمْ يَعْتَنِقُوا الدِّينَ الْجَدِيدَ إِلَّا رَغْمًا عَنْهُمْ .

٤ - وَلِإِتِّمَامِ هَذَا الْوَصْفِ الْإِجْمَالِيِّ لِآدَابِ الْعَرَبِ فِي أَيَّامِ النَّبِيِّ وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ يَبْقَى عَلَى أَنَّ الْمَحْ إِلَى نَوْعٍ خَاصٍّ مِنَ الشَّعْرِ تَلِيْقُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَعْرِ الْفَتْوحَاتِ . قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ عَرَبَ الْجَاهِلِيَةِ كَانُوا يَخْلُدُونَ مَآثِرَ قَبَائِلِهِمْ وَذَكَرَ أَيَّامَهُمْ فِي أَبْيَاتٍ تَوَارِثَهَا أَهْلُ كُلِّ قَبِيلَةٍ خَلْفًا عَنْ سَلَفٍ . فَكَذَلِكَ لَمَّا فَاضَتْ الْجِيُوشُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِأَمْوَاجِهَا عَلَى مَا هُوَ خَارِجٌ أَنْحَاءَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَخَفَقَتْ أَلْوِيَةُ الْجُنُودِ الْمَظْفَرَةُ فِي أَطْرَافِ النُّوَاحِي الْأَعْجَمِيَّةِ وَأَقَاصِي الْآفَاقِ . أَخَذَتِ الْأَعْرَابُ الْكَائِنُونَ فِي جَمَلَةِ الْمُجَاهِدِينَ يَقُولُونَ الشَّعْرَ وَيُنْشِدُونَ الْقَوَافِي وَضَفَاءً لَمَّا قَاسَوْا مِنْ الْمَتَاعِبِ وَمَا شَهِدُوا مِنَ الْوَقَائِعِ وَمَا قَطَعُوا مِنَ الْبُلْدَانِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ الْبَأْسِ وَثَبَاتِ الْجَنَانِ . فَقَالَ مَثَلًا قَيْشُ بْنُ الْمَكْشُوحِ الْمُرَادِيُّ مَفْتَخَرًا بِقَتْلِهِ رُسْتَمَ أَمِيرِ جِيُوشِ الْفَرَسِ فِي يَوْمِ الْقَادِسيَّةِ سَنَةِ ١٦٧ :^(٤)

حَلَبْتُ الْخَيْلَ مِنْ صَنْعَاءَ تَرْدَى بِكُلِّ مُدَجِّجٍ كَاللَّيْثِ سَامٍ

(١) الْقُرْآنُ ٣ (آل عمران) : ١٣٤ . (٢) الْقُرْآنُ ٢٣ (الْمُؤْمِنُونَ) : ٩٦ .

(٣) رَاجِعْ مَا قَالَهُ الْأَسَازُ Goldziher فِي الْمُرُوءَةِ وَالِدِينِ فِي كِتَابِهِ *Muhammedanische Studien*

ج ١ ص ١ - ٣٩ .

(٤) فَتُوحُ الْبُلْدَانِ لِلْبَلَاذَرِيِّ ص ٢٦١ مِنْ طَبْعَةِ لَيْدِنِ ١٨٦٦ .

إلى وادى القرى فديار كلبٍ إلى اليوموك فالبلد الشام
وجئن القادسية بعد شهرٍ مسومة دوابرها دوام
فناهضنا هنالك جمع كسرى وأبناء المرازبة الكرام
فلما أن رأيت الخيل جالت قصدت لموقف الملك الهام
فأضرب رأسه فهو صريعاً بسيف لا أفل ولا كهام
وقد أبلى الإله هناك خيراً وفعل الخير عند الله نام

فلو جمعنا ما ورد من مثل هذه الأشعار في كتاب فتوح البلدان
للأذرى وفي تاريخ الطبرى وفي كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى
لألّفنا منها ديواناً .

٥ - ومن الكتب الكثيرة التداول حتى في أيامنا ديوان محتوي على قصائد
ومقطعات دينية منسوب إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . لكنه كتاب
مختلق وهو مما صنعه أهل الشيعة لأغراضهم الخاصة . وعلى قول بعض أهل
السنة المتأدبين هو تأليف الشريف المرتضى أبي القاسم علي بن طاهر المتوفى
سنة ٤٣٦/١٠٤٤ . ونُسبت أيضاً أحياناً إلى الخليفة علي القصيدة الزينية في
الحكم والمواعظ . التي من قريض صالح بن عبد القدوس المقتول في سنة
١٦٧ هـ في أيام المهدي . أما ما روى من شعر علي بن أبي طالب في كتب
التاريخ وفي كتاب العمد^(١) لابن وشيق فشئ يسير كله في الحماسة
ووصف الحروب .

٦ - أما المنشور المستظرف في عهد النبي والخلفاء الراشدين فلم يخرج عما
كان عليه في زمان الجاهلية من الحكم والمواعظ . والوصايا والحكايات ما عدا
الأحاديث النبوية . ولم يدون في ذلك العصر كتاب وإن كان بعض الناس

(١) كتاب العمد ج ١ ص ١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

يقيّدون في بطون الصحائف شيئاً من أحاديث النبي ومن الحكم . وفن الخطابة لم يزل في رونقه القديم حتى نبغ فيه نفس النبي والخلفاء فمرّ فيما سبق ذكر نص مأخوذ من كتاب ابن سعد دالّ على ارتفاع منزلة الخطيب البليغ عند عرب القبائل وأهل المدن . ولكن لقلّة استعمال الكتابة لتسجيل المنشور لم يصل إلينا من خطب ذلك العصر إلا شيء يسير جداً وربما وقع في هذا القليل نقص أو زيادة أو تغيير أو اختلاق . فخطبة الوداع مثلاً على عظمت شأنها وعلوّ أفكارها ورفعة قائلها إنما نقلت بروايات مختلفة وعلى قطع متفرقة . وأقبح الأمر ما عرض لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب فإن أصحاب الأهواء من الفِرَق الإسلامية اجتروا على تزوير أقواله وعزّوا إليه جمّاً غفيراً من المواعظ . والحيكم التي ليست له ألبتّة . فقال المسعودي في مروج الذهب^(١) إنّ « الذي حفظ . الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعمئة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً » ومما نُسب إليه أيضاً كتاب نهج البلاغة الذي اختلف فيه بعض أهل السنّة أهو للشريف المرتضى أبي القاسم عليّ بن طاهر المتوفى سنة ٤٣٦/١٠٤٤ أم لأخيه الشريف المرحوم^(٢) ، وعلى كل حال أنه ليس من كلام عليّ وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه . وقال أبو عبد الله محمد الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨/١٣٤٨ في كتاب ميزان الاعتدال^(٣) : « ومن طالع كتاب نهج البلاغة جزم بأنّه مكذوب على أمير المؤمنين عليّ (رضه) فإنّ

(١) في الباب الرابع والثمانين ج ٤ ص ٤٤١ - ٤٤٢ من الطبعة الباريسية.

(٢) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٤٥٤ من طبعة غوتنجن أو عدد ١٦ من الطبقات المصرية .

(٣) كشف الظنون لحاجي خليفة ج ٢ ص ٦٢٢ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣١١ في مادة

« نهج البلاغة » .

فيه السبُّ الصريح والخطُّ على السيِّدين أبي بكر وعمر . - وأحياناً
عُزِّي إليه كتاب الجَفَر والحِجَابُ العظيم وغير ذلك ممَّا هو برىء منه كلياً .
ومن خطباء ذلك العصر سَحْبَانُ بن زُفَر الوائليّ من قبيلة وائل باهلة
وُلِدَ في زمان الجاهليّة ومات مسلماً سنة ٥٤ هـ وضُرب به المثل في البلاغة
والبيان ف قيل أَخْطَبُ مِنْ سَحْبَانَ وَائِلٍ أَوْ أَنْطَقُ مِنْ سَحْبَانَ . وما رُوي عنه
في كتاب الأمثال للميداني وفي شرح الشَّوَيْشِيِّ على المقامات الحريرية
أشهر من أن أحتاجَ إلى ذكره هنا .

الباب الرابع

الشعر في عصر بني أمية

- ١ - الغزل في مدن الحجاز - ٢ - النسيب عند الأعراب - ٣ - الشعر على أسلوب فحولة الجاهلية - ٤ - الأراجيز - ٥ - شعر الجنود - ٦ - شعر الفتن السياسية والدينية - ٧ - شعر أهل الحضر في مدن العراق والشام - ٨ - الشعر القصصي البني - ٩ - المراثي .

فلنناقِ الآن نظرة على الآداب العربية في أيام دولة بني أمية .

لا ريب في أنَّ نقل دار الخلافة من الحجاز إلى دمشق سنة ٤١١ هـ كان ذا عواقب متنوعة مهمة يصعب تقديرها حقَّ القدر ولكن البحث عنها وبيانها يحقُّ من يعتنى بتاريخ الأمم الإسلامية . فاقصر هنا على ذكر أنَّ ذلك النقل الذي غيَّر به مركز السياسة الإسلامية ثمَّ الفتن التي حدثت بين بني أمية وبين أهل الحجاز في أيام الحسين وعبد الله بن الزبير وتوسيع حدود المملكة واشتغال كثير من أهل البادية بالفتوح والقتال في الأنحاء البعيدة كانت سبباً في وقوع اختلاف محسوس بين سائر الآداب في جزيرة العرب لاسيَّما الحجاز وسيرها في الشام والعراق والجزبال من قبل منتصف القرن الأوَّل إلى أواخره . فلتحصيِّل الوضوح في هذا البيان المختصر أرى من المناسب تقسيم الشعر في أيام الدولة الأموية تسعة أقسام أو أصناف :

- ١ - الغزل في مدن الحجاز - ٢ - الشعر الغرائي والتشبيب عند الأعراب .
- ٣ - الشعر على الأسلوب القديم المألوف عند فحول شعراء الجاهلية .
- ٤ - الأراجيز . ٥ - الشعر المتعلق بالاغتراب والفتوح وهو شعر الجنود .

- ٦- الشعر المتعلق بالفتن والخلافات الدينية والسياسية . ٧- الغزل والخمريات والمديح بدمشق . ٨- الشعر القصصي اليمني . ٩- المراثي . ١- فأبتدى بالصنف الأول أى الغزل فى المدن الحجازية .

إنَّ محبة إلف النساء وهواهنَّ وفرط الصبابة والشوق كانت فى كلِّ زمن وعند كلِّ أمة مجالاً واسعاً وميداناً أفتيح لقريض الشعر فلم تخلُ الأمم السامية عن أشعار معبرة عما فى نفوسهم وقلوبهم من شدة الغرام أو الميل إلى التشبيب والتغزل بل ضربوا فى ذلك بسهم مُصيب كما يتضح مثلاً من سفر نشيد الأناشيد المُدرج فى كتب العبرانيين المقدسة . فمن طالع أشعار العرب القديمة استغرب قلة ما فيها من الأبيات المختصة بالتشبيب لأن أكثر ما يُروى من هذا الباب أُلِّقَ بتسمية النسيب منه بتسمية الغزل إذا امتثلنا فى تعريفهما قول أبى زكرياء يحيى التبريزى فى شرح حماسه أبى تمام ^(١) : « النسيب ذكر الشاعر المرأة بالحسن والإخبار عن تصرف هواها به وليس هو الغزل وإنما الغزل الاشتهار بمودات النساء والصبوة إليهن والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه » ^(٢) ومن الجدير بالذكر أن فحول شعراء الجاهلية لم يُفردوا للنسيب أشعاراً طويلة خاصة فاقتصروا على جعله فى أول قصائدهم يشككون فيه شدة الوجد وألم الفراق أو يصفون ما لمعشوقتهم من الجمال . فإن ذهب أحدهم أحياناً إلى التغزل الحقيقى حصرة فى بيتين أو ثلاثة من نسيب القصيدة ولم يُدرجه فى وسطها إلا بأنذر النادر كما فعله عنتر بن شداد فى معلقته حين قال نحو أواخرها :

يا شاة ما قنص ليمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم
فبعثت جاريتي فقلت لها أذهبي فتجسسى أخبارها لى وأعلمي

(١) شرح التبريزى على حماسه أبى تمام ص ٥٣٨ من طبعة بن أوج ٣ ص ١١٢ من طبعة بولاق .
(٢) راجع أيضاً نقد الشعر لقدماء ص ٤٢ - ٤٣ من الطبعة القسطنطينية سنة ١٣٠٢ .

قَالَتْ رَأَيْتُ مِنْ أَلْعَادِي غِرَّةً وَالشَّاةُ مُمَكِّنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمٍ
وَكَاثِمًا أَلْتَفَتَتْ بِجِدِّ جَدَايَةٍ رَشَلٍ مِنَ الْغِزْلَانِ حُرٌّ أَرْتَمٍ
وبعد هذه الأبيات الأربعة يرجع موضوعُ المعلقة إلى غير الغزل والنسيب.
أمَّا مقطّعات الشعر الجاهليّ المختصّة بالتشبيب المنقولة إلينا في كتب الأدب
واللغة فقليلة جداً وهي كما قلته من باب النسيب لا من باب التغزل^(١).
فلهذا الأمر الغريب على رأي سبباني : الأول أن التعبير عما في القلب
من الهوى والعشق والشوق يستدعي كلاماً ليناً سهلاً المأخذ بعيداً
عن الألفاظ الغريبة قريب المعاني فاستنكفت من جمعه علماء اللغة في القرن
الثاني والثالث للهجرة لأنّ غرضهم من لمّ الأشعار القديمة وحفظ شذراتها
كان خصوصاً الغريب من الألفاظ والمهم من الأخبار . والسبب الثاني وهو
الأخطر أن الشعر في التشبيب المحض كان على ظني عند عرب الجاهليّة
نوعاً عامياً تعاطاه أيضاً رعاغُ الناس فأهانوه نوابغُ الشعراء وأهملوه وامتنعوا
عن قوله قانعين بوضع أبيات النسيب في أوّل قصائدهم . ولعلّ سبباً ثالثاً
أيضاً عمل في كراهة الشعراء المجيدين المُفْلِقِينَ للغزل وهو علو منزلة النظم
في حياة العرب الاجتماعيّة لأنّ غاية الشعر العالي إنّما كان عندهم تعظيم
الأكابر وتخليد ذكر مآثر القبائل والافتخار بالحماسة أو المكرّمات وهجاء
الأعداء فلذلك لم يكن التشبيب المحض ممّا عُدّ من مقاصد الشعر السامية .
أمّا في خلافة عليّ بن أبي طالب وما يتبعها من الزمان فنجدُ بمكة والمدينة
نوعاً جديداً من الشعر أخذ يزدهر بهما بَغْنَةً بل يغلب على سائر الأنواع فكاد

(١) كذلك نجد في أبيات عامر بن الحارث النخعي الشاعر الجاهلي الملقب بجران العود غزلاً يشابه
غزل عمر بن أبي ربيعة الشاعر الأموي الذي سيأتي ذكره، فراجع القصيدة المروية في آخر ديوان
جرير المطبوع بمصر سنة ١٣١٣ ج ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠ [أو ديوان جرّان العود ص ١٣ - ١٩
من طبعة مصر ١٣٥٠] وراجع أبياته المروية في أمالي القالي ج ٣ ص ١٠٣ - ١٠٤ من طبعة
بولاك ١٣٢٤ [أو ج ٣ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٤٤] . أما سبب لقبه بجران العود فانظر
مقاله عبد القادر البغدادي في خزائنه ج ٤ ص ١٩٨ وابن قتيبة في كتاب الشعر ص ٤٥٠ من طبعة ليدن .

أَجُودُ الشُّعْرَاءِ فِي مَدَنِ الْحِجَازِ لَا يَتَعَاظُونَ غَيْرَهُ خِلَافاً لِمَعْرِفَتِهِمْ فِيهَا قَبْلَ . وَهَذَا
النَّوْعُ الْجَدِيدُ هُوَ الْغَزَلُ وَلَعَلَّ أَوَّلَ مَنْ اشْتَهَرَ بِهِ أَبُو ذَهَبَلُ الْجُمَحِيُّ مِنْ
أَشْرَافِ النَّاسِ بِمَكَّةَ قَالَ الشَّعْرُ فِي آخِرِ خِلَافَةِ عَلِيٍّ وَمَدَحِ مُعَاوِيَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ
ابْنِ الزُّبَيْرِ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْأَكْبَابِ . وَهَوَاهُ لَعَمْرَهُ مَشْهُورٌ قَبْلَ فِي كِتَابِ الْأَغَانِي^(١)
« إِنَّهُ كَانَتْ تَتَحَدَّثُ بِهِ أَشْرَافُ قَرِيْشٍ فِي مَجَالِسِهَا وَسُوقَةِ الْحِجَازِ فِي أَسْوَاقِهَا
وَالسُّقَاةَ فِي مَوَارِدِهَا » . وَمَا صَاغَهُ أَبُو ذَهَبَلٍ مِنَ الشَّعْرِ فِيهَا رَقِيقٌ ظَرِيفٌ بَعِيدٌ
عَنْ أَسْلُوبِ نَسِيبِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْمَعْرُوفِ . وَيُرْوَى أَنَّهُ نَظَرَ عَرَضاً إِلَى عَاتِكَةِ
بِنْتِ الْخَلِيفَةِ مُعَاوِيَةَ فِي حُجَّتِهَا وَقَالَ فِيهَا أَبْيَاتاً شَاعَتْ بِمَكَّةَ وَشُهِرَتْ فَغَنَّى فِيهَا
الْمُغَنُّونَ فَلَمَّا صَدَرَتْ عَاتِكَةُ عَنْ مَكَّةَ « خَرَجَ مَعَهَا إِلَى الشَّامِ وَنَزَلَ قَرِيباً مِنْهَا فَكَانَتْ
تُعَاهِدُهُ بِالْبِرِّ وَاللِّطْفِ حَتَّى وَرَدَتْ دِمَشْقَ وَوَرَدَ مَعَهَا فَانْقَطَعَتْ عَنْ لِقَائِهِ »^(٢)
فَأَنْشَدَ شِعْراً مَشْهُوراً بَلَغَ مُعَاوِيَةَ الَّذِي أَحْضَرَ أَبَا ذَهَبَلٍ وَلاَمَهُ وَقَالَ لَهُ :
« أَمَّا مِنْ جِهَتِي فَلَا خَوْفَ عَلَيْكَ لِأَنِّي أَعْلَمُ صَيَانَةَ ابْنَتِي نَفْسَهَا وَأَعْرِفُ أَنَّ
فَتْيَانَ الشَّعْرِ لَمْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا النَّسِيبَ فِي كُلِّ مَنْ جَازَ أَنْ يَقُولُوهُ فِيهِ
وَكُلِّ مَنْ لَمْ يَجُزْ وَإِنَّمَا أَكْرَهُ لَكَ جَوَارَ يَزِيدَ^(٣) وَأَخَافُ عَلَيْكَ وَثَبَاتِهِ » .
وَإِنَّمَا أَرَادَ مُعَاوِيَةَ أَنْ يَهْرُبَ أَبُو ذَهَبَلُ . وَفِي ذَلِكَ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ وَأَشْعَارُ^(٤) جَارِيَةٌ
مَجْرَى غَيْرَ مَجْرَى نَسِيبِ الْجَاهِلِيَّةِ . ثُمَّ سَلَكَ غَيْرَهُ مِنْ نَوَابِغِ الشُّعْرَاءِ بِمَكَّةَ
هَذَا الْمَسْلُوكَ الْمُبْتَدَعَ فَقِيلَ : « كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْضِلُ قَرِيْشاً فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا
الشَّعْرَ فَلَمَّا نَجَّمَ فِي قَرِيْشٍ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَالْحَارِثُ بْنُ خَالِدٍ الْمَخْزُومِيُّ وَالْعَرَجِيُّ
وَأَبُو ذَهَبَلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ الرُّقِيَّاتِ أَقْرَبَتْ لَهَا الْعَرَبُ بِالشَّعْرِ أَيْضاً »^(٥) .

(١) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ٦ ص ١٥٦ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاق .

(٢) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ٦ ص ١٥٨ - ١٥٩ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاق .

(٣) وَهوَ ابْنُ مُعَاوِيَةَ وَأَخُو عَاتِكَةَ .

(٤) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ٦ ص ١٥٩ - ١٦١ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاق .

(٥) كِتَابُ الْأَغَانِي ج ٣ ص ١٠١ وَرَاجِعْ أَيْضاً ج ١ ص ٣٥ مِنْ طَبْعَةِ بُولَاق .

وإن سألتهم عن سبب هذا التقلب الشديد في أساليب الشعر في المدن الحجازية قلت : لا يخفى على أحد أن أكثر رجال السياسة والحرب قد تركوا جزيرة العرب في أواخر خلافة علي بن أبي طالب فبقيت بالمدينة أهل التقى والعبادة والنسك من الأنصار والمهاجرين كأن الدنيا في الشام والدين بمدينة النبي . وكثرت في ذلك العصر ثروة الحرمين ولا سيما مكة لتوسع العلائق والمصارف التجارية ولزيادة الوافدين عليهما تأدية لفريضة الحج . فبزيادة الثروة والنعمة واتساع العيش زاد أيضاً ما تنزع النفوس إليه من الشهوات والملاذ والتنعيم بأنواع الترف وفسدت أخلاق الشبان من البيوتات الكبيرة الذين لم يكن لهم بالحجاز مجال واسع للاعتناء بأمور السياسة والحرب ولا بالعلوم العقلية التي لم تنزل مجهولة عند العرب في ذلك الزمان فاشتد ميلهم إلى النظر والتغزل وسماع الغناء وحضور الملاحى . وجلبت إلى مكة والمدينة القينات المغنيات بالرومى أو بالفارسي ثم أخذت الموالى يغنون بالعربي أيضاً فقل إن « أصل الغناء أربعة نفر مكّيّان ومدنيّان فالمكّيّان ابن سريج وابن مخرز، والمدنيّان معبد ومالك [بن أبي السّمح] »^(١) ومنهم بل أقدمهم طويس المولود يوم وفاة النبي وهو أول من غنى بالعربي بالمدينة وأول من ألقى الخنث بها وكان ظريفاً عالماً بأمر المدينة وأنساب أهلها^(٢) ومنهم أيضاً الغريض المغنى بمكة والمدينة صاحب عمر بن أبي ربيعة

(١) كتاب الأغاني ج ١ ص ٩٨ من طبعة بولاق - وابن سريج كان مولده في خلافة عمر ابن الخطاب وأخذ يغنى في زمن عثمان بن عفان ومات في خلافة هشام بن عبد الملك $\frac{105}{724} - \frac{125}{743}$ وابن مخرز معاصر له - ومعبد بن وهب غنى في أول دولة بني أمية ومات في أيام الوليد بن يزيد $\frac{126}{744} - \frac{125}{743}$ بدمشق - ومالك بن أبي السّمح مات في أيام المنصور $\frac{136}{754} - \frac{158}{775}$.

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٧٠ من طبعة بولاق - ويقال في كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٨٨ أن سائب خاثر أول من غنى بالعربية ولم يكن يضرب بالعود إنما كان يقرع بقضيب وأخذ عنه ابن سريج وجميلة ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم - كان سائب مولى بني ليث وقتل في يوم الحرة $\frac{63}{683}$.

كثرت فيه الحكايات ومات في خلافة سليمان بن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧)، ومنهم كثيرون لا أحتاج إلى سرد أسماهم هنا . ومما يدل على سعة العيش بمكة في النصف الثاني من القرن الأول ما يروى في كتاب الأغاني^(١) أن عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله الجمحي قد اتخذ بيتاً فجعل فيه شطرنجات ونردات^(٢) وقيرقات^(٣) ودفاتر فيها من كل علم وجعل في الجدار أوتاداً فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ثم جرّ دفتراً فقرأه أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم . وفي وادي العقيق الذي كان منتزه أهل المدينة في أيام الربيع والمطر^(٤) أو في منى وسائر نواحي مكة كان المتظرفون من الفتيان لا سيما في موسم الحج ينتظرون ويلتقون النساء والبنات الحرائر ويحدثونهن ويتغزلون بهن . فإن أردتم مثلاً ممّا كان قدر كريمات النساء عند أكابر مكة والمتغزلين فهناكم ما يروى في كتاب الأغاني من أخبار الحارث بن خالد بن العاص المخزومي وهو أحد نوابغ شعراء قريش الغزليين السابق ذكرهم أخو عكرمة بن خالد المخزومي وهو محدث جليل من وجوه التابعين . إن عبد الملك سنة ٧٥ ولي الحارث إمارة مكة فحج بالناس وحجّت عائشة بنت طلحة عامئذ وكان الحارث يهواها فأرسلت إليه أنجز الصلاة حتى أفرغ من طوافي . فأمر المؤذنين فأخروا الصلاة حتى فرغت من طوافها . ثم أقيمت الصلاة فصلى بالناس . وأنكر أهل الموسم ذلك من فعله وأعظموه فعزله وكتب إليه يؤنبه فيما فعل فقال ما أهون والله غضبه إذا

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٥٢ .

(٢) النرد هو ما يعرف اليوم بالطاولة .

(٣) قرقا جمع قرق وهو لعبة للصبيان فراجع لسان العرب ج ١٢ ص ١٩٨ من طبعة بولاق ١٢٠٠ - ١٢٠٧ وأقرب الموارد لسعيد الشرتوني ص ٩٩٠ من طبعة بيروت ١٨٩٩ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٧٢ سطر ٢٤ فراجع أيضاً ج ١ ص ٦٦ سطر ٧ من طبعة بولاق .

رَضِيَتْ وَاللَّهِ لَوْ لَمْ تَفْرُغْ مِنْ طَوَافِهَا إِلَى اللَّيْلِ لَأَخَّرْتُ الصَّلَاةَ إِلَى اللَّيْلِ»^(١) .
 وله في ذلك شعر مشهور^(٢) . وربما كان فتیان مَكَّةَ من الأغنياء الظرفاء
 يرتحلون إلى المدينة لالتقاء ظرفائها وظرائفها ومن هذا القبيل ما روى مُصَنَّبُ
 الزَّبَيْرِيُّ قَالَ^(٣) : « اجتمع نسوة فذكرن عمر بن أبي ربيعة^(٤) وشعره وظرفه
 ومجلسه وحديثه فتشوقنَّ إليه وتمنَّينه فقالت سُكَيْنَةُ [بنت الحسين بن علي
 ابن أبي طالب] أَنَا لَكُنُّ بِهِ . فبعثت إليه رسولا أَن يوافي الصَّوْرَيْنِ^(٥) ليلةً
 سمَّتها فوافاهنَّ على رواحله فحدثنَّ حتى طلع الفجر وحان انصرافهنَّ . فقال
 لهنَّ وَاللَّهِ إِنِّي لَمُحْتَاجٌ إِلَى زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ (صَلَّمَ) وَالصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِهِ
 وَلَكِنِّي لَا أَخْلِطُ بِزِيَارَتِكُنَّ شَيْئاً ثُمَّ انصرف إلى مَكَّةَ فقال في ذلك شعراً
 معروفاً^(٦) . ومما يُروى أيضاً من هذا الباب^(٧) : « واعد عمر بن
 أبي ربيعة نسوة من قریش إلى العقيق ليتحدثنَّ معه فخرج إليهنَّ ومعه الغريض
 فتحدثوا ملياً ومُطَرُوا فقام عمر والغريض وجاريتان للنسوة فَأَظْلُوا عليهنَّ
 بِمِطْرَفَةٍ^(٨) وبردَيْنِ له حتى استترن من المطر حتى سكن ثم انصرفن »
 فقال عمر في ذلك أحد أشعاره^(٩) . - وحسبنا هذا بياناً لأحوال عيشة
 الظرفاء بالحرمين . فإن كان الأمر كذلك فلا عجب في ابتداء نوع جديد
 من الشعر لم يسبق إليه فحولُ الجاهليَّة ولا أهلُ البادية ثم لا عجب أن

(١) كتاب الأغاني ج ٣ ص ١٠٣ وراجع ج ٣ ص ١١٣ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٣ ص ١١٣ - ١١٤ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ٤٧ . (٤) وهو مقيم بمكة .

(٥) الصوران موضع بجوار المدينة المنورة .

(٦) ديوان عمر بن أبي ربيعة عدد ٢١٨ من طبعة ليبسك ١٩٠٢ .

(٧) كتاب الأغاني ج ١ ص ٦٦ من طبعة بولاق .

(٨) رداء من خزمريع ذواعلام .

(٩) ديوان عدد ٥٢ من الطبعة المذكورة .

أكثر شعراء المدن الحجازية لم يتجاوزوا الغزل إلى المديح ولا الهجاء وتركوا أسلوب القصيدة القديمة . ثم شاع حب التشبيب في البلاد البعيدة عن الحجاز وغلب في شعر بعض من أراد حفظ الأساليب القديمة والتكسب بالمديح فيروى في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة^(١) أن « بعض الرُّجَّاز أتى نصر بن سيار والى خراسان لبني أمية فمدحه بقصيدة تشبيها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات فقال نصر : والله ما بقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفاً إلا وقد شغلته عن مديحي بتشبيبك فإن أردت مديحي فاقتصد في النسيب . فأتاه فأنشده :

هل تعرف الدارَ لامَّ الغمرِ دَعُ ذا وخبرٌ مِدْحَةً في نصر

فقال نصر لا ذلك ولا هذا ولكن بين الأمرين » .

وأشهر شعراء الحرمين في ذلك العصر وأنسبهم عمر بن أبي ربيعة المخزومي المذكور وُلِدَ في ليلة قُتِلَ عمر بن الخطاب أعني في ٢٦ ذى الحجة من سنة ٢٣ ومات على القول الأرجح سنة ١٠١ . أمّا قول البعض إن عمر بن عبدالعزيز نفاه إلى جزيرة دهلك القريبة من مدينة مصووع على سواحل البحر الأحمر الغربية فخطأ نشأ من خلط وقع بينه وبين صاحبه الأخوص . وكان عمر مفرطاً في التشبيب بالنساء فكلَّ جميلة رآها في الشوارع أو في الحجج وقعت في نفسه فذهب عقله عليها فلم يقل شيئاً من الشعر إلا في النسيب والغزل فكثيراً ما أظهر في أبياته أسماء المحرائر اللواتي هوهنَّ مثل زينب بنت موسى ولُبابة بنت عبد الله وكلثوم بنت سعد وفاطمة بنت عبد الملك وثريا بنت عليّ وبغوم وأسماء وغيرهنَّ وربّما كاد يشين عرضهنَّ . وفي القرن

(١) ص ١٥ من طبعة ليدن ، وراجع أيضاً كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٩٩ من طبعة

الثاني خاف بعض الناس على الفتيات ما يمكن أن يهيجه شعره لقلوبهن فتُنسب في ذلك إلى الزبير بن بكار هذه الرواية^(١) : « قال حدثني ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مُصعب قالت : مررتُ بجَدِّك عبد الله بن مصعب وأنا داخلةُ منزله وهو بفنائنه ومعى دفتر فقال ما هذا معك ودعاني فجثته وقلت شعر عمر بن أبي ربيعة فقال ويحك تدخلين على النساء بشعر عمر ابن أبي ربيعة إنَّ لشعره لَمَوْقِعاً من القلوب ومَدْخَلاً لطيفاً لو كان الشعرُ يسحر لكان هو فارجعى به . قالت ففعلتُ » . ولكن قال أيضاً الزبير بن بكار المتوفى سنة ٢٥٦ هـ : « أدركتُ مشيخة من قريش لا يزنون بعمر بن أبي ربيعة شاعراً من أهل دهره في النسب ويستحيحسون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه والتحلي بمودته والابتيار^(٢) . وجماعة من الأدباء أثَنُوا على شعره كلِّ الثناء وقالوا إنَّ عمر أشعر قريش لأنَّه « رَقٌّ معناه ولُطْفٌ مَدْخَلُهُ وسَهْلٌ مَخْرَجُهُ ومَتْنٌ حَشْوُهُ وتَعَطُّفٌ حَواشيه وأنارت معانيه وأعرب عن حاجته »^(٣) . وممَّن بلغ الغاية في الإطراء مُصعب بن عبد الله بن مصعب حيث قال^(٤) : « راق عمر بن أبي ربيعة النَّاسَ وفاق نظوائه وبرعهم بسهولة الشعر وشدة الأسر وحسن الوصف ودقة المعنى وصواب المصدر والقصد للحاجة واستنطاق الرِّبْع وإنطاق القلب وحسن العزاء ومخاطبة النساء وعفة المقال وقلة الانتقال وإثبات الحجَّة وترجيح الشكِّ في موضع اليقين وطلاوة الاعتذار وفتح الغزل ونهج العلل وعطف المساءة على العُدال وحسن التفجّع وبُخل

(١) كتاب الأغاني ج ١ ص ٣٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ٥٢ - ٥٣ من طبعة بولاق وقال صاحب كتاب الأغاني بعد هذا النص « والابتيار أن يفعل الإنسان الشيء فيذكره ويفخر به والابتهار أن يقول ما لم يفعل » .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ٤٨ من طبعة بولاق وأمالى القالي ج ٢ ص ١٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أوج ٣ ص ١٥ من طبعة مصر ١٣٤٤] .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ٥٣ من طبعة بولاق .

المنازل واختصار الخبر وصدق الصفاء إن قدح أوري وإن اعتذر أبري وإن
تشكى أشجى وأقدم عن خيرة ولم يعتذر بخيرة وأسر النوم وغم الطير وأغد
السير وحير ماء الشباب وسهل وقول وقاس الهوى فأربي وعصى وأخلى وحالف
بسمعه وطرفه وأبرص بنعت الرسل وحذروا أعلن الحب وأسر وبطن به وأظهره
وألح وأسف الخ . ومن العجى بالاعتبار أن شعر عمر بن أبي ربيعة
وأصحابه الحجازيين مع مداره على الغزل فقط. ومع قربه غير مرة من الخلاعة
لم ينحط. أبداً إلى الفحش والمجون المحض الكثير وجودة في غزل شعراء عهد
العباسيين ولكن ليس هنا موضع إيضاح سبب ذلك . ثم من الجدير
بالذكر أيضاً أن عمر بن أبي ربيعة وأكثر شعراء الحجاز لا سيما مكة في زمن
الأمويين إلى أوائل القرن الثاني امتنعوا عن باب الخمريات في شعرهم امتناعاً
تاماً ولم يذكروا الخمر إلا في التشابيه مثل قول عمر بن أبي ربيعة (١) :
تَنَكَّلُ عَنْ وَاضِحِ الْأَنْيَابِ مُتَسِقٍ عَذِبِ الْمَقْبَلِ مَصْقُولٍ لَهُ أَشْرُ
كَالْمِسْكِ شَيْبَ بَذَوْبِ النَّخْلِ يَخْلِطُهُ ثَلْجُ بَصْهَاءٍ مِمَّا عَتَقَتْ جَدْرُ
أو مثل قوله (٢) :

إِذَا ابْتَسَمْتُ قُلْتُ أَنْكَلَالُ غَمَامَةٍ خَفَى بَرَقُهَا فِي عَارِضٍ مَتَهَلِّلٍ
كَأَنَّ سَحِيقَ الْمِسْكِ خَالَطَ طَعْمَهُ وَرِيحَ الْخُزَامِيِّ فِي جَدِيدِ الْقَرْنَفْلِ
بَصْهَاءٍ دِرْيَاقِ الْمُدَامِ كَأَنَّهَا إِذَا مَا صَفَا رَاوَوْقُهَا مَاءُ مَفْصِلِ

وذلك مع أن شرب الخمر غير مجهول في ذلك العصر بالمدينة (٣) فكان
مثلاً الوليد بن عثمان بن عفان والوليد بن عتبة بن أبي سفيان وعبد الرحمن

(١) ديوان عدد ٥٠٥ بيت ١٣ - ١٤ من الطبعة المذكورة . وجدر قرية بين حمص وسامية تنسب
إليها الخمر . انظر معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣٩ من طبعة أوروبا .
(٢) ديوان عدد ١٩٧ بيت ١١ إلى ١٣ من الطبعة المذكورة .
(٣) راجع LAMMENS, *Etudes sur le règne du calife omayyade Mo'awia Ier*, Beirut, 1908, P. 412-415.

ابن أَرْطَاة المعروف بابن سَيْحَان وَجُبَيْر بن أَيْمَن وغيرهم من الخواصّ معاقرين
للخمر متنادمين على الشراب . بيد أنّه لم يذهب إلى مدحه إلّا من ليس من
الفحول المشهورين مثل ابن سَيْحَان المذكور القائل الشعر في الشراب والغزل
والفخر والمديح وله مع ابن عمّه في شرب الخمر قصّة غريبة وأبيات^(١) أو
مثل عبد الله بن أَبِي مَعْقِل بن نَهْيَك بن إِسَاف الأنصاريّ القائل^(٢) :

فلولا ثلاثٌ هُنَّ من عَيْشَةِ الْفَتَى وَجَدَّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ رَامُسُ
فَمِنْهُنَّ سَبَقِي الْعَاذِلَاتِ بِشَرْبَةِ كَأَنَّ أَخَاهَا مَطْلِعَ الشَّمْسِ نَاعُسُ
وَمِنْهُنَّ تَجْرِيدُ الْكَوَاعِبِ كَالدُّمَى إِذَا أَبْتُزُّ عَنْ أَكْفَالِيهِنَّ الْمَلَابِسُ
وَمِنْهُنَّ تَقْرِيطُ الْجَوَادِ عِنَانَهُ إِذَا اسْتَبَقَ الشَّخْصَ الْخَفِيُّ الْفَوَارِسُ

ويروى محمد بن سلام الجُمَحِيُّ ما نصّه^(٣) : «وكان السريّ بن
عبد الرحمن ينادم [بالمدينة] عتير بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف
وجُبَيْر بن أَيْمَن بن أمّ أَيْمَن مولى النّبِيّ (صلعم) وخالد بن أبي أيوب الأنصاريّ
وكانوا يشربون النبيذ وكلّهم كان على ذلك مقبول الشهادة جليل القدر
مستورا فقال السريّ :

إِذَا أَنْتِ نَادِمْتَ الْعَتِيرَ وَذَا الْوَدَى جُبَيْرًا وَنَازَعْتَ الزُّجَاجَةَ خَالِدَا
أَمِنْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنْ تُفَرِّعَ الْعَصَا وَأَنْ يُنْبِهُوا مِنْ نَوْمَةِ السُّكْرِ رَاقِدَا
فَقَالُوا قَبِّحَكَ اللَّهُ مَاذَا أَرَدْتَ إِلَى التَّنْبِيهِ عَلَيْنَا وَالْإِذَاعَةِ لِسِرِّنَا إِنَّكَ لِحَقِيقُ
أَنْ لَا نَنَادِمَكَ . قَالَ وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِكَ سَوْءًا وَلَكِنَّهُ شَعْرٌ طَفَحَ فَقُشَّتْهُ عَنْ
صَدْرِي . قَالَ وَخَالِدُ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ الَّذِي يَقُولُ :

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٨٦ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٣ من طبعة ليدن ، وراجع كتاب الأغاني ج ٢٠
ص ١١٨ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ٦٦ من طبعة بولاق .

أَلَا سَقْنِي كَأْسِي وَدَعْ قَوْلَ مَنْ لَحَى وَرَوْ عِظَامًا قَصْرَهْنَ إِلَى بَلَى
فَإِنَّ بَطْءَ الْكَاسِ مَوْتُ وَحَبَسَهَا وَإِنْ دِرَاكُ الْكَاسِ عِنْدِي هُوَ الْحَيَا
فلنرجع إلى سياق الكلام . لو أردنا ذكر شيء من أخبار جميع الذين
ذهبوا مذهب عمر بن أبي ربيعة في مدن الحجاز في العصر الأموي لاحتجنا
إلى استغراق مدة دروس . فحسبنا ذكر أسماء بعضهم منهم الأخوص المدني
الأنصاري الذي مات جده شهيداً يوم الرجيع في السنة الرابعة للهجرة ونحوه
يوم أخذ فلماً سمع يوماً سُكَيْنَةَ بنت الحسين تفتخر بقرباتها بالنبي قال (١) :

فَخَرْتُ وَانْتَمْتُ فَقُلْتُ ذَرِينِي لَيْسَ جَهْلٌ أَتَيْتُهُ بِبَدِيعِ
فَأَنَا ابْنُ الَّذِي حَمَتُ لَحْمَهُ الدَّبْرُ رُ قَتِيلِ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيعِ
غَسَلْتُ خَالِيَّ الْمَلَانِكَةَ الْأَبْرَ رَارُ مَيْتًا طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيعِ

ولكن إن قطعنا النظر عن ميراثه لمعاوية التي قال فيها (٢) :

مَلِكٌ تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ مَبَارِكٌ كَادَتْ لَهَيْبَتِهِ الْعِبَالُ تَزُولُ
تُجَبِّي لَهُ بَلَدُخٌ وَدَجَلَةٌ كُلُّهَا وَلَهُ الْفِرَاتُ وَمَا سَقَى وَالذَّيْلُ

وعن أبيات يعاتب بها عمر بن عبد العزيز (٣) ، لم يكن عيشه وشعره إلا
في الغزل . فمن المعروف أن عمر بن عبد العزيز نفاه إلى جزيرة دَهْلَكْ لفرط
تشبيهه بالنساء ذوات الأخطار من أهل المدينة . ثم عُفِيَ عنه . ومات بدمشق
بعد المائة بسنتين قليلة . ولسان حال عيشته ما قاله في أحد أشعاره (٤) :

أَلَا لَا تَلُمُهُ الْيَوْمَ أَنْ يَتَبَلَّدَا فَقَدْ غُلِبَ الْمَحْزُونُ أَنْ يَتَجَلَّدَا

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٤٣ من طبعة بولاق .

(٢) مروج الذهب للمسعودي في الباب الثاني والتسعين ج ٥ ص ١٥٨ من الطبعة الباريسية .

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٠ - ٣٣١ من طبعة لندن .

(٤) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٣١ وكتاب الأغاني ج ١٣ ص ١٥٩ من طبعة بولاق .

وما العيش إلا ما تلذ وتشتهى وإن لام فيه ذو الشنان وفندا
بكيّت لصباً جهداً فمن شاء لآنى ومن شاء وأسى في البكاء وأسعدا
ولانى وإن عيرت في طلب الصبا لأعلم أنى لست في الحب أوحدًا
إذا كنت عزهاة عن اللهو والصبا فكُن حَجراً من يابس الصخر جلمداً

ومن شعراء قريش بمكة المشهورين بالغزل الناحين نحو عمر بن أبي ربيعة
في ذلك المُجيدَيْن العَرَجِيَّ^(١) وهو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن
عفان من نسل عثمان أمير المؤمنين وهو أيضاً ممن ذكروا نساء قريش في
شعرهم وشبّوا بالحاجات كما قال^(٢) (من بحر الطويل) :

أماطت كساء الخز عن حرّ وجهها وأذنت على الخدين برّداً مهلهلاً
من اللاء لم يحججن يَبْغِينَ حِسْبَةً ولكن ليقتلن البرىء المغفلاً
أو كما قال^(٣) في جَيْدَاءِ أُمِّ مُحَمَّدٍ بن هشام أعنى أمّ خال الخليفة
هشام بن عبد الملك (١٠٥ / ٧٢٤ - ١٢٥ / ٧٤٣) :

عُوجِي علينا ربّة الهودج إنك إلا تفعلَى تخرَجِي
أنى أَرِيحَتْ لى يَمَانِيَّة إحدى بنى الحرث من مذحج
نلبث حولاً كاملاً كلّه ما نلتقى إلا على منهج
في الحجّ إن حَجَّتْ وماذا مِنّى وأهلُهُ إنْ هى لم تَخْجُجِ

وذكرُ النساء في الحجّ كثير في أشعار أهل الحجاز أيام بنى أمية فمن

(١) مات بمكة في أيام هشام بن عبد الملك .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦١ من طبعة بولاق - ماط : أبعد . وحر الوجه : ما بدا من
الوجه . وحسبة الأجر والثواب .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٢ وج ٣ ص ١١٦ من طبعة بولاق وفي الكامل للمبرد ص ٣٩١
من طبعة ليبسك سنة ١٨٦٤ إلى ١٨٩٢ أوج ٢ ص ٢٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ الأبيات
مروية بغير اسم الشاعر .

هذا القبيل شعر مشهور لمحمد بن عبد الله النُمَيْرِيُّ من أهل الطائف قاله^(١) في زينب بنت يوسف بن الحَكَم أَخْت الحَجَّاج بن يوسف فاستحسنه الناس في ذلك الزمان فقليل إنَّ سعيد بن المسيَّب أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المتوفى في أواخر القرن الأوَّل مرَّ في بعض أزقة مكَّة فسمع رجلاً يغنى بذلك الشعر فلما وصل الغناء إلى البيت :

تَضَوَّعَ مِسْكَاً بَطْنُ نَعْمَانَ إِذْ مَشَتْ بِهِ زَيْنَبُ فِي نِسْوَةٍ عَطِرَاتِ

ضرب برجله وقال : هذا والله مما يَلِدُ استماعه^(٢). وللنُمَيْرِيِّ أشعار كثيرة في زينب يتشَبَّب بها وله قطعة يرثيها فيها فلم يُعَرَف له مما غير هذا الغزل إلا أبيات وصف فيها خوفه من الحَجَّاج بن يوسف وهروبه منه إلى اليمن^(٣). ومن شعراء المدينة المشهورين بالغزل عبد الله بن مسلم بن جُنْدَب الهذلي وتروى له قصائد لغزال يراه « يَأْوِي إِلَى مَسْجِدِ الْأَحْزَابِ مُنْتَقِيباً » وفيها أيضاً افتخار^(٤). ومن الحرى بالذكر أَنَّ الكَلَفَ بالنسيب وسماع الغناء قد عمَّ كلَّ أجناس النَّاس بَمدن الحجاز فمن المشغوفين بهما غير واحد من الفقهاء الموصوفين بالعلم والفضل والنُّسْك. فَيُنْشَدُ لِعَبِيدِ اللَّهِ بن عبد الله بن عُثْبَةَ بن مسعود الشهير بِعُبَيْدِ اللَّهِ بن مسعود أحد الفقهاء السبعة بالمدينة من أعلام التابعين المتوفى سنة ١٠٢ وقيل ٩٩ وقيل ٩٨ هذه الأبيات المروية في حماسة

(١) كتاب الأغاني ج ٦ ص ٢٥ - ٢٦ و ٣٠ من طبعة بولاق والعقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١١٣ من طبعة مصر ١٣٠٥، ويوجد الشعر في تمامه في NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, p. 21-22.

(٢) كتاب الأغاني ج ٦ ص ٣٠ من طبعة بولاق ومعجم البلدان لياقوت ج ٣ ص ٦٤٧ - من طبعة ليبسك ١٨٦٦ - ١٨٧١ في مادة عرفات. أعجب هذا الشعر عائشة بنت طلحة (الأغاني ج ٦ ص ٣٠ وج ١٠ ص ٦١) واهنر هارون الرشيد طرباً عند سماعه (الأغاني ج ٦ ص ٣١) .

(٣) كتاب الأغاني ج ٦ ص ٢٨ من طبعة بولاق .

(٤) القصائد مروية في ديوان المهديين عدد ٢٤٦ و ٢٤٧ و ٢٤٨ و ٢٤٩ من طبعة برلين ١٨٨٤ .

أبي تمام^(١) وفي كتاب الأغاني^(٢) وفي وفيات الأعيان لابن خلكان^(٣) :

شَقَقْتُ الْقَلْبَ ثُمَّ ذَرَرْتُ فِيهِ هَوَاكَ فَلَيْمَ فَالْتَّامَ الْفُطُورُ
تَغْلَغَلَ حُبُّ عَشْمَةٍ فِي قُوَادِي فَبَادِيهِ مَعَ الْخَافِي يَسِيرُ
تَغْلَغَلَ حَيْثُ لَمْ يَبْلُغْ شَرَابُ وَلَا حُزْنٌ لَمْ يَبْلُغْ سُرُورُ

وله في عشمه هذه التي تزوجها أشعار كثيرة ، وله أيضاً في امرأة من هذيل غاية في الجمال أتت المدينة وكادت تذهب بعقول أكثر الرجال أبيات يذكر فيها أسماء أشهر فقهاء المدينة ويستشهدهم على وفرة مودته لها^(٤) . ونستفيد من عدة روايات قديمة نقلت في كتاب الأغاني أن سعيد بن المسيب السابق ذكره الذي قال فيه ابن خلكان^(٥) «لأنه كان سيّد التابعين من الطراز الأول جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع» أحبّ سماع الغناء وإنشاد أبيات الشعراء الغزليين والحكم في جودتها فقال جامع بن مَرْخِيَّة الكِلَابِيُّ فكاهة^(٦) :

سَأَلْتُ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ مُفْتًى الْ مَدِينَةِ هَلْ فِي حُبِّ ظَمِيَاءٍ مِنْ وَزِيرٍ
فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ إِنَّمَا تُلَامُ عَلَى مَا تَسْتَطِيعُ مِنَ الْأَمْرِ
وَعُرْوَةُ بْنُ أَذْيَنَةَ مِنْ أَعْيَانِ فَهَاءِ الْمَدِينَةِ وَالْمُحَدِّثِينَ رَوَى عَنْهُ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَغَيْرُهُ كَانَ أَيْضاً مِنْ شُعْرَاءِ غَزَلٍ مُقَدِّمِينَ وَلَهُ الْأَشْعَارُ الرَّائِقَةُ غَنَّى فِيهَا

(١) كتاب الحماسة ص ٥٩٤ من طبعة بن أو ج ٣ ص ١٦٧ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٩٨ من طبعة بولاق وثليها ثلاثة أبيات أخرى .

(٣) كتاب وفيات الأعيان عدد ٣٦٣ من طبعة غوتنجن أو ٣٢٩ من الطبقات المصرية . - ومن الغريب أن البيت الأول (وفيه صدعت بدلا من شققت) والثالث ينسبان إلى قيس بن ذريح في كتاب الأغاني ج ٨ ص ١١٧ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٩٦ - ٩٧ من طبعة بولاق . روى له ابن عبد ربه في عقده ج ٣ ص

١٠٠ بعض الأبيات في الغزل .

(٥) وفيات الأعيان عدد ٢٦١ من طبعة غوتنجن أو ٢٤٨ من الطبقات المصرية .

(٦) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٩٦ .

المغنون ولم يقل في غير الغزل شيئاً سوى مرثية لأخيه بكر^(١) .

ومن المفتونين بسماع الغناء والأشعار في التشبيب أبو السائب المخزومي من أهل المدينة قيل إنه كان « رجلاً صالحاً زاهداً متقلاً يصوم الدهر وكان أرق خلق الله وأشدّهم غزلاً »^(٢) وقيل أيضاً إنه « كان يصلي في كل يوم ليلة ألف ركعة »^(٣) وعلى ذلك له مع الشعراء والمغنين والمغنيات عدّة نوادر وروايات يطول ذكرها هنا فيكفيها ما روى عن مصعب بن عبد الله بن مصعب^(٤) : « قال حضر أبو السائب المخزومي مجلساً فيه بضبط جارية يحيى بن نفيس فغنت :

قلبي حبيس عليك موقوفٌ والعين عبّري والدمع مذروفٌ
والنفس في حسرة بغضتها قد شفّ أرجاءها التساويفُ
إن كنت بالحسن قد وُصفت لنا فإنني بالهوى لَمَوْصوفُ
يا حسرتاً حسرة أموت بها إن لم يكن لي الديك معروف

قال فطرب أبو السائب ونعر وقال لا أعرف لله قدرة إن لم أعرف لك معروفك ثم أخذ قناعها عن رأسها وجعل يلطم ويبكي ويقول لها : بأبي والله أنت إنني لأرجو أن تكوني عند الله أفضل من الشهداء لما تولّيناه من السرور

(١) راجع كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٦٢ - ١٧٢ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٧ - ٣٦٨ من طبعة ليدن وحماة أبي تمام ص ٥٦٩ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٤٣ من طبعة بولاق ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٦٧ من طبعة فوتجن أو عدد ٢٥٤ من الطبقات المصرية (ترجمة سكينه بنت الحسين) والعقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠١ من طبعه مصر ١٣٠٥ .
[وكتاب المؤلف للامدّ ص ٥٤ - ٥٥ من طبعة مصر ١٣٥٤ والبيان للجاحظ ج ٣ ص ١٣٠ من طبعة مصر ١٣٥١] .

(٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٣٠ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٠٩ سطر ٨ .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ١١٨ من طبعة بولاق - سوف : مطله وقال له مرة بعد مرة

سوف أفعل نمر : صاح وصوت بخيشومه - لطم : ضرب خده أو صفحة جسده بالكف مفتوحة .

وجعل يصيح واغوثاه يا الله لما يلقى العاشقون « . - وكذلك عطاء بن أبي رباح المتوفى سنة ١١٤ أو ١١٥ من أجلاء الفقهاء والزهاد بمكة كان يهتز طرباً حين سمع غناء ابن سريج والغريض في الأشعار الغزلية^(١) فلم يستقبح إلا ما ورد أحياناً فيها من قلة احترام مناسك الحج^(٢) . ومن المشهور أن عبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي من قراء أهل مكة الملقب بالقس لعبادته لما سمع غناء سلامة من المولدات القيان افتتن وشغف بها وقال فيها الأبيات والقصائد^(٣) . - وخلاصة القول أن سكان المدن الحجازية في أيام بني أمية إنما أرادوا من الشعر الغزل فلا عجب فيما رواه عبد الله بن مسلمة بن أسلم « قال لقيت جريراً فقلت له يا أبا حزرة إن شعرك رُفع إلى المدينة وأنا أحب أن تُسمعنى منه شيئاً . فقال إنكم يا أهل المدينة يُعجبكم النسب وإن أنسب الناس المخزومي يعني عمر بن أبي ربيعة »^(٤) .

٢ - وهذا أوان الشروع في الكلام على الصنف الثاني من الشعر في أيام بني أمية وهو النسب عند الأعراب . قد تقدم أن فحول شعراء الجاهلية لم يُفردوا للنسب والغزل أشعاراً خاصة وإنما أدرجوهما في ضمن قصائدهم ولم يُطيلوهما . أمّا نحو أواسط القرن الأول للهجرة وفيما يليها فأخذت بعض شعراء أهل الوبر المعدودين يقولون القصائد في مجرد النسب بل لا يتعاطون غيره وصناعتهم بعيدة عن أسلوب أشعار الجاهلية وعن منهج الغزليين

(١) كذلك كتاب الأغاني ج ١ ص ١٠٠ و ١٠٩ - ١١٠ و ١٢٦ إلخ من طبعة بولاق .

(٢) انظر بيتاً للعرجي في الأغاني ج ١ ص ١٦٢ وج ٢ ص ١٢٢ وج ٣ ص ١١٦ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٦ - ٩ من طبعة بولاق - ومن الفقهاء الناسكين الشعراء الذين كان نسيبهم رقيقاً وتشبيهم عجبياً عبد الله بن مبارك وشريح الذي كان قاضياً في أيام علي بن أبي طالب ومعاوية فانظر العقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠١ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ٣٦ من طبعة بولاق .

من أهل المدر فإنهم لا يعشقون إلا امرأة واحدة جعلوا عيشهم فداءها ولا يتغزلون ولا يفتخرون بنيل وصلها وإنما يظهرون في شعرهم رقة القلب وشدة الحنو ويكثر في بيان الصبابة وتوجع الكتابة وقلق الأشواق وألم الفراق وفرط الحزن والغم واليأس وكل ذلك مصوغ في قالب رشيق مترجم بلفظ رقيق وكلام لطيف عفيف لا يدخل فيه شيء من الخلاعة والشهوة الدنية . ومما أستلفت أنظاركم إليه أن هؤلاء الشعراء جميعهم من قبائل قاطنة في الحجاز أو شمالي اليمن ليست منازلها بعيدة عن أحد الحرمين فكانت مثلاً بنو عقييل مقيمين بالتهامة عن جنوبي مكة وبنو ليث من كنانة بظاهر المدينة وكانت بنو عذرة يسكنون وادي القرى وما يليه في الطريق من المدينة إلى الحجر وتبوك . ثم مما يجب تنبيهكم إليه أن تلك القبائل إما كانت بنواحي اليمن مقيمة أو من اليمن متأصلة كأن رقة القلب أكثر في أهل اليمن منها في غيرهم^(١) فورد في كتاب الأغاني^(٢) عن المدائني ما نصه : « قال ابن دأب قلت لرجل من بني عامر أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً . قال أوقد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى أشعار المجانين إنهم لكثير . فقلت ليس هؤلاء أعنى إنما أعنى مجنون بني عامر الشاعر الذي قتله العشق . فقال هيئات بنو عامر أغلظ . أكباداً من ذاك إنما يكون هذا في هذه اليمانية الضعاف قلوبها السخيفة عقولها الصلعة^(٣) رعوشها ، فأما نزار فلا . فني بعض الأشعار تلميحات إلى رقة قلب أهل اليمن ؛ ففي قصيدة

(١) قال ابن الفقيه الحمداي في كتاب البلدان ص ٣٣ من طبعة ليدن ١٣٠٢ ما نصه : « ولما جاء أهل اليمن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاءكم أهل اليمن أرق قلوباً منكم وهم أول من جاءنا بالمصافحة » .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٧ من طبعة بولاق وراجع أيضاً ج ١ ص ١٦٩ .

(٣) [هكذا في طبعة بولاق وفي طبعة دار الكتب المصرية ج ٢ ص ٣ : صلبة وهو الأصح] .

منسوبة إلى معجون كَيْلَى العاشق الساكن في نَجْد^(١) :

وإِنِّي يَمَانِيُّ الهَوَى مُنْجِدُ النوى سبيلانِ أَلْقَى من خِلَافهما جَهْدًا

ولعل من أقدم من اشتهر من هؤلاء الشعراء العشاق الذين ضُربت بهم الأمثال وكثُرَت فيهم الحكايات والروايات الخيالية في كتب الأدب توبة ابن الحُمَيْر من قوم بني عُقَيْل (وهي فرع من ربيعة بن عامر بن صَعَصعة) كان كثير الغارات على أعداء حيّه فقتل في إحدى غاراته في مدّة خلافة معاوية (٤١١ - ٦٨٠) . وعشقه لليلَى الأَخِيلِيَّة وشعره فيها مشهوران . ومن مُستجد شعره هذان البيتان^(٢) :

لَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلَيَّ وَدُونِي تُرْبَةٌ وَصَفَائِحُ

لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَا إِلَيْهَا صَدًّا مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ

ومن أجود ما قاله قصيدة أولها^(٣) :

نَأْتُكَ بَلِيلَى دَارُهَا لَا تَزُورُهَا وَشَطَطُ نَوَاهَا وَأَسْتَمِرُّ مَرِيرُهَا

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١١ من طبعة بولاق . - وكان بنو عامر نزاريين وسكنوا في جبل السراة بأرض نجد .

(٢) البيتان مرويان في حماسة أبي تمام ص ٥٧٦ من طبعة بن أوج ج ٣ ص ١٥٠ من طبعة بولاق وفي الأغاني ج ١٠ ص ٨٢ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧٠ من طبعة ليدن وفي الأغاني والحماسة يليهما بيت ثالث لا يتصل معناه . بما تقدم اتصالا تاما جليا ويوجد في مكانه في كتاب ابن قتيبة وكتاب المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ (ص ١٨٩ - ١٩٠ من طبعة ليدن ١٨٩٨) البيت :

ولو أن ليلى في السماء لأصعدت بطرفى إلى ليل العيون اللوامع

صدي : طائر تقول عرب الجاهلية إنه يخلق من رأس المقتول ولا يزال يصيح في رأسه إذا لم يؤخذ بشأه يقول « اسقوني اسقوني » حتى يقتل قاتله .

(٣) أول القصيدة (٧ أبيات) في كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٦٩ - ٢٧٠ من طبعة ليدن والباقي في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٦٩ من طبعة بولاق وبيتان في حماسة أبي تمام ص ٥٩٤ من طبعة بن أوج ج ٣ ص ١٦٦ من طبعة بولاق وكل الأبيات في NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, P. 5-6.

إِلَّا أَنَّهُ خَتَمَهَا بِأَبْيَاتٍ تَخْرُجُ عَنِ النَّسِيبِ وَتَدُلُّ عَلَى كَثْرَةِ قَطْعِهِ الْفِيَّافِي
 الْهَائِلَةِ وَعَلَى اقْتِحَامِهِ الْأَخْطَارَ فَهِيَ عَلَى أَسْلُوبِ شِعْرِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ ^(١) :
 وَأَذْمَاءَ مِنْ حَرِّ الْمَهَارَى كَأَنَّهَا مَهَاءُ صَحَارٍ غَيْرُ مَا مَسَّ كُورُهَا
 قَطَعَتْ بِهَا أَجْوَازَ كُلِّ تَنْوِفَةٍ مَخُوفٍ رَدَاهَا كُلَّمَا أَسْتَنَّ مُورُهَا
 تَرَى ضَعْفَاءَ الْقَوْمِ فِيهَا كَأَنَّهُمْ دَعَامِيضُ مَاءٍ جَفَّ عَنْهَا غَدِيرُهَا

أَمَّا سَائِرُ الَّذِينَ اشْتَهَرُوا مِنْ شِعْرَاءِ هَذَا الصَّنْفِ فَتَرَكُوا كُلَّ شَيْءٍ مِنَ
 الْحِمَاسَةِ وَوَصَفِ النَّاقَةِ وَالْقِفَارِ وَامْتَنَعُوا فِي قِصَائِدِهِمْ عَنْ كُلِّ مَا هُوَ غَيْرُ وَصْفِ
 حَالِ الْمُتَيْمِّمْ وَذَكَرِ حَرِّ الشُّوْقِ وَاللَّوْعَةِ . وَمِنْهُمْ قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ الْكِنَانِيُّ اللَّيْثِيُّ
 رَضِيعُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مَاتَ سَنَةَ ٦٨ وَكَانَ مَنْزِلُ قَوْمِهِ فِي
 ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ . وَمِنَ الْمَشْهُورِ أَنَّ لُبْنَنِيَّ مِنْ بَنِي كَعْبٍ بْنِ خُزَاعَةَ وَهُمْ قَوْمٌ
 أَصْلُهُمْ مِنَ الْيَمَنِ وَسَكَنَاهُمْ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ بِسَرْفٍ ^(٢) (بَيْنَ مَكَّةَ وَبَطْنِ مَرٍّ)
 وَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ فَتَزَوَّجَهَا وَبَعْدَ مَدَّةٍ طَلَّقَهَا كَارَهَا فَذَابَ كَبِدُهُ وَجَدَّأَ عَلَيْهَا
 وَصَبَابَةٌ بِهَا فَقَالَ فِيهَا الْقِصَائِدُ الْمُشْجِيَّةُ . فَعَلَى مَا يُرْوَى ^(٣) « شُهِرَ أَمْرُ
 قَيْسٍ بِالْمَدِينَةِ وَغَنَى فِي شَعْرِهِ الْغَرِيضُ وَمَعْبَدٌ وَمَالِكٌ وَذُو وَهْمٍ فَلَمْ يَبْقَ شَرِيفٌ
 وَلَا وَضِيعٌ إِلَّا سَمِعَ بِذَلِكَ فَأَطْرَبَهُ وَحَزِنَ لْقَيْسٍ » . - وَمِنْ عُشَّاقِ الْعَرَبِ
 الَّذِينَ قَتَلَهُمُ الْهَوَى عُرْوَةُ بْنُ حِزَامٍ الْعُدْرِيُّ لَا يُعْرَفُ لَهُ شِعْرٌ إِلَّا فِي عَفْرَاءٍ وَهِيَ

(١) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٦٩ . آدم : أسمر - مها : نوع من البقر الوحشي - كور رجل -
 أجواز جمع جوز وهو وسط الشيء - تنوفة المفازة الواسعة - ردى يردى ردى هلك - استن اضطرب -
 المور الغبار المتردد والتراب تثيره الريح - دعاميص جمع دعويس دويبه أو دودة سوداء تكون في القدران .
 (٢) سرف بفتح السين المهملة وكسر الراء موضع على ستة أميال من مكة (انظر معجم البلدان
 لياقوت ج ٣ ص ٧٧ - ٧٨ من طبعة ليبسك ومعجم ما يستعجم للبكري ص ٧٧٢ - ٧٧٣ من طبعة
 غوتنجن ١٨٧٦) وقيل في الأغاني ج ٨ ص ١١٣ من طبعة بولاق [وكذا أيضاً في ج ٩ ص ١٨١ حاشية ١
 من طبعة دار الكتب المصرية] إن سرفاً على ستة أيام من مكة وهو تحريف .
 (٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٢٨ من طبعة بولاق .

بنيت عمه كان تألفها ألفاً شديداً وهما صغيران يلعبان معاً فلما شباً خطبها ولكن عمه زوجها برجل من البلقاء تحملها إلى بلده عن شرقى بحيرة لوط فتبعها نفسه واشتدَّ وجداً بها حتى جُنَّ فكان ذلك في أيام خلافة عثمان ابن عفان (٢٣٤ - ٣٥٦) إن صحَّ خبرُ مرتقى إلى الهيثم بن عدى^(١) المتوفى سنة ٢٠٦ أو ٢٠٧ أو ٢٠٩ فلذا كان عروة بن حزام أقدم الشعراء المتيسمين المعروفين . وشعره لطيف ظريف لكننا لم نعثر على ذكره من غنى فيه من المغنين قبل عهد بنى العباس كأنه لم ينتشر صيته إلا نحو أواسط القرن الثاني .

ومن العذريين أيضاً جميل بن عبد الله بن معمر وهو المقدم على سائر شعراء النسب من أهل البادية وقصته مثل قصة عروة بن حزام أعنى أنه «عشق بُثينة [العذرية] وهو صغير فلما كبر خطبها فرد عنها فقال الشعر فيها»^(٢) . وكان سكناه بنواحي تيماء ووادي القرى وقيل إنه مات سنة ٨٢^(٣) وأشعاره مشهورة لحسن اللفظ وصفااته وتدبيج أجزائه ودقة المعنى وهى صادرة عن قلب صادق الصبابة والعشق . فمن أشهر أبياته قوله^(٤) :

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٩٧ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٥٧ سطر ٢ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي في الباب التاسع عشر بعد المائة (ج ٧ ص ٣٥٣ من الطبعة الباريسية) .

(٢) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٦٠ من الطبعة الليفية .

(٣) قال ابن خلكان إن جميلاً توفي سنة ٨٢ هجرية في مصر (وفيات الأعيان عدد ١٤١ من طبعة غوتنجن أو عدد ١٣٨ من الطبقات المصرية) وراجع حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي ج ١ ص ٢٥٦ من طبعة مصر المطبوعة على الحجر - فاعتنى المستشرق الإيطالي Francesco Gabrieli بجمع أبيات جميل العذري المتبددة في كتب الأدب وغيرها وبضبطها وانتقادها (انظر مقالته *Giamil al-'Udhri; studio critico e raccolta dei frammenti*, Rivista degli Studi Orientali, XVII, 1934-7, P. 40-71 et 133-172; *Contributi alla interpretazione di Giamil*, Riv. degli Studi Orientali, XVIII, 1939, P. 173-198. وفي نفس الوقت جمع بشير يموت أبيات جميل وطبعها بعنوان ديوان جميل في بيروت سنة ١٣٥٢) .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ٥١ وج ٣ ص ١٤٨ وج ٧ ص ٧٩ و ١٠٢ و ١٠٣ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٦٨ من طبعة ليدن .

خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حبّ قاتله قبلى
الذى أخذه أبو العتاهية حين قال :

يا من رأى قبلى قتيلاً بكى من شدة الوجد على القاتل
ومن الغريب أن صبايته كانت سبب نشوب عداوة بينه وبين بنى الأحب
من عذرة وهم رهط. بثينة فهجّاهم فهجّوه^(١) وهذا منهج لم يذهب إليه غيره
من شعراء هذا الصنف . ولما أشدّ التهاجى بينه وبين جواس بن قُطبة أحد
بنى الأحبّ تنافرا إلى يهود تيماء في قصّة تجدونها في كتاب الأغاني^(٢) .

أما من نال في الشهرة الغاية القصوى من قتلى الهوى وذلك لوفرة ما
روى فيه من القصص المتصلة والمنقطعة ومن الأخبار المنشورة والمنظومة قيّس
ابن المدوّح العامريّ الملقّب بالمجنون أو مجنون بنى عامر أو مجنون ليلى
لذهاب عقله بشدة عشقه ليلي العامرية التي كره أبوها أن يزوجه إياها
فزوّجها رجلاً آخر . ولا يخفى على أحد أن الرواة ذهبوا كلّ مذهب في نقل
رواياته وأخباره وفي وصف شدة وجده الذي أصفر بسببه وشحب وهزل وأخذ
يهم في القفار مع البهائم ويتموّحش مع الوحش في البرارى وغير ذلك من
الحكايات المتعدّدة . فزعم بعض الناس أنه رجل لم يكن قط . ولا عرف في الدنيا
إلا باسم المجنون لأنّه وضعه الرواة فيعزّى إلى ابن الكلبي النسابة الشهير المتوفى
سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦ هذا القول :^(٣) « حَدَّثْتُ أَنَّ حَدِيثَ الْمَجْنُونِ وَشَعْرَهُ وَضَعَهُ
فَتًى مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ كَانَ يَهْوَى ابْنَةَ عَمٍّ لَهُ وَكَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُظْهِرَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا
فَوَضَعَ حَدِيثَ الْمَجْنُونِ وَقَالَ الْأَشْعَارُ الَّتِي يَرُويهَا النَّاسُ الْمَجْنُونِ وَنَسَبَهَا

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٩٣ و ٩٤ و ١٠١ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ١١٢ - ١١٣ وقيل في كتاب الشعر لابن قتيبة (ص ٢٦١ من
طبعة ليدن) إن جواساً كان أخا بثينة وأحب أخت جميل وهذا على الأرجح غير صحيح .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٧ من طبعة بولاق .

إليه . وفي قول يرتقى سَنَدُهُ إلى عَوَانَةِ بن الحَكَم الكَلْبِيِّ^(١) المتوفى سنة ١٤٧ :
« المجنون اسم مستعار لا حقيقة له وليس له في بنى عامر أصل ولا نسب .
فسئل مَنْ قال هذه الأشعار فقال فتى من بنى أمية » . أما غيرهما من علماء
اللغة والأدب فما شكوا في وجود المجنون فقال الأصمعي^(٢) المتوفى نحو سنة
٢١٦ : « لم يكن مجنوناً ولكن كان فيه لُوثَة كلوثة أبي حية النُمَيْرِي » .
وزاد فيه ابن قُتَيْبَة^(٣) : « هو من أشعر الناس على أنهم قد نحلوه شعراً
كثيراً رقيقاً يُشَبِّه شعره » . فهذا أيضاً رأى الجاحظ . حيث قال^(٤) :
« ماترك الناس شعراً مجهول القائل قيل في ليلي إلا نسبوه إلى المجنون ولا شعراً
هذه سبيله قيل في لُبْنَى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح » . فلذلك قال
صاحب كتاب الأغاني في ترجمة مجنون ليلي^(٥) : « وأنا أذكر ممّا وقع إلى
من أخباره جُملاً مستحسنه متبرئاً من العُهْدَة فيها فإن أكثر أشعاره المذكورة
في أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من حكيت عنه إليه وإذا
قدّمت هذه الشريطة برئت من عيب طاعنٍ ومتبعٍ للعيوب » . وعلى كل حال
لا شك أن شهرة المجنون وشعره قد ذاعت بعد منتصف القرن الأول للهجرة
إذ غنى في شعره ابن مُحَرِّز والأخضر الجدي من مُغَنِّي المدينة في ذلك العصر
فكان المجنون معاصراً لقيس بن ذريح إن صحّت الرواية المذكورة عن الهيثم
ابن عدي في كتاب الأغاني^(٦) وكتاب الشعر والشعراء لابن قُتَيْبَة^(٧) وكتاب

(١) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٩ .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٧ وكتاب الشعر والشعراء لابن قُتَيْبَة ص ٣٥٥ من طبعة
ليدن . لُوثَة : مس الجنون .

(٣) كتاب الشعر ص ٣٥٥ من الطبعة المذكورة .

(٤) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٦٩ من طبعة بولاق .

(٥) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٧٠ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٤ - ١٥ وراجع ج ٢ ص ١٧ (لقاءه لقيس بن ذريح) .

(٧) كتاب الشعر ص ٣٦٠ - ٣٦٣ من طبعة ليدن .

مروج الذهب للمسعودي^(١) ثم من المشهور أن أهل التصوف بعد القرن الخامس أحبوا قصة المجنون وليلى لما رأوا فيها من أسنى الكناية عن أسرار النفس البشريّة ومن الرمز إلى اشتياق النفس الخالية عن الأهواء الدنيّة إلى الرجوع إلى الله والافتتان بذاته . فبقيس بن الملوّح المجنون وهواه مثّلوا الذى وصل إلى أسمى منزلة من الطُّهر والعفاف وأشاروا إلى شدّة حبه لله وشوقه إلى وصله . أمّا ليلي الطاهرة الموصوفة بغاية الرونق كأنّ جمالها لا يُمثل وكمالها منقطع النظر فصارت عندهم إشارة إلى بهاء اللاهوت ولألاء النور الأزليّ فكثُر ذكر ليلي العامرية وعوالى نجد في ديوان عمر بن الفارض وذهبت شعراء الفُرس والترك إلى نظم الأناشيد الطويلة المحتوية على ألوف أبيات بلّغتهم يقصّون فيها قصّة أخبار ليلي والمجنون إشارة إلى أسرار الطُّرق الصوفيّة .

ومن شعراء أهل القبائل المقدّمين المشتهرين بهذا النوع من النسب أبو صخر الهذليّ وكثير عزة ولكن بما أنّهما ذهبا أيضاً إلى قول الشعر في المديح والهجاء والسياسة والمباحث الدينيّة وجالسا بني أميّة بدمشق أرى من المناسب عدّهما من غير هذا الصنف .

٣ - فلننتقل إلى الكلام على شعر الصنف الثالث أعنى الشعر على أسلوب فحول الجاهليّة .

قد تقدّم وصف كلّ أهل المدن الحجازيّة في القرن الأوّل بنوع من الشعر كاد لم يسبق إليه مشاهير القدماء وهو الغزل الذى لم يتعاطَ غيره شعراء مكّة والمدينة والطائف في ذلك العصر . وتقدّم أيضاً أن شعراء أهل القبائل في الحجاز وما يليها من أراضى نجد واليمن اختصوا بالنسب وأفردوا له

(١) في الباب التاسع عشر بعد المائة ج ٧ ص ٣٥٦ - ٣٦٠ من الطبعة الباريسية .

القصائد الرائقة الطويلة خلافاً لعرف نوابغ الشعراء قبل الإسلام . فبالجملة وجدنا في الحجاز للشعر انقلاباً شديداً وانحرافاً ظاهراً عن أساليبه القديمة . ولكن إذا التفتنا إلى الشام وأمعنا النظر في حال الشعر بدمشق عند بنى أمية إلى آخر القرن الأول تعجبنا من وجود قريض الشعر هناك جارياً مجرى فنون الشعر الجاهليّ وكون أكثر الشعراء الوافدين على الخلفاء الأمويين النائلين منهم الجوائز البهية الجزيلة مقتدين في نظمهم الجيد بمن سبقهم قبل ظهور الإسلام . وحسبنا ذكر الأخطل وجريير والفرزدق وذى الرمة . وما سبب بقاء الأساليب القديمة في نفس عاصمة الشام على تقلبها بأرض الحجاز؟

أوضحت فيما تقدّم تغير أحوال مدن الحجاز الاجتماعية بعد ظهور الإسلام وزيادة الثروة والرفاهية والتّرف فيها وقلة اشتغال أبنائها الأغنياء بأمور الحرب والسياسة وعدم اعتنائهم بالعلوم النظرية العقلية المجهولة إذ ذاك للأمة العربية . فرأيت أنّ تلك الأحوال الخاصة كانت سبباً لحضر شعراء المدن الحجازية شعراًهم في النسب والغزل ونهجهم في ذلك طرُقاً غير مألوفاً عند نوابغ شعراء الجاهلية الذين كانوا جميعهم يسكنون بعيداً عن تلك المدن . أمّا أحوال الشام في القرن الأول فإنّها مختلفة عن أحوال الحرمين . كان مُعظّم أهل الشام من غير الناطقين بالضاد فلم يمكنهم تعاطي الشعر العربيّ ولا فهم محاسنه فمن الضروريّ أن ينفرد به هناك العرب المقيمون ببادية الشام من زمان قديم أو المرتحلون عن الأنحاء الشامية في عهد الفتوح وبعدها . ومن جمع الأخبار المتفرقة في كتب العرب والروم وأعمل فيها الفكر تلقى أنّ مدن الشام الكبيرة مثل دمشق والقُدس وحِمص وأنطاكية بقيت إلى أواخر القرن الأول على ما كانت عليه قبل الفتح الإسلامي تقريباً

لقلّة مَنْ استوطنها من العرب فإنّهم اختاروا السُّكنى في المدن الصغيرة والقُرى لا سيّما فيما يلي أطراف البادية مثل الرُّصافة وتَدْمُر وحرّارين وجابية^(١). ثمّ إن قطعنا النظر عن رجال السياسة ورؤساء الجنود وهم كما تدرون أغلبهم من قُرَيْش مثل بنى أميّة وجدنا أنّ الذين أقاموا بالشام من العرب إنّما كانوا من أهل البادية والقبائل لا سيما من نجد واليمن لأنّ سكان مكّة والمدينة والطائف والمدن اليمنيّة الكبرى لم يفارقوا أوطانهم ذات ثروة ورخاء للاستقرار في بلاد بعيدة. ولعلّ اليمنيين والذين انتسبوا إلى قحطان فاقوا في الشام القيسيين عدداً فإليهم خصوصاً استند الأمويون لتأييد ملكهم^(٢). ثمّ زيدوا على ذلك أنّ الأوّل من خلفاء بنى أميّة لأغراضهم السياسيّة أحبّوا المصاهرة في كَلْب وهم قبيلة عظيمة من أولاد قحطان القُضاعيّين سكنوا المفاوز الواسعة الواقعة بين نجد والعراق والشام فلهم تَدْمُر وسليمة وتبوك ودومة الجندل وبادية السماوة فتزوّج معاوية بن أبي سفيان امرأتين كلبيتين أعنى نائلة بنت عمار وميسون بنت بَحْدَل فولدت له ميسونُ يزيد الذي لما شبّ تزوّج امرأة كلبية أيضاً^(٣). فكانت أهل البدو يفدون إلى بنى أميّة أفواجا فلاطفهم الخلفاء وأنعموا عليهم ومن الجدير بالذكر أيضاً أنّ عيشة الصريان والروم القاطنين بالمدن الشامية لم تنزل قليلة التأثير في أميال العرب وعوائدهم إلى نحو أواخر القرن الأوّل ولا فتنّتهم ولا أخذت بمجامع قلوبهم كأنّ حُبّ البادية أشدّ من

(١) H. LAMMENS, *Etudes sur le règne du calife omayyade Mo'awia Ier*, Beyrouth 1908, P. 8; H. LAMMENS, *La Bâdia et la Hira sous les Omayyades*, Mélanges Faculté Orientale, Beyrouth 1910, IV, P. 91 n. 1 [*Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth 1930, P. 325].

(٢) A. VON KREMER, *Culturgeschichte des Orients unter den Califen*, Wien 1875-77, (٢) II, P. 141; LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia Ier*, P. 8-9, 50-54.

(٣) أما مصاهرة معاوية ويزيد في بنى كلب فانظر ما قاله الأب لامنس في كتابه :

Etudes sur ... Mo'awia Ier, P. 309-312, 418.

الرغبة في سعة العيش والترّف ولذات المدن . وعلى ذلك دلائل متعددة اعتنى حديثاً بجمع أهمّها الأب هنري لامنس^(١) فقال إنّ العرب بعد الفتح عند احتلالهم البلاد المصّرة « رأوا فيها أنفسهم كالغريب الذي اعتاد سُكنى وطنه فلا يطبق العيشة في غيرها . وكذلك العرب فإنّ مدن الشام مع سعتها ضاقت عليهم بعد توطنهم في البوادي يتجولون فيها كيف شاؤوا . وكانّ عمر بن الخطّاب شعر بما لقيه العرب من الجهد والعناء في سُكنى المدن فأراد أن ينشئ لهم في العراق على طرّف الصحراء دساكر^(٢) يقطنونها ليعتادوا التمسير والعيشة المدنيّة تدريجاً كما يؤخذ من روايات فتوح البلدان للبلاذريّ [المتوفى سنة ٢٧٩] . وليس البصرتان في العراق أيّ البصرة والكوفة كما الفسطاط في مصر سوى مقامات كهذه متوسطة بين الحضر والبدو . والحق يقال إنّ العرب الأوّلين بعد خروجهم من مواطنهم البدوية واحتلالهم الأمصار كانوا يهيمون إلى البادية ويحبّون إلى نوقها ليرتووا من ألبانها ، وذلك ما كانوا يدعونه بالعيمة أي شهوة اللبن وأن لا يصبر عنه الإنسان . . . فكانت العيمة كالداء المعروف في أيّامنا بداء الوطن . (nostalgie) ولنا على ذلك شواهد عديدة » . منها مثلاً ما يروى في مُسند أحمد بن حنبل^(٣) أنّ النبيّ خاف على أمّته أنّهم « يُحبّون اللبن فيبدعون الجماعات والجمع ويبدون » . ومما يروى في الشاعر الصحابيّ النابغة الجعديّ أنّه بعد قضاء أعوام في المدينة أّزاد الرجوع إلى قومه فدخل على عثمان بن عفّان « فقال أستودعك الله يا أمير المؤمنين قال وأين تريد يا أبا ليلى قال الحقّ بإبلى فأشرب من ألبانها

(١) LAMMENS, *La Bادية et la Hira sous les Omayyades*, P. 91-112 [Etudes sur le siècle des

[Omayyades, PP. 325-350.] وراجع ملخص هذه المقالة في المشرق ج ١١ سنة ١٩٠٨ ص ٧٧٢-٧٦٥ .

(٢) الدسكرة : القرية العظيمة .

(٣) مسند ابن حنبل ج ٤ ص ١٥٥ من طبعة مصر ١٣١٣ .

فلما منكر لنفسى فقال أتعرّبياً بعد الهجرة يا أبا ليلى؟ ! أما علمت أن ذلك مكروه؟ قال ما علمته وما كنت لأخرج حتى أعلمك. قال فأذن له وأجل له في ذلك أجلاً^(١). قال الأب لأمّس : «ففى إنكار عثمان على النابغة فعله نظراً لأنّ الخليفة كان يجد فى شوق العرب إلى باديتهم خطراً على الدولة إذ أنّهم لو رجعوا إلى مضاربهم لعدلوا عن ضبط الأمصار وأنفوا الجهاد فيقوى عليهم أعداؤهم ويسترجعون منهم الأمصار التى فتحوها بعد الحروب الطويلة والمشقات المصنّية . فملافاة لهذا الخطر أمر الخلفاء الراشدون بالألّا يدفع العطاء لغير المهاجرين . وفى صحيح البخارى (٤ : ١٨٥) أنّ الحجّاج أخذ على بعض الصحابيّين فى زمانه اعتزالهم عن المدن . . والكتبة الأولون كانوا يفرقون بين العرب والمهاجرين فيدعون ساكنى المدن بالمهاجرين وسكّنة البادية بالعرب ومنه قول القطامى فى اتفاق العرب على تسويد ربيعة :
فليس من الأحياء إلّا مسودّ ربيعة أعرابية ومهاجرة
«ولنا فى تفضيل العرب للبادية على الحضرة عدّة شواهد فى تاريخ النهضة الإسلامية فمن ذلك أنّ بنى كلب لما طردتهم قيس من مفاوز السماوة وألجأهم إلى سكّنى سواحل الشام كانوا يعدّون أنفسهم هناك كالمنفيين يتوقون إلى مواطنهم البدوية . قال زفر بن الحارث^(٢) :

يا كلبُ قد كلب الزمان عليكمُ وأصابكم منى عذاب مرسلُ
إنّ السماوة لا سماوة فالحقى بالغور فالأفحاص بشس الموثلُ
فجنوب عكا فالسواحل إنّها أرض تدوب بها اللقاح وتهزلُ

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٣١ من طبعة بلاق [راجع مقالة مريم نلينو *an-Nabighah*

al-Gia'di e la sua poesia فى *Rivista degli Studi Orientali*, XIV, 1934, P. 983-984.

(٢) كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٢٤ . لقاح جمع لقحة وهى الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .

« وكانت هذه القبائل تُعدُّ واحة دومة الجندل الغناء وعاصمة الشام
نفسها لقربها من الغوطة كمنازل وبيئة تنهك حُمياتها قواهم » وذلك سبب
قول الأخطل^(١) :

كرهن ذباب دومة إذ عفاها غداة تثار للموتى القبور
وقوله^(٢) :

سقى الله منه دار سلمى برية على أن سلمى ليس يشفى سقيمها
من العرييات البوادي ولم تكن تلوحها حمى دمشق ومومها
وفي درة الغواص للحريري وشرحها للخفاجي ومُعجم البلدان لياقوت عدّة
أشعار من نسيج أهل البادية تصف كراحتهم للإقامة بالمدن مغتربين وشدة
شوقهم إلى البراري^(٣) فمن أشهرها شعر يُنسب إلى ميسون بنت بحدل الكلبيّة
قالت لما تزوّجها معاوية وهو والى الشام وقيل إنه لميسون بنت جندل الفزاريّة^(٤).
وما كان هذا الاستنكاف من عيشة المدن ممّا اختصّت به العوام بل إننا
نجد في كلّ طبقات الناس حتّى عند الأمراء والوجوه .

قال الأب لامنس : « ولما جعل معاوية كرسيّ ملكه في الفيحاء وترتب
على الأمويّين أن يتخذوها كالمُنبر الغربيّ لم يزالوا يحنّون إلى مفاوز البادية
ولعلهم لم يسكنوها مطلقاً لولا بيعة الخلافة . وفي واقع الحال لا ترى من بني
أميّة أحداً أطلّ الإقامة في دمشق إلّا معاوية وعبد الملك . أمّا الآخرون فكانوا

(١) ديوان الأخطل ص ٢٠٣ سطر ٤ من طبعة بيروت سنة ١٨٩١ [إلى ١٩٢٥] .
الذباب : الطامون .

(٢) ديوان الأخطل ص ١٢١ سطر ٥ - ٦ من الطبعة المذكورة - لوح السفر أو العرش
فلاناً غيره وسفع وجهه - الموم البرسام pleurésie

(٣) بعض هذه الأشعار مروية في NOELDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*,

(٤) الأبيات مروية في كتاب درة الغواص للحريري ص ٢٤ من الطبعة القسطنطينيّة سنة ١٢٩٩ .

يأتفون السكنى فيها فيُسرعون إلى البَيْداء ولا سيّما الوليد بن يزيد قال ابن عبد ربّه^(١) : « فلما وَلِيَ الأمرَ جعل يكرهُ المواضع التي يراه الناس فيها فلم يدخل مدينة من مدائن الشام حتى قتل ولم يزل يتنقّل ويتصيّد » . وكان الأمويّون يقصّدون البادية أيضاً ليحافظوا على فصاحة العربيّة فلا يفسد لسانهم برطانة أهل المدن . وقد اختبر عبد الملك الأمر بابنه الوليد فإن ابن عبد ربّه^(٢) روى عنه أنّه تراخى في تأديب ولده فكان لحاناً . وقال عبد الملك : أضربنا في الوليد حبناً له فلم نوجّههُ إلى البادية . ولما خلف الوليد أباه لم يشأ أن يكون ابنه رّوح مثله فأنزله بين القبائل « فنشأ في البادية فكأنّه أعرابي » . وعلى هذا المنوال صارت البادية كمدرسة للأمرء . وبالإجمال يمكن القول بأنّ الطبع الغريزيّ والوراثة الجديّة كانا يحمّلان العرب على الرجوع إلى منشئهم فيخرجون إلى البادية غاية إمكانهم وذلك في الشام كما في العراق وفي مصر كما في الحجاز فإنّ عبد العزيز [وهو أمير من بني أميّة] اتخذ له في مصر باديةً فجعلها في حلوان وكذا كان يفعل العلويّون في الحجاز بخروجهم إلى المساكن البدوية .

كانت العرب تعنى بلفظ التّبديّ خروج أشرفها إلى البريّة بعد انتهاء هطل الأمطار وإقامتهم بالصحارى بقيّة سنتهم كأنّ البرارى مصيف يعتزلون فيه عن ضوضاء المدن ويرتاحون ويتنزهون . فكانت هذه أيضاً عادة الأمويّين . قال الأب لامّنس : « أمّا النّواحي التي كانوا يحلّون فيها فكانت غالباً في بادية الشام أو ما كان بجوارها فإنّ معاوية كان يشتو

(١) كتاب العقد ج ٢ ص ٢٧٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني المتوفى سنة ٢١٥ وقيل ٢٢٥ وقيل ٢٣١ .

(٢) كتاب العقد ج ٢ ص ٢٥٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ وانظر أيضاً ج ١ ص ٢٢٤ .

بالصنبرة^(١) في الأردن . . وكذلك عبد الملك سكن الصنبرة مدة . إلا أن أكثر الأمويين اتخذوا لهم منازل في بادية الشام كما روى صاحب الأغاني والطبري وابن عساكر فإن هؤلاء المؤرخين وغيرهم أيضاً لا يكادون يذكرون خليفة منهم إلا ذكروا أيضاً تبديه . فإن يزيد بن معاوية كان يقضى معظم سنته في حوارين^(٢) . وسكن ابنه خالد في البلقاء في قصر فدين حيث كان أيضاً سعيد أحد أقاربه . وكان عبد الملك بعد رجوعه عن الصنبرة يقضى شهر آذار في الجابية وكان له منتزه آخر في دومة الجندل . وكان خلفاء عبد الملك مواظبين على التبدى إلا عمر بن عبد العزيز [٧١٧-٧٢٠] الذي سكن بلدة خناصر - أما منزل الخلفاء في البادية فكان يختلف فمنهم من كان يكتفى بضرب الخيم والسكن في المضارب كما أخبر . . عن هشام ابن عبد الملك [٧٢٤-٧٢٥] . . لكن تلك المنازل إنما كانت مؤقتة فلم يوضع بها الخلفاء فآثروا بناء الدور الرخبة والقصور الجميلة . والمرجح أن بعضهم لم يعمدوا إلى أبنية جديدة واكتفوا بأن أصابحوا ما وجدوه من الأبنية القديمة في طرف البادية حيث كانت تخوم الرومان . . ولما احتلوا تلك المباني التي سبقهم إلى تشييدها الروم زادوها جمالاً بما ألحقوا بها من المقاصير وزينوها بالزخارف والمحسنات فاتخذوا الحمامات وجعلوا فيها الأحواض وشيدوا لها المشارب^(٣) والعُلبيات وازدانوا المعاهد بالنقوش والتصاوير .

ليس هذا موضع وصف قصور بني أمية في البادية لاسيما في البلقاء عن شرق بحيرة لوط التي اكتشفها في العشر السنين الأخيرة علماء المشرقيات وألفوا فيها الكتب الضخمة النفيسة . وبعض تلك الأبنية والقصور ورد

(١) الصنبرة موضع بين طبرية ونهر الأردن عند محل خروج النهر من بحيرة طبرية .
 (٢) حوارين موضع بين دمشق وتدمر على مرحلتين من تدمر وبها مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ .
 (٣) مشارب جمع مشربة وهي الفركة العلية .

أسمائها في نفس تأليفات العرب القديمة وأشعارهم مثل الموقر والقسطل والزيّزاء
 وفديّن وأبائر والنّجّزاء والأزرق والأغذف وبعضها لا نعرف إلاّ أسماءها المتداولة
 في أيّامنا عند أهل تلك البرارى وأفخرها وأفخمها قصير عمرة المزخرف
 حيطانها بالتصاوير الملونة العجيبة وهو ممّا بناه الوليد بن عبد الملك
 (٨٦٠ - ٩٦٠) والمشتى (أو المشتى على نطق الأعراب) ذو النقوش
 البديعة المحفوظة الآن في أحد متاحف برلين وهو على الرأى المرجح
 المقبول قصر بناء يزيد بن عبد الملك (٧٢٠ - ٧٢٤) ليعيش فيه مع جاريته
 حباة ولم يُتمّه لموت عشيقته الذى سبق قتله بيسير^(١). فمن اعتبر تلك
 الأبنية استجاد قول عثمان بن الوليد بن عمارة القرشيّ بعدما ذكر فعّل الدهر
 بملوك بني أمية^(٢).

فأصبحوا لا ترى إلاّ مساكنهم قفراً سوى الذكر والآثار إن ذكرُوا
 استنظدت قليلاً بهذا البيان لأهميته ولا أرى في ذلك ضرراً لأنّى في
 هذا المختصر الصغير السابق للبحث المستقصى عن بعض المسائل الخاصّة
 أحبّ إيجاز الكلام فيما هو معروف والإطناب فيما هو غير متداول وإن عِدِمَت
 موازنة أجزاء البيان . - أمّا خلاصة ما شرحته في الصحف السابقة فإثبات
 ما هو آت: ١ - أنّ مُعْظَم الذين انتقلوا من جزيرة العرب إلى بلاد الشام للإقامة
 بها في زمان الفتح وبعده كان من أهل القبائل لا سيّما اليمنيّة أو المنسوب
 أصلها إلى اليمن . ٢ - إنّ رجال قريش المرتحلين إلى أنحاء الشام كانوا من

(١) خطأ جرجى أفندى زيدان حين نسب بناء المشتى والقسطل وقصور غيرهما إلى بني غسان
 (كتاب العرب قبل الإسلام ج ١ ص ١٩٥ من طبعة مصر ١٩٠٨ ثم في مقالته في حوران المدرجة
 في مجلة الهلال السنة التاسعة عشرة عدد ديسمبر ١٩١٠ ص ١٤٣ - ١٤٤) وإنما اغتر برجم رجمه
 دوسو (Dumaud) في أول اكتشاف تلك المباني وهو ظن فاسد كما أظهره بعد روسو علماء المشرقيات .
 (٢) حساسة البحريّ ص ١٣٤ سطر ١ من طبعة ليدن أو ص ٨٩ عدد ٤٠٠ من طبعة بيروت .

أهل العقد والحلّ مشغولين بأمور السلطان والسياسة والحرب لا يتعاطون الشعر على محبتهم له وتعظيمهم لقائليه. ٣ إنَّ سكَّان المدن الشامية الكبرى وهم سريان وروم لم يزالوا مدَّة طويلة بعد الفتح قليلى المعرفة باللغة العربيَّة غيرَ معتنين بشعرها وعلى مثل ذلك فى العراق إلَّا أن سكَّانها الأصليين فرس وآراميون. ٤ إنَّ الأعراب المهاجرين إلى الشام والعراق سواء كانوا من الخواصَّ أم من العوامَّ لم يزالوا هائمين ببوادي أوطانهم كارهين عيشة المدن والإقامة بها. — فإن كان الأمر كذلك لم نتعجب أنَّ الشعراء الوافدين إلى خلفاء بنى أميَّة وأمراهم فى القرن الأوَّل صاغوا نظمهم فى قالب شعر من سلف من فحول شعراء الجاهليَّة ونهجوا طُرُقهم فى عمل القصائد على الأسلوب القديم فى المديح والافتخار والحماسة والنسيب والهجاء وذكر الخمر.

أجمع علماء اللغة والأدب على أنَّ الذين أدركوا أسمى منزلة فى الشعر العربىِّ فى أيام بنى أميَّة ثلاثة : الأخطل والفورزدق وجريير وهم من أهل القبائل ومن شعراء الصنف الثالث الذى نحن بصددده . وأقدمهم سناً الأخطل^(١) الذى لا نعرف سنة ولادته ولا سنة موته على وجه التحقيق^(٢) وما يُستخرج من المصادر القديمة الموثوق بها إنَّما هو أنَّ الأخطل أخذ يشتهر فى الشعر وهو شابٌّ على عهد معاوية (٤١١ - ٦٨٠) كما يظهر أيضاً من ديوانه وأنَّه مات فى خلافة الوليد بن عبد الله الذى تولَّى الأمر من سنة ٨٦٠ إلى سنة ٩٦٠. وكان نصرانياً كمُعظم بنى تغلب^(٣) وهم قبيلة عظيمة

(١) واسمه غياث بن غوث بن الصلت التغلبى .

(٢) قال الأب صالحانى فى مقالته التى سماها الأخطل ومصقلة بن هبيرة (فى مجلة المشرق ج ١٤ سنة ١٩١١ ص ٨٣٣ - ٨٤٣) إنَّ الأخطل ولد فى سنة ٦٢٩ - ٦٣٠ بالتقريب ومات سنة ٩١٠/٧١٠ تقريباً وفى هذه المقالة أيضاً بحث نقدى فى فن الأخطل .

(٣) وهم من الدين وصفوا المسيح بالطبيعة الإلهية فقط (Monophysites)

من ربعة سكنت في القرن الأول قسماً كبيراً من بريّة الجزيرة أعنى القسم المحدود بحدار المَوْصِل وسِنَجَار شمالاً ونهر دِجْلَة شرقاً و مدار تَكْرِيت وعانة ونهر الفُرات جنوباً ونهر الخابور غرباً وهي بريّة متّسعة جداً يقطعها نهر الثَّرثار . ولكن لولا ما يُروى في كتاب الأغاني من تمسكه بدينه ومن احترامه وخضوعه التام لرؤساء ديانته^(١) ولولا الأبيات الثلاثة التي قالها إنكاراً للدعاء عبد الملك إياه إلى الإسلام^(٢) ثمّ لولا ما قال فيه جرير معرضاً به^(٣) هاجياً له لتشككنا فيه بعد مطالعة ديوانه أهو مسلم أم نصرانيّ . فإنه مزج أحياناً الديانتين فقال^(٤) :

والمسلمين إذا ما ضمّها الجُمعُ	إنّي وربُّ النصارى عند عيديهم .
يُخَمِّسِي ولا همّة الدنيا ولا الطَّمعُ	وربّ كلّ حَبِيسٍ فوق صَوْمَعَةٍ
إذا ما أنامُ إذا ما صُحْبَتِي هَجَعُوا	لقد مدّختُ قُرَيْشاً واستعنتُ بهم

وقال يهجو بني أسد^(٥) :

مصابيحُ يَرْمِيها بعينيه ناظِرُ	فأما تَمَنِّيكمُ قُرَيْشاً فإنّها
عَبِيدُ العَصَا مادام للزيتِ عاصِرُ	فما أنتم منها ولكنكم لها
وأستاهكم قد أنكرتها المنابرُ	فما خُتِمَتْ أكتافكم لنُبُوَةٍ

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٧٩ و ١٨٢ و ١٨٣ من طبعة بولاق .

(٢) ديوان الأخطل ص ١٥٤ سطر ٢ - ٤ من طبعة بيروت سنة ١٨٩٢ [١٩٢٥] .

(٣) ديوان جرير ج ١ ص ١١ سطر ٤ و ص ١١٧ و ١٣٤ ج ٢ ص ٢٩ و ٥٦ و ٨٠

و ١٤٩ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢١ سطر ٢ و ص ٢٦٢ و ٢٩١ - ٢٩٢ و ٤١٤ و ٤٥٠ و ٤٧٤ و ٥٧٦ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٤) ديوان ص ٧١ - ٧٢ من الطبعة المذكورة .

(٥) ديوان الأخطل ص ٣١٦ وانظر أيضاً حواشي الأب صالحاني ص ٥٠٠ . أما الشطر الثاني من البيت الثاني فراجع بيت جرير :

يا خزر تغلب إن اللّوم حالفكم ما دام في ماردين الزيت يعتصر

في ديوانه ج ١ ص ١١٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٦٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

وقال أيضاً^(١) .

لَأَنِّي حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاqَصَاتِ وَمَا أَضْحَى بِمَكَّةَ مِنْ حُجْبٍ وَأَسْتَارِ
وَبِالْهَدْيِ إِذَا احْمَرَّتْ مَذَارِعُهَا فِي يَوْمِ ذَبْحٍ وَتَشْرِيقِ وَتَنْحَارِ
وَمَا بِزَمَزَمَ مِنْ شُمُطٍ مُحَلَّقَةٍ وَمَا بِيَثْرِبَ مِنْ عُونٍ وَأَبْكَارِ
لَأَلْجَأَنِي قُرَيْشٌ خَائِفًا وَجَلًّا وَوَلَّتَنِي قُرَيْشٌ بَعْدَ إِقْتَارِ
وقال أيضاً^(٢) :

وَقَدْ حَلَفْتُ بِمِيْنًا غَيْرَ كَاذِبَةٍ بِاللَّهِ رَبِّ سُتُورِ الْبَيْتِ ذِي الْحُجْبِ
وقال في الوليد بن عبد الملك^(٣) :

خَلِيفَةُ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِسُنَّتِهِ الْغَيْثُ مِنْ عِنْدِ مُوْلِ الْعِلْمِ مُنْتَخِبِ
وقال حالفاً^(٤) :

حَلَفْتُ بِمَنْ تُسَاقُ لَهُ الْهَدَايَا وَمَنْ حَلَّتْ بِكَعْبَتِهِ النُّذُورُ
ولعلَّ لسانَ حال هذه الأبيات في شعر الأخطل قولُ القاضي عبد الوهاب
ابن عليّ البغداديّ في مدينة بغداد^(٥) :

ظَلَلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِي فِي أَزْقَتِهَا كَأَنِّي مَصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقِ
ولكنّها وإن كانت من أغرب الغرائب بادئُ نظر تُعْقِلُ إِذَا تَدَكَّرْنَا مَا
شرحتُهُ في إحدى الصحف السابقة من قِلَّةِ العواطف الدينيّة عند أهل الوبر

(١) ديوان ص ١١٩ - هدى ما أهدى إلى الحرم من النعم وقيل هو جمع هدى - مذارع قوائم
- أشمط الذي شعر رأسه أبيض وأسود - العون جمع العوان وهي المرأة النصف في سنها والتي كان لها زوج .

(٢) ديوان ص ١٨٤ .

(٣) ديوان ص ١٨٥ - بسنته بوجهه وطرائقه - مولى العلم معطيه - منتخب يعنى الله .

(٤) ديوان ص ٢٠٤ .

(٥) المتوفى سنة ٤٣٧ - البيت مروي في وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٤١١ من طبعة غوتنجن

أر ٣٧٣ من الطبقات المصرية وفي فاكهة الخلفاء لابن عربشاه ص ٢٠٨ من طبعة موصل سنة ١٨٦٩ .

ثمّ إذا افترقنا في ورود مثل تلك العبارات والأيمان في شعر الأقدمين الذين أراد الأخطل أن ينهّج مناهجهم ويحدّو حدّوهم ثمّ إذا لاحظنا أن جميع تلك الأبيات الإسلامية المذكورة وردت في قصائد في مدح بنى أميّة. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن عدى بن زيد العبّادى النصرانى الذى عاش في عهد الجاهليّة حسب ما مرّ ذكره قد سبق الأخطل في مزج ديانيتين حيث قال^(١) :

سعى الأعداء لا يألون شراً عليك وربّ مكّة والصليب

ويروى أبو الحسن على بن محمّد المدائنى المتوفى سنة ٢١٥ وقيل ٢٢٥ أو ٢٣١ أن بنى بكر بن وائل بالكوفة كانت إذا تشاجرت في شىء رضيت بالأخطل وكان يدخل المسجد فيقدّمون إليه^(٢). فمن هذا القبيل أيضاً قصّة الأخطل مع عنكزمة بن ربّيع الفياض في مسجد الكوفة رواها صاحب الأغاني عن نفس المدائنى^(٣)، وليس ذلك بغريب في ذلك العصر لأنّ من آدمى الفكر في النصوص والشواهد القديمة عرف أن المساجد لم تُخصّص أولاً بالأمور الدينيّة بل كانت أيضاً مجالس للقوم وأنديّة يتباحث فيها الناس عن مصالح الجماعة السياسيّة وغيرها من الأمور الدنيويّة فلم يُمنع النصارى عن المرور والوقوف بها^(٤). أمّا تخصيص المساجد بالصلاة وما يتعلّق بالدين فابتدأ في أيام بنى العبّاس وهو أيضاً زمان حضر الخطبة على المنبر في أمور الدين^(٥).

(١) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٢٤ من طبعة بولاق أو شعراء النصرانية ص ٤٥١ .

(٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٧٩ . (٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٨٧ .

(٤) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'dwialer*, P. 8 n., 13 n., 58 n., 205 n., 372, 435-436

(٥) راجع GOLDZIEHER, *Der Chatib bei den alten Arabern* (Wiener Zeitschr. der Kunde des Morgenlandes VI, 1892) P. 99-101; G.H. BECKER, *Die Kanzel im kultus des alten Islam* (Orientalistische Studien Th. Noldeke gewidmet, Giessen 1906) p.331-351.

أما اتصال الأخطل بخلفاء بني أمية وأمرائهم فأشهر من أن أحتاج إلى وصفه في هذا المختصر فأقتصر على ذكر سبب ابتداء ذلك الاتصال لما فيه من الدلالة الواضحة على بقاء كثير من عوائد القدماء وأميالهم عند العرب المهاجرين إلى بلاد الشام في القرن الأول . قد تشبب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، الأنصاري أو بالأحرى أظهر أن يتشبب برملة بنت الخليفة معاوية وقال فيها شعراً مروياً في كتاب الأغاني^(١) كاد يهتك به عريضها والمرجح أنه فعل ذلك لبغضه للأمويين . فغضب يزيد بن معاوية وطلب من كعب بن جعيل التغلبي أن يهجو الأنصار كلهم فأبى خوفاً منهم ودل على الأخطل . فأحضره يزيد وأمره بهجاء الأنصار فقال فيهم الأبيات المشهورة^(٢) . وإن في ذلك لنظراً لأنكم لو سمعتم هذا الخبر مجرداً عن أسماء أصحابه لظننتم أنه من روايات عرب الجاهلية لما فيه من استعمال الهجاء مدافعة عن العرض بل من عم قوم الخصم قاطبة بالهجاء والإقذاع . وفي ديوان الأخطل أبيات أخرى يهجو بها الأنصار والسبب في ذلك سياسي لأن الأنصار سوى نفر قليلين تحزبوا لعلي بن أبي طالب وقاتلوا معاوية في يوم صفين ثم لم يزالوا مبيغضين بني أمية إلى أواخر القرن الأول .

إن الأقطاب التي يدور عليها ديوانه هي مدح الخلفاء والأمراء من بني أمية وهجاء أعدائهم من العلويين والأنصار وأصحاب عبد الله بن الزبير والافتخار بحروب جرت بين قومه وقوم القيسيين وذكر الخمر وما في شربها من اللذات . أما المراثي فلا يوجد منها في ديوانه إلا قطعة واحدة وهي أربعة

(١) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ١٤٨ و ج ١٤ ص ١٢٢ من طبعة بلاق .

(٢) ديوان الأخطل ص ٣١٤ وبسبب المراقبة العثمانية ألغيت الأبيات في نسخ الديوان المطبوع غير المرسلة إلى أوروبا مع ورودها في الأغاني ج ١٣ ص ١٤٨ و ج ١٤ ص ١٢٢ وفي كتاب العقد الفريد ج ٣ ص ١١٢ من طبعة ١٣٠٥ فنقلها الأب لامنس إلى اللغة الفرنسية في مقاله *Le chantre des Omiadas (Journal Asiatique, sér. IX, t. IV, 1894) P. 135.*

أبيات يرثي بها يزيد بن معاوية وهذا عجيب^(١) . ومن مدائحه الشهيرة القصيدة التي مطلعها^(٢) :

خَفَّ القَطِينُ فراحوا منك أو بكرُوا وأزعجتهم نَوَى في صَرَفِهَا غَيْرُ
وهي أفخر ما قيل من الشعر باللغة العربية .

من المشهور أَنَّ الأخطل كان معاقراً للخمر كأنه رأى أَنَّها تجوّد
قريحة الشاعر فقال مرّة للمتوكّل الليثي الشاعر : « لو نَبَحْتَ الخمرُ في
جوفك كنتَ أشعر الناس » . وفي ديوانه ما نصّه^(٣) : « قال له عبد الملك
وما بلغ منك الشراب . قال يا أمير المؤمنين إذا شربتها فالموت أهونُ عليّ
من شُسع نعلٍ . فقال له قل فيه شعراً وإلاّ ضربتُ عنقك » . فقال^(٤) .

إذا ما ندبني عَلىّ ثم عَلىّ ثلاثُ زُجاجاتٍ لهن هديرُ
جعلتُ أجْرُ الدَّيْل مني كأنني عليك أمير المؤمنين أميرُ

أما على ظنّي فالمرجّح أَنّه لم يتعاطَ الخمرِيات لمحض حبّه للخمر وأنّ غرضه
في نعوت الحميا وأوصافها كان أيضاً الاقتداء بكثير من شعراء الجاهلية

(١) ديوان ص ٢٨٩ ونقلها الأب لانس في مقاله المذكورة سابقاً ص ١٣٩ - ١٤٠ وأول
من نبه إلى ذلك هو الأب ا . صالحاني ص ٣٤٥ في ترجمة الأخطل .

(٢) ديوان ص ٩٨ - ١١٢ . (٣) ديوان ص ١٥٤ .

(٤) ديوان ص ١٥٤ . والبيتان مرويان أيضاً في الأغاني ج ٢١ ص ٤ سطر ٢٢ - ٢٣ وفيه
زياد (يعنى زياد ابن أبيه المتوفى سنة ١٥٦ و ١٥٧) بدلا من نديمي وزهواً بدلا من مني وخرجت بدلا
من جعلت و ص ٥ سطر ٨ - ٩ بروايتي خرجت وزهواً - ويوجد معنى مثل معنى الشطر الأخير
في بيتي المنخل اليشكري من شعراء الحيرة (كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٤٨ - ١٤٩ من طبعة
مصر ١٣١٢ وشعراء النصرانية ص ٤٢٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٣٩ من طبعة ليدن وحماصة أبي
تمام ص ٢٦٦ - ٢٦٧ من طبعة بن أوج ج ٢ ص ٤٨ من طبعة بولاق) :

فإذا سكرت فإني رب الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإني رب الشوية والبعر

أما جر ذيل المطرف فهو دليل على الغضب والافتخار فراجع ما يروى في كامل المبرد ص ٢٧
من طبعة ليسك أوج ١ ص ٢٢ - ٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ من الأبيات والأحاديث النبوية
[وغير ذلك ما أورده الأستاذ نلينو في *Raccolta di scritti* ج ٢ ص ٢٦٠ حاشية ١] .

البارعين كما اقتدى بهم في سائر أفانين شعره . ولعلّه إلى ذلك أشار بقوله في
أوّل إحدى خمريّاته (١) :

شربنا فمئنا ميتة جاهليّة مضي أهلها لم يعرفوا ما محمد
وعلى منوال القدماء النوايح لم يأت بالنسيب إلّا في أوائل القصائد غير
أنّه في نسيبه سلك أحياناً مسلكاً غير المألوف في قصائد الجاهليّة البارعين
فبدلاً من أطلال قوم معشوقته ذكر فيه الفتيات ذوات شكل ودلال مثل قوله
في قصيدة هجا بها جريراً وافتخر على قيس (٢) :

وتغولت لثروّعنا جنيّة والغانيات يُرينك الأهوالاً
يمدّدن من هفواتهنّ إلى الصبى سيباً يصدّن به الغواة طوالاً
ما إن رأيت كمكرهنّ إذا جرى فينا ولا كحباليهنّ حبّالاً
المهديّات لمن هوين مَسَبّة والمُحسّينات لمن قلّين مَقالاً
يرغبن عهدك ما رأيتك شاهداً وإذا مدلت يصرنّ عنك مِذاًلاً...

ثم من الحرى بالاعتبار قول عمر بن شبّة المتوفى سنة ٢٦٢/٨٧٦ : كان ممّا
يقدم به الأخطل أنه كان أخبثهم هجاء في عفاف من الفحش . وقال
الأخطل ما هجوت أحداً قط بما تستحي العذراء أن تُنشده أباه (٣) . وهذا
القول صحيح إن تركنا أربعة أو خمسة أبيات من هجائه فخالف
الأخطل في عفافه هذا أساليب كثير من السلف ومعاصريه الشهيرين جرير
والفرزدق والذين ملؤوا هجاءهم ما يستنكف ذو أدب من إنشاده وتنبو
عنه الآذان .

(١) ديوان ص ٣٢١ .

(٢) ديوان ص ٤٢ - ٤٣ وانظر أيضاً ص ٩٩ - ١٠٠ في القصيدة التي قالها يملح بنى أمية .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٧٨ من طبعة بولاق .

قد سبق تلميح إلى نقائص الأخطل وجريرو كان سبب اضطرام نار
العداوة بينهما مناضلة الأول عن الفرزدق لماً أخذ جرير يهجوهُ . والفرزدق
واسمه همام بن غالب كان من بني دارم حى من تميم أقامت بنواحى البصرة
بعد الفتح الإسلامى فولد فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب المتوفى سنة ٢٢/٦٤٤
أما سنة مماته بالبصرة فاختلفت فيها الرواة فقال بعضهم سنة ١١٠ وبعضهم
سنة ١١١ أو ١١٢ أو ١١٤^(١) . وكان كأكثر أهل البادية رحلاً ينتقل
من موضع إلى موضع ويكره الإقامة الطويلة بمحل ؛ فنجدته تارة بالبصرة وتارة
بالكوفة ومرة بالمدينة ومرة فى أرض البلقاء من الشام وافداً على خلفاء بنى أمية
مثل الوليد وسليمان ابنى عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . ويلوح مما جاءنا
من أخباره وأشعاره العديدة أنه كان على جيد شعره دنى النفس فمدح
من نال منه الجوائز وهجا من لم يشدّف منه ما رجا قريباً بعد الشناء الوافر
على أحد الكبار فى قصيدة أخذ يشتّمه شتّماً قبيحاً فى قصيدة أخرى . فأطراً
مرة عمر بن هُبيرة الفزاريّ وإلى العراق بعد موت الحجاج بن يوسف وعدّ
مفاخر قومه ثم بدّل المدح سباً فقال فيه وفى بنى فزارة شعراً بشعاً^(٢) وهجا

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٧٨٨ من طبعة غوتنجن أو عدد ٧٥٥ من الطبقات
المصرية وقال صاحب كتاب الأغاني (ج ١٩ ص ٦) فى رواية عن أبى زيد النحوى : « وتوفى
الفرزدق فى سنة عشر ومائة فى خلافة هشام (١٠٥/٧٢٤ - ١٢٥/٧٣٤) وجرير والحسن وابن سيرين فى ستة أشهر .
وحكى ذلك عن جماعة منهم الغلابى عن ابن عائشة عن أبيه » وقال فى نفس الجزء (ص ٤٥) « وقال أبو زيد
مات الحسن وابن سيرين والفرزدق وجرير فى سنة عشر ومائة . . . وهذا غلط من أبى زيد وابن شبة لأن
الفرزدق مات بعد يوم كاظمة وكان ذلك فى سنة اثنتى عشرة ومائة وقد قال فيه الفرزدق الشعر وذكره فى
مواضع من قصائده ويقوى ذلك أيضاً ما أخبرنا به وكيع قال : حدثنا عمر بن محمد بن عبد الملك الزيات
قال : حدثني ابن النطاح عن المدائنى عن أبى اليقظان وأبى همام المجاشع أن الفرزدق مات سنة أربع عشرة
ومائة » ثم قال فى ص ٤٦ : « وقال ابن زكرياء الغلابى عن ابن عائشة قال : مات الفرزدق وجرير فى سنة
عشرة (كذا) ومائة ومات جرير بعده بستة أشهر ومات فى هذه السنة الحسن البصرى وابن سيرين »
وفى ص ٤٨ : « قال أبو عبيدة ومات الفرزدق فى سنة عشر ومائة » . ويقال فى كل الروايات إن جريراً
توفى بعد خصمه .

(٢) فى المدح : ديوان ص ١٧٨ - ١٧٩ من طبعة باريس ١٨٧٠ بعناية Boucher الذى
نقل أيضاً القصائد إلى اللغة الفرنسية [أو ص ٢٨٠ - ٢٨٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا توجد
هذه القصيدة فى طبعة مصر ١٢٩٣ - فى الهجاء : ديوان ص ١٧٩ - ١٨١ من طبعة باريس [أو ص
٢٨٢ - ٢٨٦ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا توجد فى طبعة مصر ١٢٩٣ . وروى التبريزى فى شرحه على -

في بضع قصائد آل المهلب بن أبي صفرة الأزدي من أشهر بيوتات البصرة
وقال مثلاً^(١).

وَجَدْنَا الْأَزْدَ مِنْ بَصَلٍ وَثُومٍ وَأَذْنَى النَّاسِ مِنْ دَنْسٍ وَعَارٍ
صَرَارِيُونَ يَنْضِجُ فِي لِحَامِهِمْ نَفْيُ الْمَاءِ مِنْ خَشَبٍ وَقَارٍ
مع ما يليها من الكلام القدير الذي يستقبح إيرادُه هنا . ولكن لم يمنعه
هذا وهجاء آخر مثله عن الثناء على آل المهلب حين تغيّرت منزلته عندهم
فقال مثلاً^(٢):

لَأَمْدَحَنَّ بَنِي الْمَهْلَبِ مِدْحَةً غَرَاءَ ظَاهِرَةً عَلَى الْأَشْعَارِ
مِثْلَ النُّجُومِ أَمَامَهَا قَمَرٌ لَهَا يَجْلُو الدُّجَى وَيُضِيءُ لَيْلَ السَّارِ
وَرِثُوا الطَّعَانَ عَنِ الْمَهْلَبِ وَالْقِرَى وَخَلَاتِقًا كَتَدْفُقُ الْأَنْهَارِ
كُلَّ الْمَكَارِمِ عَنْ يَدَيْهِ تَقَسَّمُوا إِذْ مَاتَ رِزْقُ أَرَامِلِ الْأَمْصَارِ
كَانَ الْمَهْلَبُ لِلْعِرَاقِ سَكِينَةً وَحَيَا الرَّبِيعِ وَمَعْقِلَ الْفُرَارِ

وكان علويًا فلما حج هشام بن عبد الملك في أيام أبيه والتقى في الطواف
زين العابدين على بن الحسين بن علي بن أبي طالب وقال هشام لا أعرفه

— حماسة أبي تمام (ص ١٩٢ من طبعة بن أوج ١ ص ٢٠٥ من طبعة بولاق) يبين من هذه القصيدة التي
تحتوي على ٣٧ بيتاً .

(١) ديوان ص ٨٥ — ٨٦ من طبعة باريس أو ١٧٥ — ١٧٦ من طبعة مصر ١٢٩٣
[أو ص ٢٥٢ — ٢٥٤ من طبعة ١٣٥٤] وانظر HELL, *al-Farzadak's Lieder auf die Muhallabiten* (*Zeitschrift der deutschen morgenlaendischen Gesellschaft*, 59, 1905, P. 595-600)
et SCHWARZ, *al-Farzadak's Lieder auf die Muhallabiten* (*Zeitsch. d. deutschen morgenlaend. Gesell.*, 74, 1919 P. 80-85). — الصراري الملاح — أما الأزدي فهم ساكنون على شاطئ البحر في عمان .
(٢) ديوان ص ٤٦٥ من طبعة ليدن ١٩٠١ بعناية Hell [ص ٣٧٤ — ٣٧٥ من طبعة
مصر ١٣٥٤] ولا تروى هذه القصيدة في الطبعين الآخرين . وجمع J. Hell كل القصائد التي
يعدح الفرزدق فيها آل مهلب أو يهجوهم في المقالة المسماة *al-Farzadak's Lieder auf die Muhallabiten*
المطبوعة في المجلة *Zeitschrift der deutschen morgenlaendische Gesellschaft* ج ٩٥ ص ٥٨٩ — ٦٢١
وج ٦٠ ص ٤٨ — ١ . [وقد اعتنى P. Schwarz بتصحيح هذه المقالة في المجلة نفسها ج ٧٣ سنة ١٩١٩
ص ٨٠ — ١٢٦] .

مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، قال الفرزدق وهو كبير السن قصيدة غراء مدح بها زين العابدين وأولها^(١) :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

ومنها :

إذا رآته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
يغضى حياء ويغضى من مهابتها فما يكلم إلا حين يبتسم

فغضب هشام وحبس الفرزدق بين مكة والمدينة . بيد أن ميله هذا إلى العلويين وعبد الله بن الزبير لم يمنعه عن سبك الأشعار الرائقة في مدح الأمويين ووصفهم أحياناً فيها بعبارات دينية أصبحت كأنها ضالة في أثناء مثل تلك القصائد المنسوجة على أساليب عرب الجاهلية . فقال في سليمان

(١) ديوان ص ١٩٨ - ١٩٩ من طبعة مصر ١٢٩٣ (٢٧ بيتاً) [أو ص ٨٤٨ - ٨٤٩ من طبعة سنة ١٣٥٤ (٦ أبيات)] ولا توجد هذه القصيدة في طبعة باريس فانظر أيضاً كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٤٠ - ٤١ (٢٠ بيتاً) ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٧٨٨ من طبعة غوتنجن أو ٧٥٥ من طبعات مصر (٢٧ بيتاً وترتيبها غير ترتيب أبيات الديوان) ومن الغريب أن هذه القصيدة منسوبة إلى الحزين الليثي (وهو عمرو بن عبد بن وهيب) الذي « قالها في علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب » في حماسة أبي تمام ص ٧١٠ - ٧١١ من طبعة بن أو ج ٤ ص ٨٢ - ٨٣ من طبعة بولاق (٦ أبيات) وكتاب الأغاني ج ١٤ ص ٧٧ (٣ أبيات) ولكن صاحب الأغاني في نفس هذا الجزء ص ٧٨ يقول إنها للفرزدق ويروى ٧ أبيات فقال التبريزي في شرحه على الحماسة : « ويقال إنها للفرزدق » .

وروى بيتان منها في كتاب الشعر لابن قتيبة (ص ٧ من الطبعة الليثية) هكذا : « كقول القائل » وقيل في بعض النسخ : « في بعض بني أمية » والأبيات مروية أيضاً لداود بن سلم أو خالد ابن يزيد في قثم بن العباس أو علي بن الحسين (كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٧٨ - ٧٩) وروى الجاحظ في كتاب الحيوان ج ٣ ص ٤١ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ أربعة أبيات قالها « الشاعر في بعض بني مروان » .

ابن عبد الملك ($\frac{96}{717} - \frac{99}{720}$) (١) :

وبالمسجد الأقصى الإمام الذي أهدى به من قلوب المُمْتَرِينَ ضلالها
به كشف الله البلاء وأشرقت له الأرض والآفاق نحس هلالها
ومنها :

وَجَدْنَا بَنِي مروان أوتادَ ديننا كما الأرض أوتادَ عليها جبالها
وَأَنْتُمْ لهذا الدين كالقِبلَةِ التي بها أن يضلَّ النَّاسُ يَهْدَى ضلالها

وقال يمدح هشام بن عبد الملك ($\frac{100}{724} - \frac{120}{743}$) (٢) :

وما تركتُ كَفًّا هشامَ مدينةً بها عِوَجٌ في الدين إلا تَقَوُّمًا
يُودِي إليه الخَرْجَ مَنْ كانَ مشرِكًا ويرضَى به مَنْ كانَ لله مُسْلِمًا

وقال في يزيد بن عبد الملك ($\frac{101}{720} - \frac{105}{724}$) (٣) :

ورِثْتُ ابنَ حرب وابنَ مروانَ والدي به نَصَرَ اللهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا
تَرى الوحشَ يَسْتَحْيِيَنَّهُ إِذْ عَرَفَنَّهُ له فوق أركانِ الجرائمِ سُجْدًا
ومنها :

ولو صاحِبَتُهُ الْأَنْبِيَاءُ ذُوو النَّهْيِ رَأَوْهُ مع المَلِكِ العَظِيمِ المَسْودَا

وقال يمدح هشام بن عبد الملك (٤) :

رَأَيْتُ بَنِي مروانَ يَرْفَعُ مُلْكَهُمْ ملوكُ شَبَابٍ كالْأُسُودِ وَشَبِيْهَا

(١) ديوان ص ١٣ و ص ١٦ سطر ٩ - ١٠ من طبعة باريس أو ص ١٤٣ و ١٤٤ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٦١٩ و ٦٢٣ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ص ٣٢ من طبعة باريس [أو ص ٧٥١ من طبعة ١٣٥٤] ولا توجد القصيدة في طبعة ١٢٩٣ .

(٣) ديوان ص ١٨٤ من طبعة باريس [أو ص ١٦٩ - ١٧٠ من طبعة ١٣٥٤] والقصيدة غير موجودة في طبعة ١٢٩٣ .

(٤) ديوان ص ١٥٤ من طبعة باريس [أو ص ٦٣ من طبعة ١٣٥٤] العودان منبر النبي

وعصاه .

بِهِمْ جَمَعَ اللَّهُ الصَّلَاةَ فَأَصْبَحَتْ قَدْ اجْتَمَعَتْ بَعْدَ اخْتِلَافٍ شَعُوبُهَا
وَمَنْ وَرِثَ الْعُودِينَ وَالْخَاتَمَ الَّذِي لَهُ الْمَلِكُ وَالْأَرْضُ الْفَضَاءُ رَحِيْبُهَا

أَمَّا سَائِرُ مَدَائِحِهِ لِبْنِي أُمِيَّةٍ فَجَارٍ فِي قَالِبِ الْمَدْحِ الْجَاهِلِيِّ الْخَالِصِ وَرَبِّمَا
اجْتَرَأَ الْفَرَزْدَقُ بِهَجَاءِ نَفْسِ الْخُلَفَاءِ مِثْلَ قَوْلِهِ حِينَ أَعْطَى مُعَاوِيَةَ الْحُتَاتَ بَنَ
يَزِيدَ الْمَجَاشِعِيِّ مِنْ أَصْدِقَاءِ الشَّاعِرِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ فَلَمْ يَخْرُجِ الْحُتَاتُ مِنْ
دِمَشْقٍ حَتَّى مَاتَ فَرُدُّ الْمَالِ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ (١) :

أَنَا كُلُّ مِيرَاثٍ الْحُتَاتِ ظَلَامَةٌ وَمِيرَاثِ حَرْبٍ جَامِدٌ لَكَ ذَائِبَةٌ
أَبُوكَ وَعَمِي يَا مُعَاوِيَةَ أَوْرَثَنَا تَرَاثًا فَيَحْتَازُ الثَّرَاثُ أَقَارِبُهُ
فَاوْ كَانَ هَذَا الدِّينُ فِي جَاهِلِيَّةٍ عَرَفْتَ مَنْ الْمَوْلَى الْقَلِيلُ حَلَاثِبُهُ
وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي غَيْرِ مُلْكِكُمْ لِأَبْدَيْتُهُ أَوْ غَضَّ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ
وَكَمْ مِنْ أَبِي لِي يَا مُعَاوِيَةَ لَمْ يَكُنْ أَبِيكَ الَّذِي مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ يُقَارِبُهُ

إِنَّ هَذَا الْكَلَامَ السَّفِيهِ غَرِيبٌ جَدًّا مِنْ رَجُلٍ جَعَلَ شَعْرَهُ مَكْسَبًا وَطَعِمَ فِي
هُدَايَا الْمُلُوكِ وَالْأَكَابِرِ وَلَكِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ مَعْقُولٌ إِذَا تَأَمَّلْنَا أَحْوَالَ الْمُلْكِ
وَالْمُسْلِمِينَ الْمُنْتَظَلِينَ إِلَى أَرْضِي الشَّامِ وَالْعِرَاقِ بَعْدَ الْفَتْوحِ . كَانَ مُعْظَمُ الْعَرَبِ
الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ الْأَنْحَاءِ مِنْ أَهْلِ الْقَبَائِلِ فَلَمْ يَزَالُوا هُنَاكَ عَلَى مَا كَانُوا اعْتَادُوهُ
مِنْ الزَّمَانِ الْقَدِيمِ مِنَ الْعَوَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَفْكَارِ وَالْآرَاءِ سِوَى الدِّينِيَّةِ
فَمَا بَرِحَ يَنْبِضُ عَنْهُمْ عِرْقُ الْعَصَبِيَّةِ فَمَا فَتَنُوا مَوْلَعِينَ بِالْحَرِّيَّةِ وَالْإِسْتِقْلَالِ
التَّامِّ قَلِيلِي الطَّاعَةِ غَيْرَ مُنْقَادِينَ لَا يَفْهَمُونَ وَجُوبَ قُوَّةٍ شَدِيدَةٍ وَحِيدَةٍ وَأَمْرٍ

(١) ديوان ص ٧٠ من طبعة باريس أو ص ١٦٧ - ١٦٨ من طبعة ١٢٩٣ [أو ص ٤٩
من طبعة ١٣٥٤] وراجع أيضاً كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٣٧ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ٩٧ من
طبعة ليدن . ويروى في ديوان ص ١٢٤ من طبعة باريس أو ص ١٩٣ من طبعة مصر ١٢٩٣
[أو ص ٧٨١ من طبعة ١٣٥٤] بيتان يهجو بهما هشام بن عبد الملك الذي تولى الأمر وهو ابن أربع
وثلاثين سنة ولذلك قال الشاعر إنه « غلام » .

متين مطاع لإثبات مملكة واسعة محتوية على أمم مختلفة ولدفاع سطوات العدو عنها . إنَّهم كانوا يعتبرون منزلة الخليفة في جملة الأمة الإسلامية كمنزلة السيد البدوي في قومه أعنى أنَّ أمير المؤمنين على رَأْيِهِمْ إنَّما كان رجلاً وكنَّته الجماعة به بالسؤدد وتولَّى مصالحها فلا يطاع إلاَّ بما رَضِيَتْ الجماعة به . فلو أراد الخليفة إلزامهم مثل ما ألزم أهل الحضرة المتمدِّنين لما بلغ مَرَامُهُ بل أثار الفتن والعُصيان وعَرَضَ المملكة على خطر عظيم . وفطن بذلك معاوية لما جُبِلَ له من البراعة والحيلة في أمور السياسة فتحمل من أعرابه ما لم يتحمَّله من غيرهم كما يتَّضح من عدة أخبار متفرقة في كتب قديمة مثل تأليفات الجاحظ . وعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربِّه وتاريخ الطبري وغيرها . فجعل الحلم والصبر أساس معاملته الأعراب كأنَّ حكمة سيرته القول المنسوب إلى علي بن أبي طالب : «حلمك على السفية يُكثِّر أنصارك عليه»^(١) . ولكنَّ حلمه ذلك الذي وُصِفَ به في القصائد والكتب لم يكن عنده الشفقة والرحمة بل إنَّما كان العقل وقهر الغضب كلَّما صلح له قهره فلهذا السبب لم يكن يحقِّق إنَّ مخاطبه أحد الأعراب قائلاً يا ابن عمي مكان يا أمير المؤمنين لمصاهرة معاوية في قبائل قيس وكنب ولا غضب إذا ردَّ كلامه بما يُحمَل على قوانين أدب أهل البادية وإن لم يُحمَل على مقتضى أدب المتمدِّنين . وكان معاوية يقول : «إنِّي لا أحملُ السيفَ على مَنْ لا سيفَ معه وإن لم تكن إلاَّ كلمة يُشْتَفَى بها مُشْتَفٍ جعلتُها تحت قدَمي ودَبَّرَ أُذُنِي»^(٢) . والحقُّ يقال إنَّ هذا النوع من الحلم كان له أثق الوسائل وأنفعها لاستمالة أهل القبائل وقيادتهم والنجاح

(١) انظر العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ١٦٥ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٢) كتاب الكامل للمبرد ص ٤٠ من طبعة ليسك أو ج ١ ص ٣٣ من طبعة مصر ١٣٢٣ -

فما لم ينجح فيه قبله علي بن أبي طالب^(١) . فاقتدت به كثير من الخلفاء
والأمراء الأمويين فقال عبد الله بن الزبير الشاعر في بشر بن مروان^(٢) :
وطلدت لنا دين النبي محمد
بحلمك إذ هرت سفاهاً كلابها
وقال أيضاً^(٣) :

أقام لنا الدين القويم بحلمه ورأي له فضل على كل قائل
فإذا يعمَل إمكان قول الفرزدق المذكور سابقاً ويُعقَل أيضاً قول الأخطل
لما شكّا إلى عبد الملك بن مروان $(\frac{٦٥}{٦٨٠} - \frac{٨٦}{٧٠٠})$ إغارة سُليمان على تغلب يوم
البشر^(٤) :

لقد أوقع الحجاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعول
فسائل بني مروان ما بال ذمة وحبل ضعيف لا يزال يوصل ..
فإن لا تُغيرها قريش بملكها يكن عن قريش مستماز ومزحل
فلنرجع إلى الفرزدق . ومن الجدير بالذكر من شعره لندرة ورود مثله
في قصائد شعراء هذا الصنف أبيات دينية أدرجها في قصيدة مدح بها الوليد
ابن عبد الملك $(\frac{٨٦}{٧٠٠} - \frac{٩٦}{٧١٠})$ وذكر هذمه بيعة النصاري بدمشق وجعله
إياها مسجداً^(٥) :

فرقت بين النصاري في كنائسهم ، والعابدين مع الأسحار والعتم
وهم معاً في مصلاهم وأوجههم شتى إذا سجدوا لله والصنم
وكيف يجتمع الناقوس : يضربه أهل الصليب مع القراء لم تنم

(١) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia ler* . chap. V, P. 66-108.

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٤٥ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٤٥ .

(٤) ديوان الأخطل ص ١٠ - ١١ ، الحجاف شاعر بني سليم ورئيسهم - يرجع الفصير
في غيرها إلى حال محذوف - استأز انتقل من مكان إلى مكان .

(٥) ديوان ص ١٠٨ من طبعة باريس أو ص ١٨٥ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ٧٦٨
من طبعة مصر ١٣٥٤] - الملك المهدي هو سليمان (عم) فراجع القرآن سورة ٢١ (الأنبياء) ٧٨ - ٧٩ ..

فُهِمَتْ تحويلها عنهم كما فهِمَا إِذْ يَحْكُمَانِ لَهُمْ فِي الْحَرْثِ وَالْغَنَمِ
 دَاوُدُ وَالْمَلِكُ الْمَهْدِيُّ إِذْ حَكَمَا أَوْلَادَهَا وَاجْتَزَا الصُّوفِ بِالْجَلَمِ
 فَهَمَكَ اللَّهُ تحويلاً لبيعتهِم عن مسجدٍ فيه يُتلى طَيْبُ الْكَلِمِ
 وخلافاً للأخطل قد تعاطى الفرزدق الرثاء وسبك فيه عدّة قصائد . وعذله
 جرير^(١) لحبه لشرب الخمر ولكنه لم يقل فيها إلّا شعراً قليلاً جداً أعنى
 ثلاثة أبيات وردت في ديوانه^(٢) وتُشَبِّه خمريات أبي نواس ثم أربعة أبيات
 رويت في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة^(٣) وخزانة الأدب لعبد القادر
 البغدادي^(٤) . أمّا الغزل فله فيه قصيدة طويلة^(٥) ومقطعتان^(٦) غير أنها
 جميعها في غاية الخلاعة والفسق لا سيّما المقطعتان الشبيهتان بمجون
 أبي نواس . فحتم القصيدة قائلاً^(٧) :

فيا ربّ إن تغفر لنا ليلة النقا فكلّ ذنوبي أنت يارب غافرة

(١) ديوان ج ١ ص ١٢٢ سطر ٢٠ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٧١ سطر ٢ من طبعة ١٣٥٤] والنقائض ص ٥٤٣ سطر ١٥ من طبعة ليدن .

(٢) ديوان ص ٦٦ من طبعة باريس أو ص ١٦٥ - ١٦٦ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ص ١٥ من طبعة ١٣٥٤] وهذا نص الأبيات :

وإِجَانَةٍ رِيّاً الشُّرُوبِ كَأَنَّهَا إِذَا اغْتَمَسَتْ فِيهَا الرُّجَاجَةُ كَوَكْبُ
 مَخْتَمَةٍ مِنْ عَهْدِ كَسْرَى بْنِ هُرْمَزٍ بَكَرْنَا عَلَيْهَا وَالْفَرَارِيجُ تَنْعَبُ
 سَبَقَتْ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذْ دَنَا وَمَا لِلصُّبَا بَعْدَ الْقِيَامَةِ مَطْلَبُ
 (٣) ص ٢٩٤ من طبعة ليدن .

(٤) ج ٢ ص ٩٠ من طبعة بولاق ١٢٩٩ . وراجع أيضاً لسان العرب ج ١٨ ص ٦ من طبعة بولاق .

(٥) ديوان ص ٩٩ - ١٠٢ من طبعة باريس أو ١٨٢ - ١٨٤ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أو ٢٥٥ - ٢٦٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٦) ديوان ص ٢٢٩ - ٢٣٠ من طبعة باريس [أو ٣٠٨ - ٣٠٩ و ٨٩٤ - ٨٩٥ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا توجد المقطعتان في طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٧) ديوان ص ١٠٢ سطر ٥ من طبعة باريس [أو ص ٢٦٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] وهذا البيت غير موجود في طبعة مصر ١٢٩٣ .

وربما افتخر بقبيلته وهي تميم فجعلها فوق سائر الناس حتى قال (١) :
وأَفْضَلُ مَنْ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ حِينًا وَمَا ضَمِنَتْ فِي الدَاهِبِينَ قُبُورُهَا ...
ولو أَنَّ أَرْضَ الْمُسْلِمِينَ يَحُوطُهَا سِوَانَا مِنَ الْأَحْيَاءِ ضَاعَتْ ثُغُورُهَا
لَنَا الْجَنُّ قَدْ دَانَتْ وَكُلُّ قَبِيلَةٍ يَدِينُ مُصَلُّوْهَا لَنَا وَكُفُورُهَا
وأراد أيضاً الفخر بنفسه فحيث إنه كان من أجبن الناس لم يقدر
على تخليد ذكر مآثره في الحرب فاكتفى بوصف ذبحه الغنم للقرى كأنه
واصف قتالاً شديداً وملحماً هائلاً مُرْعِباً (٢) . وكان الفرزدق من أهجى
الشعراء فكاد الهجاء يملأ نصف ديوانه وهو هجاء بَشِيع قبيح كله شتم سافل
وتعيير وابتهار في الأخوات والأمهات وقذف للمُحَصَّنات الغافلات توافق
بذاءة ألفاظه دناءة معانيه . ولعله تاب إلى الله أحياناً وهو مُسِنٌّ في سوء هجائه
فيروى في ديوانه أَنَّ رجلاً من موالى باهلة يقال له حُمَام أعطى الفرزدق
نحيباً من سجن بشرط أن يهب له أعراض قومه ففعل الفرزدق وهجا إبليس
في قصيدة كأنه (٣) مُلْهِم ما قد مرّ من أهاجيه . ومن هذه القصيدة :

أَلَمْ تَرَنِي عَاهَدْتُ رَبِّي وَإِنِّي لَبَيْنَ رِتَاجٍ قَائِمٌ وَمَقَامٌ
عَلَى قَسَمٍ لَا أَشْتِمُ الدُّهْرَ مُسْلِمًا وَلَا خَارِجًا مِنْ فِي سَوْءٍ كَلَامٍ
أَلَمْ تَرَنِي وَالشَّعْرَ أَصْبَحَ بَيْنَنَا دُرُوءٌ مِنَ الْإِسْلَامِ ذَاتُ حَوَامٍ ...

(١) ديوان ص ١٦٧ من الطبعة الباريسية [أوص ٢٧٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] ولا تروى القصيدة في طبعة مصر ١٢٩٣ .

(٢) ديوان ص ٥٨ من طبعة باريس أوص ١٦٣ من طبعة مصر ١٢٩٣ [أوص ٨٩٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] . (٣) ديوان ص ١٠٩ - ١١١ من طبعة باريس أوص ١٨٦ - ١٨٧ من

طبعة مصر ١٢٩٣ [أوص ٧٦٩ - ٧٧١ من طبعة مصر ١٣٥٤] ويروى البيت الأول والثاني والثالث في ديوان جرير (ج ٢ ص ٦٩ من طبعة مصر ١٣١٣) وفي شرح اليزيدي على النقاظ ج ١ ص ١٢٦ من طبعة ليدن أما الأحوال التي قال الشاعر فيها هذه القصيدة لما يحكى فيها في الديوان مختلف عما يحكى في النقاظ . - الرتاج الباب العظيم وهنا باب الكعبة ومقام إبراهيم - دروء جمع دره وهو نادر يندر من الجبل - حوام جمع حامية ، ونحى زق السمن .

ومنها :

لعمري لنعم النحى كان لقومه
بتوبة عبدٍ قد أناب فزاده
أطعتك يا إبليس سبعين حجة
فررت إلى ربى وأيقنت أننى
عشيّة غبّ البيع نحى حُمام
وما كان يُعطى الناس غير ظلام
فلما انتهى شئى وتمّ تَمَامِ
مُلاقٍ لآيام المَنونِ حِمَامِ...

ومنها :

ألا طال ما قد يتُّ يوضعُ ناقتى
يظلُّ يُمْنِي على الرُّحل فاركا
يبشرنى أن لنَّ أموتَ وأنه
ولكن لا شكَّ أنَّ إبليس عاد يزور الشاعر بعد مدّة قليلة لأنّه لم يزل
يهجو الناس إلى مماته .

قال يونس بن حبيب التحوّى المتوفى سنة ١٣٢ أو ١٣٣ : «لولا شعر
الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب» (١) . والحقّ يقال إنّ شعره أوفر ألفاظاً من
شعر الأخطل (٢) . إلّا أنّ الفرزدق كان أيضاً أكثر الشعراء تنحلاً فسرق
أبيات السابقين والمعاصرين : بدون حياء بل اضطرّ أحياناً بعض الشعراء إلى
ترك شئ من شعرهم له (٣) كأنّه أحقّ به .

لا يتصوّر الكلام على الأخطل والفرزدق بدون ذكر معاصريهما وخصمهما

(١) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٤٨ .

(٢) راجع J. HELL, *al-Farazdak's Lieder auf die Muhallabiten* (Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft, 59, 1905) p. 590,2.

(٣) انظر كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١١٦ وج ١٩ ص ٢٢ - ٢٣ (فيه أربعة أبيات للى الرمة)
وج ١٩ ص ٣٦ (بيت لشمرل) وج ١٩ ص ٧ (بيتان لابن ميادة) والعمدة لابن رثيق ج ٢
ص ٢١٨ - ٢١٩ من طبعة مصر ١٣٢٥ (الفرزدق وجبيل) .

الشهير أعنى جريراً . وهؤلاء الثلاثة كلهم من شعراء الصنف الثالث على ترتيبنا وهم الذين حكم لهم إجماع أهل الأدب بحوز قصب السبق في أيام بني أمية . وجرير بن عطية بن الخطفي من بني كليب حتى من تميم كان على المحتمل من أهل اليمامة^(١) وبها مات وقبره ولكنه عاش على الغالب بالبصرة وغيرها من مدن العراق ولازم الحجاج بن يوسف وكان من جملة الشعراء الذين أكثروا الثناء عليه . واختلف في تاريخ مماته فقيل إنه توفي سنة ١١٠ وقيل سنة ١١١ وقيل أيضاً إنه مات بعد الفرزدق بشهور قليلة^(٢) . ومن المُنْتَب (٣) أنه قد صاغ أشعاره الأولى في مدة خلافة معاوية بن أبي سفيان (٦٦١ - ٦٨٠) ففي قصيدة نسجها في هذه المدة وصف نفسه كأنه قد أدرك آخر الشباب^(٤) :

لقد خَبَرْتُني النفس أني مُزِيلٌ شَبَابِي وَوَصَلَ المُنْفِسَاتِ الأَوَانِسِ
وموضوع جميع ديوانه ثلاثة : الهجاء والمديح والرثاء . والرثاء يسير وكلّ مقطعة منه لا تشمل إلا على أبيات قليلة لا تتجاوز أحياناً عدد اثنين أو ثلاثة^(٥) . والمديح في الحجاج بن يوسف حين كان والياً على العراق بعد أن

(١) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ٤٦ : « ونسبت جريراً إلى البصرة لكثرة قدومه إليها من اليمامة وقبر جرير باليمامة وبها مات » .

(٢) كتاب وفيات الأعيان عدد ١٢٩ من طبعة غوتنجن أو ١٢٧ من الطبقات المصرية وكتاب الأغاني ج ١٩ ص ٦ و ٤٥ و ٤٦ وانظر أيضاً ما قلته في تاريخ موت الفرزدق ص ١٥٨ حاشية ١ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٥٩ من طبعة بولاق ومقدمة الأستاذ Bevan للنقائض ص ١٧ حاشية ١ .

(٤) النقائض عدد ١٦ بيت ٢ (ج ١ ص ٢٦) وديوان جرير ج ١ ص ١٥٣ سطر ٤ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٣٢٨ من طبعة مصر ١٣٥٤] - النفس كل شيء له قدر وخطر وقال شارح النقائض إن المنفسات هي العظائم الأقدار .

(٥) ديوان ج ١ ص ٨٢ و ٩٢ - ٩٣ و ٩٦ و ٩٨ و ١٢٥ و ١٣٧ و ١٤١ و ١٥١ - ١٥٢

و ١٦٩ - ١٧٠ و ج ٢ ص ٢١ - ٢٢ و ٣٩ و ٤١ و ١٠١ و ١١٣ من طبعة ١٣١٣ [ورويت في طبعة مصر ١٣٥٤ اثنتان وعشرون مرثية فانظر ص ٨ من الفهرست] .

أطفأ لهيب الفتن هناك فقال فيه جرير مثلاً^(١) :

دعا الحجاجُ مثلَ دعاءِ نوحٍ فأسمعَ ذا المعارجِ فاستجابا...
ولو لم يرَضَ ربُّك لم يُنزلْ مع النصرِ الملائكةَ الغضابا
إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حربٍ رأى الحجاجُ أنقبها شهابا
تري نصرَ الإمامِ عليك حقاً إذا لبسوا بدينهم ارتيابا...
عفريتُ العراقِ شفيتَ منهم فأمسوا خاضعين لك الرقابا

وأعاد تشبيه الحجاج بأحد الأنبياء المنذرين في قصيدة أخرى قال فيها^(٢) :

رأى الحجاجُ عافيةً ونصراً على رغمِ المنافقِ والحسودِ
دعا أهلَ العراقِ دعاءَ هودٍ وقد ضلُّوا ضلالةَ قومِ هودِ
كأنَ المرجفينَ وهمُ نشاوى نصارى يلعبون غداة عيدِ
وظنُّوا في اللقاءِ لهم رواحاً وكانوا يصعقون من الوعيدِ

ومدح عبد الملك بن مروان $(\frac{60}{785} - \frac{86}{700})$ ومَنْ خلفه من خلفاء بني أمية إلى هشام بن عبد الملك $(\frac{100}{724} - \frac{120}{743})$ فأدرج في تلك المدائح أحياناً عباراتٍ دينية وإشارات قرآنية مثل ما فعل الفرزدق فمن هذا القبيل ما قال في عمر بن عبد العزيز^(٣) :

خليفةَ الله ماذا تأمرون بنا لسنا إليكم ولا في دارٍ منتظر
أنتَ المبارك والمهدي سيرته تعصى الهوى وتقوم الليل بالسور
أصبحتَ للمنبّر المعمور مجلسه زيناً وزينَ قباب الملك والحجر
نال الخلافة إذ كانت له قدراً كما أتى ربُّه موسى على قدر

(١) ديوان ج ١ ص ٩ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوص ١٦ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ١ ص ٤٦ من طبعة ١٣١٣ [أوص ١٢٠ من طبعة ١٣٥٤] .

(٣) ديوان ج ١ ص ١٢٥ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٢٧٥ من طبعة ١٣٥٤] .

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك^(١) :

فَأَنْتَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ خَلِيفَةٌ وَلِيٌّ لِعَهْدِ اللَّهِ بِالْحَقِّ عَارِفٌ
هَذَاكَ الَّذِي يَهْدِي الْخَلَائِقَ لِلتَّقَى وَأَعْطَيْتَ نَصْرًا لَمْ تَنْلُهُ الْخَلَائِفُ
وَأَدَّتْ لِيْلِكَ الْهِنْدُ مَا فِي حَصُونِهَا وَمِنْ أَرْضِ صِيْنِشْتَانَ تُجْبَى الطَّرَائِفُ
وَأَرْضَ هِرَقْلٍ قَدْ قَهَرْتَ وَدَاهِسْرًا وَتَسَعَى لَكُمْ مِنْ آلِ كَسْرَى النُّوَاصِفُ
وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ الَّذِي جُمِعَتْ لَهُ صَفُوفُ الْمُصَلَّى وَالْهَدْيُ الْعَوَاكِفُ
وَفِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى يَمْدَحُ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَيْضًا قَالَ^(٢) مَعْرُضًا بِهِدَمِ

كَنِيسَةِ النَّصَارَى بِهِدْمِ الَّذِي تَقْدَمُ قَبْلَ الْفَرَزْدَقِ فِيهَا :

وَلَقَدْ سَمَوْتَ إِلَى النَّصَارَى سَمَوَةً رَجَفَتْ لَوَقَعَتِهَا جِبَالُ الدَّيْلَمِ
إِنَّ الْكَنِيسَةَ كَانَ هَدْمُ بِنَائِهَا نَصْرًا فَكَانَ هَزِيمَةً لِلْأَخْرَمِ
فَأَرَاكَ رَبُّكَ إِذْ كَسَرْتَ صَلِيْبَهُمْ نَوْرَ الْهَدْيِ وَعَلِمْتَ مَا لَمْ تَعْلَمْ

ولكن أكثر مدائحه لا تنفك أن تجرى مجرى شعر الجاهلية في مدح
سادة القبائل والأشراف . ومما نتعجب منه في نظم شاعر مثل جرير هو نوع
الافتخار الوارد في إحدى قصائده بعد ما ذكر فخر الفرس والروم بملوكهم
السالفين فقال وهو افتخار إسلامي محض فريد في ديوانه المصوغ في قالب
القدماء^(٣) :

(١) ديوان ج ٢ ص ١٣ - ١٤ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٢٨٤ - ٢٨٥ من طبعة ١٣٥٤]

ونجد مثل هذه العبارات الدينية في قصائده قالها في الخلفاء وأمرائهم (راجع ديوان ج ١ ص ٦١ و ٦٥ و ٧٣ و ١٠٧ من طبعة ١٣١٣ [أوص ١٥٣ و ١٥٩ و ١٧٦ و ٢٤٣ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ٢ ص ٨٥ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٤٩٣ من طبعة ١٣٥٤] - أخرم الذي شق
وترة أنفه وهو لقب ملك من ملوك الروم واسمه Justinianus الثاني فليراجع ما يحكى المسعودي في الباب
السادس والتسمين من مروج الذهب (ج ٥ ص ٣٨١ - ٣٨٢ من طبعة باريس) في هدم البيعة والأخرم .

(٣) ديوان ج ١ ص ١٠٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوص ٢٤٣ من طبعة ١٣٥٤] أو النقائص

عدد ١٠٤ بيت ٢٧ - ٣٤ ج ٢ ص ٩٩٤ - ٩٩٥ من طبعة ليدن .

أبونا أبو إسحاق يجمع بيننا أبٌ كان مهدياً نبياً مطهراً
ومنا سليمانُ النبيُّ الذي دعا فأُعطيَ تبياناً ومُلْكاً مسخراً
وموسى وعيسى والذى خرَّ ساجداً فأُنبت زرعاً دمعُ عينيه أخضرا
ويعقوبُ منا زاده اللهُ حكمةً وكان ابنُ يعقوب أميناً مصوراً
فيجمعنا والغُرَّ أبناءُ سادةٍ أبٌ لا نبالي بعده من تعلُّرا
أبونا خليلُ اللهِ واللهُ ربُّنا رضينا بما أعطى الإلهُ وقدراً
بَنَى قسلةَ اللهِ التي يُهتَدَى بها فأورثنا عزاً ومُلْكاً معمرًا
وشتانَ ما بين هذا القول وبين الافتخار المعتاد في سائر أشعار جرير المقتفى
أثر الأقدمين مثل أبياته في الأخطل^(١) :

إنَّ الذى حرَّم المكارمَ تغلباً جعل النبوةَ والخلافةَ فينا ...
مُضَرُّ أبى وأبو الملوك فهل لكم يا خُزَرَ تغلبَ من أب كُأبينا
هذا ابنُ عمى في دمشق خليفةً لو شئتُ ساقكمُ إلى قَطينا
وكمثل الأخطل لم يصنَّ جرير الشعر في الغزل أبداً لبعده عن أساليب
أهل القبائل فيروى في كتاب الأغاني^(٢) أنه قال في شعر عمر بن أبي ربيعة :
شعرٌ نهامى إذا أنجد وجد البرد . وسمع مرةً بعض الأبيات لعمر بن أبي ربيعة
فأعجبته فقال : ما زال هذا القرشيَّ يَهْدَى حتَّى قال الشعر . وهذا يوافق
ما أوضحت في إحدى الصفحات السابقة من الفرق بين شعر المدن الحجازية وشعر
أهل الوبر في القرن الأول للهجرة . - أما النسب في أوائل القصائد
فعاطاء جرير في الأغلب على منوال أشعار الجاهلية وذكر الأطلال والدُّمْن

(١) ديوان ج ٢ ص ١٥١ من طبعة مصر ١٣١٣ [أوص ٥٧٨ - ٥٧٩ من طبعة ١٣٥٤] وانظر
أيضاً الكامل للمبرد ص ٥٢٦ من طبعة ليسك أوج ٢ ص ١١٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ .
(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ٣٨ و ٧٢ من طبعة بولاق وراجع العقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٣٣
سطر ٢ - ٤ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفيه تحريف - تهامى يعنى مكيا ومن المشهور أن مكة في التهامة ، وهنى
تكلم بغير معقول لمرض أو غيره .

والأسي والعاذلات ولكنّه ربّما عدل عنه كأنّه مقتد ببعض قصائد الأخطل

فجاء بذكر الغواني الفاتنات ذوات دلال وجمال . ومن هذا القبيل^(١) :

إنّ الغواني قد قطعن مودتي بعد الهوى ومنعن صفو المشرب

وإذا وعدتك نائلاً أخلفنه وجعلن ذلك مثل برق الخلب

يُبديين من خلل الحجال سوالفاً بيضاً تُزين بالجُمان المذهب

أعناق عطية الفصون جوازي يبعثن بالأدنى عروق الخلب

ولعلّ ثلثي شعر جرير في الهجاء وهو في الأغلب هجاء لاذع جداً

لا تخلو إحدى مقطعاته أو قصائده عن قذف النساء بالفواحش وعن الكلام

السافل البذيء المستقبح مثل الوارد في أهجى الفرزدق . قال ابن رشيق

القيرواني في كتاب العمدة^(٢) : « وأنا أرى أنّ التعريض أهجى من التصريح

لاتّساع الظنّ في التعريض وشدة تعلّق النفس به والبحث عن معرفته وطلب

حقيقته فإذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً وقبليته يقيناً

في أوّل وهلة فكان كلّ يوم في نقصان لِنسيان أو ملل » . ولكن لم يكن

هذا رأى شعراء الصنف الذي نحن بصدده فقال نفس ابن رشيق : « وجميع

الشعراء يرون قصر الهجاء أجود وترك الفحش فيه أضوب إلّا جريراً فإنه

قال لبنيه إذا مدحتم فلا تطيلوا المادحة وإذا هجوتهم فخالفوا » . ومن المشهور

(١) ديوان ج ١ ص ١٠ من طبعة ١٣١٣ [أوص ١٨ - ١٩ من طبعة ١٣٥٤] - الخلب السحاب لا مطرفيه كأنه يخدع الشائم ويقال لمن يعد ولم ينجز : إنما أنت كبرق خلب (كبرق الخلب) خلل جمع خلة وهي الثقب - حجال جمع حجلة وهي ستر العروس في جوف البيت وفي الصحاح : « بيت يزین بالثياب والأسرة والستور » - سواف جمع سلفة وهي صفحة العنق وقيل ناحية مقدمها من لدن معلق القرط إلى قلت الترقوة وهما سالفتان - الجوازي الوحش بأسره لاستغنائها بالكلا عن كثرة الماء - الأدمى موضع في أواسط جزيرة العرب - حلب نبت ينبت في القيط بالقيعان وشطآن الأودية ويلزق بالأرض حتى يكاد يسوخ وإنما يأكله الشاء والظباء ويدبغ بها . وفي البيت الثالث قرأت « بالجمان » بدلا من « بالجمال » كما في الديوان - فانظر نسياً ثانياً في ديوانه ج ١ ص ١١٣ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٢٥٤ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) كتاب العمدة ج ٢ ص ١٤٠ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

أَنَّ جريراً لم ينفك يهجو غيره من الشعراء وعشائهم طولَ عمره فقال
الأصمعي^(١) : « كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعراً فينبذهم وراء ظهره
ويرى بهم واحداً واحداً ومنهم من كان ينفخه^(٢) فيرى به وثبت له الفرزدق
والأخطل . فذكر بضع أخصامه من الشعراء في قصيدة قال فيها^(٣) :

نخزي الفرزدق والأخطل قبله والبارق وراكبُ القصواء
ولأغورى نبهان كأس مرة ولتيم برزة قد قضيت قضائي
ولقد تركت أباك يا ابن مسحب حطيم القوائم دامي السبواء
والمستنير أجير برزة عائداً أمسى بالأم منزل الأحياء
وبنو البعيث ذكرت حمرة أمي فشفيت نفسي من بني الحمراء

وإذا تأملنا حكاية ابتداء التحام التهاجي بين جرير والفرزدق خلناها
من روايات زمان الجاهلية . فهي أَنَّ الأهاجي كانت تدور بين جرير والبعيث
من بني مجاشع رط . الفرزدق فلما أحست بنو مجاشع بغلبة جرير على
شاعرهم وبلغهم فُحش جرير بنسائهم اضطروا الفرزدق إلى الدخول بينهما
ففعل كارهاً فاكتفى أولاً بالدفاع عن عشيرته بدون ذكر جرير ولا شتم
بني كليب فأجابه جرير وصاوله وعشيرته صولةً شديدةً فالتهب نيران

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٤٠ من طبعة بولاق .

(٢) [وفي طبعة دار الكتب المصرية ج ٨ ص ٨ ينفعه بالحاء المهملة بدلا من ينفخه بالحاء المعجمة
وهو على ظني الأصح] .

(٣) ديوان ج ١ ص ٦ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١١ من طبعة ١٣٥٤] . - البارقي هو سراقه
ابن مرداس البارقي - القصواء ناقة للعرار بن منقلد من بني العلوية (انظر كتاب الأغاني ج ٧ ص ٤٦) -
أغور نبهان اسمه نعيم بن شريك وقيل حريث بن عناب وقيل سحمة بن نعيم وقيل سحيم بن شريك
(انظر النقائض ج ١ ص ٣١ - ٣٢ والاشتقاق لابن دريد ص ٢٣٦ سطر ٦ ولسان العرب ج ١٧ ص
٢١٥) - تيم برزة يعني عمر بن لجا التيمي وبرزة اسم أمه (انظر لسان العرب ج ٧ ص ١٧٤ سطر ٦) -
المستنير بن سبرة العبدي - البعيث الهاشمي ويقال له ابن حمراء العجان (انظر نقائض عدد ٣٣ بيت ٢٩
و ٣١ و ٣٦ و ٦٣ و ٦٥ مثلاً) .

شرَّ العداوة بين الشعاعين . ومن بعض الأخبار ونفس القصائد يُستخرج أن ابتداء ذلك كان بعد موت يزيد بن معاوية $\frac{64}{683}$ بقليل وقد مضى لكليهما عُقُوران الشَّباب^(١) . أمّا مدّة هذا التهاجى بينهما فأطول من أربعين سنة لأننا نعر في إحدى قصائد الفرزدق فيه على ذكر خلافة هشام بن عبد الملك الذي ابتداء يتربّى الأمر سنة $\frac{100}{724}$ ^(٢) .

من المشهور أن نقائض جرير والفرزدق قد جُمعت بعناية أبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي المتوفى سنة ٢٠٧ ثم انكب على شرحها غيره من علماء اللغة حتى وصلت إلينا بشرح أبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي المتوفى سنة ٣٠٠ رواية عن الحسن بن الحسين السكري المتوفى سنة ٢٧٥ عن أبي جعفر محمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥^(٣) . فلا أحد يجهل أن النقيضة في اصطلاح علماء اللغة والأدب هي قصيدة ينسجها شاعر نقضاً لما قاله شاعر آخر بشرط أن يحفظ. بحر وروى القصيدة التي يخالفها ويعارضها . ونقائض جرير والفرزدق بالرواية المذكورة عبارة عن كتاب ضخّم يتضمّن ١١٣ قصيدة منها ٦٢ لجرير و ٣٨ للفرزدق و ٦ للبعيث المجاشعي و ٥ لغسان بن ذهل وواحدة لعقبة بن مليص وواحدة لنعيم بن شريك ، وذلك ما عدا الأشعار العديدة المروية في الشرح الوافي الوافر الآتي بقصص الحوادث وأيام العرب الوارد ذكرها في متن النقائض . وأكثر هذه النقائض لا توجد في ديواني الشعاعين . وأهميتها تتجاوز حدود علم الآداب لأن الشاعر في مثلها دفاعاً عنه وعشيرته وهجوماً على أخصامه « يضطر إلى

(١) انظر مقاله الأستاذ Bevan في مقدمته للنقائض ص ١٧ .

(٢) انظر مقدمة النقائض ص ١٨ - ١٩ .

(٣) انظر مقدمة النقائض ص ١١ - ١٣ . وأدخلت بعض النقائض في ديوان جرير المطبوع بمصر سنة ١٣١٣ فراجع مقاله Bevan في ص ١٩ - ٢٠ من مقدمته [وأدخل محمد إسماعيل عبد الله الصاوي كل نقائض جرير والفرزدق الشعاعين في ديوانيهما اللذين اعتنى بطبعهما سنة ١٣٥٤] .

تعداد مساوي أعدائه وذكر الأيَّام التي توالى بين قومه وقبائل الذين يهجمون
موضحاً ما آلت إليه أمورهم من التضعُّف . فمثل هذه القصائد هي كتاريخ
منها نعلم أحوالهم ونطلع على أخبارهم ونعرف رجالهم المشهورين وقرسانهم
المذكورين ونتحقق الأزمنة والأمكنة التي عاشوا فيها . فكم من الأماكن
والبلدان والجبال والوديان والمياه والقرى ورد ذكرها في تلك القصائد وكم من
الأبطال لم نكن نعرف أسماءها لو لم تُعلنهم لنا النقائض ^(١) .

وفي مكتبة جامع بايزيد بالقسطنطينية نسخة خطية من نقائض الأخطل
وجرير جمعها وشرحها شرحاً صغيراً أبو تمام صاحب الحماسة المتوفى على
القول المرجح سنة ٢٢٨^(٢) . ولكن خلافاً لمجموعة نقائض الفرزدق وجرير
لا يتضمن هذا الكتاب إلا قصائد مثبتة في ديواني الشاعرين لم يتضح أنها من
النقائض إذا راجعنا كل ديوان على حدة . - ومما يجدر ذكره أن جريراً
في نقائضه للأخطل كثيراً ما استعمل عبارات وإشارات إسلامية كأنه من
أتقى الناس وسب دين النصارى فقال مثلاً ^(٣) :

لَعَنَ إِلَهُ مَنْ الصَّليبُ إِلَهُهُ وَاللَّابِسِينَ بِرَانَسِ الرُّهْبَانِ

(١) قاله الأب أنطون صالحان في مجلة المشرق السنة الثالثة عشرة ١٩١٠ ص ٩٧ :

(٢) راجع ما قاله فيها N. RHODOKANAKIS, über einige Handschriften der öffentlichen Bibliotheken in Konstantinopel (Orientalische Studien Th. Noaldaka...gewidmet, Giessen

1906, P. 385-392) والأب صالحان في مقاله المسماه بنقائض جرير والأخطل في المشرق السنة الثامنة ١٩٠٥ ص ٩٧ - ١٠٧ [وطبعت نقائض جرير والأخطل عن نسخة الأستانة الوحيدة في بيروت سنة ١٩٢٢] .

(٣) ديوان ج ٢ ص ١٤٩ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٥٧٦ من طبعة ١٣٥٤] . أما مارسرجس المذكور في البيت الأخير فهو قديس أكرمه بنو تغلب انظر ديوان جرير طبعة ١٣١٣ ج ١ ص ١٣٤ سطر ١٧ و ص ١٣٥ سطر ٨ (حج بنى تغلب لمارسرجس) و ص ١٤٣ سطر ١٥ (استنصر بنو تغلب بمارسرجس وابنه) ثم ج ٢ ص ٢٩ سطر ١٠ (استنصر التغلبيون بمارسرجس) و ص ٥٦ السطر الأخير (دعا الأخطل مارسرجس) [وهذه الأبيات كلها موجودة في طبعة ١٣٥٤ ص ٢٩٢ سطر ١ و ص ٢٩٣ سطر ٢ و ص ٣٠٨ سطر ٣ . و ص ٤١٤ سطر ٣ و ص ٤٥١ سطر ٢] . وراجع أيضاً بيت الأخطل في ديوانه ص ٣٠٩ :

والداحين إذا تقارب فضحهم
من كل ساجي الطرف أعصل نابه
تغشى الملائكة الكرام وفاتنا
يُعطي كتاب حساب به شماله
أيصدقون بما سرجس وابنه
شهب الجلود خسيصة الأثمان
في كل قائمة له ظلفان
والتغلي جنازة الشيطان
وكتابتنا بأكفنا الإيمان
ويكذبون محمد الفرقان

وغير مرة عيب الفرزدق لما كان بينه وبين الأنخل من الصداقة فجعله
من الكفار على أنه مسلم^(١) :

إن الفرزدق حين يدخل مسجداً
إن الفرزدق لا يبالي محرماً
إن الفرزدق في جلاجل كرج
رهط الفرزدق من نصارى تغلب
حجوا الصليب وقربوا قربانكم
رجس فليس طهورة بطهور
ودم الهدى بأذرع ونحور
بعد الأنخل ضرة لجريز
أو يدعوا كذباً دعاوة زور
وخذوا نصيبكم من الخنزير

ومن هذا الضرب أيضاً^(٢) :

ألا قبح الله الفرزدق كلما
فلا يقربن المروتين ولا الصفا
فإنك لو أعطى الفرزدق درهماً
أهل مصل للصلاة وكبراً
ولا مسجد الله الحرام المطهراً
على دين نصرانية لتنصراً

— لا رأونا والصليب طالما ومار سرجيس وسما ناقما

فيسب جرير دين النصارى أيضاً في أبيات أخرى فراجع ديوانه ج ١ ص ١١ و ١١٦ و ١١٧ و ١٣٤ و ١٣٥ و ج ٢ ص ٥٦ و ٨٠ و ٨١ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٢١ و ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٩١ و ٢٩٢ و ٤٥٠ و ٤٧٤ و ٤٧٦ من طبعة ١٣٥٤] . وكل الأبيات موجودة في قصائد يهجو فيها الأنخل .

(١) ديوان ج ١ ص ٨١ من طبعة ١٣١٣ [أو ١٩٣ - ١٩٤ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) ديوان ج ١ ص ١١٠ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٢٤٨ من طبعة ١٣٥٤]

وقوله (١) :

وقد لحق الفرزدق بالنصارى لِيَنْصُرَهُمْ وليس به انتصارُ
ويسجد للصليب مع النصارى وَأَفْلَجَ سَهْمُنَا فلنا الخيارُ
ولكن واضح أنَّ مثل هذا الكلام عند جرير تعصّب قوئ في الحقيقة
لا تعصّب ديني .

اختلفت العلماء في تفضيل بعض هؤلاء الثلاثة على بعض وفي أيهم
المتقدم وأغزرهم بحرًا وأرقهم شعرًا وأهتكمهم لعدوّه، فلو أردت إيراد جميع
أقوالهم لأحتجتُ إلى أفراد درس لهذا الموضوع بغير أن نحصل بعده على
نتيجة لا تنازع في صحتها (٢) . والذي يجتمع على رأي من مراجعة دواوينهم
ونقائضهم أنَّ الأخطل فاق معاصريه في التصرف في النسب الخالي عن
التكلف الصادر عن القلب ثم في فخر المدائح وفي العفاف عن الفحش .
وهو انفرد بتعاطي الخمريات لأنَّ ما للفرزدق من هذا الضرب إنما شيء قليل
جدًّا كاد لا يُذكر ، وله الفضل أيضاً في وصف المناظر الطبيعية بصورها
بغاية الإتقان والقوة في التعبير مع وجيز الكلام فيخال القارئ أن يشاهدها
فلم يُدرك الفرزدق ولا جرير براعته في ذلك (٣) . والفرزدق فاق سائر الثلاثة
في وفرة المراثي وجودتها ورشاققتها ثم في التصرف في اللغة لكنه أخبثهم فيما
يُمنجه الذوق السليم من الكلام القذع وأوقحهم تنحُّل أبيات غيره ؛ أمّا هجاء
الفرزدق وجرير فقيل إنَّ أهاجى جرير كلها تدور على أربعة أشياء هي

(١) ديوان ج ١ ص ١٠٥ من طبعة ١٣١٣ [أوص ٢٢٨ من طبعة ١٣٥٤] .

(٢) راجع الحكاية الغريبة عن تشاجر الناس في عسكر المهلب بن أبي صفرة (حين كان يقاتل
الأزارقة بفارس) في مسألة أجرير أشعر أم الفرزدق (كتاب الأغاني ج ٧ ص ٣٩ و ٥٥ من طبعة بولاق) .

(٣) انظر في الديوان ص ١٥ مثلاً وصف الأتّن الوحشية تشرب من مجرى المياه العذبة وألحظها
إلى النيفضة حيث تخشى الصياد متوارياً يترصد لها وفي ص ٢٣٥ سطر ٢ إلى ٢٣٦ سطر ١ وصف الحبير
الوحشية وفي ص ٢٣٠ سطر ٢ إلى ٢٣١ سطر ٧ وصف رحلة الثور في الليل وقتاله للضراء .

القَيْن^(١) والزناء وضرب الروم بالسيف^(٢) والنَّفْي من المسجد^(٣) ولا يهجو الفرزدق بسوى ذلك . فهو حكمٌ غير منصف قد سبق إلى إبطاله ضياء الدين نصر الله بن الأثير الجزري وإن بالغ قليلاً في مدافعته عن جرير^(٤) .

ومن الشعراء المُجيدِين من هذا الصنف الثالث غيلان بن عُقبة الشهير بذى الرمة الذى حُكِم له فى الشعر بمنزلة لا تنحط. عن منزلة الثلاثة المتقدمين إلا بشيء يسير . والمعروف من أحوال حياته قليل جداً أعنى أنه كان من قبائل أواسط. جزيرة العرب وكان يأتى الحضر فيقيم بالكوفة والبصرة ومدح بلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري وشبب فى شعره بمية وخرقاء . أمّا موته فقال صاحب كتاب الأغاني^(٥) إن ذا الرمة توفى فى خلافة هشام ابن عبد الملك ($\frac{105}{724} - \frac{125}{743}$) وهو ابن أربعين سنة وقال ابن خلكان^(٦) إنه مات سنة ١١٧ . ودُفن برمال حُزوى فى وسط الدهناء بأرض اليمامة . وله ديوان وصل إلينا بروايتين كبيرى وصغرى وكلتاها غير مطبوعتين^(٧) والكبرى عبارة عن نحو ثمانين قصيدة ومقطعة وعشر منها أراجيز .

(١) لقب جرير الفرزدق وأصحابه بالقين أى الحداد احتقاراً لهم وفى النقائض عدد ٣٣ بيت ٤٩ القين العراق هو البعث المجاشى .

(٢) أشار إلى الحكاية المروية فى كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٨٥ - ٨٨ من طبعة بولاق حين ضرب الفرزدق أسيراً رومياً ضربات بالسيف فلم يصنع شيئاً : انظر أبيات جرير والفرزدق فى حماسة البحري ص ٧١ من طبعة ليدن أو ص ٤٤ - ٤٥ من طبعة بيروت (عدد ٢٠٣ و ٢٠٥) والنقائض ص ٤١٣ من طبعة ليدن وفتح العلوم للسكاكى ص ٣٠٤ من طبعة مصر ١٣١٧ .

(٣) ديوان ج ١ ص ٥٠ من طبعة ١٣١٣ [أو ص ١٢٨ من طبعة ١٣٥٤] .

(٤) المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ص ٤٩٠ - ٤٩١ من طبعة بولاق ١٢٨٢ أو ص ٣١٥ - ٣١٧ من طبعة مصر ١٣١٢ .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٢٦ من طبعة بولاق .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٣٥ من طبعة غوتنجن أو ٤٩٦ من الطبقات المصرية .

(٧) (طبعت رواية الديوان الكبرى فى مدينة Cambridge سنة ١٩١٩ بعناية C.H.M. Macartney

وطبع أيضاً الديوان فى بيروت سنة ١٣٥٢ بعناية بشير يموت) .

قال أبو عمرو بن العلاء النحوي^(١) المتوفى سنة ١٥٤ : « إِنَّ الشعر
فُتِحَ بامرئ القيس وخُتِمَ بذى الرمة » وَيُنْسَبُ أَيْضاً إِلَى أَبِي عمرو بن العلاء
هذا القول^(٢) : « إِنَّمَا شعره نُقِطَ عروس تَضْمِحِلُ عَمَّا قَالِيل وَأَبْعَارُ ظِبَاءٍ
لَهَا شَمٌّ فِي أَوَّلِ شَمِّهَا ثُمَّ تَعُودُ إِلَى أَرْوَاحِ الْأَبْعَارِ »^(٣) . وَلَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ
كَيْفَ يَجْتَمِعُ هَذَانِ الْقَوْلَانِ مَعَ مَا فِيهِمَا مِنَ التَّنَاقُضِ الظَّاهِرِ . فَأَقُولُ :
الوَاضِحُ عَلَى ظَنِّي أَنَّ أَبَا عمرو بقوله الْأَوَّلِ إِنَّمَا أَرَادَ الشعرَ عَلَى مَنْوَالِ قِصَائِدِ
الْأَعْرَابِ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنْ كَانَ هَذَا مُرَادَهُ أَصَابَ قَوْلُهُ لِأَنَّ ذَا الرِّمَّةِ آخِرُ
النُّوَابِغِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِأَسَالِيبِ الْقَرِيضِ الْقَدِيمِ لُغَةً وَمَعْنًى وَمَوْضُوعاً . فَلَوْ قَرَأَ
مِثْلًا أَحَدٌ قَصِيدَتَهُ الشَّهِيرَةَ الَّتِي مَطَّلَعَهَا^(٤) :

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَقْرِئَةٍ سَرَبُ
وَفَرَاءَةٍ غَرْفِيَّةٍ أَثْنَى خَوَارِزْمَا مِثْلُ شَلْ شَلْ ضَبِيعَتُهُ بَيْنَهَا الْكُتُبُ

وَلَمْ يَعْرِفْ اسْمَ قَائِلِهَا لِخَالَهَا مِنْ نَسَجِ فَحُولِ الْجَاهِلِيَّةِ . فَبَيْنَ شعرِ ذِي الرِّمَّةِ
وَبَيْنَ شعرِ الْأَخْطَلِ وَالْفَرَزْدَقِ وَجَرِيرِ فَرْقٌ لَا يُنْكَرُ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ
مَتَوَسِّطُونَ بَيْنَ مَسَلِكِ الْقَدَمَاءِ الْمَشْهُورِ وَطَرِيقَةِ الَّذِينَ عَاشُوا بَعْدَ ابْتِدَاءِ
الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَعَلَى أَنَّهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقَبَائِلِ أَخَذُوا مِنْ عَوَاطِفِ أَهْلِ الْحَضَرِ
شَيْئاً فَأَتَوْا أَحْيَاناً بِمَعَانٍ لَمْ يَسْبِقْ إِلَيْهَا شِعْرَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ وَوَصَفُوا مَا لَمْ يَصِفْهُ
الْقَدَمَاءُ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ ، وَعَدَلُوا عَنْ أَنْوَاعِ التَّوَحُّشِ فِي كَثِيرٍ مِنْ

(١) كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ (أوج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة
مصر ١٣٥١) والوفيات لابن خلكان في الموضع المذكور سابقاً .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١١٥ (مرتين) وفي الوفيات لابن خلكان في الموضع المذكور .

(٣) قال صاحب خزانة الأدب ج ١ ص ٥٢ من طبعة بولاق : « قال المبرد معنى قوله فقط عروس
أنها تبقى أول يوم ثم تذهب وبعبر الظباء إذا شمته من ساعته وجدت فيه كرائحة المسك فإذا غب ذهب ذلك
منه . . . وقال الأصمعي إن شعر ذي الرمة حلوا أول ما تسمعه فإذا كثرت إنشاده ضعف ولم يكن له حسن » .

(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٧٧ - ١٧٨ من طبعة بولاق ١٣٠٨ .

أبياتهم ولينوا كلامهم وإن كانت مُعْظَمُ أشعارهم تدور على المدار القديم. أما ذو الرمة فلم يزل بدوياً محضاً فأفكاره وأمياله وأنواع وصفه ومواقع كلامه جارية مجرى أمثالها عند أعراب الجاهلية لا غير فتعشرون في شعره على كثير من الوحش وغريب الألفاظ. وتجدون فيه أحياناً التراكيب الصعبة الفهم لما فيها من التقديم والتأخير مثل قوله^(١) :

كَأَنَّا عَلَى أَوْلَادٍ أَحْقَبَ لَاحِهَا وَرَمَى السَّفَا أَكْفَالَهَا بِسَهَامٍ
دَبُورٌ ذَوَتْ عَنْهَا التَّنَاهَى وَالْحَقَّتْ بِهَا يَوْمَ ذَبَاتُ السَّبَبِ صِيَامٍ
وتعاطى الأراجيز مع القصائد وذلك دلالة أخرى على سلوكه مسلك القدماء حسبما يأتي بيانه عند الكلام على شعراء الصنف الرابع . وكل قصيدة له لا تخلو عن الوقوف على المنزل الدائر والرسم العافي وعن ذكر الأسى على ذهاب القوم بمعشوقة الشاعر وانسجام الدموع لذلك ثم عن الكلام على السفر الشاق الطويل في الرمال والكُثْبَانِ والمفاوز الهائلة مع الإطناب في وصف المهامير والليل المرعب وعزيف الجن^(٢) في البوادي والحمير الوحشية والصيد والناقة والأنساع والأزمة وهلمَّ جرأً ؛ فبعد ذلك يبتدئ الشاعر بالمديح أو الهجاء . وخلاصة القول أنه لم يخرج عن مناهج فحول الشعراء الوثنيين إلا في النادر

(١) البيتان مرويان في شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ص ١١٥ من طبعة بن أوج ٣ ص ٨٧ من طبعة بولاق - أما معناهما فكان الشاعر قال : « كأننا على أولاد أحقب لاحها دبور ذوت عنها التناهى ورمى السفا أكفاله بسهام وألحقت بها يوم صيام ذبات السبيب » - لاحه غيره - ذوى ذبل - تناء جمع التنية من الوادى حيث ينتهى إليه الماء من حروفه - سفا شوك البهيمى والبهيمى نبت يشبه الشعير - سهام حر السموم - أكفال جمع كفل وهو الردف أو العجز - سبيب شعر اللذب والعرف - ويوجد أحياناً مثل هذا التركيب الغريب في شعر الفرزدق فراجع ما قاله Noeldeke في كتابه *Zur Grammatik der classischen Arabisch*, Wien 1896, P. 86-87

(٢) جمع الجاحظ في كتابه الحيوان (ج ٦ ص ٥٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥) أبياتاً قالها ذو الرمة في عزيف الجن وانظر أيضاً GOLDZIEHER, *Adhandlungen zur arabisch Philologie*, Leiden 1896, I.P. 211.

حين قال مثلاً في آخر أرجوزة ^(١) :

فقلت لا والمُبْدِي المَعِيدِ اللهُ أَهْلُ الحَمْدِ والتَّحْمِيدِ
ما دون وقتِ الأَجَلِ المَعْدُودِ موعودِ ربِّ صادقِ الوعودِ
هلْ أَغْدُونُ في عِيشَةٍ رَغِيدِ وَاللَّهِ أَذْنَى لِي مِنَ الْوَرِيدِ
والموتُ يَلْقَى أَنْفُسَ الشُّهُودِ

فمن عرف نوع شعر ذى الرمة وصناعته وأفكاره لم يصدق صحة البيتين المرويين لدى الرمة في كتاب المحاسن والأضداد المنسوب إلى الجاحظ. خطأ ^(٢) :

تَغْصِي الإِلَهَ وَأَنْتِ تُظْهِرُ حُبَّهُ هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لو كان حُبُّكَ صادقاً لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لَمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ولدى الرمة الحظ. الأوفر في التشبيه الجيد فاق فيه أكثر الشعراء وإن كان ربما يُطِيلُهُ بِإِفْرَاطٍ . وكان مثل الفرزدق كثير أخذ الأبيات من غيره فوفرة سرقاته مشهورة ^(٣).

ثم من شعراء هذا الصنف الثالث عُبَيْدُ بْنُ حُصَيْنٍ (وقيل عُبَيْدُ بْنُ معاوية) من بني نُمَيْرٍ لُقِبَ بِالرَّاعِي أَوْ رَاعِي الْإِبِلِ لكثرة وصفه الإبل وجودة نعته إِيَّاهَا . كان في الأغلب يسكن فيما هو قريب من البصرة ووالده وأهل بيته سادة وأشراف بالبادية . وكان مائلاً إلى الفرزدق فهجاه جرير . وأجاد المديح والهجاء ولكن ما عدا قصيدة طويلة يمدح بها عبد الملك بن مروان

(١) كتاب مشارف الأفاويز في محاسن الأراجيز بمنية R. Geyer عدد ٢٣، بيت ٧٩ - ٨٥ من طبعة ليسك ١٩٠٨ .

(٢) في باب محاسن الزهد ص ١٨٣ من طبعة ليدن ١٨٩٨ .

(٣) راجع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٣٨ - ٣٤٠ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٢١ من طبعة بولاق .

($\frac{٦٥}{٦٨٥} - \frac{٨٦}{٧٠٥}$) ^(١) ما وصل إلينا من شعره إلا قليل متفرق في كتاب الأغاني وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي وحماسة أبي تمام وحماسة البُحْتَرِيِّ وغيرها ^(٢). ومن المشهور أن غير بيت له سرقة لجودته بعض الشعراء لا سيما الطرمّاح ^(٣).

ومن معاصري الفرزدق وجريز أيضاً مرة بن مَحْكَن السَّعْدِي سَيِّد بني رُبَيْع قتله صاحب شرط مُضْعَب بن الزُّبَيْر، افتخر في أشعاره بالتضييف والجود فمن قوله ^(٤):

أَلَا فَاسْقِيَانِي قَبْلَ أَغْبَرَ مُظْلَمٍ بَعِيدٍ عَنِ الْأَحْبَابِ مَنْ هُوَ نَازِلُهُ
رَأَيْتُ الْفَتَى يَبْلَى وَيَتَلَفُ مَالَهُ وَتَنَكِّحُ أَزْوَاجاً سِوَاهُ حَلَالَتُهُ
ذَرِينِي أَنْعَمَ فِي الْحَيَاةِ مَعِيشَتِي فَأَكُلُ مَالِي دُونَ مَنْ هُوَ آكِلُهُ

ومنهام العُدَيْل بن الفَرَخ العِجْلِيُّ الذي هجا الحجاج بن يوسف ففرّ خوفاً منه إلى بلاد الروم ثم طلب منه العفو بأبياته المشهورة ^(٥):

فَلَوْ كُنْتُ فِي سَلْمَى أَجَاً وَشِعَابَهَا لَكَانَ الْحَجَّاجُ عَلَيَّ دَلِيلُ

(١) القصيدة مروية في جبهة أشعار العرب ص ١٧٢ - ١٧٦ من طبعة بولاق وفي ذيل ديوان جرير ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٠٥ من طبعة مصر ١٣١٣ وروى صاحب خزانة الأدب (ج ١ ص ٥٠٢ - ٥٠٣ من طبعة بولاق) ٢٦ بيتاً لها وقال إنها من ٨٠ بيتاً - أما الأبيات المروية في الجبهة فهي ٨٥.

(٢) راجع حماسة أبي تمام ص ٦٦٠ - ٦٦٢ و ٦٦٣ - ٦٦٤ من طبعة بن أوج ٤ ص ٣٥ - ٣٧ و ٣٨ من طبعة بولاق.

(٣) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٤٦ - ٢٤٧ من طبعة ليدن.

(٤) حماسة البحتري ص ٣٤٤ من طبعة ليدن أو ص ٢٣٨ عدد ١٢٩٩ من طبعة بيروت. وأبيات مروية له في كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ٩ - ١١ وفي كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٣١ - ٤٣٢ من طبعة ليدن وحماسة أبي تمام ص ٦٨٧ من طبعة بن أوج ٤ ص ٥٩ - ٦٣ من طبعة بولاق [ومعجم الشعراء للمرزباني ص ٣٨٣ من طبعة مصر ١٣٥٤].

(٥) رويت له أبيات في كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٥ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٢ وحماسة أبي تمام ص ٣٤٧ - ٣٥١ من طبعة بن أوج ٢ ص ١٢٦ - ١٣٠ من طبعة بولاق والفرخ بفتح أوله وسكون الثاني راجع مقاله الأستاذ De Goeje في حاشية I من ص ٢٤٤ من كتاب الشعر والشعراء.

خَلِيلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيْفُهُ لِكُلِّ إِمَامٍ مُصْطَفًى وَخَلِيلُ
 بَنَى قَبَّةَ الْإِسْلَامِ حَتَّى كَانَمَا هَدَى النَّاسَ مِنْ بَعْدِ الضَّلَالِ رَسُولُ
 وَمِنْهُمْ الْعُجَيْرُ السُّلُورِيُّ الَّذِي مَدَحَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ وَاعْلَاهُ أَدْرَكَ خِلاَفَةَ
 هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ (١٠٥ - ١٢٥) وَكَانَ مِنَ الْمَشْهُورِينَ بِالْإِشْرَافِ (١). -
 وَمِنْهُمْ عَقِيلُ بْنُ عُثْفَةَ الْمُرِّي (٢) مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ فَكَانَتْ قَرِيْشُ تَرْغَبُ
 فِي مَصَاهِرَتِهِ فَتَزَوَّجَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنَتَهُ الْجَرْبَاءَ. - وَمِنْهُمْ الْبَعِيثُ
 الْمَجَاشَعِيُّ الَّذِي كَانَ خَصَمًا مِنْ خُصُومِ جَرِيرٍ وَخَطِيبًا بَلِيغًا (٣). - وَمِنْهُمْ
 الصَّلْتَانُ الْعَبْدِيُّ (٤) وَاسْمُهُ قُثْمُ بْنُ خُبَيْثَةَ الَّذِي اجْتَمَعَ إِلَيْهِ فِي الْحَكْمِ بَيْنَ
 جَرِيرٍ وَالْفَرَزْدَقِ - وَمِنْهُمْ عُمَرُ بْنُ لَجَأَ (٥) وَهُوَ مِنْ خُصُومِ جَرِيرٍ أَيْضًا وَكَانَ
 رَاجِزًا مَقْصِدًا. - وَمِنْهُمْ يَغْلَى الْأَخْوَلُ بْنُ مُسْلِمِ الْبَشْكُرِيِّ الْأَزْدِيُّ الَّذِي

(١) كتاب الأغاني ج ١١ ص ١٥٢ - ١٥٩ وحماسة أبي تمام ص ٤١٦ - ٤١٧ و ٧٠٦ - ٧٠٧ من طبعة بن أو ج ٢ ص ١٩٣ - ١٩٤ و ج ٤ ص ٧٩ - ٨١ من طبعة بولاق والبيان للجاحظ ج ١ ص ٥٣ من طبعة ١٣١٣ [أوج ١ ص ١١٦ من طبعة ١٣٥١ وفي الحاشية أبيات أخرى للشاعر] أو أمالي القالي ج ١ ص ٢٧٨ من طبعة مصر ١٣٢٤ [أوج ١ ص ٢٧٥ من طبعة مصر ١٣٤٤ وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٣٤ - ١٣٥ من طبعة ليدن ١٩١٦].

(٢) كتاب الأغاني ج ١١ ص ٨٥ - ٩٣ من طبعة بولاق وحماسة أبي تمام ص ١٩٦ - ١٩٨ و ٤٤٥ - ٤٤٦ و ٥١٠ من طبعة بن أو ج ١ ص ٢٠٩ و ج ٣ ص ٢٣ - ٢٤ و ٨٦ من طبعة بولاق (وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٥ - ١٤٦ من طبعة ليدن).

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣١٢ - ٣١٣ من طبعة ليدن وأبيات مروية له في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٦٢ و ١٦٩ و ج ٦ ص ٥٧ و ١٣٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ فراجع كتاب البيان لنفس الجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣.

(٤) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣١٤ - ٣١٦ من طبعة ليدن وراجع كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ - ١٠٣ و ج ٢١ ص ٤١ ورويت أربعة أبيات من مراثيته للمغيرة المهلب في أمالي المرتضى (ج ٤ ص ١٠٧ - ١٠٨ في المجلس الثامن والستين) من طبعة مصر ١٢٢٥ (راجع J. KRENKOW, *The Elegy upon al-Mughirah ibn al-Muhallab* (Islamica, II, 1927, P. 344-354).

(٥) كتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٨ - ٤٢٩ من طبعة ليدن (وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٣١ - ١٣٢ من طبعة ليدن).

كانت عيشته تُشبه عيشة الشَّنْفَرَى وتَبَطَّ شَرًّا لَّأنَّه « كان لصاً فاتكاً خارباً وكان خليعاً يجمع صعاليك الأزد وخلعاءها فيغير بهم على أحياء العرب ويقطع الطريق على السابلة » فيروى له قصيدة قالها وهو محبوس بمكة في خلافة مروان بن الحكم (٦٨٣ - ٦٨٥) ^(١). - ومنهم عُؤَيْفُ القَوَافِي الفَزَارِيُّ من ساكني الكوفة وبيته من بيوتات العرب المقدمة، تعاطى الهجاء والمديح والرثاء في أيام عبد الملك بن مروان ومن تبعه من بني أمية حتى أدرك خلافة عمر بن عبد العزيز (٧١٧ - ٧٢٠) ^(٢).

إن سرّختم أنظاركم في كتاب حماسة البُحْتَرِيِّ عثرتُم على ثلاثة أبواب ^(٣) مترجمة بهذه التراجم: .الباب الحادي والسبعون والمائة فيما قيل في مَطل الديون وكسرها على الغرماء . الباب الثاني والسبعون والمائة فيما قيل في اليمين وامتناعهم منها بدءاً ليُغروا غرماءهم بذلك ثم مسامحتهم بها وتسهيلها عليهم عند المطالبة وتصميمهم عليها . الباب الثالث والسبعون والمائة فيما قيل فيمن تنجح باليمين وبذلها لغريمه من غير تمذع . - وأكثر الشعراء المروية أبياتهم في هذه الأبواب الثلاثة غير مذكورين في سائر المصادر ولكن يتضح من الإشارات الإسلامية الواردة في عدّة أشعار ومن ذكر الكوفة وقرس العراق

(١) كتاب الأغاني ج ١٩ ص ١١١ - ١١٢ .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ١٠٥ - ١١٨ وحماسة أبي تمام ص ١٢٧ - ١٢٨ و٢٦٣ و٦٧٢ من طبعة بن أويج ١ ص ١٣٩ - ١٤٠ ج ٢ ص ٤٤ ج ٤ ص ٤٨ من طبعة بولاق وحماسة البحتري ص ٢٦ و ١٦٠ و ٣٧٨ من طبعة ليدن أو ص ١٤ و ١٠٨ و ٢٦٣ (عدد ٢٨ و ٥٠٠ و ١٤١٥) من طبعة بيروت (وكتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٨٨ من طبعة ١٣٥١) .

(٣) حماسة البحتري ص ٣٧٦ - ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦١ - ٢٦٨ عدد ١٤١٠ -

١٤٣٤ من طبعة بيروت فراجع (Bulletin de LAMMNS, La république marchande de la Mecque (Lammens, La Mecque à la veille de l'Institut d'Egypte, V série t. IV, 1911, P. 38-40). [Lammens, La Mecque à la veille de l'hégire, Beyrouth 1924, P. 145 sgg.]

ومن الأسماء الإسلامية أنهم كانوا بعد ظهور الإسلام وأنَّ قسماً منهم أدرك
أواخر القرن الأول أو تجاوزها وعلى كلِّ حال هم بأسرهم من أهل البادية
فيليق بهم جعلهم في هذا الصنف الثالث من الشعر . وأبياتهم حريّة بالاعتبار
لما فيها من الدلالة على بعض الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في جزيرة
العرب وما يليها من العراق في القرن الأول . « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا
الرُّبُوبَ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً »^(١) : هذا هو الحكم الصالح الكريم الوارد في القرآن
الشريف . ولكن أولئك التجار من أهل الحضر الذين اعتادوا الرِّبح العظيم بقرض
المال في زمان الجاهليّة لم يرضَوْا بالامتناع عمّا كان يعود عليهم بالفائدة
الماليّة العظمى فأتَوْا بالحيل للحصول على ما قد حرّمه دين الإسلام فعند
البيع لا سيما بالدين صاروا يَغشّون أهل البادية مراراً لما وجدوا فيهم من
الاحتياج إلى المال ومن السذاجة والجهل . وبما أنَّ الخداع كثيراً ما يدعو
الخداع صار أهل البدو يُبغضونهم ويحاولونهم ويردُّون الغش بالغش
مفتخرين بعملهم هذا لا سيما إن كان ربُّ المال من غير أولاد العرب .
وكلُّ ذلك موصوف في الأشعار المشار إليها بصفة أن يجعلوا التجار المختدعين
هَدَفاً لَصَحِكَ السامعين^(٢) .

٤- فلننخض الآن في الكلام الموجز على الشعر من الصنف الرابع في أيام
الدولة الأمويّة أعني الأراجيز . إنَّ هذا النوع من الشعر لا يختلف عن شعر
الصنف الثالث من حيث اللغة والموضوع والمعاني والمبدأ والخروج والاستطراد
والنهاية فإنما الفرق بينهما في القالب الذي صيغاً فيه وهو بحر الرجز المشطور

(١) القرآن ٣ (آل عمران) : ١٣٠ .

(٢) ومن ألفت هذه الأشعار ما قاله رديني بن عيسى الفقمي مرتجياً ، فراجع حماسة البحري

ص ٣٨٦ - ٣٨٧ من طبعة لندن أوص ٢٦٨ عدد ١٤٣٤ من طبعة بيروت .

لأشعار الصنف الرابع وسائر الأبحر لأشعار الصنف الثالث . فلكم أن تعترضوا على سائلين أهذا الفرق المحدود في جنس العروض يستلزم إثبات صنفين على اتّفاقهما في أغلب الأمور . فأقول إنّ الذي حملني على مثل هذا التمييز ثلاثة أشياء : ١ إن أراجيز هذا الصنف الرابع نوع خاصّ لم يسبق إليه شعراء الجاهليّة ولا استعمله شعراء الدولة العبّاسيّة . ٢ إنّ أكثر الذين تعاطوا الأراجيز انفردوا بها عن سائر أنواع الشعر . ٣ إنّ اتّخاذ الرجز أثر في صناعة الشاعر وأوجب فيها أساليب خاصّة لا يُوجبها أحد الأعاريف الباقية المشتمل كلّ بيت منها على مصراعين .

لا يخفى أنّ أغلب علماء صناعة الشعر ميزوا الرجز والشعر (أو القريض) تمييزاً تاماً وذلك ابتداءً من لغويّ القرن الثاني مثل أبي عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ وتلامذته حسبما يتّضح من عدّة نصوص قديمة^(١) . ففي كتاب النوادر المشهور فرّق دائماً أبو زيد الأنصاريّ المتوفى سنة ٢١٤ أو ٢١٥ أو ٢١٦ ما بين باب شعر وباب رجز . ثمّ لا أحد يجهل أنّ نوابغ الشعراء في زمان الجاهليّة قلما استعملوا الرجز كأنّه ليس أهلاً لمنزاتهم ففي ديوان امرئ القيس لا نعثر إلّا على أربع مقطّعات صغيرة منه أعنى اثنتين من المشطور واثنين من غير المشطور^(٢) . وأكثر من امرئ القيس ارتجازاً لبيد ابن ربعة من الذين أدركوا الإسلام تُنسب إليه خمس عشرة مقطّعة في

(١) راجع النصوص المروية في J. GOLDZIER, *Abhandlungen zur arabischen Philologie*, I, p. 75 n. 2 وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ [أوج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١] وكتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٩ ولسان العرب ج ٧ ص ٢١٦ - ٢١٧ و ٢١٨ وكتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص ١٢١ - ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ فيز أيضاً الأغلب العجلى الرجز والقريض في بيت مروى في لسان العرب ٢ ٩ ص ٨٤ .

(٢) عدد ٤٤ و ٦ (رجز غير مشطور) و ٥٣ و ٥٤ (رجز مشطور) من طبعة بعناية Ahlwardt.

الرجز المشطور^(١) تدور على المفاخرة والحكمة والمعاتبة والمديح والرثاء وتشتمل إحداها وهي أطولها على ستة عشر بيتاً .

أما دواوين النابغة الذبياني^(٢) وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد^(٣) وعلقمة الفحل فلا شيء فيها من الرجز . وعلى كل حال لم يكن الارتجاز في زمان الجاهلية إلا بصفة قطع صغيرة يقولها الناس غالباً في الهجاء أو في الحرب وعند اللقاء . أما في القرن الأول للهجرة فأخذ بعض الشعراء من الفحول ينظمون الشعر في ذلك البحر المحتقر فلما هذا التغير أشار ابن رشيقي القيرواني في كتاب العمدة حين قال^(٤) : « قال أبو عبيدة إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاخر حتى كان العجاج أول من أطاله وقصده ونسب فيه وذكر الديار واستوقف الركاب عليها ووصف ما فيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة كما فعلت الشعراء بالقصيد ؛ فكان في الرجز كامرئ القيس في الشعراء . وقال غيره أول من طوّل الرجز الأغلب العجلى وهو قديم وزعم

(١) راجع *Die Gedichte des Lebîd ... aus dem Nachlasse von A. Huber herausgegeben von*

C. Brockelmann, Leiden 1891. عدد ٢٦ و ٣٠ و ٣١ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٤٥ ومقطعات عدد ١ و ١١ و ١٢ و ١٤ و ٢٣ و ٣١ و ٣٢ .

(٢) وفي كتاب الأغاني ج ٩ ص ١٧٦ من طبعة بولاق تنسب إلى النابغة خمسة أبيات في بحر الرجز المشطور قالها مرتجلاً مادحاً جود النعمان بن المنذر والأبيات أيضاً في عدد ١٠ من ذيل ديوان النابغة المطبوع في المجموعة المسماة *The Divans of the six ancient Arabic poets* بعناية Ahlwardt فراجع R. GEYER, *Beiträge zum Divân des Ru'bah* Wien 1910, P. 2 فقال المستشرق Geyer إن موضوع هذه الأبيات يشابه موضوع القصائد .

(٣) أما طرفة فتنسب إليه أيضاً أبيات في بحر الرجز المشطور قالها وهو صبي ولعله استشهد بها فقط وتنسب هذه الأبيات إلى غيره (إلى كليب أخى مهلهل مثلاً) فراجع شعراء النصرانية ص ٢٩٨ وعدد ١١ من ذيل ديوان طرفة في المجموعة المذكورة في الحاشية السابقة .

(٤) كتاب العمدة ج ١ ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٢٥ وهذا القول كله مروي في المزهري للسيوطي

نوع ٤٩ ج ٢ ص ٣٠١ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

الْجُمَحَى^(١) وغيره أنه أول من رجز ولا أظن ذلك صحيحاً لأنه إنما كان على عهد رسول الله (صلعم) ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك .

ولكن لا شك في وقوع سهو في آخر كلام ابن رشيقي لأنه من الواضح أن الْجُمَحَى إنما أراد بقوله استعمال بحر الرجز في نظم الشعر مثل القصائد فليس من الممكن أن رجلاً عالماً بتاريخ الشعر ودقائقه مثل الْجُمَحَى جهل ما هو متداول عند كل العلماء أن الرجز من أقدم فنون الشعر عند عرب الجاهلية . وقول الْجُمَحَى صواب تؤيده عدّة نصوص منها شهادة العجاج من أشهر شعراء الأراجيز الذي قال مفتخراً^(٢) :

وإن يكن أمسى شيباني قد حسر
وفترت مني البواني وفتر...
إنني أنا الأغلب أضحي قد نُشِر

يعني أنه أحيا طريقة شعر الأغلب . وهو الأغلب بن جشم العجليّ عاش في الجاهلية مدّة وأدرك الإسلام وأسلم وله شعر في سجاح لما تزوجت مُسَيْلِمَةَ الكذاب . قال صاحب كتاب الأغاني : « كان فيمن ترجمه إلى الكوفة مع سعد بن أبي وقاص فنزلها واستشهد في واقعة نهاوند^(٣) فقبّره هناك في قبور الشهداء ويقال إنه أول من رجز الأراجيز الطوال من العرب . . قال ابن حبيب^(٤) كانت العرب تقول الرجز في الحرب والجداد والمفاخرة وما جرى

(١) يعني محمد بن سلام الْجُمَحَى المتوفى سنة ٢٣٢ . (انظر كتاب طبقات الشعراء ص ١٤٨ من طبعة ليدن) .

(٢) انظر مجموع أشعار العرب : الجزء الثاني المشتمل على ديواني الأراجيز للعجاج والزفيان بعناية Ablwardt من طبعة برلين ١٩٠٣ ص ٧٦ عدد ١٥ من الأبيات المفردات ، فاليست الثاني مروي في لسان العرب ج ١٨ ص ١٠٤ والثالث مروي في كتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٦٤ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٩ من طبعة ليدن .

(٣) في سنة ٢١ هجرية فراجع J.WELLHAUSEN, *Prolegomena zur ältesten Geschichte des Islams* (Skizzen und Vorarbeiten, Band VI, Berlin 1899) P. 108 n. 2; L. CAETANI, *Annali dell' Islam*, IV, P. 474-505.

(٤) يعني أبا جعفر محمد بن حبيب الهاشمي المتوفى في ذى الحجة سنة ٢٤٥ .

هذا المجرى فتأتى منه بأبيات يسيرة فكان الأغلب أول من قصّد الرجز ثم سلك الناس بعده طريقته . وقال ابن قتيبة ^(١) : « وهو أول من شبه الرجز بالقصيد وأطاله » . وفي الحقيقة كلّ ما وصل إلينا من شعره وهو قليل جداً منظوم في الرجز . فالواضح أنّ الذى ابتدعه الأغلب الأرجوزة أعنى القصيدة المصوغة في بحر الرجز المشطور وهى غير الأرجاز القديم استعمالها عند العرب .

والمحتمل أنّ نوابغ الشعراء امتنعوا عن سلوك أسلوب الأغلب مدّة ولم يذهبوا إلى نظم الأراجيز إلّا في منتصف القرن الأوّل أو بعده بقليل فإلى ذلك الفتور في هذا النوع من النظم لمّح على المحتمل العبّاج في أبياته المذكورة آنفاً . وعلى كلّ حال ما عثرتُ على ذكر شعراء أراجيز سوى الأغلب والشماخ بن ضرار ^(٢) فيما قبل خلافة يزيد بن معاوية . أمّا بعد منتصف القرن الأوّل فكثيرون اتخذوا بحر الرجز لسبك القصائد مع قطع النظر عن

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٨٩ من طبعة ليدن - انظر أيضاً ما قيل فيه في كتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٦٤-١٦٧ وكتاب المعمرين للسجستاني ص ٩٨ عدد ١٠٧ من طبعة ليدن ١٨٩٩ وخزانة الأدب ج ١ ص ٣٣٢ - ٣٣٤ من طبعة بولاق وأسد الغابة لابن الأثير ج ١ ص ١٠٥ من طبعة مصر ١٢٨٠ وفحولة الشعراء للأصمعي (في مجلة *Zeitschrift der deutschen morgenländischen Gesellschaft* ج ٦٥ سنة ١٩١١) ص ٤٩٦-٤٩٧ .

(٢) وقال أيضاً قصائد غير مرتّجة . أما أراجيزه فهي مروية في ديوانه المطبوع في مصر سنة ١٣٢٧ وأيضاً في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٧ - ٢٨ و ١٧٨ - ١٧٩ من طبعة ليدن وفي مشارف الأقاويذ في محاسن الأراجيز (*Altarabische Diibani* بعناية R. Geyer) عدد ٤٧ و ٤٨ و ٥١ و ٥٢ من طبعة ليبسك ١٩٠٨ وقال الشماخ كلها إما هاجياً وإما مرتّجلاً في السفر فتضمن هذه الأخيرة كل الأشياء الموحودة في القسم الأول من القصائد كالنسب وذكر ما مضى من الزمان ووصف الناقة وذكر الرحلة والطرّد والافتخار - قال ابن قتيبة (ص ٢٧) إن الشماخ ارتجل مرة بالرجز ه ثم قطع به الروى وتعلد عليه فتركه وسمع بغيره على أثره فظن الأستاذ Geyer (P. 105-107) أن تلك الأبيات ليست من قصيدة وحيدة بل من قصيدتين ولذلك قسمها في عدد ٤٧ و ٤٨ . غير أننا نجد تغير الروى في رجز منسوب إلى بعض الأعراب في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١ - ١٥٢ .

الذين ارتجزوا قليلاً في الهجاء مثل الأخطل^(١) والفرزدق والبعيث^(٢) فهم أصحاب أرجاز لا أصحاب أرجيز . وبعض الذين اتبعوا مسلك الأغلب تعاطوا القصيدة والأرجوزة مع غلبة الأول على الثانية عندهم وهم جرير^(٣) وذو الرمة^(٤) وعمر بن لَجَأ^(٥) السابق ذكرهم . ومنهم أيضاً الشمرذل بن شريك اليربوعي^(٦) من معاصري الفرزدق كان ذا كَلَفٍ بالصيد فقال في الصقر والكلب والقنص أرجيز كثيرة . وبعض الشعراء غلب فيهم الأرجيز على القصائد ومنهم حميد بن مالك بن ربيع التميمي المعروف بحُميد الأرقط^(٧) معاصر الحجاج بن يوسف (المتوفى سنة ٩٥/٧١٤) ومنهم

(١) ديوان الأخطل ص ٣٠٧ - ٣١٠ و ٣١٠ و ٣١١ .

(٢) انظر كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٣ (وج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١) .

(٣) جمع R. Geyer ما اشتهر من رجز جرير في مشارف الأفاويز في محاسن الأرجيز (Altarabische Diamben) عدد ٢٥ - ٤٤ وكلها مقطعات أرجوزة كما قال Geyer ص ٣ - ٤ وراجع أيضاً كتاب أرجيز العرب ص ٥٥ - ٥٦ من طبعة مصر ١٣١٣ (وفيها مديح) .

(٤) جمع R. Geyer ما عثر عليه من رجز ذي الرمة في كتابه المذكور عدد ١٥ - ٢٤ فالأعداد ١٩ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ كلها أرجوزة كاملة أما غير هذه الأعداد فهي مقطعات وبعضها مروية في أرجيز العرب ص ٥ - ١٠ و ٣٩ - ٤٨ و ٦٢ - ٧٠ و ٩٧ - ٩٨ و ١٣٨ - ١٣٩ (أي خمسة أعداد) .

(٥) قال الجاحظ في كتاب الحيوان ج ٤ ص ٨ إنه « من جمع الرجز والقصيدة » وقال ابن رشيقي في كتاب العمد ج ١ ص ١٢٣ : « وكذلك عمر بن لجأ كان راجزاً ومقصداً » .

(٦) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١٢ ص ١١٧ - ١٢٣ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٤٣ من طبعة ليدن - وتروى له في الأغاني ج ١٢ ص ١٢٢ أرجوزة تشابه الطرديات وفي ص ١٢٢ - ١٢٣ أرجوزة يذكر فيها ذنباً « قد لازم مرعى غنم الشمرذل فلا يزال يفرس منها شاة بعد الشاة فرصده ليلة حتى جاء لعادته ثم رماه بسهم فقتله » .

(٧) انظر خزانة الأدب ج ٢ ص ٤٥٤ من طبعة بولاق وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ (أوج ٣ ص ٢٧٢ من ١٣٥١) وكتاب العمد لابن رشيقي ج ١ ص ١٢٣ من طبعة مصر ١٣٢٥ وفهولة الشعراء للأصمعي (في المجلة الألمانية المذكورة) ج ٦٥ ص ٤٩٩ - تروى له أرجيز في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٤٢ وحجاسة أبي تمام ص ٧٩٥ - ٧٩٦ من طبعة بن أوج ٤ ص ١٦١ - ١٦٢ من طبعة بولاق .

أبو النّجم العجّلي^(١) واسمه الفضل بن قدامة كان ينزل بسواد الكوفة ويُجيد القصيد والأرجوزة ويُراجز العجّاج وهو القائل في نفسه^(٢) :

إنّي وكلُّ شاعرٍ من البَشَرِ شَيْطَانُهُ أَنْتِ شَيْطَانِي ذَكَرَ
فَمَا رَأَى شَاعِرٌ إِلَّا أَسْتَتَرَ فِعْلَ نَجُومِ اللَّيْلِ عَابِنُ الْقَمَرِ

وعاش في أيام عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٨٦٠) وخلفائه وأدرك خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ١٢٥) واستعمل الرجز في المديح والهجاء ووصف الصيد والفُهود وغير ذلك فبعدُ من الشعراء النوابغ .

أما بعض الشعراء فتركوا سائر الأعاريض كلياً ولم يصوغوا القصيدة إلاّ بقلب الرجز . ولعلّ أول من فعل ذلك أبو الشعثاء عبد الله بن روبة بن لبيد من بني سعد تميم الشهير بالعجّاج الذي وُلد على المحتمل في أوائل خلافة عثمان بن عفّان (٦٤٤ - ٣٥) وأدرك خلافة سايان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩) (٧١٧ - ٩٩) . ومدار ديوانه على المديح والمفاخرة والافتخار بنفسه

(١) راجع كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨١ - ٣٨٦ من طبعة ليدن وغزاة الأدب ج ١ ص ٥٠ من طبعة بولاق وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٨ وج ٦ ص ٧٠ وكتاب الأغاني ج ٩ ص ٧٧ - ٨٣ وج ١٨ ص ١٤١ وفحولة الشعراء للأصمعي ص ٤٩٩ و ٥٠٣ . (وطبقات الشعراء لابن سلام الجهمي ص ١٤٨ و ١٤٩ - ١٥٠ من طبعة ليدن) . تروى بعض أراجيزه في شرح التبريزي على حماسة أبي تمام وفي كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١٣٥ و ١٣٦ وج ٣ ص ١٤٩ وج ٤ ص ٤ و ٩٠ و ١٠٢ الخ وج ٦ ص ٥٧ و ٥٨ و ٧٠ و ٧١ وفي شرح شواهد المفنى للسيوطي ص ١٨٥ - ١٨٦ من طبعة مصر ١٣٢٢ وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ٤٨ - ٤٩ من طبعة ١٣٠٥ .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٢ من طبعة ليدن وغزاة الأدب ج ١ ص ٥٠ من طبعة بولاق والبيت الأول مروي أيضاً في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ٧٠ .

(٣) قال الأصمعي (فحولة الشعراء في المحلة المذكورة ج ٦٥ ص ٤٩٩) إنه مولود قبل الإسلام .

(٤) لا نكاد نجد في تصانيف العرب أخبار حياة العجّاج وكل ما آتى به خنّه Ahlwardt في ص ١٣ - ١٧ من مقدمة كتابه الذي سيأتى ذكره وجمع Ahlwardt نفسه أشعار العجّاج في الجزء الثاني من مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديواني الأراجيز للعجّاج والزفيان (Sammlungen alterarabischer Dichter, II) =

مع ما يتعلّق بذلك على عادة القدماء من النسب وذكر مخاوف الفياض ومشاق قطع المهامه ووصف المعشوقة الجميلة والناقة والحمار الوحشي والليل العتم الهائل ولذة الشباب وما أشبه ذلك . ورُبَّ نسيب له في شكايه الغواني ذوات الدلال قليلات الوفاء مائلاتٍ عمّن شاب رأسه مثل بعض النسيب الوارد في قصائد الأنخل وغيره من معاصريه فمن هذا القبيل أكثر أرجوزته التي مطلعها^(١) :

إِنَّ الْغَوَانِي قَدْ غَنِينَ عَنِّي وَقُلْنَ لِي عَلَيْكَ بِالتَّغْنِي
عَنَا فَقُلْتُ لِلْغَوَانِي إِنِّي عَلَى الْغِنَى وَأَنَا كَالْمُظَنَّ
لَمَّا لَبَسَنَ الْحَقَّ بِالتَّجَنِّي غَنِينَ وَأَسْتَبْدَلْنَ زَيْدًا وَنِي
غُرَانِقًا ذَا بَشَرٍ مُكْتَنٍ يَرْضَى وَيَرْضِيهِنَّ بِالتَّمَنِّي
إِذْ شَابَ رَأْسِي وَرَأَيْنَ أَنِّي حَتَّى قَنَاتِي الْكِبَرُ الْمُحَنِّي
وَالدَّهْرُ حَتَّى صِرْتُ مِثْلَ السَّنِّ أَطَرَ الثَّقَافِ خُرُصَ الْمُقَنِّي
وَصِرْتُ مِثْلَ الْبَازِلِ الْقِسُونِ وَقُلْنَ لِي أَفْنَاكَ طَوْلُ السَّنِّ
وَبُرْهَةٌ مِنْ دَهْرِكَ الْمُقَنِّي مَعَ الْهَوَى وَقَلَّةِ التَّوْنِي

ذكر أيضاً في أرجوزة الزمان الذي كان فيه مُتَرْفِئاً بالديار ويشرب الخمر

طول الليل بعد غروب الشمس فقال^(٢) :

كَأَنَّ ذَا فِدَامَةٍ مُنْطَفَا قَطَفَ مِنْ أَعْنَابِهِ مَا قَطَفَا

طبع ببرلين سنة ١٩٠٣ (وأشير إليه بديوان المعاج) وانظر أيضاً كتاب أراجيز العرب ص ١٠-٢١ و ٤٨-٥٤ و ٧١-٧٩ و ٨٥-٩٦ و ١٠٩-١١٣ و ١١٤-١٢١ و ١٥٧-١٥٨ و ١٧٤-١٨٤ و M. BITTNER, *Das erste Gedicht aus Diwān des arabischen Dichters al-'Aggāg*, و ١٨٤-١٧٤ و ١٨٤-١٧٤ (cf. NOELDEKE, ZDMG, 50, 1896, P. 523-528); R. GEYER, *Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter*. 3. al- 'Ajjāj und al-Zafayān (*Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes*, 23, 1909, 74-101).

ومقطعات له مروية في مشارف الأقاوي (GEYER, *Altarabische Diamben*) عدد ٢ - ١ .

(١) ديوان المعاج عدد ٣٩ بيت ١ - ١٥ وانظر أيضاً عدد ١٠ .

(٢) ديوان المعاج عدد ٣٥ من الأبيات المفردات بيت ١٥ - ٢٢ وأراجيز العرب ص ٤٩ - ٥٠ من طبعة مصر ١٣١٣ وبعض هذه الأبيات مروية في كتاب الغفران لأبي العلاء المعري ص ١١ من طبعة مصر ١٣٢١ - ١٣٢٥ .

فَشَنُّ فِي الْإِبْرِيْقِ مِنْهَا نَزْفًا مِنْ رَصْفٍ نَزَعَ سَيْلًا رَصَفًا
حَتَّى تَنَاهَى فِي صَهَارِيْجِ الصَّفَا فَغَمُّهَا حَوْلَيْنِ ثُمَّ اسْتَوَدَفَا
صَهْبَاءَ خُرْطُومًا عُقَارًا قَرَقَفَا خَالَطَ مِنْ سَلْمَى خِيَاشِيمَ وَفَا

وله أيضاً أرجوزة تبتدى بعبارات دينية ثم تخرج إلى ذكر متاعب
الشاعر ويأسه من العمر الطويل ومنها (١) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اسْتَقَلَّتْ بِإِذْنِهِ السَّمَاءُ وَأَطْمَأَنَّتِ
بِإِذْنِهِ الْأَرْضُ وَمَا تَعَتَّتِ وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ
وَشَدَّهَا بِالرَّاسِيَاتِ الثُّبَّتِ رَبُّ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ الْقُنْتُ
وَالْجَاعِلُ الْغَيْثَ غِيَاثَ الْمُسْنِنِ وَالْجَامِعُ النَّاسَ لِيَوْمِ الْمَوْقِتِ
بَعْدَ الْمَمَاتِ وَهُوَ مُخَيِّ الْمَوْتِ يَوْمَ تَرَى النُّفُوسَ مَا أَعَدَّتِ
مِنْ نُزُلٍ إِذَا الْأُمُورُ غَبَّتِ مِنْ سَعْيِ دُنْيَا طَالَ مَا قَدْ مُدَّتِ
حَتَّى أَنْقَضَى قَضَاؤَهَا فَآدَّتِ إِلَى الْإِلَهِ خَلْقَهُ إِذْ طَمَّتِ

وفي أرجوزة ثانية (٢) أيضاً مطلع ديني صاغه العجاج ليخرج بعده إلى
مدح عمر بن عبيد الله بن معمر الذي قاتل الحروريين وانتصر عليهم وقتل
رئيسهم أبا فديك سنة ٧٣/٩٣ . ولكن في سائر أراجيزه إنما اقتدى بالأفكار
والمعاني المتعارفة عند شعراء الجاهلية من أهل البادية . ومن الغريب عدم الهجاء
فيما وصل إلينا من شعره مع أنه يفتخر بحد لسانه الذي أسكت به أخصامه
وأفحهم (٣) :

لَمَنِّي إِذَا مَا عُصْبَةٌ أَنْتَابُهَا ظَالِمَةٌ قَدْ سَرَّنِي سِبَابُهَا

(١) ديوان العجاج عدد ٣ بيت ١ - ١٣ وكتاب خزنة الأدب ج ٣ ص ٥٠٩ .

(٢) ديوان العجاج عدد ١١ بيت ١ - ١٦ .

(٣) ديوان العجاج عدد ٢ بيت ١٥ - ٢١ .

أَصْدُقُهَا الشُّتْمَ وَلَا أَهَابُهَا حَتَّى تُرَى جَا حِرَةً كِلَابُهَا
إِذَا الْقَوَافِي حُسِرَتْ أَثْوَابُهَا وَجَدَتْهَا مَفْتَحاً أَبْوَابُهَا
مُقْبِلَةً بِسَيْلِهَا شِعَابُهَا

فقال ابن قتيبة ^(١) : « قيل للعجاج إنك لا تُحسِن الهجاء فقال إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نَظْلِمَ وأحساباً تمنعنا من أن نُظْلَمَ وهل رأيت بانياً لا يُحسِن أن يهدم » . - والرثاء أيضاً لا أثر له في ديوانه كأنه عسر عليه فاستنكف منه . - وبعض أراجيز العجاج طويلة جداً تُذكر إحداهما ^(٢) عدد مائتي بيت وتشتمل أخرى ^(٣) على ٢٢٩ بيتاً، والعجاج متين العبارة جيّد الألفاظ. كثير التصرف في الوصف وإن كانت الأشياء الموصوفة ممّا كثر ذكره عند الشعراء المتقدمين . أمّا عيوب شعره فنلمح إليها بعد الكلام على أراجيز ابنه روبة .

تقدّم أنّ الكتب العربيّة المعروفة الآن لا تُفيدنا أخبار حياة العجاج سوى النوادر التي لا طائلَ فيها فهذه أيضاً حالة روبة بن العجاج الذي وُصِفَت حياته في كتاب الأغاني بهذه الألفاظ. القليلة ^(٤) : « نزل البصرة وهو من مخضرمي الدولتين مدح بني أمية وبني العباس ومات في أيام المنصور » . ويُخبرنا صاحب الأغاني في موضع آخر ^(٥) عَرَضِيّاً بأنَّ روبة حجّ مع سليمان ابن عبد الملك وشعرائه منهم الفرزدق (وذلك سنة ٩٧/٧١٦) . وقال ابن خلكان ^(٦)

(١) كتاب الشعر والشعراء ص ٢٨ و ٣٧٥ من طبعة ليدن وكتاب الأمل للقالى ج ٢ ص ٤٩ من طبعة بولاق ١٣٢٤ [أوج ٢ ص ٤٧ من طبعة ١٣٤٤] .

(٢) عدد ٤٠ من ديوان العجاج . (٣) ديوان العجاج عدد ٨ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٤ .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٤ ص ٨٥ من طبعة بولاق وراجع أيضاً نقائص جرير والفرزدق ص ٣٨٣ - ٣٨٤ من طبعة ليدن .

(٦) وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٣٧ من طبعة غوتنجن أو عدد ٢٢٤ من الطبقات المصرية وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٧٦ - ٣٨٠ من طبعة ليدن .

إنَّ رُؤبة توفي سنة $\frac{145}{762}$ وهو مُسِنَّ . هذا جميع ما يُستخرج من الكتب الواصلة إلينا مع أنَّ كتاب الفهرست ^(١) يفيدنا أنَّ حمَّاد بن إسحاق بن إبراهيم من علماء القرن الثالث قد ألَّف كتاب أخبار رُؤبة . ولكن من اطلع على ديوان أراجيزه ^(٢) التقط منه فوائد شتى يتوصَّل بها إلى معرفة حقيقة حال الشاعر ^(٣) . فيتضح من نظمه أنَّه كان مدَّة من أهل الوبر مثل أبيه العجَّاج وأخذ يَجُول في البلاد ويسافر إلى النواحي القاصية حتَّى قصد أكابر الناس والأمراء في خراسان وكرمان ليمدحهم بأراجيزه فينال منهم الجوائز لأنَّ الشعر كان له ولعياله الكثير مَكْسَبًا . فلمَّا انكدرت أحوال المملكة بسبب الفتن التالية لانتهاة دولة بني أمية $\frac{132}{750}$ فكسدت أسواق الشعر في جملة من الأنحاء اختار الإقامة بالبصرة ليسهل عليه (وهو كبير السن) الوفد على أهل العقد والحلِّ ونيل ما كان يرجو منهم من المال .

ويذكر أحياناً ما قد مرَّ عليه من الزمان السعيد والترف ^(٤) :

فقد أَرَانِي أَرْحَلُ المَرَاكِلاَ في الوفدِ أو ذا حاجةٍ مُنَاضِلًا
أو زِيرَ بِيضٍ تَرُفُّلُ المَرَاكِلاَ أَمَضُّعُ مِسْوَاكي وَأَغْدُو هَامِلًا
مُخْتَبِطًا وَلَا عِبًا مُهَازِلًا وَأَتَقِي الفَحْشَاءَ والنَّاطِلًا

(١) كتاب الفهرست ص ١٤٣ سطر ٢ من طبعة ليسك ١٨٧١ - ١٨٧٢ .

(٢) الجزء الثالث من مجموع أشعار العرب وهو مشتمل على ديوان رُؤبة بن العجَّاج طبع ببرلين سنة ١٩٠٣ بعناية Ahlwardt (*sammlungen alter arabischer Dichter*) (وأرْمز إليه بديوان رُؤبة) وأراجيز العرب ص ٢٢ - ٣٨ و ٥٦ - ٦٢ و ٧٩ - ٨٥ و ٩٨ - ١٠٩ و ١٢٢ - ١٣٤ و ١٣٨ - ١٣٩ و ١٥٥ - ١٥٩ و ١٧٢ - ١٨٥ و ١٨٨ - ١٨٩ ومقطعات له مروية في مشارف الأقاويذ في محاسن الأراجيز (*Altarabische Diamben*) عدد ٣ - ١٤ (٩٦٩ بيتا) وراجع أيضاً *R. GEYER, Beiträge zum Dialect des Ru'bah. (Sitzungsberichte der Akademie der Wissenschaften, philos. hist. Klasse, 163 Band, 3. Abh. 1910) وفيه ٥٨ أرجوزة .*

(٣) راجع مقدمة ديوان رُؤبة ص ٢٣ - ٢٢ .

(٤) ديوان رُؤبة عدد ٤٥ بيت ٩٧ - ١٠٢ .

ويشكو ثِقْلَ قَتَبِ الدِّينِ وَلَوْمْ زَوَّجَتْهُ لَذَلِكَ (١) :

وَحَمَلَ الدِّينُ عَلَى الْبَرْكَاءِ وَجَرَ أَرْحَاءَ دَهْكَنٍ دَهْكَاءَ
أَهْلَكَنِي أَلَّا يَزَالَ يَلْكَأَ صَاحِبُ دَيْنٍ لَا يَنْفِي مَحْكَاءَ
أَعْرُكُهُ عَنِّي فَيَأْتِي الْعَرْكَاءَ سَوَّقَ الْأَجِيرِ الْمُتَعَبِ الْأَفْكَاءَ

وَلِنَّمَا يَلْعَقُ الرَّجَاءُ بَيْنَ اشْتَهَرِ نَدَى يَدَيْهِ فَلِإِيهِ يَلْتَجِي الشَّاعِرُ (٢) :

وَيَعْتَرِي مَنْ يَطْلُبُ الْوَسَائِلَ وَجَهَ الْكَرِيمِ وَالْجَوَادِ الْبَاذِلِ
وَيُبْغِضُونَ الصُّمَعْرَى الْبَاخِلِ فَقُلْتُ إِذْ عَالَجْتُ دِينًا شَاغِلِ
لَا بُدَّ مِنْ قَوْلِي وَكُنْتُ قَائِلًا يَمُمُ سُلَيْمَانَ تَجِدُهُ وَاصِلًا
أَعَانَ مِنْهُ حَسْبًا وَنَائِلًا مُحْتَسِبَ الْأَجْرِ كَرِيمًا فَاعِلًا

فكَثِيرًا مَا يَشْكُو إِلَى الْأَكَابِرِ مَصَائِبَ الدَّهْرِ وَشِدَّةَ الْفَقْرِ (٣) :

إِلَيْكَ أَشْكُو عَضَّ دَهْرٍ مَكْسِرٍ أَبْقَى خُدُودًا كَالْحَرِيقِ الْمِشْرِ
أَرْسَلَ فَاسْتَمَدَى بِأَمْرِ مُنْكَرٍ يَلْهَى وَحْشَرًا قَبْلَ يَوْمِ الْمَحْشَرِ
طَرَحَ مِنْ تَفْرِيقِهِ الْمُبْتَلَى مَوْتِي وَأَحْيَاءَ بَشَرٍ مُوقَرٍ
يَشْكُونَ فَقْرًا لَيْسَ بِالتَّفَقُّرِ

فِيَطْلُبُ مِنَ الْكِرْمَاءِ الْهَدَايَا الْجَزِيلَةَ فَقَالَ مَثَلًا فِي أَرْجُوزَةٍ مَدَحَ بِهَا نَصْرَ
ابْنِ سَيَّارٍ إِلَى خُرَاسَانَ وَالسُّغْدِ (٤) :

يَا نَصْرُ أَذْرِكْنِي بَغِيثٍ يُجْدِي يَرْحُضُ آثَارَ السَّنِينِ الْجُرْدِ

(١) ديوان رؤبة عدد ٤٤ بيت ٢٣ - ٢٨ .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٤٥ بيت ١٠٥ - ١١٢ . وسليمان بن علي هو عم الخليفة السفاح .

(٣) ديوان رؤبة عدد ٢٢ بيت ٢٢٤ - ٢٣٠ - خدود جمع خد وهو الحفرة المستطيلة
في الأرض فيراجع بيتا رؤبة في ديوانه عدد ٤١ بيت ٨٧ - ٨٨ أو أراجيز العرب ص ١٠٤
يقول الشاعر لهما إن الناقة :

أَبَقَّتْ أَخَادِيدَ وَأَبَقَّتْ حَلَقًا بِصُحُصْحَانِ مُطَرِّقٍ وَفَلَقًا

(٤) ديوان رؤبة عدد ١٩ بيت ٦ - ١٠ ويشير فيها إلى أهله الذين يترقبون الطعام .

إِنْ بَلَّ أَرْضِي لَمْ يُصِيبْنِي وَخَدَى قَدْ كُنْتُ فِي الْوَعْدِ وَعِنْدَ الْعَهْدِ
والخير يَأْتِي مِنْكَ قَبْلَ الْكَدِّ

ثم قال^(١) :

وَمَا تَزَالُ مِدْحِي مِنْ نَجْدٍ تَأْتِيكَ فَأَذْكُرُ صَلَاتِي وَرَفْدِي
عِنْدَكَ خَيْرٌ يُبْتَنَى وَعِنْدِي أَبْقَى وَأَمْضَى مِنْ سَيْفِ الْهِنْدِ
أَدْرَكْتُ مَنْ قَبْلِي فَمَنْ ذَا بَعْدِي يَنْسُجُ نَسْجِي أَوْ يَقْدُ قَدِّي

فلا عجب أن يكون معظم ديوانه في مديح الخلفاء والأمراء والأكابر الموصوفين بالجود إلا أن المدح الحقيقي في أراجيزه قصير جداً مشتمل على أبيات قليلة لأن باقي الأرجوزة جارية مجرى كل القصائد القديمة دائرة على ذكر الدّمّن ومخاوف السفر والنسيب ووصف البراري والسراب والمناهل والقوس والسهام والصيد والناقة وهلمّ جرّاً فضلاً عن الحماسة والافتخار بقومه وبنفسه. ومن مدائحه أرجوزة محتوية على ٢٧٢ بيتاً أنشدتها بحضرة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية (١٣٧ - ١٣٢) ومبدؤها^(٢) :

أَرْقَى طَارِقٌ هَمٌّ أَرْقَا وَرَكَّضَ غَرِبَانٍ غَدَوْنَ نَعَقَا

ومدارها هذا : يبتدىء رؤية بذكر رسوم الأطلال في موضع سكنته زوجته أَرْوَى في الزمان الماضي وهو في رَيْعَانِ الشَّبَابِ ثم يشكو إلامَ الشيب برأسه ويتصرف في وصف فيافي متسع طامسة الأعلام هائلة قطعنها العيساء في لُجِّ الليل وهو راكبها كأنه راكب زَوْزَقاً أو نَعَامَةً أو حِمَاراً وحشياً. وبعد ذلك يذكر تشبيهه بنساء قومه غاية الجمال ويفخر بحماسة قبيلته وعلى

(١) ديوان رؤية عدد ١٩ بيت ٣٧ - ٤٢ .

(٢) ديوان رؤية عدد ٤١ وأراجيز العرب ص ٩٨ - ١٠٩ وفي هذا الكتاب ١٨٣ بيتاً فقط .

وجه الاستطراد ينظم ٤٠ بيتاً في تفصيل شعره على أقوال خصوه من الشعراء فينتهى إلى نحو ثلاثة أرباع من الأرجوزة قبل أن يخرج إلى ذكر الخليفة^(١) وظفره على أصحاب الفتن في الشام والعراق بعون الله فيلقن الثائرين ويثنى على جود مروان . ثم يرجع إلى الافتخار بقبيلته تميم ويهدد ربيعة لميلها إلى الدعوة العباسية التي عنده كُفّر فيختم الشعر بتصريح صدق وفائه وإخلاصه لمروان .

ولكن لم يمنعه هذه الأرجوزة عن إطراء بني العباس لما تولّوا الخلافة وتألّف أرجوزة تحتوى على ٤٠٠ بيت^(٢) في مدح السفّاح ختمها بطلب الهدايا بل في أرجوزة أخرى مدح بها الخليفة المنصور $(\frac{136}{704} - \frac{158}{770})$ لم يستح من أن يسب الدولة الأموية^(٣) التي قد أثنى عليها في أيامها السعيدة^(٤) :

فترَكُوا مستسلمين جُنْحًا وَحَوْتَكَاةٍ وَنِسَاءَ نُوحَا
وَمُهْلَكِينَ فِي الْجَحِيمِ كُلَّحَا وَعَادَ مُلْكُ اللَّهِ مُلْكًا مُرْدَحَا

واحتذى روبة مثال أبيه العجاج في إغفال تعاطى الرثاء والهجاء فقال^(٥) :

إِنِّي أَمْرٌ لِلنَّاسِ غَيْرُ سَبَابٍ لِلْقُرْبِ الْأَذَى وَلَا لِلْأَجْنَابِ
اجْتَنِبُ الْعَيْبَ اتَّقِ الْأَعْيَابِ وَالْقَوْلُ يُلْقَى بَعْضُهُ فِي الْأَتَابِ
مَاضِيهِ أَمْضَى مِنْ حِدَادِ النَّشَابِ وَالْقَوْلُ يَنْمِي بَعْدَ غِبِّ الْإِغْيَابِ

ومما يستحق الذكر قوله في القدر يّين في أرجوزة مدح بها مسلمة بن عبد الملك بن مروان (المتوفى سنة $\frac{120}{737}$ أو $\frac{121}{739}$) بعد أن أخمد نيران الفتنة

(١) ديوان روبة عدد ٥٥ وأراجيز العرب ص ١٣٩ - ١٥٥ .

(٢) ديوان روبة عدد ١٤ بيت ٣٧ - ٤٩ .

(٣) ديوان روبة عدد ١٤ بيت ٤٧ - ٥٠ .

(٤) ديوان روبة عدد ٢ بيت ٢٩ - ٣٤ وأراجيز العرب ص ١٦٠ - ١٦١ .

نحو سنة ١٠٢ و قتل يزيد بن المهلب من رؤساء الثائرين . فقال^(١) :

فلقتُ والمُملي حفيظُ الكتابِ والقَدريونُ بقولِ مُرتابِ
والقَدريونُ بحبلِ جَذابِ بقَدْرِ في حَلَقَاتِ الأسبابِ
يَنزِعُهُمْ مِنْ شَاهِدٍ وَغِيَابِ جَذَبَ الْمُعْلِينَ دِلَاءَ الْأَكْرَابِ
سَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ عِنْدَ الْمِيجَابِ دَعَهُمْ سَيَلَقَرُونَ أَعَدَّ الْحُسَابِ
وَالْأَمْرُ يُقْضَى فِي الشَّقَا لِلْخِيَابِ

ولرؤية حِكَمٍ جميلة نسجها في أرجوزة لها ٣٧ بيتاً في معاتبة ابنه
عبد الله^(٢) منها :

وَأَصْدُقْ إِذَا قُلْتَ قَوْلًا وَأَقْصِدْ فليسَ مَنْ جَارَ كَهَادٍ يَهْتَدِي
إِنَّ السَّعِيدَ عَامِلٌ لِلْإِسْعَدِ والرُّشْدُ فَاغْلَمُهُ طَرِيقُ الْأَرْشَدِ
وَزَادُ تَقْوَى أَفْضَلُ التَّزَوُّدِ

وحِكَمٌ أخرى كثيرة وردت متفرقة في أراجيزه . ثم من الجدير بالذكر
ورود عبارات في شعره تدلُّ على ابتداء رواج الأقوال بعلم أحكام النجوم عند
العرب في أوائل عهد الدولة العباسية^(٣) فقال ملمحاً إلى انقراض الأمويين^(٤) :

مروانُ لما أن تهاوتْ أنجُمُهُ وخانهُ في حُكْمِهِ مُنْجُمُهُ
كانَ رؤْبُهُ يَقْدِرُ شعره قدراً عظيماً فلو أردنا جمعَ كلِّ ما قاله مدحاً

(١) ديوان رؤبة عدد ٢ بيت ٤٣ - ٥٠ وهذه الأبيات غير موجودة في كتاب أراجيز العرب .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٢٠ بيت ٣٠ - ٣٤ ونقل Ahlwardt كل هذه الأرجوزة إلى اللغة الألمانية في ص ٣١ - ٣٢ من مقدمته .

(٣) قال رؤبة (الديوان عدد ٥٥ بيت ٨٢ أو أراجيز العرب ص ١٤٥) إن السفاح

« فاز بنجم سَعْدِهِ مُنْجُمُهُ » (وفي الديوان « بنجمي ») .

(٤) ديوان رؤبة عدد ٩٢ من الأبيات المفردات بيت ١٧ - ١٨ وكتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٦ .

لصنعته في أراجيزه لا ضطرنا إلى إيراد أكثر من مائة بيت . فهاكم بعض الأمثلة من ذلك^(١) :

قلتُ والأقوالُ ممّا يَنْبَرِي ما أنا بالفاني ولا الْمُغْمَرُ
أَنْسِجَ نَسِجَ الصَّنَعِ الْمُحْبَرِ كَيْفَ تَرَانِي أَنْتَحَى فِي الدَّفْتَرِ
على قضيبِ الداهياتِ الشُّبْرِ لا ينظرُ النحوى فيها نظري
وإن لوى لَحْيَيْهِ بالتحكُّرِ وهو دَهِيُّ الْعِلْمِ والتَّعْبَرِ
حتى استقامتْ بي على التيسرِ

وهذه أبيات من أرجوزة مدح بها القاسم بن محمد الثَّقَفِي الذي توفي سنة ٩٥ وهي مهمة لما فيها من أقدم التعريض في الشعر بعلم النحو . - ومما قال في مدح أبياته^(٢) :

قلتُ ولا يبلُغُ وَصْنِي واصفُ لَأَمْدَحَنَّ والعُروفُ عارفُ
بمستجداتِ لها طرائفُ لها سيرُ ولها مواقفُ
أَسَّسَهَا صَنَعُ بَهْنٍ قائفُ

وقال أيضاً^(٣) :

ما كان تَحْبِيرُ اليأني البرادُ يرجو وإن داخلَ كلُّ وصادُ
نَسْجِي ونَسْجِي مُجْرَهْدُ الجُدادُ

إن من تأمل أشعار العجاج ورؤية تعجب من جودة صناعتها ومهارتهما في صوغ الأراجيز الطولى على روى صعب سالمة من الإقواء والإكفاء والإيطاء . فقد لاحظ. مثلاً يونس بن حبيب^(٤) أن العجاج قال أرجوزته التي مطلعها

(١) ديوان رؤبة عدد ٢٢ بيت ١٣٤ - ١٤٢ .

(٢) ديوان رؤبة عدد ٣٩ بيت ١٦ - ٢٠ .

(٣) ديوان رؤبة عدد ١٦ بيت ٢٥ - ٢٨ .

(٤) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٨٩ .

«قد جَبَرَ الدِّينَ الإِلَهُ فَجَبَرُ» وهي ٢٢٩ بيتاً موقوفة القوافي ولو أُطْلِقَتْ قوافيها كانت كلها منصوبةً وكذلك عامة أراجيزهما . ولهما التوسع العجيب في اللغة لا سيما لرؤية ، فأصاب من قال فيه إنه كان بصيراً باللغة قيماً بحوشيَّتها وغريبها^(١) . فلكثرة الألفاظ الغريبة الموجودة في أبياتهما احتجَّت بها أهل اللغة كثيراً وإن كانوا أحياناً لا يفهمون معناها بالضبط . فغلطوا في تفسيرها . ومثال ذلك ما قالت علماء اللغة من العرب في أبيات رؤية^(٢) :

لَمَّا أَزْدَرَتْ نَقْدِي وَقُلْتُ لِإِنِّي تَأَلَّقَتْ وَأَتَّصَلَتْ بِعُكْلٍ
خِطْبِي وَهَزَّتْ رَأْسَهَا تَسْتَبِلِي تَسَالَتْنِي مِنَ السَّنِينَ كَمْ لِي
فَقُلْتُ لَوْ عُمِّرْتُ سِنَ الْجِشْلِ أَوْ عُمِرَ نُوْحٌ زَمَنَ الْفِطْحِ
وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطِينِ الْوَحْلِ صَرْتُ رَهِيْنًا هَرَمٍ أَوْ قَتْلٍ

قال الجاحظ . في كتاب الحيوان^(٣) : « وهذا الشعر يدلُّ على طول عمر الجِشْلِ لأنه لم يكن ليقول * أَوْ عُمِرَ نُوْحٌ زَمَنَ الْفِطْحِ * والصخر مبتلٌ

(١) كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٢٣٧ من طبعة غوتنجن أو عدد ٢٢٤ من الطبقات المصرية وكتاب شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص لعبد الرحيم بن عبد الرحمن ابن أحمد العباسي ص ٨ من طبعة مصر ١٢٨٤ .

(٢) ديوان رؤية عدد ٤٦ بيت ٩ - ١٦ (فراجع ما قاله فيها Ahlwardt في مقدمته ص ١٣ - ١٥) وكتاب أراجيز العرب ص ١٢٢ - ١٢٣ والأبيات مروية في لسان العرب ج ١٣ ص ٧٢ و ج ١٤ ص ٤٣ وتاج العروس ج ٨ ص ٦٤ وصحاح الجوهري ج ٢ ص ٢٢٧ من طبعة بولاق ١٢٨٢ (تنسب فيه إلى العجاج) ومجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ٦٢ - ٦٣ من طبعة مصر ١٣١٠ (في المثل : كان ذلك زمن الفطحل) والمزهر للسيوطي (في النوع الخمسين) ج ٢ ص ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ وبلوغ الأدب في أحوال العرب للألوسي ج ٣ ص ٢١٩ - ٢٢٠ من طبعة بغداد ١٣١٤ وحياة الحيوان للدميري ج ١ ص ٢٠٣ من طبعة مصر ١٣١١ والكامل للمبرد ص ٢٤٨ من طبعة ليبسك وثمار القلوب للشمالي ص ٥١٥ - ٥١٧ من طبعة مصر ١٣٢٦ وكتاب الحيوان للجاحظ في المواضع التي سيأتي ذكرها في الحواشي التالية .

(٣) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٥ - ٣٦ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ ولا يذكر اسم الشاعر (راجع أيضاً ج ٤ ص ٦٧ و ٨) .

كطين الوحل* إلا وعمر الحسل عنده أطول الأعمار . وروى ابن الأعرابي عن بعض الأعراب أن سنّ الضبّ واحدة أبداً وعلى حال واحدة أبداً فكأنه قال لا أفعلها ما دام سنّها كذلك لا تنقص ولا تزيد . وقال زيد بن كثريرة سنّ الحسل ثلاثة أعوام وزعم أن قوله مثلاً لا أفعله سنّ الحسل غلط . ولكن الضبّ طويل العمر إذا لم يعرض له أمرٌ وسنّ الحسل مثل سنّ القلوص ثلاث سنين حتى يلقح . ولو كانت سنّ الحسل على حالة واحدة لعرف الأعراب الفتي من الزكيّ وقد يكون الضبّ أعظم من الضبّ وليس بأكبر منه سنّاً . وقال الجاحظ في موضع آخر (١) :

« وقد يمكن أن يكون الحسل لا يبنى ولا يرفع فتكون أسنانه أبداً على أمر واحد ويكون قول العجاج (٢) في طول عمره حقاً ويدلّ على أن أسنانه على ما ذكروا قول الفراري :

وجدناكم راباً بنى أم فرقة كآسنان حسل لا وفاء ولا غدر

يقولون لا زيادة ولا نقصان . - وقال في موضع ثالث (٣) : « ومن أمثالهم لا آتيك سنّ الحسل وقال العجاج : ثُمّت (٤) لا آتيه سنّ الحسل . كأنه قال حتى يكون ما لا يكون لأنّ الحسل لا يستبدل بأسنانه أسناناً . وفي كتاب لسان العرب (٥) ما نصّه : « وقولهم في المثل لا آتيك سنّ الحسل أي أبداً لأنّ سنّها لا تسقط أبداً حتى تموت (٦) وأنشد ابن برّيّ ثُمّت لا

(١) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٣٦ - ٣٧ .

(٢) في الطبعة العجاج - ومن المحتمل أن الجاحظ ينسب إلى العجاج أبيات رؤبة التي ذكرناها آنفاً أو أنه يشير إلى بيت العجاج المروي في ج ٦ ص ٦٢ .

(٣) كتاب الحيوان ج ٦ ص ٤٢ . (٤) في الطبعة : ثمة .

(٥) لسان العرب ج ١٣ ص ٦١ من طبعة بولاق .

(٦) هكذا أيضاً في صحاح الجوهري ج ٢ ص ١٧١ من طبعة بولاق ١٢٨٢ .

أَرْسَلَهَا سِنَّ الْحِجْلِ . - وقال أحد الحديثين وهو السيد محمد توفيق
البكري الصديقي شارحاً أبيات رؤية^(١) : «الحسل ولد الضب تنفق عنه
البیضة وقد خرجت سنة فلو بقي دهرًا لم يتغير عما هو عليه . يقول فلو عمرت
لا أتغير كان آخر حالي الموت .»

ولكن هذه التفاسير جميعها بعيدة عن حقيقة الأمر فإن من قال بطول
عمر الضب ومن قال بعدم تغير أسنانه إنما استخرج قوله على وجه الحدس
والتخمين من نفس بيت رؤية والمثل السائر المذكور فلم ينتبه لغرابة استعمال
لفظ الحسل في مثل هذا التشبيه الدالّ عنده على طول العمر أو عدم التغير
إذ كان الحسل اسم الضب حين يخرج من بيضته أعني وقت ولادته^(٢) .
فشرح الأبيات الحقيقي هذا^(٣) لا يخرج الحسل من بيضته إلا بعد ما
ثقب قشرتها بسن بارزة من فمه تسقط منه بعد المولد . فقال رؤية لو
عمرت ما خرج الحسل من بيضته بواسطة تلك السن الخاصة يعني ما
كان في الدنيا ضب أي دائماً . فقوله من باب قول الشاعر^(٤) :

عليك سلام الله ما هيئت الصباً وما قرقر القمرى في ورق السدر

أو من باب قول العرب : «لا أفعله السمر والقمر»^(٥) أي ما كان
سمرًا والقمر أي أبدًا .

(١) كتاب أراجيز العرب ص ١٢٣ .

(٢) قال أبو زيد الأنصاري (المتوفى سنة ٢١٥ أو ٢١٤ أو ٢١٦) في النوادر في اللغة
ص ٩٢ من طبعة بيروت ١٨٩٤ «يقال لفرخ الضب حين يخرج من بيضته حسل ثم يكون غيداً
ثم يكون مطبوعاً ثم يكون صباً مدركاً» كذا أيضاً في كتاب المخصص لابن سيدة ج ٨ ص ٩٦ من
طبعة بولاق ١٣١٣ - ١٣٢١ .

(٣) راجع مقدمة Ahlwardt لديوان رؤية ص ١٤ - ١٥ .

(٤) انظر كتاب الظرف والظرفاء (أو كتاب الموشى) لأبي الطيب محمد بن إسحاق الوشاء
ص ١٣٠ من طبعة مصر ١٣٢٤ .

(٥) كتاب الأماشي للقال ج ١ ص ٢٣٧ من طبعة بولاق ١٣٢٤ .

أما قول روبة : أو عُمَرَ نُوحٍ زَمَنَ الْفِطْحَلِ * وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطِينِ
الْوَحْلِ ، فهو أيضاً ممّا لم يتوصّل إلى شرحه علماء اللغة . قال أبو نصر
الجوهري المتوفى في أواخر القرن الرابع في كتاب الصحاح ^(١) : « الْفِطْحَلُ
على وزن الهزبر زَمَنٌ لم يُخْلَقِ النَّاسُ فِيهِ بَعْدُ . قال الجريري ^(٢) سألتُ
أبا عبيدة ^(٣) عنه فقال الأعراب تقول إنّه زمن كانت الحجارة فيه رطبة .
وأنشد للعجاج [كذا] : وقد أتانا زَمَنَ الْفِطْحَلِ * وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطِينِ
الْوَحْلِ » . - وفي لسان العرب ^(٤) ما نصه : الْفِطْحَلُ على وزن الهزبر دهرٌ
لم يُخْلَقِ النَّاسُ فِيهِ بَعْدُ وَزَمَنُ الْفِطْحَلِ زمن نوح النبيّ على نبينا وعليه
الصلاة والسلام . وسئل روبة عن قوله زمن الْفِطْحَلِ فقال أيام كانت الحجارة
فيه رطاباً . وروى أنّ روبة بن العجاج نزل ماءً من المياه فأراد أن يتزوج
امراًة فقالت له المرأة ما سِنَّكَ ما مَالُكَ ما كَذَا فأنشأ يقول : [الأبيات] .
وقال بعضهم * زَمَنَ الْفِطْحَلِ إِذَ السُّلَامِ ^(٥) رِطَابٌ * وقال أبو حنيفة ^(٦)
يقال أَتَيْتُكَ عَامَ الْفِطْحَلِ وَالْهِدْمَلَةِ ^(٧) يعني زمن الخصب والريف . . .

(١) كتاب الصحاح ج ٢ ص ٢٢٧ من طبعة بولاق ١٢٨٢ .

(٢) وهو أبو عمر صالح بن إسماعيل الجري المتوفى $\frac{220}{48}$ فانظر G.FLUEGEL, *Die grammatischen Schulen der Araber*, Leipzig 1862, p. 81-82.

(٣) يعني أبا عبيدة معمر بن المثنى من النحويين البصريين واختلف في تعيين سنة مائة بين

(٤) لسان العرب ج ١٤ ص ٤٢ - ٤٣ .

(٥) سلام جمع سلمة أي الحجر .

(٦) أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفى سنة $\frac{282}{895}$.

(٧) قال الجوهري في الصحاح : « الهدملة الرملة الكثيرة الشجر » وقيل في لسان العرب ج ١٤
ص ٢١٧ : « والهدملة النهر الذي لا يقف عليه لطول التقادم ويضرب مثلاً للذي فات يقول بعضهم
لبعض كان هذا أيام الهدملة قال كثير :

كَأَنَّ لَمْ يَدْمَنَّهَا أَنْيَسٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَعْدَ أَيَّامِ الْهِدْمَلَةِ عَامِرٌ

وراجع أيضاً كتاب معجم ما استعجم للبكري ص ٨٢٨ من طبعة غوتنجن ١٨٧٦ .

والفِطْحَلُ السَّيْلُ وَجَمَلُ فِطْحَلٍ ضَخْمٌ مِثْلُ السَّبْحَلِ قَالَه الْفَرَّاءُ^(١) . - وفي كتاب مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ لِلْمِيدَانِيِّ^(٢) المتوفى سنة ٥١٨ : كَانَ ذَلِكَ زَمَنَ الْفِطْحَلِ . قالوا هو زمن لم يُخْلَقِ النَّاسُ . قال الْجَرْمِيُّ سَأَلْتُ أَبَا عبيدة عنه فقال : الْأَعْرَابُ تَقُولُ ذَلِكَ زَمَنُ كَانَتِ الْحِجَارَةُ فِيهِ رَطْبَةٌ وَأَنْشُدِ الْمَعْجَاجَ [كَذَا] : وقد أَتَانَا زَمَنُ الْفِطْحَلِ * وَالصَّخْرُ مُبْتَلٌ كَطَيْنِ الْوَحْلِ . قلتُ روى غيره لرؤية : [الْأَبْيَاتُ]^(٣) . - وعلى هذه الصفة أيضاً شرح البيت السيد محمد توفيق البكري حيث قال^(٤) : « والفطحل قال الأصمعي إذا قيل للأعراب ما أراد بالفتحل قالوا زمن السلام رطاب يريد زمن الحجارة حين كانت رطبة » .

فالواضح أن علماء اللغة لم يعثروا على تلك اللفظة بذلك المعنى إلا في بيت رؤية والمثل المشتق منه ولم يعرفوا حقيقة معناها فتكلفوا شرحها من نفس البيت على وجه التخمين . فلا عجب في عدم الإصابة إذ كان أصل اللفظ بعيداً جداً مأخوذاً من اعتقادات المندائية وهم فرقة دينية خاصة قديمة الأصل سكنت أصحابها بطائح العراق لا سيما نواحي البصرة في عهد بني أمية ، يسمون الآن عند العامة بالصُّبَّةِ . وهم أدخلوا كثيراً من آرائهم من مذاهب gnostiques^(٥) فزعموا أن أصل جميع الأشياء بيرا رباً أي المَجَّةِ العظيمة الذي شاركه أيرزيفا رباً أي الأثير المضيء العظيم ومآناً رباً أي

(١) أبو زكرياء يحيى بن زياد المتوفى ٢٠٧ هـ من النحويين الكوفيين فليراجع ٨٢٣-٨٢٢

FLUEGEL, *Die grammatischen Schulen der Araber*, s. 129-136.

(٢) كتاب مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ٦٢ - ٦٣ من طبعة مصر ١٣١٠ والظاهر أن القطعة الأولى كلها منقولة من مصاح الجوهري .

(٣) فراجع أيضاً كتاب المزهر للسيوطي في النوع الخمسين ج ٢ ص ٣١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٤) كتاب أراجيز العرب ص ١٢٣ .

(٥) أو من مذاهب أصحاب المعرفة العليا .

الروح العظيم فأصبحوا معاً على صفة ثالث إلهية . ومانا رباً هو المسمى أيضاً نفس العالم أو ملك النور (مَلَكًا دَنْهُورًا) وَلُقِّبَ بالحياة الأولى (هَيَّيْ قَدَمَائِي) لِأَنَّ الْأَشْيَاءَ أَخَذَتْ تَصْدُرُ عَنْهُ وَذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْفَيْضِ وَهُوَ يَسْكُنُ عَالَمًا نُورَانِيًّا (آلَمًا دَنْهُورًا) . فَأَوَّلُ مَنْ فَاضَ مِنْهُ الْحَيَاةُ الثَّانِيَّةُ (هَيَّيْ تَنْبَيَانِي) أَوْ يَرْشَامِينَ ثُمَّ مَعْرِفَةُ الْحَيَاةِ (مَنْدَاذْهَيَّيْ الْمَنْسُوبُ إِلَيْهِ اسْمُ الْمَنْدَائِيَّةِ) الَّذِي يَظْهَرُ فِي الْعَالَمِ الْمَرْتُّي أَيْ الْأَسْفَلِ بَعْدَ تَجَسُّدَاتِ أَقْدَمِهَا الْإِخْوَةُ الثَّلَاثَةُ هَيْبِلُ وَشَيْتِلُ وَأَنْوُشُ^(١) . أَمَّا الْحَيَاةُ الثَّانِيَّةُ أَوْ يَوْشَامِينَ فَصَدَرَ عَنْهُ الْحَيَاةُ الثَّلَاثَةُ (هَيَّيْ تَلَيْتَانِي) الْمُسَمَّى أَيْضًا أَبَاتُورَ فَلَمْ يَكُنْ تَحْتَهُ أَصْلًا إِلَّا فَرَاغٌ جَسِيمٌ فِي قَعْرِه مَاءٌ أَسْوَدٌ . وَأَرَادَ أَبَاتُورُ مُشَارَفَةَ تِلْكَ الْأَعْمَاقِ فَرَأَى فِي الْمَاءِ صُورَتَهُ فَانْقَلَبَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ صُورَةَ ابْنِهِ غَيْرِ الْمَوْجُودِ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ وَكَانَتْ صُورَةُ خَادِعَةٍ كَاذِبَةٍ أَوَّلًا ثُمَّ تَصَلَّبَتْ فَأَصْبَحَتْ ابْنَهُ بَتَاهِيلُ وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ كَانَ لَهُ مِنْ طَبِيعَةِ الْمَادَّةِ . وَمِرَاعَاةً لِطَلْبَةِ أَبِيهِ خَلَقَ بَتَاهِيلُ الْأَرْضَ ثُمَّ آدَمَ وَحَوَاءَ لَكِنَّهُ لَمْ يَتِمَّكَزْ مِنْ إِعْطَاءِ الْجَسَدِ الْمَخْلُوقِ نَفْسًا تُحْيِيهِ فَأَرْسَلَ الْحَيَاةَ الْأُولَى (أَيَّ مَانَا رَبِّيًا) هَيْبِلُ وَشَيْتِلُ وَأَنْوُشُ لِيَنْفُخُوا فِي الْجَسَدَيْنِ رُوحًا مِنْهُ . أَمَّا بَتَاهِيلُ فَحُرِّمَ سُلْطَتُهُ عَلَى الْبَشَرِ وَحُكْمٌ عَلَيْهِ بِالْانْفِئْ عَنْ عَالَمِ النُّورِ وَالْبَقَاءِ فِي مَوْضِعٍ تَحْتَهُ مَصْفَدًا بِالسَّلَاسِلِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ . - فَالْوَاضِحُ أَنَّ رُؤْيَا عِنْدَ إِقَامَتِهِ الطَّوِيلَةَ بِالسَّوَادِ وَالْبَصْرَةَ سَمِعَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَعْتِقَادَاتِ الْمَنْدَائِيَّةِ وَعَرَّبَ بَتَاهِيلَ بِالْفِطْخُلِ (وَهُوَ فِي الْعَرَبِيَّةِ الضُّخْمُ مِنَ الْإِبِلِ)^(٢) حَسْبَمَا هُوَ

(١) والواضح أن هذه الأسماء الثلاثة مشتقة من هايبيل وشيث وأخنوخ .

(٢) ونجد عند المؤلفين المعاصرين لنا الفطاحل بمعنى كبار العلماء وقال إبراهيم اليازجي لسائل (في مجلة الضياء ج ٣ ص ٢٠٨) : « وأما استعمال الفطاحل » بالمعنى الذي ذكرتموه فهو من مواضع العامة ولا شيء منه في كتب اللغة » . واستحسن الشيخ بعيث الحضري هذا الاستعمال وقال (في مجلة المشرق ج ٤ - ١٩٠١ - ص ٣٣٣ - ٣٣٤) : « هو من مواضع الفصحاء والبلغاء قد استعملوه بهذا المعنى من باب =

الغالب في التعريب من تشبيه الألفاظ. الأعجمية بالألفاظ. والأوزان العربية وزعم رؤبة أن بتاهيل أو الفطحل اسم رجل عاش في الزمان القديم وعاصر نوحاً فذكر في البيت لرغبته المعروفة في استعمال الكلمات والأسماء الغريبة . أمّا الشراح وعلماء اللغة فحاروا في تفسيره لعدم معرفة لهم بديانة المندائية ولم يُذكرِ كوا أنه اسم عَلَمٌ فاستنتجوا من القرائن خطأً أن معناه دهرٌ لم يُخلق الناس فيه بعدُ وكانت الحجارة فيه رَطْبَةً فقيّدوا في القواميس معنى لا يوجد حقيقة في اللغة .

وهذا الغلط. من قبيل ما وقع فيه بعض قدماء أهل اللغة لما أرادوا شرح لفظ. الأندرين الوارد في المطلع المعزوّ إلى معلّقة عمرو بن كلثوم^(١) . فإنهم لجهلهم أن أندرين^(٢) موضع بالشام عن جنوبي حلب على طرف البادية ذهبوا إلى أن ذلك اللفظ. اسم جنس لا اسم عَلَمٌ فقال الخليل في كتاب العين^(٣) « الأندريّ ويُجنَمُ الأندرين يقال هم الفتيان يجتمعون من مواضع شتّى » . ثم قال صاحب لسان العرب^(٤) : « والأندرون فتيان من مواضع شتّى يجتمعون للشرب قال عمرو بن كلثوم : ولا تُبقي خُمورَ الأندرينا » . فجاء في القاموس تعريف اللفظ. على هذه الصفة : « الأندرون

= المجاز لأن من معاني الفطحل الضخم من الإبل فنقلوه إلى معنى العظيم أو الكبير من العلماء كما نقل العرب القدماء مثل ذلك في كثير من الألفاظ ومن ذلك الكبش . . . والوعل . . . والسنور . . . والفعل . . . والقناس ؛ فإن معناه في الأصل معنى الفطحل بتمامه . . . والقرم » .

(١) وهو مطلع منحول لما فراجع ما قاله TH. NOELDEKE, *Fünf Mo'allaqāt*, I, Wien 1899 P. 13-15.

(٢) وأندرين (كلدا وبدون لام التعريف) اسم القرية إلى أيامنا والاسم القديم Andron راجع معجم ما استعجم للبكري ص ١٠٨ ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٧٣ - ٣٧٤ من طبعة ليسك وشرح التبريزي على القصائد العشر ص ١٠٩ من طبعة كلكتة ١٨٩٤ و Noeldeke ص ٣٢ - ٣٣ من الكتاب المذكور في الحاشية المتقدمة .

(٣) المروى في كتاب معجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٧٣ من طبعة ليسك .

(٤) لسان العرب ج ٧ ص ٥٣ - ٥٤ من طبعة بولاق .

فتيان شتى يجتمعون للشرب»^(١). فأخذه من القاموس بطرس البستاني في محيط المحيط^(٢) وسعيد الخوري الشرتوني في كتاب أقرب الموارد^(٣) فهما فرقا ما بين الموضع بالشام واسم الجنس فقالا : «الأندرون» فتیان شتى يجتمعون للشرب و «أندرين» قرية «فتخمين خاطئ صار لفظاً مقيداً في كتب اللغة .

أما البيت «والصخرُ مبتلُ كطين الوَحْلِ» فلإشارة إلى قول بعض العرب برطوبة الحجارة فيما قبل الطوفان أو بعده بمدة وعليه تدلُّ الأبيات المنسوبة إلى أمية بن أبي الصلت^(٤) :

وَإِذْ هُمْ لَا لُبُوسَ لَهُمْ تَقِيهِمْ وَإِذْ صُمُّ السَّلَامِ لَهُمْ رِطَابُ
عَشِيَّةُ أُرْسِلَ الطُّوفَانُ يَجْرِي وَفَاضَ الْمَاءُ لَيْسَ لَهُ جِرَابُ

وقال الجاحظ في كتاب الحيوان^(٥) : «وأنشدني عبد الرحمن بن كيسان :

فَكَانَ رَطِيباً يَوْمَ ذَلِكَ صَخْرُهَا وَكَانَ خَضِيداً طَلَحُهَا وَسِيَالُهَا

«فزعم كما ترى أَنَّ الصخور كانت لينة وَأَنَّ الأشجار الطلح والسيال كانت خضيدة لا شوك عليها. وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أَنَّ

(١) القاموس ج ١ ص ٤٥٧ من طبعة بولاق ١٢٧٢ .

(٢) محيط المحيط ج ٢ ص ٢٠٥٥ - ٢٠٥٦ من طبعة بيروت ١٨٦٧ - ١٨٧٠ .

(٣) أقرب الموارد ج ٢ ص ١٢٨٥ من طبعة بيروت ١٨٨٩ .

(٤) يروي البيتان وغيرهما في كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن طاهر المقدسي ج ٣ ص ٢٥ من

طبعة باريس ١٨٩٩ - (١٩١٩) وفيها : «وَإِذْ صُمُّ السَّلَامِ» وهو تصحيف ويوجد البيت الأول وغيره

في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٦٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ وفي بلوغ الأرب للألوسي ج ٣

ص ٢٢٠ من طبعة بغداد ١٣١٤ (وكل الأبيات مروية في ديوان أمية عدد ٣٠ من طبعة ليبسك ١٩١١

أو ص ١٨ من طبعة بيروت ١٣٥٢) فراجع أيضاً ثمار القلوب للثعالبي ص ٥١٦ من طبعة مصر ١٣٢٦ .

(٥) كتاب الحيوان ج ٤ ص ٦٨ - ٦٩ .

الشوك إنما اعتراها في صبيحة اليوم الذي زعمت النصارى فيه أن المسيح ابن الله . وكان مقاتل يقول حدثنا بذلك أبو عقيل السواق وكان أحد رواة والحاملين عنه أن الصخور كانت ليثة وأن قديم إبراهيم عليه السلام أثرتا في تلك الصخرة كتأثير أقدام الناس في ذلك الزمان إلا أن الله تعالى توفى تلك الآثار وعفى عليها ومسحها ومحاهها وترك أثر مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم والحجة إنما هي في إفراده بذلك ومحو ما سواه من آثار أقدام الناس ، ليس أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان وطئ على صخرة يابسة فأثر فيها .

فبعد هذا الاستطراد الطويل نرجع إلى سياق الكلام على رؤبة . - لا شك أن فرط قصد الغريب من الألفاظ في أشعار العجاج ورؤية سبب استعجابها الشديد على القارئ فلولا عناية صاحب الصحاح وصاحب لسان العرب وصاحب تاج العروس بجمع أقوال اللغويين القدماء لبقى كثير من أبيات تلك الأراجيز كأنها ألغاز لا يمكننا التوصل إلى حل معانيها . - ثم من خصائص صناعة العجاج ورؤية شدة ميلهما إلى أنواع المجانسة لا سيما التجنيس المحقق أو المستوفى الذي اتفقت فيه الحروف دون الوزن رجع إلى الاشتقاق أم لم يرجع^(١) والجناس المضارع أو المضارعة الكائنة بتقارب مخارج الحروف مع تقديم وتأخير أو مع زيادة ونقصان . وللمجانسة محل عال في علم البيان ولكن الإفراط في استعمالها (والأمثلة منها ألوف في أراجيز ذينك الشاعرين)^(٢) يُستثقل فيضّر جودة الشعر . - ومن خصائصها

(١) إني أستفيد من الاصطلاحات المستعملة في كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ .

(٢) انظر الأمثلة المروية في مقدمتي Ahlwardt لديوان العجاج ص ٤٨ - ٥٠ وديوان رؤبة ص ٩٣ - ٩٧ .

أيضاً وفرة إدارج فقر وحكم في سياق الكلام ^(١) فيضطرب أحياناً المعنى ويستغلق على القارئ . وقد سبق مثال ذلك في الأبيات المروية (ص ١٧٨ - ١٧٩) ومن هذا القبيل قول روبة بعد وصف حماسة قومه ^(٢) :

عَبَلِ الْمَدَاوِسِ مُنِيفِ الشُّنَخَابِ أَحْزَمَ تَخْشَاهُ قُهُوبُ الْأَقْهَابِ
يَخْطِرْنَ مِنْ خَشْيَتِهِ بِالْأَذْنَابِ وَالْجَزْلُ أَبْغَى مِنْ قُمَاشِ الْأَخْطَابِ
وَالْهَمُّ لَا يُقْضَى كَسَلُ الْأَوْصَابِ أَرْجُو أَنْتِسَابِي بِقُرُوبِ الْأَقْرَابِ
وَرُؤْيَى قَبْلَ اعْتِيَاقِ الْأَعْطَابِ وَجَهَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَوَّابِ

ومن هذا الباب قول روبة ^(٣) :

إِنَّ لِرَيْعَانِ الشَّبَابِ غَيْهَقًا كَانَ بِي مِنْ أَلْقِ جِنٍّ أَوْلَقَا
وَلَا أَحِبُّ الْخُلُقَ الْمُمَدَّقَا وَالْغِرُّ مَغْرُورٌ وَإِنْ تَلَهَوْقَا
وَشَرُّ آلَافِ الصُّبَا مَنْ آنَقَا بَلْ أَبْصَرْتَ شَيْخًا وَنَى وَأَشْفَقَا
وَاضْطَرَبَ الدَّهْرُ بِهِ فَرَقَقَا وَالْدَّهْرُ إِنْ لَمْ يُبْلِ طَوْلًا عَوَّقَا

وحب الغريب حمل روبة أحياناً على الإسهاب الممل في الوصف والتشبيه مثل قوله في ذكر الطلال ^(٤) :

كَأَنَّهُ بَعْدَ رِيَّاحٍ تَدَهَّمُهُ وَمُرْتَعِنَاتِ الدُّجُونِ تَشْمُهُ
إِنْجِيلُ أَخْبَارٍ وَحَى مُنْمِنُهُ مَا خَطَّ فِيهِ بِالْمِدَادِ قَلَمُهُ
إِذَا تَهَجَّى قَارِئٌ يَهْيِنُهُ أَخْرَجَ أَسْمَاءَ الْبَيَانِ مُعْجَمُهُ

(١) راجع مقدمتي Ahlwardt لديوان العجاج ص ٤٦ - ٤٧ وديوان روبة ص ٩١ - ٩٣ .

(٢) ديوان روبة عدد ٢ بيت ١٧٧ - ١٨٤ من طبعة برلين وأراجيز العرب ص ١٧٠ .

(٣) ديوان روبة عدد ٤١ بيت ١٧ - ٢٤ وكتاب أراجيز العرب ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٤) ديوان روبة عدد ٥٥ بيت ١٣ - ٢١ وأراجيز العرب ص ١٤١ -

ارثعن المطر كثر - وحيث الكتاب أي كتبته .

وَحَلَقُ التَّرْقِينِ أَوْ مُوشَّمُهُ يُبْدِي لِعَيْنِي عَابِرَ تَفَهُمُهُ
مَا فِيهِ لَوْلَا أَنَّهُ يُتَرَجِّمُهُ

وربما غير رؤبة وزن الألفاظ. لضرورة القافية فانتقد عليه الأصمعي^١
انتقاداً مدققاً مروياً في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة^(٢). - هذه عيوب
شعر رؤبة وهي على كل حال أقل من فضائله بكثير.

ومن شعراء الأراجيز المشهورين دكين الراجز وهو دكين بن رجاء من بني
فقيم الذي لم نقف على تعيين عصره إلا بما رواه ابن قتيبة^(٢) وصاحب
الأغاني^(٣) من مدحه لعمر بن عبد العزيز وقت توليه المدينة أعنى قبل
سنة ٩٩/٧١٧. ولم يصل إلينا من أراجيزه إلا أبيات قليلة جداً^(٤). - ومن شعراء
الأراجيز أبو نخيلة الحماني الراجز^(٥) الذي تنافر العجاج في الشعر وأقام
مدة بالشام ومدح هشام بن عبد الملك (١٢٥/٧٢٤ - ١٠٥/٧٢٤) بأرجوزة ذكر بعض

(١) كتاب الشعر ص ٣٧٨ - ٣٨٠ من طبعة ليدن.

(٢) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٨٧ - ٣٨٩ من طبعة ليدن.

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٥٥ من طبعة بولاق وراجع أيضاً العقد الفريد لابن عبد ربه

ج ١ ص ١١٤ - ١١٥ من طبعة ١٣٠٥.

(٤) ويروى بعض أبياته في كتاب الحيوان للجاسق ج ٣ ص ١١٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ -

١٣٢٥ وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ج ٢ ص ٤٨٨ و ج ٣ ص ٣٦٧ - ٣٦٨ من طبعة

بولاق - (قال ياقوت في إرشاد الأريب ج ٤ ص ٢٠٠ من طبعة لندن ١٩٢٧ ما نصه : « دكين بن

سعيد الدارمي التميمي الراجز وهو غير دكين بن رجاء المتقدم واشتباها على ابن قتيبة في طبقات الشعراء

فجعلهما واحداً ودكين بن سعيد هذا هو الذي كان منقطعاً إلى عمر بن عبد العزيز حين كان والياً

بالمدينة . . . مات دكين سنة ١٠٩ هـ . أما دكين بن رجاء الفقيمي فقال ياقوت (ج ٤ ص ١٩٨ - ٢٠٠)

إنه وفد على الوليد بن عبد الملك ومدح مصعب بن الزبير ومات سنة ١٠٥ هـ . وفي كتاب العقد في الموضع

المذكور ينسب مديح عمر بن عبد العزيز إلى دكين بن رجاء الفقيمي كما في كتاب الشعر لابن قتيبة أما

صاحب كتاب الأغاني فقال إن مديح عمر بن عبد العزيز لدكين الراجز بغير تعيين اسم أبيه ونسبه) .

(٥) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨١ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٣٩ - ١٥٢

من طبعة بولاق وكتاب الإبانة لأبي سعيد محمد بن أحمد العميلي ص ٥٧ - ٥٨ من طبعة مصر بغير تاريخ

الطبع .

أبياته في كتاب الأغاني^(١) وخرانة الأدب لعبد القادر البغدادي^(٢)، فلما انتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني العباس سنة ١٣٢/٧٥٢ نقلها إلى السفاح فبقيت في ديوانه منسوبة إلى هذا الخليفة العباسي. ومات بعد بيعة المنصور أعني بعد سنة ١٣٦/٧٥٤. وشعره لئن الألفاظ. مجرد عن الغريب مصوغ في بحر الرجز المشطور إلا شيء قليل جداً ورد على غير قالب الأرجوزة. - ومنهم أبو مرقال عطاء بن أسيد السعدي المعروف بالزفیان الذي لم يرد ذكره في أكثر كتب الأدب والتراجم مع أن مؤلفي كتب اللغة ربما احتجوا بأبياته لا سيما صاحب تاج العروس الذي روى نحو ثلاثين بيتاً من أراجيزه. وسنة ١٩٠٣م جمع المستشرق الألماني أهلوذت^(٣) هذه الأبيات المفردة المتفرقة ونشرها مع عشر مقطعات من أراجيزه موجودة في نسخة خطية محفوظة في المكتبة الخديوية. ولم نعرف من أخباره إلا ما يستفاد من بقايا ديوانه أعني أنه كان في قيد الحياة نحو سنة ٧٣ وقت ثورة أبي فديك بهجر من أعمال البحرين. وشعره غير مُفَرِّط في استعمال الغريب مجرد عما ذكرناه آنفاً من وفرة المجانسة والإدراج وهو يدور على ما تدور عليه سائر الأراجيز أعني وصف الغرام وتوجع الفراق والنساء والشباب والنوق والحمير الوحشية والفيافي والصيد وجميع ذلك تمهيداً للخروج إلى مدح قومه أو أمير أو أحد أكابر الناس يُرجى منه الجوائز. - ومنهم أيضاً عقيب بن روبة بن العجاج على ما يُستنتج من حكاية مروية في كتاب الشعراء لابن قتيبة^(٤) ومن كتاب الأغاني^(٥).

(١) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ١٤١.

(٢) كتاب خزانة الأدب ج ١ ص ٧٨ - ٧٩ من طبعة بولاق.

(٣) الجزء الثاني من مجموع أشعار العرب المأثور وهذا الجزء مشتمل على ديوان الأراجيز للعجاج والزفیان فراجع أيضاً R. GEYER, *Beiträge zur Kenntnis altarabischer Dichter: 3 al-'Ajjaj und al-Zafayān* (Wiener Zeitschrift für die Kunde des Morgenlandes, 29. Band, 1909) P. 100-101.

(٤) كتاب الشعر ص ٤٧٧ من طبعة ليدن.

(٥) كتاب الأغاني ج ٣ ص ٣٧ من طبعة بولاق.

إن رؤبة بن العجاج آخر التوابع الذين قالوا الأراجيز الحقيقية أغنى القصائد الجارية مضمونها على الأسلوب القديم مع أنها مصوغة في بحر الرجز المشطور . وبعده بقليل اندرس هذا النوع من الشعر تماماً ونُحِمَ بِأبي العباس محمد بن ذُوَيْبِ الفُقَيْمِيِّ المعروف بالعماني^(١) الذي نظم بالرجز أكثر قصائده^(٢) . وكان من أهل البدو ومدح يزيد بن الوليد $\frac{١٢٦}{٧٤}$ والخليفين الأخيرين من الدولة الأموية ثم السفاح والمنصور والمهدي وهارون الرشيد $(\frac{١٧٠}{٧٨٦} - \frac{١٩٣}{٨٠٩})$.

إذا قطعنا النظر عن أصحاب الأراجيز الحقيقية وجدنا أن شعراء القرن الأول وأوائل الثاني حصروا استعمال الرجز المشطور في المقطعات الدائرة على مواضيع خاصة وإن كانوا يستعملون فيها أيضاً سائر الأعاريض . فنراهم يرتجزون في وصف أحوال شخصية ارتجالاً^(٣) أو في الرثاء والهجاء ووصف الحيوان والصيد وفي المُلح والحكايات لا سيما المضحكة . ومن هذا الباب

(١) راجع كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٤٧٥ - ٤٧٦ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١٧ ص ٧٨ - ٨٢ من طبعة بولاق وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٨ (أبيات له من الرجز في ج ٢ ص ٦١ و ج ٦ ص ٣٠ و ٦٧) وكتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة ١٣١٢ (١ و ج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١) وكتاب خزائن الأدب ج ٤ ص ٢٩٢ من طبعة بولاق .
(٢) إن الجاحظ في كتاب البيان والتبيين ج ٢ ص ١٨٤ سطر ٢٢ عد بشار بن برد (المقتول سنة ١٦٧ في خلافة المهدي) من الذين جمعوا القصيد والرجز مثل أبي النجم وحميد الأرقط والعماني . - ولكن من جملة أشعاره التي نقلت إلينا لا نجد إلا أرجوزة واحدة قالها في مدح عقبة بن سلم (ولا « بن مسلم » كما في الأغاني ج ٣ ص ٣٧ من طبعة بولاق) فيتضح من رواية ابن قتيبة (ص ٤٧٧ من طبعة ليدن) والأغاني (وانظر أيضاً البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٣ من طبعة ١٣١٢) (أو ج ١ ص ٥٧ من طبعة ١٣٥١) أنه إنما اتخذ بحر الرجز لنسجها لأن عقبة بن رؤبة قد أنكر في حضرة عقبة بن سلم قدرة بشار على إحسان الأراجيز .

(٣) أو بلا ارتجال كالأبيات (٢٠ رجزاً) التي نسجها أبو عمارة عمر بن مسلم بن أبي طرفة الهذلي داعياً الله أن يأذن له في الاشتراك في غزو أبي لطيف . راجع : J. WELLHAUSEN, *Letzter Teil der Lieder der Hudhailiten*, Berlin 1884, No. 237.

الأخير رجز رُدَيْنِيَّ بن عَبَسَ الفَقْعَسِيَّ^(١) في ذكر طريقة تخلصه من دفع ما كان عليه من الدين لتاجر فارسي بالكوفة ومنه أيضاً قصة العذافر بن الرِّيَّان الكِنَانِيَّ^(٢) في تنجحه لخيانة غرماثه بيمين « كمثّل سيل جاء من رأس جبيل » . ومن هذا الباب أيضاً الأبيات الاثنان والعشرون من الرجز التي قالها مسعود بن كبير الجرّمي في حمار اشتراه فوجده على خلاف ما وصفه به النّخّاس^(٣) أو مخاطبة الأعرابي والضّبع التي أكلت شاءه^(٤) أو قول الرجل الذي سرق له الدّلو^(٥) وهلمّ جرّاً . وقد سبق (ص ١٩٠) ذكر ما قاله الشّمردّل بن شريك اليربوعي بعد منتصف القرن الأوّل من الأرجاز العديدة اللطيفة في الصّقر والكلب والصيد فتروى لعوف بن ذرّوة تسعة أبيات من الرجز في وصف الجراد^(٦) ولعبد الله بن كراع من شعراء النصف الأوّل من القرن الأوّل أرجاز في وصف الضّبع^(٧) ولأحيحة بن الجلاح الأوسيّ أشعار من بحر الرجز في الكلاب^(٨) ولبعض^(٩) الأعراب من القرن الأوّل أرجاز في

(١) حماسة البحري ص ٣٨٦ - ٣٨٧ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٨ عدد ١٤٣٤ من طبعة بيروت .

(٢) حماسة البحري ص ٣٨٤ - ٣٨٥ من طبعة ليدن أو ص ٢٦٧ عدد ١٤٣٢ من طبعة بيروت .

(٣) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ ولم أجد ذكره في كتاب الأدب ولكنه إسلامي بغير ارتياب .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٥١ - ١٥٢ وهو من شعراء الإسلام والراوى هو أبو زياد الكلابي من معاصري إسحاق الموصلي المتوفى سنة ٢٣٥ .

(٥) حماسة أبي تمام ص ٨٠٠ - ٨٠١ من طبعة بن أوج ٤ ص ١٦٥ - ١٦٦ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ١٦١ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ والنوادر

في اللغة لأبي زيد الأنصاري ص ٤٨ من طبعة بيروت ١٨٩٤ (عن الأصمعي) وكتاب أراجيز العرب ص ٧٩ من طبعة مصر ١٣١٣ ونصه يطابق نص النوادر مطابقة تامة - ولا يذكر الشاعر في كتاب الخزانة ولا في كتاب الأغاني ولا في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في الأصمعيات ولا في حماسة أبي تمام ولا في حماسة البحري .

(٧) كتاب الحيوان ج ٦ ص ١٦٠ .

(٨) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٢ ص ٢٠ - ٢٢ .

(٩) كتاب الحيوان ج ٧ ص ٥٦ .

صفة الفيل واليربوع^(١) وغيرها من الحيوان^(٢) . ولا أحتاج إلى ذكر أمثلة من استعمال الرجز في الرثاء والهجاء .

ومن الحرى بالاعتبار أنَّ شعراء الدولة العباسية لا سيما في القرن الثاني والثالث والرابع اتبعوا هذا المنهج في حصر استعمال الرجز المشطور في مواضع خاصة معينة فكثرت عندهم الأرجاز في الطرديات وهي وصف القنص وحوادثه وجوارح الصيد مثل الكلاب والفهود والبيزان فكاد يغلب الرجز على سائر الأعاريف في هذا النوع من الشعر الذي تعاطاه كثير من النوابغ مثل الفضل ابن عبد الصمد الرقاشي^(٣) من شعراء هرون الرشيد وأبي نؤاس الحسن بن هاني^(٤) المتوفى في العشر السنين الأخيرة من القرن الثاني والناشي الأكبر المتوفى سنة ٢٩٣ وابن المعتز^(٥) المتوفى سنة $\frac{296}{908}$ وأبو فراس الحمداني^(٦) المتوفى سنة ٣٥٧ وغيرهم . ومن المشهور رجز عبد الصمد بن المعتز من شعراء القرن الثالث في وصف العقرب المروى في كتاب الكامل للمبرد^(٧) .

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٦ ص ١٣٠ .

(٢) روى في كتاب الحيوان ج ٣ ص ٨٢ رجز في وصف السك لابن أبي العنبر بن أبي نخيلة الراجز .

(٣) روى له الجاحظ في كتاب الحيوان ج ٦ ص ١٦١ (١٨ بيتاً) و ص ١٦١ - ١٦٢ (١٣ بيتاً) أراجيز في وصف الفهد .

(٤) روى له في كتاب الحيوان ج ٢ ص ١٠ - ١٥ أراجيز في الكلاب والطرء فراجع ديوانه في باب الطرد .

(٥) ديوان ابن المعتز ج ٢ ص ٩٥ من طبعة مصر ١٨٩١ (في باب الطرد) .

(٦) تروى له طردية مزدوجة في W. AHLWARDT, *Ueber Poesie und Postik der Araber*, Gotha 1856, P. 2-4.

(٧) الكامل في اللغة للمبرد ص ٥١٩ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١١٤ - ١١٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ وعاش عبد الصمد بن المعتز في العصر العباسي فتوجد ترجمته في الأغاني ج ١٢ ص ٥٧ - ٧٢ ويروى له فيه قصيد لا رجز - نقل المبرد (المتوفى سنة ٢٨٥) عنه قول الأصمعي (المولود سنة $\frac{122}{740-739}$ المتوفى $\frac{216}{832-831}$) وإسحاق بن إبراهيم الموصل (المولود سنة $\frac{100}{767}$ والمتوفى $\frac{230}{948}$) . راجع الكامل ص ٥١٩ و ٣٨٧ سطر ١٣ من طبعة ليبسك .

وسببُ حفظهم هذا العروض في الطردِيَّات وصفات الحيوان ظاهر وهو أنَّ هذا النوعَ من الشعر كان أصله بدوياً ومضمونه أقرب إلى أحوال أهل الوبَر منه إلى عيشة سُكَّان المدن وأهل الحضر .

وربّما اتَّخذوا بحر الرجز أيضاً في نسج الرثاء ^(١) وذكر المُلح واللطائف والحكايات فضلاً عما ذهبوا إليه مبتدعين من استعمال الرجز لا سيّما المزدوج لتأليف المنظومات الطولى في الأخبار التاريخية أو شرح الفنون والعلوم ولكنهم في الغالب امتنعوا عن الاقتداء بالسلف في الارتجاز في الهجاء ، ولا شك أنَّ سبب هذا الاستثناء كان ما وقع في الهيئة الاجتماعية العربية من التقلُّب العظيم بعد انقراض دولة بني أمية حيث زال النظام القديم المنبثق على قسمة الناس في القبائل فلهذا الزوال وللتغيّر الداخل في الأخلاق والأُمُيَّال حُمِلت الشعراء ضرورياً على سلوك طريقة جديدة في الهجاء غير الطريقة السلوكية في أيام الجاهلية وعند الأعراب لأنَّ هجاء قبيلة العدوِّ وأقارب الخصم أضحي شيئاً لا أساس ولا معنى له .

كان الرجز في القرن السابق للإسلام وفي القرن التالي لظهوره البحر العاديّ في أشعار العامة من أهل البادية لسهولة ومناسبته لمقتضى الارتجال . فقدّر انتشاره عندهم ظاهر ظهور الشمس من العدد الوافر من أبيات الرجز المنسوبة إلى الأعراب الواردة في كتب الأدب واللغة جمّاً غفيراً حتّى إنَّ أبا زيد الأنصاريّ المتوفى نحو سنة ٢١٥ الذي قد سبق (ص ١٨٦) أنّه ميّز في كتاب النوادر في اللغة أبواب الشعر وأبواب الرجز قال في توطئة كتابه ما نصّه ^(٢) : « ما كان فيه (أى في » الكتاب « من شعر القصيد فهو

(١) ومن هذا الباب مرتبة أبي نواس في خلف الأحمر راجع W. AHLWARDT, *Ghalaf elahmar's*

Qasside, Greifswald 1859, P. 414

(٢) كتاب النوادر في اللغة ص ١ من طبعة بيروت ١٨٩٤ .

سَمَاعِي من المفضل بن محمد الضبي وما كان من اللغات وأبواب الرجز فذلك سَمَاعِي من العرب . فالمحتمل على ظني أن الذين صاغوا القصائد في ذلك العروض فقط. واخترعوا الأرجوزة بمعناها الخاص (وهم كما تقدم كلهم من أهل القبائل) إنما أرادوا الاجتهاد في رفع شأن الشعر العائى البدوي كأن هذا الاجتهاد ردُّ على أساليب الشعر المدني فأداروا الأراجيز على مجرد المواضيع المألوفة عند سكان البرارى وماؤوها ألفاظاً غريبة خاصة لأهل البادية بعيدة عن متعارف أهل الحضر^(١).

أما أسباب فناء نوع الأراجيز الحقيقية وزوالها في أوائل الدولة العباسية فأظنُّها من ضربين : صناعية وطبيعية والصناعية عُسر حفظ. روى واحد في الأشعار الطولى ذات أبيات قصيرة جداً من مشطور الرجز ثم الملل الناشئ عن هذا الروى الوحيد للأبيات القصيرة إن طال الشعر ثم صعوبة حصر معنى تام في بيت من الرجز المشطور وما ينتج منها من الاضطراب إلى تقسيم المعنى الواحد على بيتين أو ثلاثة أو أربعة أو أكثر ، وذلك يضرُّ وضرر المعنى ويسبب التعقيد . أما السبب الطبيعي فهو ما تقدم أن الأرجوزة الحقيقية إنما كانت من مخترعات شعراء البادية لم يذهب إليها أحد من الحضريين وهى شعر بدوي محض لغة وموضوعاً فاستنكف عنه شعراء الدولة العباسية لأنهم بعداء عن عيشة الأعراب فمن المعروف أن الإنسان في الأغلب لا يتكلف ما لا يكون معهوداً في طبعه ولا موجوداً من خلقه .

٥- قد قسمنا الشعر العربى في أيام بنى أمية تسعة أقسام أو أصناف وفرغنا من ذكر الأصناف الأربعة الأولى أعنى الغزل فى مدن الحجاز والنسيب والشعر الغرامى عند الأعراب والشعر على الأسلوب القديم المتداول عند فحول

(١) ولم يكن ذلك رجوعاً إلى الأسلوب القديم كما يظن N. Rhodokanakis

الجاهليّة والأراجيز . فنبتدئ الآن الكلام الوجيز على شعر الصنف الخامس وهو الذى يتعلّق بالاغتراب والفتوح والحروب أى شعر الجنود فى خارج جزيرة العرب .

إنّ الحرب لم تزل تدور رحاها فى عهد الأمويّين سواء فى الثغور لتوسيع حدود المملكة الإسلاميّة غرباً وشرقاً وشمالاً أم فى داخل نفس دار الإسلام بسبب عصبية الأقوام العربيّة أو الفتن السياسيّة والدينيّة . لا أحد يجهل أنّ عرب البادية لم يألّفوا أبداً نظاماً اجتماعياً سياسياً غير القبائل المستقلّة فأقصى ما انتهوا إليه إنّما كان تحالف جملة من القبائل مدّة ما بصفة ألاّ يُفسد به استقلالها فلم يتمكّن الدين الإسلامى على ما أتى به من تعليم مساواة المؤمنين ولا جهد الخلفاء لاسيّما عمر بن الخطّاب ومعاوية بن أبى سفيان من استئصال عصبيتهم وإزالة ما جُبِلَ لهم من كراهة الانقياد والنظام المتين . ولم تبرح تغلب فيهم روحُ المنافرة والمشاجرة فنشبت بين أقوامهم الحروب بل زاد استعارها بعد منتصف القرن الأوّل حين أخذ ينمو تضادّ النزاريين واليمنيين الذى لا يقدر تأثيره فى تاريخ الأمم الإسلاميّة وأحوال الخلافة فى المشرق وفى الأندلس . لا يخفى أنّ دوزى الهولاندى^(١) وكُلْدزِيهَر^(٢) المجرىّ أفرغا كنانة جهدهما فى البحث عن أسباب ذلك التضادّ وكيفيّة نموّه وشرّ نتائجه ولكن ليس هذا محلّ الخوض فى هذا الموضوع الذى يُخصّ بيانهُ بأستاذ التاريخ الإسلامى . فيكفينى إيراد ما قاله المسعودىّ فى الباب

(١) راجع R.P. DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides* (711 - 1110), Leyde 1861, 4 vol. [2ème édition, revue et mise à jour par E. F. Lèvi-Provençal. Leyde 1992, 3 vol.]

(٢) راجع I. GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, Hall. a. S. 1888-1890, vol. الذى يصحّح بعض أقوال دوزى ويكذب رأى العرب أن هذه المضادة جاهلية . I. P. 78-100

الثالث بعد المائة من كتاب مروج الذهب^(١) : « افتخرت نزار على اليمن وافتخرت اليمن على نزار وأدلى كل فريق بما له من المناقب وتحزبت الناس وثارَت العصبية في البدو والحضر فنتج بذلك أمر مروان بن محمد الجعدي^(٢) وتعصبه لقومه من نزار على اليمن وانحرف اليمن عنه إلى الدعوة العباسية وتغلغل الأمر إلى انتقال الدولة عن بني أمية إلى بني هاشم » .

فإن اعتبرتم أن معظم الذين ارتحلوا إلى الثغور مجاهدين كانوا من عرب القبائل وأنه منهم أيضاً كان أكثر المقاتلين في الحروب الداخلية القوية ثم إن تذكركم ما سبق بيانه غير مرة من بقاء الأعراب في القرن الأول والثاني على أغلب ما كانوا عليه في الجاهلية من الأهواء والأميال والعوائد ما استغريتم وجود نوع من الشعر سمّيته شعر الجنود لأنه زها في العسكر . إن مثل هذا الشعر في أمة غير العربية لم يكن إلا شيئاً قليلاً جداً دنى القدر حقيراً أما عند الأعراب فلم يكن الأمر كذلك لولوعهم المشهور بالشعر ومهارتهم به كأنه من غريزة خاصتهم وعامتهم . فیدل بعض الأخبار دلالاً مبيناً على شدة كلف الجنود بالشعر وتعظيمهم إيّاه . منها ما يروى في كتاب الأغاني^(٣) نقلاً عن أبي الحسن علي بن محمد المدائني من رواة القرن الثاني قال : « بينا المهلب بن أبي صفرة ذات يوم بفارس وهو يقاتل الأزارقة^(٤) إذ سمع المهلب في عسكره جلبة وصياحاً فقال ما هذا ؟ قالوا جماعة من العرب تحاكموا إليك في شيء فأذن لهم فقالوا : إنا اختلفنا في جرير والفرزدق فكل فريق منا يزعم أن أحدهما أشعر من الآخر وقد رضىنا بحكم الأمير . فقال كأنكم

(١) مروج الذهب ج ٦ ص ٤٥ من طبعة باريس .

(٢) يعنى آخر الأمويين الذي تولى الأمر من سنة ١٢٧ إلى سنة ١٣٢ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٥٥ ورواية أخرى في الأغاني ج ٧ ص ٣٩ - ٤٠ من طبعة بولاق .

(٤) وهم من الخوارج .

أردتم تعرّضوني لهذين الكلبين فيمزقان جلدي لا أحكم بينهما ولكني أدلكم على من يهون سؤال جرير وسؤال الفرزدق ، عليكم بالأزارقة فإنهم قوم عرب يبصرون الشعر ويقولون فيه بالحق » . ففعلوا كما قال وسألوا في الغد أزرقياً قد خرج دعاهم إلى المبارزة . - وفي تاريخ الطبري^(١) عثرتُ على خبر آخر مهم لما نحن فيه وهو أن عتّاب بن ورقاء الرياحي قبل الواقعة التي حدثت بينه وبين شبيب الخارجي سنة ٧٧ سار في الناس يعرضهم على القتال . قال الطبري عن أبي مخنف لوط بن يحيى المتوفى نحو سنة ١٣٠ عن أحد العساكر : « وقف [عتّاب] علينا فقصّ علينا قصصاً كثيراً كان مما حفظتُ منه ثلاثُ كلمات قال : يا أهل الإسلام إنَّ أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء وليس الله لأحد من خلقه بأحمد منه المصابرين ، ألا ترون أنّه يقول : أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ^(٢) فَمَنْ حَمَدَ اللَّهَ فَعَلَّمَهُ فَمَا أَعْظَمَ دَرَجَتَهُ . وليس الله لأحد أمّقت منه لأهل البغي ، ألا ترون أن عدوكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه لا يرون إلا أن ذلك لهم قربة عند الله فهم شرار أهل الأرض وكلاب أهل النار أين القصص ؟ قال ذلك فلم يُجِبْهُ والله أحدٌ منا فلما رأى ذلك قال أين من يروى شعر عنتره ؟ قال فلا والله ما ردّ عليه إنسان كلمة . فقال إنّنا لله كأنني بكم قد فررتم عن عتّاب بن ورقاء وتركتموه تسقى في استه الريح » أراد أنّه يئس من الظفر إذ لم يكن أحد يشجّع قلوب الناس ويحثّهم على القتال بقصص الروايات عن أيام العرب المشهورة وبإنشاد قصائد عنتره في الحماسة . فقيسوا على ذلك قدر الشعر الجيد من قوادر الأعراب في الحرب .

(١) تاريخ الطبري الجزء الثاني ص ٩٥٠ - ٩٥١ وبالاختصار في تاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ٣٤١ من طبعة ليدن ١٨٥١ - ١٨٧٦ (في سنة ٧٧ هـ) .

(٢) القرآن سورة ٨ (الأنفال) : ٤٧ .

وصلت إلينا الأشعار من هذا النوع متفرقة في عدة كتب لا سيما تاريخ الطبرى وكتاب الأغاني وهى تدور على خمسة أمور : الحماسة والمفاخرة وهجاء العدو ورثاء القتلى وحزن الاغتراب مع الشوق إلى الوطن البعيد^(١). ومن الحرى بالاعتبار أن الهجاء قليل لأنهم لم يتعاطوه. الغالب إلا إذا كانت المحاربة بين أقوام عربية كأنه عندهم من خصائص أولاد عدنان وقحطان فرأيهم هذا متعلق بأصل الهجاء ومنصبه عند قدماء العرب حسبما سنبينه إن شاء الله بعد الفراغ من هذا التمهيد العام فإن الهجاء لم يُعقل عندهم إلا إذا رد عليه جواب فمن الواضح أن هذا الرد مستحيل إذا كان العدو من العجم .

إذا دارت المحاربة بين أقوام من العرب أصبحت أشعارهم شبيهة بما ورد منها في الحكايات المطولة عن أيام العرب في الجاهلية فترون شعراء فريق يردون على شعراء خصمهم بأبيات أخرى حسبما كان عادة الأعراب منذ الزمان القديم . ومثال ذلك ما جرى من الأشعار بين زفر بن الحارث العامرى من أصحاب مُضْعَب بن الزُبَيْر وبين جَوَّاس بن قَعَطَل وغيره حين وقعت مَرَج رَاهِط. سنة ٦٥ وهى مرويّة في تاريخ الطبرى^(٢) وكتاب الأغاني^(٣) فلولا الأخبار المتعلقة بها لحرّنا فى الحكم أهى من عهد الجاهلية أم من زمان الإسلام . قال مثلاً زفر بعد انهزامه من أبيات كثيرة^(٤) :

(١) وقد أشرت إلى شعر الاغتراب والشوق إلى الوطن عند ما تكلمت عن شعر الأعراب الذين كانوا خارج أنحاء جزيرة العرب (١١٥ - ١١٧) .

(٢) كتاب تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٨٣ - ٤٨٦ من طبعة ليدن وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥ - ١٢٧ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ١١٠ - ١١٣ .

(٤) مروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٢٠٣ من طبعة باريس (فى الباب الثالث والتسعين) وراجع أيضاً التنبيه للمسعودى ص ٣٠٩ - ٣١٠ من طبعة ليدن ١٨٩٤ وتاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٨٣ -

لَعَمْرِي لَقَدْ أَبْقَتْ وَقِيعَةٌ رَاهِطٌ .
 فَقَدْ يَنْبُتُ الْمَرْغَى عَلَى دِمَنِ الثَّرَى
 أَرِينِي سِلَاحِي لَا أَبَا لَكَ إِنِّي
 أَتَذْهَبُ كَلْبٌ لَا تَنْلُهَا رِمَاحُنَا
 فَلَمْ تُرَ مِنِّي نَبْوَةٌ قَبْلَ هَذِهِ
 عَشِيَّةً أَغْدُو فِي الْفَرِيقَيْنِ لَا أَرَى
 أَيُذْهِبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَانُهُ
 أَبْعَدَ ابْنِ عَمْرٍو وَابْنِ مَعْنٍ تَتَابَعَا
 لِمَرْوَانَ صَدْعًا بَيْنًا مُتَنَائِيًا
 وَتَبَقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيََا
 أَرَى الْحَرْبَ لَا تَزْدَادُ إِلَّا تَمَادِيًا
 وَتَتَرَكُ قَتْلَى رَاهِطٌ هِيَ مَا هِيََا
 فِرَارِي وَتَرْكِي صَاحِبِي وَرَائِيَا
 مِنْ الْقَوْمِ إِلَّا مَنْ عَلَى وَلَا لِيَا
 بِصَالِحِ أَيَّامِي وَحُسْنِ لِيَالِيَا
 وَمَقْتَلِ هَمَامٍ أُمْنِي الْأَمَانِيَا

وكلام الشعر من هذا النوع في الأغلب بسيط. مثل قول عُويج الطائي
 يمدح كلباً وحميد بن بخلد^(١) :

لقد علم الأقوامُ وقع ابن بخلدٍ
 يقودون أولاد الوجيه ولاحق
 فهذا لهذا ثم إنني لنأفص
 فلولا أمير المؤمنين لأصبحتُ
 وأخرى عليهم إن بقى سيُعيدُها
 من الريف شهراً ما ينني مَنْ يقودُها
 على الناس أقوالاً كثيراً حدودُها
 قضاة أرباباً وقيس عبيدُها

أو مثل قول سحبان وائل (وهو غير الخطيب الشهير) يذكر قتال
 المسلمين بخجندة سنة ٩٤ ويمدح رئيسهم قتيبة بن مسلم^(٢) :

فسل الفوارس في خجندة
 هل كنت أجمعهم إذا هزموا وأقديم في قتال

٤٨٤= وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٥ - ١٢٦ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١٧ ص ١١٢ ومعجم
 البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٤٤ .

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٤٨٧ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٢٥٧ (في سنة ٩٤) وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ٤٦٠ من

طبعة ليدن .

أَمْ كُنْتُ أَضْرِبُ هَامَةً أَلْهَاتِي وَأَصْبِرُ لِلْعَوَالِي
هَذَا وَأَنْتَ قَرِيعٌ قَدِ بَرَّ كُلُّهَا ضَخْمُ النُّوَالِ
وَفَضَلْتُ قَيْسًا فِي النَّدَى وَأَبُوكَ فِي الْحِجَجِ الْخَوَالِي
وَلَقَدْ تَبَيَّنَ عَدْلُ حُكْمِكَ إِذَا فِيهِمْ فِي كُلِّ مَالٍ
تَمَّتْ مُرُوءَتُكُمْ وَنَاثَا غَى عِزُّكُمْ غُلْبَ الْجِبَالِ

لكنه شعر صادر من تَلَقَاء القلب بدون تكلّف وتصنّع معيّر عما في
الصدر حقيقة فكثيراً ما يُعْجِبُنَا وَإِنْ قَلَّ تَنْمِيقُهُ . وممن نسج القريض من
هذا الصنف بعض الشعراء المُجِيدِينَ الْبَارِعِينَ أَيْضاً فِي سَائِرِ أَنْوَاعِ الشَّعْرِ
منهم عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث المعروف بِأَعَشَى هَمْدَان^(١) وهو
شاعر فصيح كوفي قيل إِنَّهُ «شاعر أهل اليمن بالكوفة وفارسهم»^(٢) . وكان
ممن أغزاه الحجاج بن يوسف بلاد الدَّيْلَمِ الْقَرِيبَةَ مِنْ شَطْءِ بَحْرِ الْخَزَرِ
الْجَنُوبِيِّ فَأُسِرَ وَبَنَى أَسِيرًا فِي أَيْدِي الدَّيْلَمِيِّينَ مَدَّةَ ثَمٍّ سَارَ فِي جَيْشِ أَهْلِ
الْكُوفَةِ إِلَى بِلَادِ مُكْرَانَ^(٣) وطال مقامه بها . وذكر في قصائده ما لحقه من
أسر الدليم وما شهد من الوقائع^(٤) :

وَأَغِيرُ غَارَاتِي وَأَشْهَدُ مَشْهَدًا إِذَا قَلْبُ الْجَبَانِ بِهِ يَطِيرُ وَيَرْجُفُ
وَأَرَى مَغَانِمَ لَوْ أَشَاءُ حَوَيْتَهَا فَيُصَلِّتُنِي عَنْهَا غِنًى وَتَعْفُفُ

وله قصيدة رائقة وصلت منها إلينا ٥٧ بيتاً يشكو بها ما قاساه من المشاق

(١) وهي قبيلة من قبائل جنوب جزيرة العرب .

(٢) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٥١ من طبعة بولاق .

(٣) مكران ولاية في جنوب بلاد الفرس على شاطئ خليج عمان .

(٤) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٤٨ من طبعة بولاق [وديوان أعشى همدان في ذيل ديوان أعشى

ميمون الذي طبع بلندن سنة ١٩٢٨ عدد ٣٢ بيت ٣٤ - ٣٥] .

والمرض في مكران^(١) ومبتدوؤها :

طلبت الصُّبا إذ علا المَكْبِرُ وشاب القَذالُ وما تَقْصِرُ
وبان الشُّباب ولذَّاتُه ومثلك في الجهل لا يُعْذَرُ
ثم يذكر فيها العواذل ويشكو لومهن فيقول :

كأنِّي لم أرَ تحِلْ جَسْرَةً ولم أجفُها بعد ما تَضْمُرُ
فأَجْشِمُها كُلَّ دِمومة ويعرفها البلدُ الْمُقْفِرُ
ولم أَشْهَدِ البأسَ يومَ الوَغَى على المُفَاضَةِ والمِغْفَرُ
ولم أَخْرُقِ الصَّفَّ حتَّى تَمِ ل دَرَاةُ القومِ والحُسْرُ
وتحتي جَرْداءُ خَيْفَانَةٍ من الخيل أو سابحٌ مُجْفَرُ
أطاعينُ بالرمح حتَّى اللَّيَا نِ يجرى به العَلَقُ الأحمرُ

ويخرج إلى ذكر ما كان عليه من رخاء العيش ونعيمه :

وإذ أنا في عُنْفوانِ الشِّبَا بِرِ يُعْجِبُنِي اللُّهُوُ والسَّمَرُ
أصيد الحِسانَ ويصطَدَّنِي وتعجبني الكاعِبُ الْمُعْصِرُ
وبعد الإطناب في الكلام عن تغزله وقت شبابه بصفة يلوح منها أنه
كان من سكَّانِ المدن يأخذ يشكو شرَّ حاله في العسكر في البلاد البعيدة التي
بُعِثَ إليها كارهاً وذلك في أبيات كثيرة .

وفي سنة ٨٣ لما خرج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج بن يوسف
وحشد معه أكثر الكوفيين كان أعشى همدان ممن خرج معه وجعل يقول
الشعر في مدح ابن الأشعث ولا يزال يحث أهل الكوفة بأشعاره على القتال
حتَّى أُسر فقتل صَبْرًا بأمر الحجاج^(٢) . وله أيضاً شيء من الشعر يخرج

(١) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٤٩ - ١٥٠ (والديوان عدد ٢٠) .

(٢) كتاب الأغاني ج ٥ ص ١٥٩ - ١٦١ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي في الباب
الخامس والتسعين ج ٥ ص ٣٥٥ - ٣٥٨ من طبعة باريس.

عن هذا الصنف ويدخل في الصنف السادس لمداره على الاختلافات الدينية منه الأبيات المروية له في كتاب الحيوان للجاحظ.^(١) يثلب فيها أصحاب المختار من أهل الشيعة .

ومن هذا الصنف أكثر أشعار عُمَيْر بن شَيْبَم التغلبي المشهور بالقُطامي^(٢) المتوفى سنة ١١٠ كان نصرانياً كَمُعْظَم التغلبيين ثم أسلم وقال أغلب شعره في ذكر الحروب الجارية بين قبائل العرب لا سيما بين تغلب وقيس عيلان إلى أن أسير في واقعة ماكسين فأُخذت إبْلُهُ . فنَجَّاه زُفَر بن الحارث رئيس القيسيين وخلق سبيله وردَّ عليه مائة ناقة فمدحه القطامي في عدة أشعار . ومما يستحق الذكر في شعره من حيث اللغة ما ذهب إليه أحياناً من جزم عين الفعل الثلاثي في الماضي حتى قال نَشِبَتْ وتُرَكَّتْ بدلاً من نَشِبَتْ وتُرَكَّتْ^(٣) ولعل ذلك لغة تغلب لأنه غير نادر أيضاً في ديوان الأخطل .

ومن هذا الصنف أيضاً ما يُرَوَى لكعب الأشقرى^(٤) في غزوات قتيبة ابن مسلم في بلاد خوارزم^(٥) سنة ٩٣ أو قصيدته الطولى التي وصف فيها وقائع الجند مع المهلب بن أبي صفرة في بلد حين محاربة الأزارقة ببلاد العجم^(٦) - فترون أن هذا النوع من شعر عهد الأمويين يتصل بما سميئناه شعر الفتوحات في أيام الخلفاء الراشدين وبالأشعار المشهورة في أيام العرب في الجاهلية .

٦- أما الصنف السادس من شعر الدولة الأموية وهو شعر الفتن السياسية

-
- (١) كتاب الحيوان ج ٢ ص ٩٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٣٥ .
 (٢) راجع ترجمته في كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١١٨ - ١٣١ وديوانه مطبوع بليدن سنة ١٩٠٢ بعناية J. Barth
 (٣) انظر كامل المبرد ص ٥٣٧ من طبعة ليبسك .
 (٤) راجع ما قاله فيه صاحب كتاب الأغاني في ج ١٣ ص ٥٦ - ٦٤ من طبعة بولاق .
 (٥) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٦٣ - ٦٤ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٠٠٨ - ١٠١٧ .
 (٦) كتاب الأغاني ج ٣١ ص ٥٧ .

والدينية فهو من وجهٍ ليس ببعيد عن الصنف السابق بيانه لأنَّ قسماً غير يسير منه يتعلّق أيضاً بأحوال الحروب والثورات . فحِرتُ مدّة في أيّ شيءٍ أوفّقُ : أجمَعُ الصنفين أم التفريق بينهما ؟ وفضلت التفريق اعتباراً لما أت شرحه . إنّ الاتّصال بالغزوات والحروب ضروريٌّ للشعر من النوع المتقدّم وليس ضرورياً للشعر من الصنف السادس . ثمّ الحروب التي يتعلّق بها الصنف السابق ضربان بالأخصّ : أحدهما الجهاد في حدود المملكة الإسلامية أو خارجها والآخر غارات قبائل الأعراب بعضها على بعض لأسباب خاصّة لها لا يمسّ أغلبها الأحزاب السياسية الحقيقية ولا المذاهب الدينية اللهمّ إلّا عَرَضاً . أمّا الصنف السادس من الشعر فإذا ارتبط - قوله بالحروب كانت هذه الحروب من جنسٍ غير الجنسيتين السابقين لأنّها إمّا حروبٌ دائرة بين حزبين سياسيين أو حروب من النوع المسمّى عند الفقهاء بحروب المصالح لا سيّما في قتال المرتدين وأهل البغى^(١) . ثمّ إنّ الصنف السادس يحتوي أيضاً على أشعار مدارها على مذاهب سياسية ودينية من دون تعلّق بأيّ جنس كان من الحروب .

قلت مذاهب سياسية ودينية لتكون العبارة عن فكرى أوضح بالإضافة إلى أحوال زماننا الحاضر ولكن حقيقة الأمر في القرن الأول والثاني بعد خلافة عثمان بن عفّان أنّ كلّ حزبٍ سياسيّ كان عند المسلمين مذهباً دينياً أيضاً لعدم تمييز الدنيا والدين في أمور الحكومة على أحكام الشريعة الإسلامية؛ وذلك واضح إن قابلتم نظام الأمة الإسلامية بنظام الأمم الإفرنجية سواء في الزمان القديم أم في القرون الوسطى أم في العصر الجديد . عند الأمم

(١) راجع الأحكام السلطانية للماوردي في الباب الخامس ص ٤٤ - ٥٣ من طبعة مصر

١٣٢٧ أو ص ٨٩ - ١٠٧ من طبعة بن ١٨٥٣ .

الإفريقية لا يتأسس النظام الاجتماعى السياسى على العقائد وإن كانت العقائد تؤثر فيه أحياناً كما تؤثر فى الأميال والأهواء والأخلاق والآداب . فعلاقة المُلْك بأمور الدين عندهم كعلاقته بأخلاق الأمة وتمثلها أغنى على وجه طبيعى محض إذ لا يقوم مُلْكٌ من غير وجود أُمَّة ولا تُعْقَلُ أُمَّةٌ ليست لها آراء وأهواء وأميال وحاجات خاصة . فإن كانت مثلاً جملة من الباباوات فى الزمان السالف شملوا سلطة دينية وسلطة دنيوية فى أيديهم كان هذا الجمع عَرَضِيًّا لا جوهريًّا لأنهم كانوا أئمة جميع النصارى الكاثوليك فى أمور العقائد ولم يكونوا ملوكاً إلا على سَكَن مملكتهم غير الواسعة ثم ما كان هذا المُلْك مما يستوجبه الدين النصرانى . وكذلك كانت القياصرة فى القرون الوسطى والملوك غير الدستوريين فى العصر الجديد يقولون إنَّ سلطتهم من الله ولكن معنى قولهم هذا أنهم قياصرة أو ملوك بإرادة الله ومَنِّهِ وأنَّ سلطانهم حقٌّ لم يتوصَّلوا إليه بالاغتصاب والتعدى فلا تجوز للأمة المعصية عليهم . - وكذلك لا علاقة عندهم بين الأحكام الدينية وبين أصول التشريع إلا عَرَضاً فليس لهم فقه بحصر معناه المصطلح عليه عند الفقهاء وإنَّما لهم أحكام سلطانية وقوانين أُثْبِتَتْ قواعدها بالاجتهاد من غير استخراجها من شريعة منزلة أو سنن أنبياء . فواضح أنَّ مسألة اختيار الدولة وهيئة الحكومة عندهم مسألة سياسية محضة متجردة عن العقائد والأحكام الدينية . وكذلك ما اُشتق إليه فى القرون الوسطى من جمع كل النصارى فى مملكة واحدة يتولَّى أمرها قيصرٌ لم يكن من توابع قواعد النصرانية .

أمَّا الإسلام القديم فلا فرق بائن فيه بين تولَّى أمور الدنيا وتولَّى أمور الدين ومسألة الإمامة مسألة شرعية مثل سائر مباحث الفقه . قال أبو الحسن الماوردى^(١)

(١) الأحكام السلطانية ص ٢ من طبعة مصر ١٣٢٧ أو ص ٢ من طبعة بن .

إن الإمامة أصل تستقرّ عليه قواعد الملة وتنتظم به مصالح الأمة ثم^(١) إنها موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا . فمنصب الخليفة أى الإمام دنيوى من حيث قيامه بمصالح جميع سكان دار الإسلام والمسلمين المقيمين بدار الحرب وهو دينى من حيث كونه ولاية الله على الأرض لحفظ الإسلام البدع والفساد ولإبقاء وحدة الأمة الإسلامية على مقتضى الشريعة . وبما أن الأحزاب السياسية في عهد الأمويين إنما تشاجرت فيمن تكون الإمامة من حقّه فكانت هذه المسألة فقط سبب الحروب سوى الجهاد وغزوات الأعراب وفتن أهل البدع ، ظاهر أننا لا نتمكن من التفريق فيما بين الأشعار في حروب الأحزاب السياسية والأشعار في الاختلافات الدينية .

إن الشعر من هذا الصنف السادس ذو شأن خطير سواء لنفس قيمته الأدبية أم لما يستفيدة منه من أراد البحث العميق الدقيق المُنصف عن تاريخ المشرق الإسلامى في ذلك العصر . لا يخفى عليكم أن القدماء الذين صنفوا الكتب في الأخبار والسير قلما ذهبوا إلى إيضاح الأحوال الاجتماعية والأغراض العاملة في الحوادث وإنما اقتصروا أو كادوا على ذكر ما يظهر من التقلبات والوقائع والحروب والأخبار من دون الإفادة عن أسبابها الباطنة الخفية مثل آراء طبقات الناس وأهوائهم وأميالهم ومصالحهم فأصبح أكثر ما ألف إلى الآن [يعنى إلى سنة ١٩١١] بالعربية من تواريخ بلاد الإسلام أقرب إلى الأخبار البرقية المنشورة في الجرائد منها إلى ما يُعتبر الآن غاية التاريخ الحقيقى الباحث عن علل الحوادث وتسلسلها وعن انقلابات الأحوال الاجتماعية والأفكار . ثم من آفات الكتب العربية في التاريخ أنها

(١) الأحكام السلطانية ص ٣ من طبعة مصر ١٣٢٧ و ص ٣ أيضاً من طبعة بن .

في الغالب لم تستشَقْ إلّا من المصادر الرسمية أو روايات الفريق الفائت على غيره فبعد الاطلاع عليها كثيراً ما نُضجى كحُكْم سمع أحد الخصمَيْن فقط فلا يتمكّن من الإنصاف في الحُكْم . وغير مرّة تساعدنا الأشعار من الصنف السادس على تدارك هذا الخلل . فإنها قامت في عصرها مقام الجرائد والمناقشات الدائرة الآن في المجالس العموميّة وهي في الغالب لم تكن ترجمان فكر قائلها فقط . بل كانت صوت جميع الحزب أو المذهب المنتسب الشاعر إليه . فإنّ العرب في ذلك العصر الذي لم يُعرَف فيه فنّ الطباعة بعد اتخذوا الشعر وسيلة لنشر آرائهم وأفكارهم وعواطفهم لأنّ الشعر أُسِير على ألسنة الناس وأوقع في قلوبهم من الكلام المنشور العادى . فالراوى المرتحل من بلد إلى بلد يُنشِد الأشعار كان لهم بمنزلة الجريدة المُشيعة آراء حزبها في الجمهور . فكفى ذلك دلالة على أهميّة تلك الأناشيد لمن أراد الوقوف التام على حياة العرب الاجتماعية وعلى الأهواء والعواطف التي لا غنى عن حقّ معرفتها لمن عزم التنقيب عن حوادث الزمان السالف وإزالة الشكّ واللبس في تقدير عللها .

لَمَّا قُتِلَ عثمان بن عفّان يوم الأضحى من سنة ٢٥٦ هـ اضطربت الناس اضطراباً شديداً فذهب قوم غير يسير منهم إلى أنّ عليّ بن أبي طالب قد شارك القاتل فأنكروا بيّنته ومنهم أغنى من العثمانية حسان بن ثابت الأنصارى شاعر النّبى سابقاً الذي رثا عثمان فقال في مرثيته الأبيات الشهيرة^(١)

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٩٨ من طبعة تونس أو عدد ٢٠ ص ٢٢ من طبعة ليدن - أما البيت الأول فهو ناقص في طبعات الديوان ولكنه موجود في كتاب العقد لابن عبد ربّه ج ٢ ص ٢٠٦ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفي بيان الجاحظ ج ١ ص ٩٠ سطر ٧ من طبعة ١٣١٣ وفي كتاب التنبيه للمسعودى ص ٢٩٢ من طبعة ليدن وفي خزنة الأدب ج ٤ ص ١١٨ من طبعة بولاق وفي تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ١٥١ من طبعة ليدن وكل الأبيات مروية في NGLDEKE., *Delectus veterum carminum arabicorum* ص ٧٧ . - أما عنوان السجود فانظر القرآن ٤٨ (سورة النّح) : ٢٩ .

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ. عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ
 بَلْ لَيْتَ شِعْرِي وَلَيْتَ الطَّيْرُ يُخْبِرُنِي
 لَتَسْمَعُنَّ وَشَيْكًا فِي دِيَارِكُمْ
 وَقَدْ رَضِيتُ بِأَهْلِ الشَّامِ زَافِرَةً
 إِنِّي لَمِنْهُمْ وَإِنْ غَابُوا وَإِنْ شَهِدُوا
 صَرًّا فِدَى لَكُمْ أُمِّي وَمَا وَلَدَتْ
 شُدُّوا السُّيُوفَ بَيْنِي فِي مَنَاطِقِكُمْ
 لَعَلَّكُمْ أَنْ تَرَوْا يَوْمًا بِمَغْبِطَةٍ

يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا
 مَا كَانَ شَأْنُ عَلِيٍّ وَأَبْنِ عَفَّانَا
 اللَّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَا
 وَبِالْأَمِيرِ وَبِالْإِخْوَانِ إِخْوَانَا
 حَتَّى الْمَمَاتِ وَمَا سُمِّيتُ حَسَانَا
 قَدْ يَنْفَعُ الصَّبْرُ فِي الْمَكْرُوهِ أَحْيَانَا
 حَتَّى يَحِينَ بِهَا فِي الْمَوْتِ مَنْ حَانَا
 خَلِيفَةُ اللَّهِ فِيكُمْ كَالَّذِي كَانَا

فكانت هذه الأبيات كأنها مقدمة المعرفة بالمستقبل فتداعت أصوات
 من طلب ثار عثمان وجاوبتها الأصدااء لاسيما في الأنحاء الشامية فاشتعلت
 نار الحرب وتصلصلت الدروع من وقع البيض ونمت العداوة بين أهل العراق
 وأهل الشام كما قال كعب بن جعيل التغلبي شاعر الشاميين (١):

أَرَى الشَّامَ تَكَرَّرَهُ مُلْكُ الْعِرَاقِ
 وَكُلًّا لِصَاحِبِهِ مُبْغِضًا
 وَكُلُّهُ يُسَرُّ بِمَا عِنْدَهُ
 إِذَا مَا رَمَوْنَا رَمَيْنَاهُمْ
 فَقَالُوا عَلِيٌّ إِمَامٌ لَنَا
 وَقَالُوا نَرَى أَنْ تَدِينُوا لَنَا

وَأَهْلَ الْعِرَاقِ لَهُمْ كَارِهِينَا
 يَرَى كُلُّ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ دِينَا
 يَرَى غَتًّا مَا فِي يَدَيْهِ سَمِينَا
 وَدِنَاهُمْ مِثْلَ مَا يُقْرَضُونَا
 فَقُلْنَا رَضِينَا أَبْنَ هِنْدٍ رَضِينَا
 فَقُلْنَا لَهُمْ لَا نَرَى أَنْ نَدِينَا

(١) كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ١٧٠ - ١٧١ من طبعة ليدن ١٨٨٨
 و NÆLDEKE, *Delectus veterum carminum arabicorum*, P. 79-80. وأجابه النجاشي (راجع كتاب
 الأخبار الطوال ص ١٧١ وكتاب Nædeke ص ٨٠ وانظر أيضاً F.SCHULTHESS, *Ueber den*
Dichter al-Nagāṣī und einige Zeitgenossen, *Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft*,
 54, 1900, P. 64).

ومن دُونِ ذَلِكَ خَرَطُ الْقَتَادِ وَضَرْبُ وَطْعُنُ يُقَرُّ الْعُيُونَا
 وَمَا فِي عَلِيٍّ لِمُسْتَحْدِثٍ مَقَالُ سِوَى عِصْمَةِ الْمُحَدِّثِينَ
 وَإِثَارِهِ لِأَهَالِي الذُّنُوبِ وَرَفْعُ الْقِصَاصِ عَنِ الْقَاتِلِينَ
 إِذَا سِيلَ عَنْهُ زَوَى وَجْهَهُ وَعَمَّى الْجَوَابَ عَلَى السَّائِلِينَ
 فَلَيْسَ بِرَاضٍ وَلَا سَاخِطٍ وَلَا فِي النُّهَاةِ وَلَا الْآمِرِينَ
 وَلَا هُوَ سَاءٌ وَلَا سَرُّهُ وَلَا بُدٌّ مِنْ بَعْدِ ذَا أَنْ يَكُونَا

كان المسلمون بعد قتل عثمان إلى أيام صفين منقسمين إلى فريقين كبيرين متحاربين : العثمانية وشيعة علي . وبينهما ناس يكرهون سفك دماء المؤمنين ويتجنبون التحزب وهم المسمون بالمعتزلة ^(١) منهم أبو موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص والمغيرة بن شعبة وغيرهم . ثم رضى علي باقتراح التحكيم في خلافته في صفر سنة ٣٧ هـ (أغسطس ٦٥٧ م) كان سبب فتنة في شيعته لأن قوماً من أصحابه استقبحوا تحكيم الرجال في دين الله أي تفويض حل مسألة الإمامة إلى رجلين لقولهم إنه لا حكم إلا لله فخرجوا عن جيشه إلى حروراء ^(٢) فسموا الحرورية أو الخوارج ^(٣) - وفي سنة ٣٨/٦٥٨ التقى الحكماني وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص بأذرح في أرض

(١) (أما علاقة هؤلاء المعتزلة بالمعتزلة المشهورين في تاريخ علم التوحيد الإسلامي وأصل اسم هؤلاء المعتزلة الآخرين فراجع C.A.NALLINO, *Raccolta di scritti editi e inediti*, vol. II, 1940, P. 146-169.

(٢) وهو موضع غير بعيد عن الكوفة .

(٣) هذا أصل الاسم فما سموا به - كما يقال - لأنهم خرجوا على علي . فراجع الذي علقه R. BRUNNOW, *Die Charidschiten unter den ersten Omayyaden*, Leiden 1884, P. 28, بسورة النساء : ١٠١

J. WELLHAUSEN, *Die religions-politischen Oppositionsparteien im alten Islam*, Berlin 1901, P. 41.2., (F. GABRIELI, *Sulla origini del movimento Khārigita* (R. Accademia d'Italia, Rendiconti classe scienze morali, 8e série, vol. 3, PP. 110-177); M. GUIDI, *Sui Khārigiti* (Rivista degli Studi Orientali, XXI 1944, P. 1-14).

البلقاء فنتيجة الأمر المرجو منه توافق النفوس واطمئنان القلوب إنما خلع على معاوية معاً . قد دهش كثير من أهل العراق والحجاز أي دهش حين سمعوا خبر ذلك الحكم الذي أسرع على في إنكاره فلشدة استغرابهم وبغضهم لمعاوية أنشئت عندهم وذاعت الرواية المتداولة حتى الآن عن الخيانة المنكرة القبيحة التي دبّرها وارتكبها عمرو بن العاص . أمّا الحقيقة التي لم يتوصل إلى كشفها إلا من رجع إلى المصادر الأصلية القديمة وأدمن فيها النظر والبحث فإن عمرو بن العاص ما أثبت معاوية ألبتة ولكن بما عهد له من الدهاء والمهارة في أمور السياسة قد بلغ مرآته ومرام معاوية حين حمل أبا موسى الأشعري على الرضى بالتفحص عن حقوق كل من الخصمين كأنهما متساويا القدر وكان خليفة بايعه جملة وافرة من المؤمنين لا يُفَضَّل على من كان والياً على الشام فقط . فنتيجة الحكم أي خلع كلا الخصمين إنما كان أن علياً عزّل عن الخلافة فلم تبق له إلا ولاية العراق أمّا معاوية فخلع ممّا لم يكن له فبقى على ما كان عليه قبلاً بل زاد حظوة عند أصحابه إذ ساواه الحكم بمن كان مدّة أعلى منه بكثير^(١) .

فبالجملة كان أمر الحكّمين سبب أكثر الاختلافات التي حدثت في الأمة الإسلامية بعد موت عثمان إلى أواخر القرن الثاني . خرجت الخوارج عن شيعة على لمجرد قبوله لاقتراح التحكيم وبعد خروجهم بأربع وعشرين سنة اختلفوا في جواز السكنى في غيرهم من المسلمين ووجوب مجاهدتهم على الدوام فافترقوا وصاروا على أربعة أضرب : الأزارقة والصُفريّة والبَيْهسيّة والإباضيّة^(٢) . أمّا ختام أمر الحكّمين ففرق بين المسلمين تفريقاً عظيماً

LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia* 1, P. 125-140.

(١) راجع

(٢) هذا تفرقهم القديم في سنة ٦١ هـ تقريباً . انظر الكامل في اللغة للمبرد ص ٦٠٤ من طبعة ليسك أوج ٢ ص ١٧٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٧٩٧ .

لم يزل إلى الآن فإنَّ العلويين قالوا بتوارث الإمامة في أهل البيت فأنكر الآخرون ذلك وقالوا بانعقاد الإمامة باختيار أهل الحل والعقد أو بعهد مَنْ قبل . وزاد البون بين الفريقين نحو أواخر القرن الأوَّل لزيادة محازبة الموالي من الفرس لشيعه علي فهم أدخلوا في مذهبهم اعتقادات غريبة وبدعا من بقايا آرائهم ودياناتهم القديمة . - وحدث أيضاً بعد أمر الحكيمين حزب المُرجئة ومنزلتهم فيما بين شيعة العلويين وشيعة بني أمية كمنزلة المعتزلة المشار إليهم فيما تقدّم (ص ٢٣١) بين العثمانيين وأصحاب علي بن أبي طالب . - ومن عواقب الحكم أيضاً حزب الزبيريين لا سيما في الحجاز والعراق فإنه من المشهور أنَّ عبد الله بن الزبير ادّعى الخلافة بعد موت الحسين سنة ٦١/٦٨ وتولّى الأمر بمكة إلى سنة ٧٢/٦٩ . - ثمَّ في أوائل القرن الثاني ابتدأت الدعوة العباسية بخراسان فقام فريق سادس من المسلمين يدعون الخلافة لبني هاشم لقربتهم من علي بن أبي طالب . - فكلَّ هذه الأفرقاء شعراء كانوا يدافعون عن أغراضهم وعمّا ادّعى الفريق من الحقوق .

كثُر ذكر شعراء الخوارج وخطبائهم في كتب الأدب القديمة مثل كتاب البيان والتبيين للجاحظ^(١) وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه^(٢) بل أفرد المبرّد لأخبار الخوارج قسماً غير صغير من كتابه المسمّى بالكامل في اللغة والأدب^(٣) . وشعرهم شعر خُلناه في الغالب من نظم أهل البادية أسلوباً ولغة

(١) كتاب البيان والتبيين ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة مصر ١٣١٣ (أوج ٣ ص ١٦٥ - ١٦٦ مع طبعة ١٣٥١) .

(٢) كتاب العقد ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٣) الكامل ص ٥٢٧ - ٦٠٠ من طبعة ليبسك أوج ٢ ص ١١٩ - ٢٢٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ (ونقل الأستاذ Rescher هذا القسم إلى اللغة الألمانية وطبعه بالعنوان : *Die Kharidschitenkapitel aus den Kāmil*, Stuttgart 1922).

(واعنى الأستاذ Gabrieli بجمع أشعار الخوارج الذين عاشوا في عصر بني أمية :

F. GABRIELI, *La poesia kharigita nel secolo degli Umayyadi* (Rivista degli Studi Orientali, vol. XX, 1949, P. 331-372).

وهو فصيح العبارة دائر أكثره على الحماسة والحرب . فلو أردنا الحكم فيهم بناءً على شعرهم لقلنا إنهم أقرب بكثير إلى أهل الوبر منهم إلى أهل المدر . ولكن إذا راجعنا النصوص التاريخية القديمة وجدنا جمًّا غفيراً من الأخبار عن تقاهم ونسكهم وشدة عنايتهم بقراءة القرآن وإقامة الصلاة ليلاً ونهاراً وغير ذلك ممَّا يخالف أميال الأعراب وشعائرهم . فما الحقيقة في تناقض هذين الأمرين ؟

لا شك أن الذين رأسوا خروج الحروريين عن جيش علي بن أبي طالب لم يكونوا أعراباً بل كانوا قراء من أهل الحضر منهم مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي وذلك لأنهم رأوا التحكم إفساداً للدين . هذا الثابت في جميع الأخبار . فترون أن أصل الخروج إنما كان مسألة نظرية لا يمكن أن تهّم ناساً مثل الأعراب . ولكن بعد قليل أكثر أهل القبائل الذين كانوا هاجروا من بلادهم في أواسط جزيرة العرب وأقاموا بالكوفة والبصرة بعد الفتح الإسلامي اتبعوا القراء لسببين أحدهما مجاورتهم لهم من حيث السكنى والآخر موافقتهم لهم في مسألة الخلافة . لا يخفى عليكم أن القطب الذي يدور عليه مذهب الخوارج هو وجوب انعقاد الإمامة بالاختيار غير المحدود لأن كل مسلم صالح يمكن عندهم أن يقلد الخلافة وحق الاشتراك في الاختيار مطلق عندهم على الجماعة بأسرها ولا يختص بأهل الحل والعقد . فعلى هذا الرأي كان منصب الخليفة في الأمة الإسلامية كمنزلة السيد في القبيلة فرضى به الأعراب طبعاً لما لهم من حب الاستقلال والتمسك بعاداتهم القديمة والكراهة لكل نظام مخالف نظامهم الخاص . فعن جمع هذين العنصرين المختلفين القراء والأعراب صدر التناقض الظاهري المومأ إليه فيما سبق .

ومن شعراء الخوارج وخطبائهم قَطَرِيّ بن الفُجَّاءة رئيس الأزارقة الذي خرج على ولاية العراق فبقى ٢٠ سنة يقاتل ويسلم عليه بالخلافة حتى قُتل سنة ٧٧^(١) ومن أشعاره الأبيات الشهيرة المروية في حماسة أبي تمام^(٢) :

أقول لها وقد طارت شَعَاعاً من الأبطال وَيَحَكِّ لَنْ تُرَاعِي
فإنَّكَ لو سَأَلْتِ بَقَاءَ يَوْمٍ على الأجل الذي لك لَمْ تُطَاعِي
فصَبْرًا في مَجَالِ الموتِ صَبْرًا فما نَيْلُ الخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
ولا ثَوْبُ البقاءِ بثوبِ عِزٍّ فيُطَوَّى عن أخى الخَنْعِ الْيَرَاعِ
سبيلُ الموتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ فدَاعِيهِ لِأهلِ الأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُعْتَبِطُ يَسَامُ وَيَهْرَمُ وتُسَلِّمُهُ المَنُونُ إِلَى أَنْقِطَاعِ
وما للمرءِ خَيْرٌ في حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ من سَقَطِ المَتَاعِ

قال ابن خلكان^(٣) : « وهي تشجع أجبن خلق الله وما أعرف في هذا الباب مثلها وما صدرت إلا عن نفس أبيه وشهامة عربيّة » . - ومن شعرائهم المقدّمين عِمْرَانُ بن حِطَّان السُّدُوسِيّ^(٤) كان من علماء الصُّفَرِيَّة وخطبائهم فحين أَسَنَّ وضعف عن الحرب اقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه . وهو

(١) كذا في تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٠١٨ وقال ابن خلكان (وفيات الأعيان عدد ٥٥٦ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥١٧ من الطبعات المصرية) أنه قتل في سنة ٧٨ هـ .

(٢) حماسة أبي تمام ص ٤٤ من طبعة بن أو ج ١ ص ٤٩ - ٥٠ من طبعة بولاق ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٥٦ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥١٧ من الطبعات المصرية وشرح الشواهد الكبرى للمعنى ج ٣ ص ٥١ - ٥٣ من طبعة بولاق بهامش خزانة الأدب .

(٣) وفيات الأعيان في الموضع المذكور .

(٤) راجع الكامل للمبرد ص ٥٣٠ - ٥٣٤ من طبعة ليسك أو ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٤ من مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٢ - ١٥٧ وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٢ و ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة ١٣١٣ [أو ١ ص ٥٥ و ج ٣ ص ١٦٦ من طبعة ١٣٥١] وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ١ ص ٦٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

من الذين مدحوا ابن مُلْجَم قاتل عليّ بن أبي طالب وقوله في ذلك مشهور^(١). وأطرده الحجاج بن يوسف وليّ في طلبه فنجا منه هارباً منتقلاً في القبائل حتى مات في قبيلة الأزد ببلاد عمان . وكان ممن عاصر الفرزدق ولكن شتان ما بينهما فإن الفرزدق لم يزل يمدح الأكابر والرؤساء طمعاً في هداياهم وعمران بن حِطان برىء من مثل ذلك وهو القائل^(٢) (من بحر الخفيف) :

أَيُّهَا الْمَادِحُ الْعِبَادَ لِيُعْطَى إِنَّ اللَّهَ مَا بِأَيْدِي الْعِبَادِ
فَاسْأَلِ اللَّهَ مَا طَلَبْتَ إِلَيْهِمْ وَأَرْجُ فَضْلَ الْمُقْسَمِ الْعَوَادِ
لَا تَقُلْ فِي الْجَوَادِ مَا لَيْسَ فِيهِ وَتُسَمِّى الْبَخِيلَ بِاسْمِ الْجَوَادِ

ومن شعرائهم معاذ بن جُوَيْن بن حُصَيْن الخارجيّ سجنه المغيرة بن شُعْبَة والى الكوفة (٩١١ - ٩٧٠) فقال في الحبس يحرض أصحابه على الخروج^(٣) :

أَلَا أَيُّهَا الشَّارُونَ قَدْ حَانَ لِأَمْرِي شَرَى نَفْسَهُ لِلَّهِ أَنْ يَتَرَحَّلَا
أَقْمَشُم بِدَارِ الْخَاطِئِينَ جَهَالَةً وَكُلُّ أَمْرِي مِنْكُمْ يُشَادُّ لِيُقْتَلَا
فُشِدُّوا عَلَى الْقَوْمِ الْعُدَاةِ فَإِنَّهَا أَقَامَتْكُمْ لِلذَّبْحِ رَأْيَا مُضَلَّلَا
أَلَا فَاقْصِدُوا يَا قَوْمِ لِلْغَايَةِ الَّتِي إِذَا ذُكِرَتْ كَانَتْ أَبْرَ وَأَعْدَلَا
فِيَا لَيْتَنِي فِيكُمْ عَلَى ظَهْرِ سَابِحٍ شَدِيدِ الْقَصِيرَى دَارِعاً غَيْرَ أَغْزَلَا
وَيَا لَيْتَنِي فِيكُمْ أَعَادَى عَدُوِّكُمْ فَيَسْقِيَنِي كَأْسُ الْمَنِيَّةِ أَوْلَا
يَعِزُّ عَلَى أَنْ تُخَافُوا وَتُطْرَدُوا وَلَمَّا أُجْرِدُ فِي الْمُحْلَيْنِ مُنْصَلَا

(١) الأبيات مروية في الكامل المبرد ص ٥٣١ من طبعة ليبسك أو ج ٢ ص ١٢٢ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٦٣ من طبعة مصر ١٣١٧ - ١٣٢١ بهامش كتاب الملل والأهواء والنحل لابن حزم أو ص ٩٠ من طبعة لندن ١٨٤٦ .
(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٦ و ج ٧ ص ٦ وقيل فيه إن الأبيات منسوبة إلى السيد الحميري في رواية أخرى .

(٣) تاريخ الطهري ج ٢ ص ٣٦ من طبعة لندن .

ولمَّا يُفَرِّقْ جَمْعَهُمْ كُلُّ مَاجِدٍ إِذَا قُلْتَ قَدْ وَلَّى وَأَذْبَرَ أَقْبَلًا
 مُشِيحًا بِنَصْلِ السَّيْفِ فِي حَمْسِ الْوَعَى يَرَى الصَّبْرَ فِي بَغْضِ الْمَوَاطِنِ أَمْثَلًا
 وَعَزَّ عَلَى أَنْ تَضَامُوا وَتُنْقَصُوا وَأُضْبِحَ ذَا بَثٍّ أَسِيرًا مُكْبَلًا
 وَلَوْ أَنِّي فِيكُمْ وَقَدْ قَصَدُوا لَكُمْ أَثَرْتُ إِذَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ قَسْطَلًا
 فَيَا رَبِّ جَمْعٍ قَدْ قُلْتُ وَغَارَةً شَهِدْتُ وَقِرْنٍ قَدْ تَرَكَتُ مُجَدَّلًا

ومنهم الطُّرْمَاحُ بْنُ حَكِيمٍ المشهور أيضاً لبراعته في الخطابة (١) كان على قول صاحب الأغاني (٢) « من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحاهم ومنشؤه بالشام وانتقل إلى الكوفة بعد ذلك مع من وردها من جيوش أهل الشام واعتقد مذهب الشُّرَاة الأزارقة » . وروى في الأغاني أيضاً (٣) : « كان الكُمَيْتُ بْنُ زَيْدٍ صديقاً للطُّرْمَاحِ لَا يَكَادَانِ يَفْتَرِقَانِ فِي حَالٍ مِنْ أَحْوَالِهِمَا فَقِيلَ لِلْكُمَيْتِ : لَا شَيْءَ أَعْجَبُ مِنْ صَفَاءِ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الطُّرْمَاحِ عَلَى تَبَاعُدِ مَا يَجْمَعُكُمَا مِنَ النِّسَبِ وَالْمَذْهَبِ وَالْبِلَادِ وَهُوَ شَائِيٌّ قَحْطَانِيٌّ وَأَنْتَ كُوفِيٌّ نَزَارِيٌّ شَيْعِيٌّ فَكَيْفَ اتَّفَقْتُمَا مَعَ تَبَايُنِ الْمَذْهَبِ وَشِدَّةِ الْعَصْبِيَّةِ ؟ فَقَالَ اتَّفَقْنَا عَلَى بُغْضِ الْعَامَّةِ » . وقبل انضمامه إلى الخوارج قد مدح أمراء الأمويين وهجا قبيلة تميم هجاء مُفَرِّطاً فِي الشُّتْمِ وَالْإِحْتِقَارِ رَوَاهُ ابْنُ قَتِيْبَةٍ فِي كِتَابِ الشَّعْرِ وَالشُّعْرَاءِ (٤) . ومن شعره بعد تملُّذه بالخوارج (٥) :

(١) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ١٨٤ من طبعة مصر ١٣١٣ (أوج ٣ ص ٢٧٢ من طبعة ١٣٥١) .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٥٦ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٥٦ و ج ١٥ ص ١١٣ وراجع أيضاً كتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٢٢ من طبعة مصر ١٣١٣ (أوج ١ ص ٥٤ - ٥٥ من طبعة ١٣٥١) .

(٤) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٧٢ و ٣٧٣ من طبعة ليدن . وتروى أربعة أبيات من الهجاء الأول بغير اسم الشاعر في الباب السابع بعد المائة من مروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ١٣٨ من طبعة باريس .

(٥) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٧٣ - ٣٧٤ من طبعة ليدن وراجع أيضاً كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٦٠ (وديوان الطرماح عدد ٣٥ من طبعة لندن ١٩٢٧) .

فيا ربُّ لا تَجْعَلْ وَفَاتِيْ إِنْ دَنْتَ على شَرْجَعٍ يُعْلَى بِدُسْنِ الْمَطَارِفِ
ولكنْ أَجِنْ يَوْمِيْ شَهِيدًا وَعُصْبَةً يُصَابِرُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ خَائِفِ
عَصَائِبُ مِنْ شَتَّى يُؤَلَّفُ بَيْنَهُمْ هُدَى اللَّهِ نَزَالُونَ عِنْدَ الْمَوَاقِفِ
إِذَا فَارَقُوا دُنْيَاهُمْ فَارَقُوا الْأَذَى وصاروا إِلَى مَوْعِدٍ مَا فِي الْمَصَاحِفِ
فَأُقْتَلَ قَعْصًا ثُمَّ يُرْمَى بِأَعْظُمِيْ كَضِغْتِ الْخَلَابِينَ الرِّيحَ الْعَوَاصِفِ
وَيُضْبِحُ لَحْمِي بَطْنِ طَيْرٍ مَقِيلُهُ دُوَيْنَ السَّمَاءِ فِي نُسُورٍ عَوَائِفِ

يذكرنا البيتان الأخيران توحش بعض أشعار الجاهلية لا سيما أشعار
الشَّنْفَرَى وتَأَبَّط. شراً إلاَّ أنَّ سبب التوحش عند هذين الشاعرين يختلف
عن سببه عند الطرمّاح فإنَّ همجية بعض شعراء الجاهلية صدرت عن أحوال
حياتهم القريبة من أحوال الصعاليك اللصوص وقُطَّاع الطريق أمّا ما ورد منها
في شعر الطرمّاح فصادر عن مذهب الأزارقة الذين رأوا الموت في الحرب وقتل
مَنْ لم يكن من الخوارج أهونَ الأشياء عليهم فلم يزالوا مقاتلين إلى انقراض
فرقتهم مُخْطَرِينَ أنفسهم بعجاجة عجيبة لا نظير لها كأنهم مشتاقون إلى
الموت الأحمر وكانوا أيضاً أصحاب الاستعراض أي أصحاب الرأي بإباحة
قتل جميع الناس من المخالفين في أيّ وقت وبدون تمييز الرجال والأطفال
والنساء . فلذلك إنَّ معاني مثل الواردة في أبيات الطرمّاح ليست نادرة في
أشعار الخوارج فقال قَطَرِيٌّ بن الفُجاعة (١) :

أَلَا أَيُّهَا الْبَاغِي الْبِرَازَ تَقَرَّبْنِ أَسَاقِكَ بِالْمَوْتِ الذِّعَافَ الْمُقَشِّبَا
فَمَا فِي تَسَاقِي الْمَوْتِ فِي الْحَرْبِ سُبَّةٌ على شَارِبِيهِ فَاسْتَقْنِي مِنْهُ وَأَشْرَبَانِي
وقال عمران بن حِطَّانَ لَمَّا قُتِلَ أَبُو بِلَالٍ مِرْدَاسَ بن أَدِيَّة (٢) :

(١) حماسة أبي تمام ص ٣٣١ من طبعة بن أوج ٢ ص ١١١ من طبعة بولاق .
(٢) الكامل للمبرد ص ٥٣٠ من طبعة ليسك أوج ٢ ص ١٢١ من طبعة مصر ١٣٢٣-١٣٢٤

لقد زاد الحياةَ إلى بُغْضًا وحبًّا للخروج أبو بلالٍ
أحاذر أن أموتَ على فراشي وأرجو الموتَ تحت ذُرَا العوالى
ولو أننى علمت بأنَّ حَتْفُ كحَتْفِ أبي بلالٍ لم أبالٍ
فمن يكُ همُّه الدنيا فإننى لها واللهِ ربَّ البيتِ قالِ

هذا أمر الخوارج . أما الشيعة فأغلبهم قليلو الميل إلى الحرب مستنكفين من جفاء الخوارج فشعرهم بعيد عن توحُّش شعر الأزارقة كثيرُ المدار على مدح أهل البيت وبيان الاختلافات الدينية . ومن شعرائهم كثيرُ بن عبد الرحمن الخزاعي المتوفى سنة ١٠٥ المعروف بكثير عزة^(١) لتشبيهه بعزة الضمرية في شعره وإن قيل إنه مُدَّع غير صادق الصبابة والعشق . فهذا القسم من شعره وهو غير يسير يدخل في الصنف الذى سمَّيناه بالشعر الغرامى عند أهل البادية فعُدَّ كثير لذلك من العشاق المشهورين . لكنه لاتصاله بمذهب الكيسانية من الشيعة وإظهار هذا المذهب فى أشعاره غير الغرامية يستحق أن يُجعل فى شعراء الصنف السادس الذى نحن فى بيانه لا سيما إذ كان ما أبداه فى أبياته من آرائه الغريبة خطير الشأن لمن يفحص عن أصول اعتقادات الفرق الشيعية . إن الذين ألفوا التصانيف الثمينة فى الملل والنحل مثل ابن خزم والشهرستاني لم يميزوا فى بيانهم القديم والحديث من اعتقادات كلِّ فرقة فرما نسبوا إلى أوائل الفرقة ما لم يتكوَّن أو لم يُدخل فيها إلا بمرور الزمان فإذا أردنا التوصل إلى كشف حقيقة الأوائل

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغاني ج ٨ ص ٢٦ - ٤٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣١٢ - ٣٢٩ من طبعة ليدن وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٥٨ من طبعة غوتنجن أو ٥١٩ من الطبقات المصرية (وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٢٢ - ١٢٥ من طبعة ليدن وديوانه مطبوع بعناية Pichet في الجزائر وباريس سنة ١٩٢٨ - ١٩٣٠) .

فلا بدّ لنا من الرجوع إلى أقوال شعراء هذا الصنف السادس التي برتبة نصوص صحيحة موثوق بها .

من المشهور أنّ ركن مذاهب أهل الشيعة توارث الإمامة في أعقاب عليّ بن أبي طالب . فهو رأى لم تذهب أغلب العرب إليه أبداً لنفس مخالفته لنظامهم القديم الذي لم يزل إلى الآن عند الأعراب أعنى أنّ سيّد القبيلة لا ينال منصبه إلاّ باختيار رجال القبيلة إيّاه فلا تتوارث السيادة فإن خلف ابن أبيه فيها كان ذلك باختيار القوم أيضاً لا لحق ميراث . أمّا الأمم المجاورة للعرب في أيام غرة الإسلام لا سيما الفرس فمن زمان طويل ألّفت نظاماً سياسياً أساسه توارث الملك في عائلة فلم يكونوا يتصوّرون إمكان ملك عظيم متين اختارت العامة رأسه . قمالت الفرس طبعاً إلى رأى أهل الشيعة في الإمامة . وزيدوا على ذلك سبباً آخر قومياً أعنى أنّ العجم بعد موت عليّ بن أبي طالب رأوا مقاومة أهل الشيعة لبنى أمية كممثل قيام على سلطنة العرب فانضموا إليها أفواجاً لبغضهم السريّ للمتغلبين على بلادهم . فلتأثير مذاهب الفرس واليهود تغيّرت شيئاً فشيئاً مسألة الإمامة عند أهل الشيعة عمّا كانت في وقت عليّ أمير المؤمنين . قد جاء في القرآن أنّ محمداً خاتم النبيين فيدلّ هذا القول ظاهراً أنّ الشريعة الإسلامية ستقوم بعده مقام النبوة فيما سلف من الزمان . ولكن خالف هذا آراء كثير من أمم الشرق واعتقاداتها القديمة فلم يستصوبوا في قلوبهم انقطاع النبوة وعدم بقائها في رجل من الرجال لأنّ النبوة عندهم تمثيل قدرة الله على الأرض وعنايته بأمر الناس فلو لم تكن النبوة في أحد من الأحياء لمنعت عندهم الدنيا العناية الإلهية . فحملهم هذا الظنّ بعد إسلامهم على اعتقاد توارثها في أهل البيت بصفة أن يكون الخلف حياً موجوداً في وقت سالفه حسبما كان مثلاً يشوع موجوداً في أيام موسى أو عليّ في أيام محمد . غير أنّهم تركوا طبعاً لفظ.

النبي لتسمية أعقاب رسول الله والتجسُّوا إلى لفظ الوصي أو المهدي أو الإمام^(١). فإلى بقاء رسالة الله في أهل البيت يشير أبو داود خالد بن إبراهيم أحد دُعاة أبي مُسلم بخراسان في مخاطبته للنُّقباء بِمَرَوْ سنة ١٢٩^(٢): «قال: أفتشكون أن الله تعالى نزل عليه [أى على النبي] كتابه فاتاه جبريل عليه السلام الروح الأمين أحلَّ فيه حلاله وحَرَّم فيه حرامه وشرع فيه شرائعه وسنَّ فيه سُنَّه وأنبياء فيه بما كان قبله وما هو كائن بعده إلى يوم القيامة؟ قالوا: لا. قال: أفتشكون أن الله عزَّ وجلَّ قبضه إليه بعد ما أدَّى ما عليه من رسالة ربِّه؟ قالوا: لا. قال: أفتظنون أن ذلك العلم الذي أنزل عليه رُفِع معه أو خُلِفَه؟ قالوا: بل خُلِفَه. قال: أفتظنون خُلِفَه عند غير عِترته وأهل بيته الأقرب فالأقرب؟ قالوا: لا. قال: فهل أحد منكم إذا رأى من هذا الأمر إقبالاً ورأى الناس له محبِّين بدا له أن يصرف ذلك إلى نفسه؟ قالوا: اللهم لا وكيف يكون ذلك؟ قال: لست أقول لكم فعلتم ولكنَّ الشيطان ربما نزع النَّزْعَةَ فيما يكون وفيما لا يكون. قال: وهل فيكم أحد بدا له أن يصرف هذا الأمر عن أهل البيت إلى غيرهم من عِترَةِ النبي صلى الله عليه؟ قالوا: لا. قال: أفتشكون أنهم معدن العلم وأصحاب ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: لا.»

يتضح من هذا النص أن أهل الشيعة أو كثيراً منهم في أوائل القرن الثاني قالوا ببقاء رسالة الله في عِترَةِ النبي أى أهل البيت على سبيل التوارث من الأقرب إلى الأقرب. وفي القرن الأول وما يليه من الثاني لتداول الزَّعمِ عندهم أن الساعة قريبة ختموا سلسلة أئمتهم بثالث أبناء علي وهو محمد

(١) راجع J. WELLHAUSEN, *Die religiös-politischen Oppositionsparteien* P. 92

(٢) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٩٦١ في سنة ١٢٩.

ابن الحنفية^(١) فقالوا إنه ما مات ولا فارق الدنيا بل إنه يغيب مدة بجبل رَضْوَى على مسيرة يوم من يَنْبُع ثم يرجع إلى الدنيا فيملؤها عدلاً كما مُلِئَتْ شراً وجوراً . فإلى هذا المعتقد أشار كثير^(٢) بقوله المشهور :

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قَرِيشٍ وَلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ
عَلَى وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءٌ
فَسِبْطٌ سِبْطٌ إِيْمَانٌ وَبِرٌّ وَسِبْطٌ غَيْبَتُهُ كَرَبَلَاءُ
وَسِبْطٌ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْجَيْشَ يَقْدُمُهُ اللُّوَاءُ
تَغَيَّبَ لَا يُرَى فِيهِمْ زَمَانًا بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ

وهذا أيضاً معتقد السيد الحِمَيْرِيِّ كما يلوح من أبياته المروية في كتاب الأغاني^(٣) التي قالها بعد موت ابن الحنفية (أو غيبته على ظنه) بستين سنة .
— أما فرقة أخرى من الكيسانية فقالوا بانتقال محمد بن الحنفية إلى رحمة الله وانتقال الإمامة وأنه رار العلوم منه إلى ابنه أبي هاشم وهذا القول مهم جداً لعلاقته بظهور الدعوة العباسية بخراسان والعراق فلما تأسست على مذهب

(١) توفي في الأول من محرم سنة ٨١ (وقيل في سنة ٨٣ أو ٧٢ أو ٧٣) بالمدينة . انظر وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٧٠ من طبعة غوتنجن أو عدد ٥٣١ من الطبقات المصرية وقال ابن سعد في الجزء الخامس من طبقاته ص ٨٥ - ٨٦ إن محمد بن الحنفية مات في محرم سنة ٨١ وهو ابن ٦٥ سنة قمرية .
(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٣٢ (وانظر أيضاً ج ٧ ص ١٠ - ١١) ومروج الذهب للمسمودي في الباب الثالث والتسعين ج ٥ ص ١٨٢ وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٢٠٠ من طبعة مصر بهامش كتاب الملل لابن حزم أو ص ١١١ من طبعة لندن ومقدمة ابن خلدون ج ١ ص ٣٥٨ من طبعة باريس ١٨٥٨ أو ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٩٨ - ١٩٩ من طبعة بيروت ١٩٠٠ (لا يذكر اسم الشاعر في الطبقات الشرقية) [و ديوان كثير عدد ١٥٠ ، بيت ٣ و ٤ و ٧ و ١٠ و ١١ (ج ٢ ص ١٨٦ - ١٨٨)] ويروى البيتان الأخيران في وفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٥٧٠ من طبعة غوتنجن أو ٥٣١ من الطبقات المصرية .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٤ و ج ٨ ص ٢٢ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسمودي ج ٥ ص ١٨٢ - ١٨٣ في الباب الثالث والتسعين (خمسة أبيات وفيها « سبعين » بدلا من « ستين ») .

القائلين إن أبا هاشم المتوفى في أيام سليمان بن عبد الملك (٩٦/٧١٥ - ٩٩/٧١٧) أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أخيه أبي العباس عبد الله السفاح. ولولا ذِيْعَان هذا الاعتقاد عند أهل الشيعة لما توصل السفاح إلى تأسيس الدولة العباسية.

ومن الحرى بالاعتبار قول جملة من أهل الشيعة في القرن الأول والثاني بالرجعة فإنهم جعلوه تأييداً لآرائهم في توارث الإمامة في أهل البيت وعزّها . فزعموا أن الرسالة أي النبوة وهي عندهم روح الله نُزِلَتْ في النبي وصارت روحه فلما مات تحوّلت روحه أي الرسالة أو الإمامة إلى علي بن أبي طالب ووقت موت علي تحوّلت روحه وانتقلت الإمامة إلى ابنه الأكبر وهلم جرا . وممن ذهب إلى هذا القول بالرجعة كثير عزة^(١) الشاعر المذكور سابقاً فيروى أنه نظر مرة إلى بني الحسن بن الحسن بن علي وهم صغار فقال : «بأي أنتم هؤلاء أنبياء صغار»^(٢) . واحتجّ في اعتقاد الرجعة بالآية^(٣) : «الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ»^(٤) . فلا يخفى عليكم ما لهذه الآراء من النتائج المهمة وهي : ١ أن الإمامة أو الخلافة ليست في الحقيقة إلا نبوة . ٢ أن الإمام أي الخليفة صاحب صفات الأنبياء . ٣ أن الإمامة أي الخلافة لا تنتقل إلا من ميت إلى حي فانقطاعها أو عزل الإمام مستحيل . ٤ أن الأرض لا تخلو عن إمام أبداً وإن كان هذا

(١) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٢٧ و ٣٣ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٢٤ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٨ ص ٣٣ .

(٤) القرآن سورة ٨٢ (الانفطار) : ٧ - ٨ . واحتج أصحاب اعتقاد الرجعة بالسورة ٢٨

(القصص) : ٨٥ .

الإمام مستوراً غائباً عن عيون الناس . ٥ أن وجود إمامين في آن واحد كما زعم بعض الفرق محال . ٦ أن الإمامة أي الخلافة لا تُقلد باختيار الناس سواء كانوا جماعة المسلمين أو أهل الحل أو العقد . - فيتضح أيضاً من جميع ذلك ما لمَّحْتُ إليه سابقاً من عدم فرق حقيقي بين الاختلافات الدينية والأحزاب السياسية عند المسلمين أثناء القرون الأولى للهجرة وأن التاريخ السياسي لا يُعقل من دون الفحص عن المذاهب والفرق الإسلامية . ثم يلوح أيضاً ما كان لشعراء تلك الفرق من الشأن العالي في أحوال السياسة . ومن الشعراء الذين ذهبوا مذهب الكيسانية وأنكروا وفاة محمد بن الحنفية وقالوا بغيبته بجبل رضوى أبو هاشم إسماعيل بن محمد الملقب بالسيّد الجميري^(١) من مخضري الدولتين الأموية والعباسية بل لعل أكثر عمره وقع في أيام بني العباس إذ مات سنة $\frac{171}{788-787}$ قال صاحب الأغاني^(٢) : « كان شاعراً متقدماً مطبوعاً . . . وإنما مات ذكره وهجر الناس شعره لما كان يُفَرِّط . فيه من سب أصحاب رسول الله صلعم وأزواجه في شعره ويستعمله من قذفهم والطعن عليهم فتحوى شعره من هذا الجنس وغيره لذلك وهجره الناس . تخوفاً وتراقباً وله طراز من الشعر ومذهب قلماً يلحق فيه أو يقاربه ولا يُعرف له من الشعر كثير وليس يخلو من مدح بني هاشم أو ذم غيرهم

(١) راجع كتاب الأغاني ج ٧ ص ٢ - ٢٤ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ١٨٢ - ١٨٤ وكتاب الملل للشهرستاني ج ١ ص ٢٠٠ من طبعة مصر بهامش الملل لابن حزم أو ص ١١١ من طبعة لندن فانظر أيضاً .

BARBIER DE MEYNARD, *Le Séid Hîmyarî, recherches sur la vie et les œuvres d'un poète hérétique du II siècle de l'hégire* (Journal Asiatique, 7^{ème} série, t. IV, 1874) P. 159-284.

تروى له أبيات سياسية (إما منسوبة إليه أو أصلية) في كتاب الحيوان للجاحظ ج ٣ ص ١٢٥ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ وأبيات مروية له أيضاً في مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ من طبعة بيروت ١٨٧٩ أو ص ١٩٩ من طبعة بيروت ١٩٠٠ أو ج ١ ص ٤٠٦ من الترجمة الفرنسية في كتاب العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٥٩ من طبعة مصر ١٣٣٥ (أبيات في النبي ونقد ابن رشيق لها) .

(٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٣ من طبعة بولاق .

مَنْ هو عنده ضدّ لهم . . وأخباره كلها تجرى هذا المجرى ولا تخرج عنه . وفي موضع آخر بعد إيراد بعض أبيات السيّد الحميريّ قال صاحب الأغاني^(١) على ميله المعروف إلى التشيع : « وهي قصيدة طويلة حُذِفَ باقيها لقُبْح ما فيه » يعني الإفراط في التشيع . ومما يدلُّ على علوّ منزلته عند أهل الشيعة أنَّ بعضهم نحل إليه أشعاراً في مذهب الإمامية^(٢) القائلين بإمامة جعفر الصادق فواضح أنَّ الذي فعل ذلك رجا من زوره تأييداً لآراء الإمامية ولم يَرَجُ ذلك لو كان السيّد الحميريّ من الشعراء غير المقدّمين . وشعره موصوف بالمتانة والرونق والجزالة مع الامتناع عن غريب الألفاظ . فيروى عن إسحق بن ثابت العطار^(٣) : « قال كنّا كثيراً ما نقول للسيّد ما لك لا تستعمل في شعرك من الغريب ما تسأل عنه . كما يفعل الشعراء . قال لأنّ أقول شعراً قريباً من القلوب يلدّه من سميحه خير من أن أقول شعراً متعقّداً تضلّ فيه الأوهام » .

كان كثير عزّة والسيّد الحميريّ من الكيسانية أي من غلاة الشيعة . أما شعراء الشيعة المعتدلون في أيام بني أمية فأشهرهم الكُمَيْت بن زيد الأسدي^(٤) المولود سنة ٦٠ المتوفى سنة ١٢٦ كان من أهل الحضر ويعلم في أول أمره الصبيان في مسجد بالكوفة . ووصفه صاحب كتاب الأغاني^(٥)

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٩ . (٢) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٣ و ٥ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١١ .

(٤) راجع كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١١٣ - ١٣٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٨ - ٣٧٢ وخزانة الأدب ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ و ٨٦ - ٨٧ ومروج الذهب للمسعودي ج ٦ ص ٣٦ - ٤٥ من طبعة باريس (في الباب الثالث بعد المائة) وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٥ ص ٢٦ - ٢٧ و ١٥٣ و ١٦٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ وكتاب العمدة لابن رشيّق ج ٢ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٥٧٤ - ١٥٧٥ (شعر بعثه الكيت إلى أهل مرو ناشر الدعوة لبني العباس سنة ١١٧ هـ) [والمدائح النبوية في الأدب العربي لزكي مبارك ص ٦٧ - ١٠١ من طبعة مصر ١٣٥٤] . (٥) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١١٣ .

على هذه الصفة : « شاعر مقدّم عالم بلغات العرب خبير بأيامها من شعراء
مُضَرّ وألسنتها والمتعصبين على القحطانية المقارنين المقارعين لشعرائهم العلماء
بالمثالب والأيام المفاخرين بها . . ولم تزل عصبِيّته للعدنانيّة ومهاجاته شعراء
اليمن متّصلةً والمناقضةُ بينه وبينهم شائعة في حياته وبعد وفاته حتى ناقض
دِغْبِيلُ وابن أبي عُيَيْنَةَ قصيدته المذهبة بعد وفاته وأجابها أبو الزّأْنَاءُ البَصْرِيّ
مولى بنى هاشم » . فإذا اعتبرنا هذا النصّ فقط. ظننا أن الكميت من شعراء
الصنف الخامس المفتخرين بقومهم المهاجرين قبائل خصومهم . ولكن كيف
ذلك إذ كان الكميت كوفياً من أهل الحضرة بعيداً عن أحوال حياة
الأعراب ؟ والحقّ يقال إنّنا إن تأملنا ما بلغنا من أهاجيه وجدناها على
عصبِيّتها مخالفةً لأساليب هجاء أهل البادية من وجوه فالواضح أن غرضها
الحقيقيّ غيرُ المنافرة المألوفة عند القبائل . قال صاحب الأغاني^(١) إنّ « سبب
هجاء الكميت أهل اليمن أن شاعراً من أهل الشام يقال له حَكِيم بن عِيَّاش
[الأعور] الكلبيّ كان يهجو عليّ بن أبي طالب عليه السلام وبنى
هاشم جميعاً وكان منقطعاً إلى بنى أميّة فانتدب له الكميت فهجاه وسبه
فأجابه ولجّ الهجاء بينهما وكان الكميت يخاف أن يفتضح في شعره عن
عليّ عليه السلام لما وقع بينه وبين هشام [بن عبد الملك] وكان يُظهر
أنّ هجاءه إيّاه في العصبية التي بين عدنان وقحطان » فبدلنا هذا القول
على أنّ هجاءه يُعدُّ من الشعر في الاختلافات السياسيّة الدينيّة وإن كان
ظاهره غير ذلك . وفي كتاب مروج الذهب للمسعودي^(٢) رواية تؤيّد ما قلناه
وهي أنّ عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أراد أن

(١) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١٢٨ وخزانة الأدب ج ١ ص ٨٧ من طبعة بولاق .

(٢) مروج الذهب ج ٦ ص ٤١ - ٤٤ من طبعة باريس (في الباب الثالث بعد المائة)
وراجع خزانة الأدب ج ١ ص ٨٦ .

يُهْدَى للكميت هدايا ثمينة لقصائده في مدح العلويين فأبى الكميت قبولها فقال عبد الله : «أما إذ أبيت أن تقبل فإنني رأيت أن تقول شيئاً تُغضب به بين الناس لعل فتنة تحدث فيخرج من بين أصابعها بعض ما تُحب » فابتدأ الكميت وقال قصيدته التي يذكر فيها مناقب النزاريين ويطنب في تفضيلهم على قحطان وهي زهاء ثلثمائة بيت لم يترك فيها حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم . وعرض بأخذ الفرس والحبشة نساء اليمن بقوله :

لنا قمرُ السماء وكلُّ نجم تُشير إليه أيدي المهتدِينَا
وجدتُ الله إذ سمى نزاراً وأسكنهم بمكة قاطنينَا
لنا جعل المكارم خالصاتٍ وللناس القفا ولنا العجينَا
وما ضربت هجائن من نزار فوالج من فحول الأعجمِينَا
وما حملوا الحميرَ على عِناق مطهّمة فيلقوا مُنْغَلِينَا
وما وُجدت بناتُ بني نزار حلائلَ أسودين وأحمرِينَا
ولكنني أظن أن صاحب الأغاني والمسعودي لم يُصيبا في قولهما كلَّ الإصابة وأنَّ غرض الكميت من هجائه أهل اليمن غير المبين في النصوص التي نقلتها . تذكروا ما شرحته لما تكلمت عن أحوال الشام بعد منتصف القرن الأول (ص ١٤٣) أعني أن اليمنيين أو المنتسبين إلى قحطان وردوا الشام أفواجا حتى كان عددهم هناك أوفر من عدد النزاريين فإن بني أمية اعتمدوا عليهم خصوصاً لتأييد ملكهم وإثبات أمرهم . فإذا تأملتم هذا فهمتم أنَّ هجاء الكميت اليمنيين كان في الحقيقة هجاء أشد المتعصبين للدولة الأموية وأوثقهم . وهذا غرض أهل الشيعة .

كان الكميت قبل مهاجته القحطانيّين قد نظم القصائد الهاشميات وهي من جيّد شعره مدح فيها بني هاشم أي أهل البيت وأبدى فيها تعصبه

للمذهب الشيعة . ولكنه لم يكن من الغلاة وامتنع عن الحكم القاطع في
أبي بكر وعمر فقال^(١) :

أَهْوَى عَلِيًّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَرْضَى بِشَتْمِ أَبِي بَكْرٍ وَلَا عُمرَا
وَلَا أَقُولُ وَإِنْ لَمْ يُعْطِيََا فَدَكَاً بِنْتَ النَّبِيِّ وَلَا مِيرَاثَهُ كَفَرَا
اللَّهُ يَعْلَمُ مَاذَا بَأْتِيَانِ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عُذْرٍ إِذَا عَتَدَرَا
أَمَّا بَنُو أُمَيَّةٍ فَشَتَّمَهُمْ فِي الْهَاشِمِيَّاتِ فَقَالَ مَثَلًا بَعْدَ ذِكْرِ فَضَائِلِ بَنِي
هَاشِمٍ^(٢) :

سَاسَةً لَا كَمَنْ يَرَى رِغِيَّةَ النَّاسِ سَوَاءً وَرِغِيَّةَ الْأَنْعَامِ
لَا كَعَبْدِ الْمَلِكِ أَوْ كَرَلِيدٍ أَوْ سَلِيمَانَ بَعْدُ أَوْ كَهِشَامٍ
رَأْيُهُ فِيهِمْ كَرَأْيِ ذَوِي الثُّلَّةِ فِي الثَّائِجَاتِ جُنَحَ الظَّلَامِ
وَمَنْ أَغْرَبَ الْغَرَائِبَ أَنَّهُ مَدَحَ بَنِي أُمَيَّةٍ فِي غَيْرِ الْقَصَائِدِ الْهَاشِمِيَّاتِ
فَمَنْ قَوْلُهُ^(٣) :

أَبْنَى أُمَيَّةَ إِنَّكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ
ثَقَى لِكُلِّ مُلِمَّةٍ وَعَشِيرَتِي دُونَ الْعَشَائِرِ
أَنْتُمْ مَعَادُنُ لِلْخِلَاقِ فَكَابِرًا مِنْ بَعْدِ كَابِرِ
بِالتَّسْعَةِ الْمُتَتَابِعِينَ خِلَافًا وَبِمُخِيرِ عَاشِرِ
وَالِ الْقِيَامَةِ لَا تَزَالُ لَشَافِعٍ مِنْكُمْ وَوَاتِرِ

(١) الهاشميات ص ٦٣ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٨ بيت ١ - ٣ من طبعة ليدن ١٩٠٤
أما فذلك فأنظر ما قيل في حاشية ٣ من ص ٦٣ من طبعة مصر .

(٢) الهاشميات ص ٧ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ١ بيت ٣٥ - ٣٧ من طبعة ليدن .
عبد الملك بدلا من عبد الملك لضرورة الشعر وكذا أيضا في بيت جواس بن القحطل الكلابي المروى
في حماسة أبي تمام ص ٦٥٨ من طبعة بن أوج ٤ ص ٣٣ من طبعة بولاق وحماسة البحترى ص ١٢٢
من طبعة ليدن أو ص ٨١ عدد ٣٧٧ من طبعة بيروت وفي معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٣ - ٤ من طبعة
ليبسك - ثلة جماعة الضأن الكثيرة وثأج الغنم صاح .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١١٨ من طبعة بولاق .

فاستغرب ذلك بعضُ كتّبة العرب فقال ابن قتيبة في توطئته لكتاب الشعر والشعراء^(١) عند ذكر طَمَع بعض الشعراء : «وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بنى أمية وآل أبي طالب فإنه كان يتشيع وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى وشعره في بنى أمية أجود منه في الطالبين ولا أرى علّة ذلك إلّا قوّة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة » . ويروى في الأغاني^(٢) أنّه قد استأذن أبا جعفر محمد بن عليّ في مدح الأمرين فأذن له فيه . ومن الجدير بالذكر من هذا الباب شعر له مدح فيه النبيّ بما ليس في محله فقبل أنّه لم يُرد النبيّ وإنّما أراد عليّاً فورى عنه بذكر النبيّ خوفاً من بنى أمية^(٣) .

ليست هذه المداهنة مختصة بالكميت بل توجد أيضاً في شعر غيره من شعراء الشيعة في ذلك العصر^(٤) . ورأى فيها أنّ أسبابها ثلاثة عمِلت فيهم معاً : الطمع في الجوائز والخوف من أهل السلطان ورأى الشيعة في التقيّة^(٥) من المشهور أنّ أهل السنة قالوا بإباحة الحرام وتظاهر الكفر عند الخوف من القتل من السلطان كأنّها رخصة من عند الله للضعفاء أمّا الإمامية من فرق الشيعة فلهم كلام كثير في استعمال التقيّة أو الكتمان فاعتبروه واجباً ووضعوا للنبيّ الحديث : «مؤمن لا تقيّة له كمثّل جسد لا رأس له » ونسبوا إلى الإمام جعفر بن محمد القول : «نفس المهموم ظلّمنا

(١) كتاب الشعر ص ١٨ من طبعة ليدن .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١٢٦ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب العدة لابن رثيق ج ٢ ص ١١٤ من طبعة مصر ١٣٢٥ . الأبيات موجودة في

الملاحضات عدد ٣ بيت ٣١ - ٣٦ من طبعة ليدن .

(٤) منهم كثير وأيمن بن خريم مثلاً (راجع كتاب الأغاني ٢١ ص ٧ - ١٣) .

(٥) (٥) راجع J. GOLDZIEHER, *Das Prinzip der "takijja" im Islām* (Zeitschrift der deutschen morgenländische Gesellschaft, 60, 1906, P. 219-226)

تسبيح وهمه لنا عبادة وكتمان سرّ جهاد في سبيل الله « فقال الإمام أبو عبد الله : يجب أن يكتب هذا الحديث بماء الذهب . فإذا لا غرور أن شعراء مذهبهم في أواخر القرن الأوّل وأوائل الثاني لم يروا في مدح بني أمية بأساً وإن كانوا في قلوبهم يلعنونهم ويقولون بكفرهم . ويؤيد هذا الرأي ما قاله الكميت في إحدى الهاشميات ^(١) :

ولمّا على حُبِّهِمْ وتطلّعي إلى نصْرِهِمْ أمشي الضراء وأختلّ
تجوّد لهم نفسي بما دون وثبة تظلّ بها الغربان حولي تحجلّ
ثم قال أيضاً ^(٢) :

ولمّا على أني أرى في تقيّة أخالط أقباماً لقوم لميزيل
ولمّا ذلك أيضاً يرجع ما يروى في كتاب الأغاني ^(٣) : « دخل الكميت ابن زيد الأسديّ على أبي جعفر محمّد بن عليّ عليهما السلام فقال له يا كميت أنت القائل :

فالآن صرّت إلى أميّة في الأمور إلى المصائر
قال نعم قد قلت ولا والله ما أردت به إلّا الدنيا ولقد عرفت فضلكم .
قال أمّا إن قلت ذلك إنّ التقبة لتحجلّ » .

وقبل أن نختم كلامنا الوجيز على شعراء الشيعة لا بدّ لنا من ملاحظة .
قد أشرت غير مرّة إلى قلّة العواطف الدينيّة الخالصة في منظومات غير هؤلاء الشعراء وعلى سنوح المناسبة أوضحت أسباب ذلك مثل كلّ شعراء المدن الحجازيّة بلذات الدنيا وطبيعة أهل البادية القليلة الميل إلى أمور الدين

(١) الهاشميات ص ٥٥ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٤ بيت ٨٦ - ٨٧ من طبعة ليدن .

(٢) الهاشميات ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٢١ أو عدد ٤ بيت ١٠٥ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ١٢٦ - ١٢٧ من طبعة بولاق .

وهلم جرأ. إن شعراء بني أمية كانوا شعراء الدولة فمدحوا خلفاء وأمراء ورجالاً كان في أيديهم القوة المادية والسلطة والمُلك فلا غرور إن غلبت فيهم الدنيا على الدين. أما شعراء الخوارج فأفسدت توحشهم التعبير عن العواطف الرقيقة اللائقة بالفطرة الدينية الحقيقية فإن أبدوا مثلاً كراهة الدنيا فعلوه على ما قد أوضحته فيما سبق أعنى على صفة أقرب إلى الحماسة منها إلى التقوى والزهد. أما شعراء الشيعة لتعلقهم بحزب عزل عن كل سلطة مادية ولمدحهم رجال ورع وتقى زعموا بقاء روح النبوة والرسالة فيهم مالوا طبعاً إلى الحلم فغلب فيهم الدين على الدنيا فأتوا في شعرهم بما لا يوجد عند غيرهم من شعراء عهد الأمويين حتى قيل عن قصيدة للسيد الحميري إنها لو قرئت على منبر ما كان فيها بأس^(١). فلا شك أن النوع من الشعر الديني الذي نما فيما بعد فاشتهر به البرعي يتصل من وجه بقصائد شعراء الشيعة من القرن الأول والثاني.

إذا أردتم الإفادة عن المُرَجئة وراجعتم ما قيل فيهم في التصانيف مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني وجدتموهم موصوفين فيها كأنهم من المذاهب الكلامية لا غير. قال الشهرستاني إنهم «كانوا يؤخرون العمل عن النية والقصد... ويقولون لا نضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة». وقيل الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى القيامة فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا من كونه من أهل الجنة أو من أهل النار. وجميع ذلك صواب بالنظر إلى المتأخرين منهم لا بالنظر إلى المتقدمين الكائنين في عصر الدولة الأموية وأوائل العباسية. فإنهم في أول أمرهم لم يكونوا إلا من الأحزاب التي تكونت بسبب مسألة الإمامة والفتن التابعة لقتل عثمان بن عفان؛

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ٧ من طبعة بولاق.

فكانوا حزباً دينياً من جهة مَبْدَثِهِم النظرى وحزباً سياسياً من جهة النتائج العملية الصادرة عن ذلك المبدأ . قد مرَّ (ص ٢٣٢) تشبيه منزلتهم بين أصحاب الأمويين وأهل الشيعة بمنزلة المعتزلة بين العثمانيين والعلويين في أوائل خلافة عليّ ويلوح ذلك من بعض التعارضات الواردة اتفاقياً في تاريخ الطبرى ومن أشعار شعرائهم فإنهم قالوا بوجوب الامتناع عن الحكم في عثمان وعليّ وأصحابهما ثم بجواز طاعة بنى أمية ومقاتلة من ثار على السلطان^(١) . قال محارب بن دثار الدهلي^(٢) (المتوفى سنة ١١٦) :

يَعِيبُ عَلِيٌّ أَقْوَامٌ سَفَاهاً بَأْنَ أَرْجُو أَبَا حَسَنٍ عَلِيّاً
وإِرجائى أبا حسنٍ صوابٌ عن العُمَريْنِ بَرّاً أو شَقِيّاً
فإن قَدِّمْتُ قوماً قال قوم أَسأتَ وَكنتَ كَذاباً رديّاً
إذا أيقنْتُ أَنَّ اللهَ رَبِّى وأرسلَ أَحمداً حقّاً نبياً
وَأَنَّ الرُّسُلَ قد بُعِثُوا بِحقٍّ وَأَنَّ اللهَ كانَ لَهُم وَلِيّاً
فليسَ عَلِيٌّ فى الإِرجاءِ بِأسٍّ ولا لَبِئْسَ ولست أَخافُ شَيْئاً

فتأملوا أهمية هذا التوقف وكم كان له من التأثير في العمل والسياسة فإنه حمل أصحابه على التسليم بالمَقْضَى والاعتراف بخلافة الأمويين فغاظ.

(١) راجع G. VAN VLOTEN, *Irdjā* (Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft, 45, 1891, P. 161-171.

(٢) انظر كتاب الأغاني ج ٧ ص ١١ من طبعة بولاق - وفي البيت الأول أرجو (كذا) والصحيح أرجى [كما في طبعة دار الكتب المصرية ج ٧ ص ٢٤٨] - أما البيت الثانى فتركيبه هو: « وإِرجائى أبا حسنٍ بَرّاً وشَقِيّاً عن العُمَريْنِ صوابٌ » راجع van Vloten في مقاله المذكورة آنفاً ص ١٦٥ حاشية ٢ .

هذا الإرجاء أهل الشيعة أي غيظ. فقال فيه السيد الحميري^(١) :

خليلي لا تُرجئاً وأعلما بأن الهدى غير ما تزعمان
وأن عمى الشك بعد اليقين وضُغف البصيرة بعد العيان
ضلالٌ فلا تلججاً فيهما فبئست لعمركما الخصلتان
أيرجى على إمام الهدى وعثمان ما أعند المرجيان
ويرجى ابن حرب وأشياءه وهوج الخوارج بالنهران
يكون إمامهم في المعاد خبيث الهوى مؤمن الشيبان

ومن شعراء المرجئة غير محارب بن دثار السابق ذكره ثابت قُطنة^(٢) أحد
الفرسان الشجعان في ثغور خراسان بل والى على عمل من أعمالها غزا عدة
غزوات في بلاد تركستان في أيام قتيبة بن مسلم فكان كثير من شعره ممّا
سميّه الصنف الخامس أي دائراً على الحماسة والمغازي ومما قال سنة ٦٥^(٣) :

فدّت نفسي فوارس من تميم على ما كان من ضنك المقام
يقصر الباهل وقد أراى أحامى حين قلّ به المحامى
بسينى بعد كسر الرمح فيهم أذودهم بذي شطب حسام
أكرّ عليهم اليخوم كراً ككرّ الشرب آنية المدام
فلولا الله ليس له شريك وضربى قونس الملك الهمام
إذا فاظت نساء بنى دثار إمام الترك بادية الخدام

(١) كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٦ من طبعة بولاق . أرجأ وأرجى آخر - لج التماهى في الخصومة
- أعتد فلاناً عارضه بالوفاء - ابن حرب هو معاوية - أهوج طويل وبه تسرع وحق وطيش -
النهران مركز من مراكز الخوارج .

(٢) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٤٩ - ٦٤ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٠٠
- ٤٠١ من طبعة ليدن وغزاة الأدب ج ٤ ص ١٨٥ - ١٨٧ فلينظر أيضاً وفهرست تاريخ الطبرى .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٢ ص ٤٩٤ من طبعة ليدن وتاريخ ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٠ - ١٢١
من طبعة ليدن في سنة ٦٥ (وفيه اسم الشاعر ثابت بن قطبة بدلا من ثابت بن قطنة) .

ولما تولّى سليمان بن عبد الملك أمور الخلافة (٩٦/٧١٥ - ٩٩/٧١٧) وفضل قحطان على مضر لأغراض سياسته فثار عليه قتيبة بن مسلم والى خراسان لتعصبه لعدنان كَفَّ ثابت قطنة عن الثورة بل تألف الوالى الجديد يزيد ابن المهلب بن أبي صفرة ولم ينحرف عن صُحبته على صروف الزمان . فلما تقلّبت أحوال القحطانيّين في أيام يزيد بن عبد الملك (١٠١/٧٢٤ - ١٠٥/٧٢٤) ورجعت الشوكة إلى مضر أخذ ثابت يحرض ابن المهلب على المقاومة والقتال (١) وتابعه لما توجه إلى العراق راغباً في خلع يزيد بن عبد الملك طالباً الخلافة لنفسه وكان معه في يوم العقر في صفر سنة ١٠٢ حين خذل أهل العراق يزيد بن المهلب وفروا عنه فقتل . فقال ثابت قطنة يرثيه (٢) :

كلُّ القبائل بايعوك على الذى تدعو إليه . وتابَعوك وساروا
حتى إذا حمى الوغى وجعلتهم نصبَ الأُسنة أسلموك وطاروا
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن عاراً عليك ورُبَّ قتلٍ عارٍ

وتعاطى أيضاً الهجاء فوصلت إلينا قِطْع منه . أما الذى حملنى على ذكر ثابت قطنة هنا فهو شعره مشهور فصل فيه آراء المرجئة في زمانه أى في النصف الثانى من القرن الأوّل وهو شعر مهم جداً لموضوعه ولكونه من أقدم الأشعار قيلت في وصف اعتقادات دينية بعد ظهور الإسلام . ومن أبياته (٣) :

يا هندُ فاستمعى لى إن سیرتنا أن نعبدَ الله لم نُشرك به أحد

(١) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٤ - ٥٥ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٥ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٠١ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٤ من طبعة بولاق ومروج الذهب للمسعودى ج ٥ ص ٤٥٥ من طبعة باريس في الباب التاسع والتسعين (بغير اسم الشاعر) .

(٣) كتاب خزانة الأدب ج ٤ ص ١٨٦ - ١٨٧ من طبعة بولاق وكتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٢ ورواية خزانة الأدب أحسن من رواية الأغاني .

نُرجى الأمور إذا كانت مشبهة
المسلمون على الإسلام كلهم
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً
لا نسفك الدم إلا إن يراد بنا
من يتق الله في الدنيا فإن له
وما قضى الله من أمر فليس له
كل الخوارج مخطئ في مقالته
أما علي وعثمان فإنهما
وكان بينهما شغب وقد شهدا
يُجزى علي وعثمان بسعيهما
الله يعلم ماذا يحضران به
ونصدق القول فيمن جار أو عندا
والمشركون أشد دينهم قددا
م الناس شركاً إذا ما وحّدوا الصمدا
سفك الدماء طريقاً واحداً جددا
أجر التقى إذا وفى الحساب غدا
رد وما يقض من شيء يكن رَشدا
ولو تعبد فيم قال واجتهدا
عبدان لم يُشركا بالله مُد عبدا
شق العصا وبعين الله ما شهدا
ولست أدري بحق آية وردا
وكل عبد سيلقى الله منفردا

تأملوا هذه الآيات يتضح أن جميع المسائل المدلول عليها فيها إنما هي
من نتائج الاختلافات في من تكون الإمامة من حقه . ففي البيت الثاني يرد
ثابت قطنة على أهل الشيعة القائلين بظلم الخلفاء الأمويين ووجوب عصيانهم
لجورهم . ثم في البيتين التاليين يُجيب الخوارج وأهل الشيعة معاً القائلين
بكفر من لا يذهب مذهبهم من المسلمين ويردّ عليهم جميعاً أيضاً بقوله
«لانسفك الدم إلخ» لأن الخوارج قالوا بوجوب جهاد سائر المسلمين بل
ذهب قوم منهم إلى استحسان الاستعراض المومأ إليه سابقاً (ص ٢٣٨)
أما أهل الشيعة فكفروا من سفك دماء المؤمنين وأردوا بذلك تكفير الخلفاء
والأمراء من بنى أمية . ثم أظهر ثابت قطنة في باقي أبياته الإنصاف فيما بين
علي وعثمان فجعلهما متساويي القدر وكف عن الحكم فيما جرى بينهما من
الخلاف مقتدياً بالآية المشار إليها عند آخر الشعر وهي على المرجح :

«وَأَخْرُوجُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (١). فترون أنَّ جميع ذلك متعلق ضرورياً بمسألة الخلافة والحكومة شديد التأثير في السياسة والعمل . ولكن لما رُسخت الدولة العباسية وثبتت شوكتها في جميع بلاد الشرق فزالت فعلاً الاختلافات في الإمامة عند رجال السياسة والسلطان - تقلب حال المرجئة كما تقلب حال كثير من سائر المذاهب أو الأحزاب الإسلامية القديمة أعنى أنَّ آراءهم الدينية السياسية التي أصلها مسألة الإمامة لا غير تحولت إلى آراء كلامية عامة متجردة عن علاقة ضرورية بمسائل الخلافة فعدلوا مثلاً عن القول بإرجاء عثمان وعليّ وبنى أمية وقالوا بتأخير حكم من ارتكب الكبيرة إلى يوم القيامة . فدورهم هذا الجديد هو الموصوف في التآليف المشهورة في الملل والنحل .

قلَّ الشعراء المساعدون للزبيريين على ادعائهم بالخلافة أو بالحرى قلَّ ذكرهم في الكتب التي وصلت إلينا فإنَّ الذين مدحوا مُصْعَبَ بن الزبير أرادوا الثناء على شجاعته وجوده كما يلوح من أشعار عُبيد الله بن قيس الرقيّات (٢) أحد شعراء قريش المقدمين المشتهر بالغزل أيضاً وهو صاحب مُصْعَباً وخرج معه على عبد الملك بن مروان ولم يفارقه إلى أن قُتل مصعب سنة ٧٢/٦٩١ وبعد مدة استشفع بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى عبد الملك فعفا عنه فقال ابن قيس الرقيّات البيتين الشهيرين (٣) :

(١) القرآن سورة ٩ (التوبة) : ١٠٦ .

(٢) أما اسمه فانظر ما قال N. Rhodokanakis في ص ٤ - ٧ من مقدمته للديوان المطبوع بعنايته في وينا سنة ١٩٠٣ - والشاعر المذكور في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٣٤٣ - ٣٤٥ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٤ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٤ ص ١٦٠ من طبعة بولاق والكامل في اللغة للمبرد ص ٣٩٨ من طبعة ليبسك وخزانة الأدب ج ٣ ص ٢٦٩ والديوان عدد ١

ما نَقَمُوا من بنى أُمَيَّةٍ إ لاَّ أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَنَّهَمْ سَادَةُ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ

قد كثر ولا غرو في ذلك الشعراء المادحون لبنى أُمَيَّة : منهم بل أشهرهم
الأخطل السابق ذكره (ص ١٥١) . لكنى لا أريد هنا إلا الذين تعصبوا
للأُمويين في مسألة الإمامة ودافعوا عن حقوقهم وأدعائهم وجادلوا الخصوم
في أشعارهم مثل ما فعل كعب بن جُعيل الذى قرأت أبياته في الحروب بين
أصحاب معاوية وشيعة على (ص ٢٣٠) .

فمن هؤلاء الشعراء أعشى بن ربيعة وهو عبد الله بن خارجة من سكان
الكوفة « كان مروانى المذهب شديد التعصب لبنى أُمَيَّة »^(١) . فقال ردًا على
آراء الخوارج والشيعة^(٢) :

وما أنا فى أمرى ولا فى خصومتى بمهتضمٍ حقى ولا قارعٍ سننى
ولا مُسلمٍ مولائى عند جناية ولا خائفٍ مولائى من شرٍّ ما أجنى
وإنَّ فؤادًا بين جنبتى عالمٌ بها أبصرت عيني وما سمعت أذنى
وفضلى فى الشعر واللُبُّ أننى أقول على علم وأعرف من أعنى
فأصبحت إذ فضلتُ مروانَ وابنه على الناس قد فضلت خيرَ أب وابن

وحثَّ عبد الملك على مقاتلة الزُّبيريين المدَّعين بالخلافة فى الحجاز وقال^(٣) :
آلُ الزُّبير من الخلافة كالتى عَجَلَ النَّتَاجُ بِحَمْلِهَا فَأَحَالَهَا
أو كالضُّعاف من الحمولة حُمِلَتْ ما لا تُطِيقُ فَضِيعَتْ أَجْمَالَهَا

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٦٠ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٦١ [وديوانه عدد ١٧ من طبعة لندن ١٩٢٨] فى ذيل
ديوان أعشى ميمون .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٦١ [وديوانه عدد ١٤] الحمولة هى الإبل التى تعجل -
التمال هو الغياث الذى يقوم بأمر قومه .

قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتمو إمهالها
إنَّ الخلافة فيكمو لا فيهم ما زلتمو أركانها وئمالها
أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً فانفض بيمنك فافتتح أقفالها

ومن هؤلاء الشعراء عبد الله بن الزبير^(١) الأسديّ قال فيه صاحب الأغاني
ما نصّه^(٢) : « شاعر كوفي المنشأ والمنزل من شعراء الدولة الأموية وكان من
شيعة بني أمية وذوى الهوى فيهم والتعصب والنصرة على عدوهم. فلما غلب
مُصعب بن الزبير على الكوفة أتى به أسيراً فمنّ عليه ووصله وأحسن إليه
فمدحه وانقطع إليه فلم يزل معه حتى قُتل مصعب ثم عمى عبد الله بن
الزبير بعد ذلك ومات في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥٠ - ٨٦٠) ...
وهو أحد الهجّائين للناس » . فإذا طالعت أشعاره المروية في كتاب الأغاني
عرفتم قدر إطرانه للأمويين .

ومنهم أيضاً السائب بن فروخ المعروف بأبي العباس الأعمى^(٣) مولى
بني الدّيل سكن مكة وقال الشعر في النصف الثاني من القرن الأوّل فقيل
إنّه « كان من شعراء بني أمية المعدودين المقدمين في مدحهم والتشجيع لهم
وانصباب الهوى إليهم »^(٤) فنظم أشعاراً كثيرة في مدائحهم وهجاء آل
الزّبير فكانت الأمويون يبعثون إليه الجوائز من الشام . ومديحه جرى مجرى
مدح عرب الجاهلية لسادتهم فلولا ذكر المنابر في شعر أبي العباس لما وجدنا

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٣٣ - ٤٩ من طبعة بولاق وخزانة الأدب
ج ١ ص ٢٤٥ و ج ٢ ص ١٠٠ إلخ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٣٣ من طبعة بولاق .

(٣) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٥٩ - ٦٤ من طبعة بولاق ولم يذكره ابن
قتيبة (ولعله هو المشار إليه عرضاً في ص ٣٦٦ سطر ١٤) ولا صاحب خزانة الأدب [ولا ابن سلام
ولا الأمدى] ولكن يدل اسم أبيه وكونه مولى على أنه فارسي الأصل .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٥٩ من طبعة بولاق .

بينه وبين أشعار القدماء فرقاً . ومن قوله في بنى أمية^(١) (من بحر الخفيف) :
 خُطَبَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ قُرُوسًا نُّ عَلَيْهَا وَقَالَةُ غَيْرُ خُرُوسٍ
 لَا يُعَابُونَ صَامَتِينَ وَإِنْ قَا لُوا أَصَابُوا وَلَمْ يَقُولُوا بَلْبُسٍ
 بِحُلُومٍ إِذَا الْحُلُومُ تَقَصَّصَتْ وَوُجُوهٌ مِثْلَ الدَّنَانِيرِ مُلْسٍ

ومن شعراء الأحزاب يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري المعروف بابن مفرغ^(٢) المتوفى سنة ٦٩ في بلاد كرمان . كان حليف قريش وصحب عبادة بن زياد بن أبي سفيان حين ولّاه معاوية بلاد سجستان ولم يَحْمَدْهُ ثم لما وقع بينهما أخذ يهجو ويهجو معه عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان وإلى العراق (المتوفى سنة ٦٦) وغيرهما من آل زياد ومعاوية فانتشرت أهاجيه حتى كانت أهل البصرة تغنى بها فطلبه عبيد الله بن زياد وحبسه مدة إلى أن غضبت أهل اليمن بالشام وطلبوا من الخليفة الأمر بتخلية سبيله ففعل . وكان ابن مفرغ من شعراء الغزل أيضاً فأشعاره في أناهيد بنت أحد دهاقين الفرس مشهورة . وسيأتى الكلام عليه ثانية عند ذكر الشعر القصصي اليمني .

لما شرعت في الكلام عن الشعر من هذا الصنف السادس قلت إنه مرآة أحوال الأحزاب السياسية الدينية وترجمان أهواء الناس وآرائهم في مسائل الدنيا والدين فما تقدم برهان على ذلك قاطع . فأشرت إلى أشعار العثمانية والخوارج والشيعة والمرجئة والزبيريين وأصحاب الأمويين، فلا بد لنا الآن من

(١) كتاب الأغاني ج ١٥ ص ٦٠ .

(٢) ذكر في كتاب الأغاني ج ١٧ ص ٥١ - ٧٣ وخزانة الأدب ج ٢ ص ٢١١ - ٢١٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٠٩ - ٢١٣ من طبعة ليدن ووفيات الأعيان لابن خلكان عدد ٨٣١ من طبعة غوتنجن أو ٧٩٢ من الطبقات المصرية ومروج الذهب للمسعودي في الباب السادس والثمانين ج ٥ ص ٢٦ من طبعة باريس [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٣ - ١٤٤ من طبعة ليدن] .

لَمُتْحة في الشعر المعبر عن أسباب انحطاط قوّة الدولة الأمويّة غير الفتن والاختلافات في مسألة الإمامة .

أفضت الخلافة سنة $\frac{135}{743}$ إلى الوليد بن يزيد فهو لم يزل مُدْمِنًا على الصيد واللهو وشرب الخمر محتجباً عن الناس منهمكاً في اللذات فملّ الناس أيامه وكرهوه فرأى بعض أهل بيته خلعه سواء أن يحملهم على ذلك بغض سوء سيرته أم الطمع وحبّ الأحداث . ف وقعت الفتن بينهم فقال العباس بن الوليد ابن عبد الملك المسمّى بفارس بنى مروان لشهامته : « يا بنى مروان أظنّ أن الله قد أذن في هلاككم » ثم أخذ يُنذِرهم فقال (١) :

إِنِّي أَعِيدُكُمْ بِاللّهِ مِنْ فِتْنٍ مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إِنَّ الْبِرِّيَّةَ قَدْ مَلَّتْ سِيَاسَتَكُمْ فاستمسيكوا بعمود الدين وأرتدعوا
لَا تُلْحِمَنَّ ذُنَابَ النَّاسِ أَنْفُسَكُمْ إِنَّ الذَّنَابَ إِذَا مَا أُلْحِمَتْ رَتَعُوا
لَا تُبْقِرُنَّ بِأَيْدِيكُمْ بَطُونَكُمْ فثم لا حَسْرَةَ تُغْنِي وَلَا جَزَعُ
ومن أهمّ المصادر وأوثقها لمعرفة حال العرب والعجم بخراسان في أواخر الدولة الأمويّة أشعار أمير لا تأتى الكتب في طبقات الشعراء بترجمته وإن كان ما نظمه في فتن زمانه أتمّ وصف وأوضح تبيان لما وقع في تلك البلاد من الشر بين اليمنيين والنزاريين ولعل نموّ الدعوة العباسيّة وازدياد قوة الموالي وزوال أمر العرب وغير ذلك ممّا عَمِلَ في انتقال الخلافة من بنى أميّة إلى بنى العباس . أعنى نصر بن سيار أمير خراسان المتوفى في ربيع الأوّل من سنة $\frac{131}{748}$. فلولا أشعاره ما توصّلنا إلى معرفة كثير ممّا يتعلّق بالتقلبات السياسيّة وتغيّر بعض المذاهب الدينيّة في الثلث الأوّل من القرن الثاني

(١) كتاب الأغاني - ٦ ص ١٣٧ من طبعة بولاق وتاريخ الطبري ج ٢ ص ١٧٨٨ من طبعة ليدن .

منها مثلاً ما مالت إليه المرجئة في بلاد العجم الشمالية بعد ما انضمت إلى مذهبهم جملة من الفرس . قد مرَّ (ص ٢٤٥ - ٢٥٢) أنَّ الإرجاء عند العرب في القرن الأول كان التوقف عن الحكم بين شيعة علي وشيعة بني أمية وأنه كان للثانية أجدى منه للأولى إذ أدَّى أصحابه إلى استقباح قيام الشيعة على دولة بني أمية . أمّا بخراسان في أوائل القرن الثاني فانعكس الأمر إذ ذهبت إلى رأى المرجئة جملة من العجم الكارهين سلطة العرب عليهم الشاكين جُور الأمويين وأمرائهم الراجين الصلاح من تغيير الإمارة فعدل الإرجاء عما كان عند العرب قبلاً وأصبح توقُّفاً عن التعصُّب لبني أمية بل كرهاً لمساعدتهم على مقاتلة أصحاب الدعوة العباسية التي مالت إليها المرجئة شيئاً فشيئاً . وذلك يلوح من شعر قاله نصر بن سيار سنة ١١٧ حين أقبل الحارث بن سريج المرجئي إلى مرو ومن أبيانه (١) :

وَالْعَائِبِينَ عَلَيْنَا دِينَنَا وَهُمْ شَرُّ الْعِبَادِ إِذَا خَابَرْتَهُمْ دِينَا
وَالْقَائِلِينَ سَبِيلُ اللَّهِ بُغْيُنَا لُبَعْدَ مَا نَكَبُوا عَمَّا يَقُولُونَا
فَأَقْتُلُهُمْ غَضَباً لِّلَّهِ مُنْتَصِراً مِنْهُمْ بِهِ وَدَعِ الْمُرْتَابَ مَقْتُونَا
إِرْجَاؤُكُمْ لَزَّكُمْ وَالشُّرْكُ فِي قَرْنٍ فَأَنْتُمْ أَهْلُ إِشْرَاكِ وَمُرْجُونَا
لَا يُبْعِدُ اللَّهُ فِي الْأَجْدَاثِ غَيْرَكُمْ إِذْ كَانَ دِينُكُمْ بِالشُّرْكِ مَقْرُونَا
فِيُشَبِّهُ هَذَا الْكَلَامَ مَا كَانَتْ الشَّيْعَةُ يَقُولُونَهُ فِي مَرْجَةِ الْعِرَاقِ الْمُمْتَنِعِينَ عَنْ
مَعْصِيَةِ مَعَاوِيَةَ وَخِلَافِهِ . - ومن الشهير من شعر نصر بن سيار في ذكر أحوال

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ١٥٧٦ في سنة ١١٧ . ويدل ابن حزم على ما هو الإرجاء الفارسي في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٣ ص ١٨٨ من طبعة مصر ١٣١٧ - ١٣٢١ وهذا نصه : « اختلف الناس في ماهية الإيمان فذهب قوم إلى أن الإيمان إنما هو معرفة الله تعالى بالقلب فقط وإن أظهر اليهودية والنصرانية وسائر أنواع الكفر بلسانه وعبادته فإذا عرف الله تعالى بقلبه فهو مسلم من أهل الجنة وهذا قول أبي محرز الجهم بن صفوان وأبي الحسن الأشعري البصري وأصحابهما » .

خراسان وإهمال الخلفاء الأمويين الآخرين الذين كانوا من أشد العوامل في

انقراض دولتهم^(١) :

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِیْضَ جَعَرٍ وَيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامٌ
فَإِنَّ النَّارَ بِالْعَوْدَيْنِ تُذَكِّي وَإِنَّ الْحَرْبَ أَوَّلُهَا الْكَلَامُ
وَلَمْ تَطْفِئُوهَا تَجْنِ حَرْبًا مُشْمَرَةً يَشِيبُ لَهَا الْغَلَامُ
أَقُولُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شَعْرَى أَيْقَاطُ أُمِيَّةٌ أَمْ نِيَامُ
فَإِنَّ بِكَ قَوْمُنَا أَصْحَوْنَا نِيَامًا فَقُلْ قَوْمُوا فَقَدْ حَانَ الْقِيَامُ
فَفِرِّي عَنْ رِحَالِكِ ثُمَّ قَوْلِي عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ السَّلَامُ
وَقَالَ يَخَاطَبُ مُضَرَّ وَالْيَمَنَ وَيَحْذَرُهُمُ الْعَدُوُّ الدَّاخِلُ عَلَيْهِمْ^(٢) :

أَبْلِغْ رَبِيعَةَ فِي مَرَوْهِ وَإِخْوَتَهَا أَنْ يَغْضَبُوا قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ الْغَضَبُ
وَلْيَنْصَبُوا الْحَرْبَ إِنْ الْقَوْمَ قَدْ نَصَبُوا حَرْبًا يُحَرِّقُ فِي حَافَاتِهَا الْحَطَبُ
مَا بِالْكُمْ تُلْقِحُونَ الْحَرْبَ بَيْنَكُمْ كَأَنَّ أَهْلَ الْحِجَا عَنْ فِعْلِكُمْ غَيْبُ
وَتَتْرَكُونَ عَدُوًّا قَدْ أَظْلَكَكُمْ مِمَّن تَأَسَّبَ لَا دِينَ وَلَا حَسَبُ
لَيْسُوا إِلَى عَرَبٍ مِنَّا فَتَعْرِفَهُمْ وَلَا صَمِيمَ الْمَوَالِي إِنْ هُمْ نُسِمُوا
قَوْمًا يَدِينُونَ دِينًا مَا سَمِعْتُ بِهِ عَنْ الرُّسُولِ وَلَا جَاءَتْ بِهِ الْكُتُبُ
فَمَنْ يَكُنْ سَائِلِي عَنْ أَصْلِ دِينِهِمْ فَإِنَّ دِينَهُمْ أَنْ تُقْتَلَ الْعَرَبُ
وَقَبْلَ أَنْ نَخْتَمَ هَذِهِ النُّبْذَةَ فِي الصَّنْفِ السَّادِسِ مِنَ الشَّعْرِ فِي أَيَّامِ بَنِي
أُمِيَّةٍ عَلَيْنَا أَنْ نَذَكَرَ شُعْرَاءَ مِنَ الْعَجَمِ نَسْجُوا الْقَرِيضَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ . - لَمَّا
جَرَى الْكَلَامُ عَلَى الشَّعْرِ فِي مَدَنِ الْحِجَازِ أَوْضَحْتُ أَنَّهُ بَعْدَ الْفَتْوحِ وَقَبْلَ

(١) مروج الذهب للمسعودي في الباب السادس بعد المائة ج ٦ ص ٦٢ . ص طبعة باريس
وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٧٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ وكتاب الأخبار الطوال
لأبي حنيفة الدينوري ص ٣٥٦ من طبعة ليدن .

(٢) كتاب الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري ص ٣٦٠ من طبعة ليدن والعقد الفريد
لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٧٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ (لا يوجد فيه البيت الخامس) .

أواسط. القرن الأول جُلِبَت إلى بلاد الحرمين الجوارى المغنّيات بالفارسيّ والروميّ وشرحت ما كان لذلك من التأثير في اعتناء شعراء المدن الحجازيّة بالغزل دون سائر أفانين الشعر . وفي ذلك العصر كثر أيضاً بمكة والمدينة عدد المماليك من سبى الفرس فصار أولادهم موالى أهل الجحاز وتدرّبوا بلغة أصحابهم حتّى إنّ بعضهم نحو أواسط. القرن الأول أخذ ينظم الشعر بالعربيّة . وهذا الأمر مهمّ جداً لأنّ الشعر تعبير عن عواطف الأمة وأهواها وأميالها وأخلاقها وعوائدها فإذا شاركها في الشعر بلغت أُمم أخرى فلا بدّ من وقوع تقلّب واضح في مضمون ذلك الشعر وإن لم تتغيّر اللغة والأعاريض التي صيغ فيها . فبسبب الموالى بعد منتصف القرن الأول أخذ شعر العرب يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى شعر أُمم إسلاميّة شتّى بلغة عربيّة .

ومن الموالى الذين أصلهم من آذَرَبَيْجان ومنشؤهم وسكناهم بمكة أو المدينة أبو العباس الأعمى السابق ذكره ومنهم أيضاً موسى شَهَوَات^(١) الذي قال الشعر في المديح والهجاء والتشبيب بالمدينة في أيام سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩) أو قبله وأدرك خلافة هشام بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٥) ومنهم محمد بن يَسَار الذي قلّ ما وصل إلينا من أخباره . ومنهم زياد بن سَلَمَى الأعجم^(٢) مولى عبد القيس قال بعض الرواة إنّهُ كان ينزل إصطخر ،

(١) « شهوات » على الصفة وعلى الإضافة وهو أصح - والشاعر المذكور في كتاب الأغاني ج ٣ ص ١١٨ - ١٢٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٦٦ - ٣٦٧ من طبعة لندن وخزانة الأدب ج ١ ص ١٤٤ من طبعة بولاق - وقيل في الأغاني ج ٣ ص ١١٨ إنه موسى بن بشار وفي الخزانة إنه موسى بن يسار أخو إسماعيل بن يسار ولكن هذا تصحيف - فما وصف صاحب كتاب الأغاني (ج ٤ ص ١٢١) من إخوة إسماعيل بن يسار إلا محمداً وإبراهيم بصناعة الشعر فلم يذكر اسم أبيه في كتاب الشعر لابن قتيبة . [وفي معجم الشعراء لمرزباني ص ٣٧٦ من طبعة مصر ١٣٥١ : قيل إنه موسى بن يسار] .

(٢) ذكر في كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ - ١٠٩ وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٣ - ١٩٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ج ٢٥٧ - ٢٥٩ من طبعة لندن ووفيات الأعيان لابن

وقال البعض إنَّ أصله ومولده ومنشأه بأصبه ان « ثم انتقل إلى خراسان فلم يزل بها حتى مات وكان شاعراً جَزَل الشعر فصيح الألفاظ. على لُكنة لسانه وجريه على لفظ. أهل بلده » (١). وله قصيدة طويلة عُدت من غرر المراثي قالها لما مات المغيرة بن المهلب بن أبي صُفرة سنة ٨٣ منها (٢) :

قُلْ للقوافل والغزاة إذا غزوا والباكرين وللمُجدِّ الراحل
إنَّ الساحة . والمروءة ضُمَّنا قَبْرًا بَمَرَوْ عَلَى الطريق الواضح
فلما مررتَ بقبره فَأَعْقِرْ بِهِ كُومَ الهِجَانِ وَكُلَّ طِرْفٍ سَابِح
وَأَنْضِخْ جوانبَ قبره بِدِمَائِهَا فلقد يكون أنا دمٍ وذباح

ومن الغريب ما له من الهجاء الكثير الجارى مجرى هجاء الأعراب (٣) كأنه منهم فمن اطلع عليه بدون أن يعرف اسم قائله لما ظنَّ أنه شعر مولى فارسي . وأدرك زياد خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥) .

ولكن غَرَضِي هنا إنما هو الكلام على بعض الموالى يدخل قسم من شعرهم

= خلكان في ترجمة المهلب بن أبي صُفرة عدد ٧٦٣ من طبعة غوتنجن أو عدد ٧٢٣ من الطبقات المصرية وحاسة أبي تمام ص ٦٧٨ و ٧٨٠ من طبعة بون أو ج ٤ ص ٥٢ و ١٤٨ من طبعة بولاق [وكتاب المؤلف للأملى ص ١٣١ - ١٣٢ من طبعة مصر ١٣٥٤] واسم أبيه هو سليمان في كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ وفي وفيات الأعيان لابن خلكان [وفي كتاب المؤلف للأملى] .

(١) كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ .

(٢) في كتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ : « المهلب بن المغيرة » وهو غلط . تروى القصيدة (٥٠ بيتاً) في ذيل أمالي القالي ص ١٠ - ١٢ من طبعة بولاق ١٣٢٤ (أو ص ٨ - ١٢ من طبعة ١٣٤٤) واستخرج ابن خلكان منه ٢٧ بيتاً (انظر الموضع المذكور من وفيات الأعيان) وبعض الأبيات مروية في كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٥٨ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١٤ ص ١٠٢ وخزانة الأدب ج ٤ ص ١٩٢ (فراجع F. KRENKOW, *The elegy upon al-Mughīrah ibn al-Muhallab* (Islamica, II, 1926, P. 344-354) .

مرو هو مرو الشاهجان - أما البيت الثاني فهو الشاهد في تذكير المؤنث .

(٣) راجع في كتاب الأغاني ج ١١ ص ١٦٥ - ١٦٧ و ١٧١ و ١٧٢ . قاله يهجو بني يشكر وفي ج ١٣ ص ٥٨ - ٥٩ ما قاله يهجو كعباً الأشقرى .

في هذا النوع السادس . إِنَّ الناس أَحَبُّوا في كُلِّ وقتٍ تخليد ذكر مآثر آبائهم والافتخار بها فتعم هذا الافتخار إن لم يُفسدْهُ التعصب المفرط المنكّر لآلِه إذا لم يعذِلْ عن سبيل الإنصاف أصبح حثّاً نافعاً على احتذاء مثال الأفاضل وتخريضاً شديداً على طلب المعالي وصونٍ ما يجب على كُلِّ أمة لإيراثه الخلف من مجد السلف وعلو شأنهم في الاجتماع البشري . ولا أحتاج إلى وصف قدر اهتمام الغرب بإبقاء ذكر أفعالهم ومفاخرهم التي ملؤوا من تذكّارها دواوين أشعارهم . فلما خرجوا عن جزيرتهم وفتحوا البلاد أهانوا الأمم التي تغلبوا عليها كأنها أدنى منهم بكثير شرفاً ومجداً . أما هذه الأمم المتقدمة في سير التمدن من زمان عتيق فأخذت تفتخر بملوكها القدماء وما لهم من الآثار المُعْجِبة فإلى ذلك أشار جرير بقوله^(١) :

إذا افتخروا عدواً الصَّبْهَبَدَ منهم وكِسْرَى وآلَ الهَرْمُزَانَ وقَيْصَرَا
تري منهم مستبصرين على الهدى وذا التاج يُضْحِي مَرْزُبَاناً مسوراً
أغرَّ شبيهاً بالفنيق إذا ارتدى على القُبْطُرِيِّ الفارسيّ المزرراً
وكان كتابٌ فيهم ونبوّة وكانوا بإصْطَخَرَ الملوك وتُسْتَرَا
لقد جاهد الوضّاح بالحقّ مُعْلِماً فأورث مجداً باقياً أهلَ بَرَبَرَا

فنشأ نوع من الشعر في مدح العجم وتفضيلهم على العرب وهو داخل في هذا الصنف السادس المُفْرَد لشعر الأحزاب السياسية والأختلافات الدينية . ولعلَّ أَوَّلَ الفُرُس الذي نظم الشعر بلغة العرب وسلك فيه المسلك المدلول عليه المسمّى عند كُتَبَةِ القرن الثالث والرابع بالشعوبيّة هو إسماعيل بن يسار

(١) ديوان جرير ج ١ ص ١٠٧ من طبعة مصر ١٣١٣ [أو ص ٢٤٢ - ٢٤٣ من

طبعة مصر ١٣٥٤] .

النَّسَائِيُّ الذي روى صاحب كتاب الأغاني^(١) بعض أخباره فقال إنه «مولى بنى تميم بن مرة تيم قريش وكان منقطعاً إلى آل الزبير فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان وفد إليه^(٢) مع عروة بن الزبير ومدحه ومدح الخلفاء من ولده بعده وعاش عُمرًا طويلاً إلى أن أدرك آخر سلطان بنى أمية ولم يدرك الدولة العباسية وكان طبيباً مليحاً مندرًا^(٣) بطالاً مليح الشعر وكان كالمنقطع إلى عروة بن الزبير . وإنما سُمِّي إسماعيل بن يسار النَّسَائِيُّ لَأَنَّ أَبَاهُ كان يصنع طعام العُرس ويبيعه فيشتريه منه من أراد التعريس من المتجملين ومن لم تبلغ حاله اصطناع ذلك^(٤) . ومما وصل إلينا من أشعاره يلوح أنه تعاطى المديح والرثاء فضلاً عن الغزل اللطيف الغالب عند شعراء مدن الحجاز في ذلك العصر . أما الذي يُهمُّني في هذا المقام والذي أُحبُّ أن تتأملوه فإنَّ إسماعيل بن يسار كان «شعوبياً شديداً التعصب للعجم وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم»^(٥) ففي قصيدة له بعد إظهار التشبيب بهند قال^(٦) :

رُبُّ خَالٍ مَتَوِّجٍ لِي وَعَمٌّ مَاجِدٍ مُجْتَدِي كَرِيمِ النَّصَابِ

(١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٤ ص ١١٩ - ١٢٧ ولا يذكر في كتاب الشعر لابن قتيبة (ص ٣٦٦ من طبعة ليدن) وخزانة الأدب (ج ١ ص ١٤٤ من طبعة بولاق) إلا اسمه فراجع أيضاً J. GOLDZIEHER, *Muhammedanische Studien*, I, 160

(٢) وهذا بعد مقتل عبد الله بن الزبير (كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٤ سطر ٢٢ من طبعة بولاق) أي بعد سنة $\frac{٧٣}{٢٩٦}$.

(٣) [كذا في طبعة بولاق وفي طبعة دار الكتب المصرية : « مندرًا » وفي الحاشية : « مندرًا يأتي بالنوادر من قول أو فعل . وبطل كثير الهزل والمزاح »] .

(٤) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١١٩ من طبعة بولاق . وقيل « إنما سمي إسماعيل بن يسار النَّسَائِيُّ لأنه [وليس أبوه] كان يبيع النجد والفرش التي تتخذ للعرائس » .

(٥) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢١ من طبعة بولاق .

(٦) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٠ - اجتدى سأله حاجة أو طلب جدواه - نصاب أول كل شيء ، الأصل - ضاهى شاكله وشابهه - حقب وجمعه أحقاب الدهر - دس الشيء تحت التراب وغيره ودسه فيه أدخله فيه ودفنه تحته وأخفاه - أما اشتقاق فوارس فراجع ما قاله ابن بدرون في شرحه على قصيدة ابن عبدون ص ٨ من طبعة ليدن ١٨٤٦ .

إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ بِالْفَرْسِ س مضاهاة رفعة الأنساب
فَاتْرُكِي الْفَخْرَ يَا أَمَامَ عَلَيْنَا واتركي الجور وأنطق بالصواب
وَأَسْأَلِي إِنْ جَهِلْتِ عَنِّي وَعَنْكُمْ كيف كنّا في سالف الأحقاب
إِذْ نَرَبِّي بِنَاتِنَا وَتَدُسُّو ن سفاهاً بِناتِكُمْ في التراب

وجسّر يوماً بالرّصافة على إنشاد قصيدة بحضور هشام بن عبد الملك
قال فيها^(١):

إِنِّي وَجَدْتُ مَا عُودِي بِذِي خَوَرٍ عند الحِفاظِ ولا حَوْضِي بِمَهْدومٍ
أَصْلِي كَرِيمٌ وَمَجْدِي لَا يُقَاسُ بِهِ ولي لسانٌ كَحَدِّ السيفِ مسمومٍ
أَخْبَى بِهِ مَجْدَ أَقْوَامِ ذَوِي حَسَبٍ من كلِّ قَرَمٍ بَتَاجِ الْمُلْكِ مَعْمومٍ
جَحَاجِحَ سَادَةٍ بُلُجٍ مَرَاذِيهِ جُرْدٍ عَتَاقٍ مَسَامِيحَ مَطَاعِمٍ
مَنْ مِثْلَ كِسْرَى وَسَابُورِ الْجُنُودِ مَعاً وَالْهُرْمُزَانَ لِفَخْرِ أَوْ لَتَعْظِيمٍ
أَسَدُ الْكَتَائِبِ يَوْمَ الرُّوعِ إِنْ زَحَفُوا وَهُمْ أَذَلُّوا مَلُوكَ التُّرْكِ وَالرُّومِ
يَمْشُونَ فِي حَلَقِ الْمَاضِي سَابِغَةً مَشَى الضَّرَاغِمَةُ الْأَسَدُ اللَّهَامِيمِ
هَنَّاكَ إِنْ تَسْأَلِي تُنَبِّئِي بِأَنَّ لَنَا جُرْثُومَةً قَهَرَتْ عَزَّ الْجَرَائِمِ

ويروى أَنَّ هشام بن عبد الملك لما سمع هذه الأبيات غضب وأمر بدفع

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٥ من طبعة بولاق - خور ضعف - قرم: الفعل أو ما لم يمسح جبل ولم يحمل عليه وترك للفحلة وقيل السيد أو العظيم على التشبيه بالفعل - جميع السيد المسارع في المكارم - أبلج ذو الكرم والمعروف وجمعه بلج - الأجرد الذي له جرد يعني قصر شعر الجلد في الفرس وهو من الأوصاف المحمودة في الخيل - العتاق (جمع عتيق) من الخيل: النجائب - مسامح (وجمعه مساميح) ذو جواد وذو سمحة - مطعام (وجمعه مطاعم) كثير الأضياف والقرى - ملك كسرى الأول أنو شروان من ٥٣١ إلى ٥٧٩ بعد المسيح وسابور الأول من ٢٤١ إلى ٢٧١ وسابور الثاني ذو الأكتاف من ٣٠٩ إلى ٣٧٩ وسابور الثالث من ٣٨٣ - ٣٨٨ . - زحف مشى - الحلقة (وجمعه حلق) كل شيء استدار والحلقة الدرع خاصة - (درع) سابغة تامة طويلة - لهيم (جمعه لهاميم) السابق الجواد من الخيل والناس - جرثومة أصل .

إسماعيل في بركة كانت أمامهما في القصر ففعلوا وغطوه في الماء حتى كادت نفسه تخرج ثم أمر بإخراجه ونفاه من وقته إلى الجحاز .

فلعلَّ إسماعيل بن يسار كان أولَّ شاعر استعمل اللغة العربية لتفضيل الفرس على العرب . وابنه إبراهيم كان أيضاً مبتلياً بالعصبية للعجم والفخر بهم فحذا حذو أبيه في إظهار تعصبه في الشعر^(١) . وذلك دلالة على تقرب عهد جديد أعنى عهد الخلفاء العباسيين الذي غلبت فيه العجم على العرب في أمور السلطان والسياسة .

سمعنا إلى الآن أقوال تعصب وبُغض وخلافات وفتن وحروب فقبل أن نفارق هذا الصنف من الشعر ينبغي لنا الإشارة إلى القليل البعيد عن مثل ذلك القريب من الآية القرآنية : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »^(٢) .

ليس مجهولاً لكم أنَّ أكثر الخوارج اجتمعوا على جواز تقليد الإمامة لكل رجل صالح مهما كان أصله وجنسه فلا فرق عندهم بين عربيّ وفارسيّ وزنجيّ وبربريّ وغيرهم من أصحاب مذهبهم . وذلك مخالف لعصبية قبائل الأعراب موافق للقول بتساوي كلِّ المؤمنين . فلما هرب عِمْرَان بن حِطَّان الخارجيّ المذكور سابقاً (ص ٢٣٦) . من الحجاج بن يوسف وارتحل من قبيلة إلى قبيلة طالباً للمثوى ونزل مدة عند رَوْح بن زِنْبَاع الجُدَامِيّ ثم بزُفَر بن الحارث الكِلَابِيّ ثم عند قوم من الأزد قال في نزوله بهم^(٣) :

نَزَلْنَا بِحَمْدِ اللَّهِ فِي خَيْرِ مَنَازِلٍ نُسَبُّ بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْخَفَرِ

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٦ سطر ٢٣ من طبعة بولاق .

(٢) القرآن سورة ٤٩ (الحجرات) : ١٠ .

(٣) الكامل للبرد ص ٥٣٣ - ٥٣٤ من طبعة ليسك أوج ٢ ص ١٢٤ من طبعة مصر

١٣٢٣ - ١٣٢٤ (وفيه شرح الأبيات) وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ١٥٤ .

نَزَلْنَا بِقَوْمٍ يَجْمَعُ اللَّهُ شَمْلَهُمْ وليس لهم عود سوى المجد يُعْتَصِرُ
 من الأزد إنَّ الأزدَ أَكْرَمُ مَعْشَرٍ بِمَانِيَةٍ طَابُوا إِذَا نُسِبَ الْبَشَرُ
 فَأَصْبَحَتْ فِيهِمْ آمِنًا لَا كَمَعْشَرٍ أَتَوْنِي فَقَالُوا مِنْ رَبِيعَةٍ أَوْ مُضَرَ
 أُمُّ الْحَيِّ قَحْطَانٍ فَتِلْكَمُ سَفَاهَةٌ كَمَا قَالَ لِي رَوْحٌ وَصَاحِبُهُ زُفَرٌ
 وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا يُسَرُّ بِنُسْبَةٍ تُقَرِّبُنِي مِنْهُ وَإِنْ كَانَ ذَا نَفَرٍ
 فَنَحْنُ بَنُو الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ وَاحِدٌ وَأَوَّلَى عِبَادِ اللَّهِ بِاللَّهِ مَنْ شَكَرَ
 وَلَكِنْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَغْتَرُّوا بِهَذَا الْقَوْلِ الْمَعْبَرِ عَنْ شُكْرِ الشَّاعِرِ لِمَنْ أَلْجَاهُ
 وَأَثَوَاهُ هَارِبًا خَائِفًا فَقِيرًا لَا غَيْرَ . فقد سبق (ص ٢٣٦) أَنَّ عِمْرَانَ بْنَ حِطَّانٍ
 كَانَ مِنَ الشُّعْرَاءِ الْمَعْرُضِينَ حَزْبَهُمْ عَلَى قِتَالِ غَيْرِهِمْ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْخَوَارِجَ قَالُوا
 بِكُفْرِ جَمِيعٍ مِنْ لَمْ يَتَّبِعْ مَذْهَبَهُمْ وَكَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ تَعَصُّبًا حَتَّى تَفَرَّقُوا
 أَنْفُسَهُمْ عِدَّةَ فِرْقٍ مُبْغِضِينَ بَعْضُهَا بَعْضًا عَلَى قِلَّتِهَا . وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُمْ مَحَا
 التَّعَصُّبِ الْقَوِيَّ الْمَأْلُوفِ لِلْأَعْرَابِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ وَبَدَلُوهُ بِتَعَصُّبِ مَذْهَبٍ أَشَدَّ
 مِنَ الْقَوِيَّ حِدَّةً مُعَادِلٍ لَهُ سَعَةً لِأَنَّ عِدَدَ أَصْحَابِ فِرْقَةٍ مِنْ فِرْقِهِمْ لَمْ يَتَجَاوَزْ
 فِي الْغَالِبِ عِدَدَ أَبْنَاءِ قَوْمٍ مِنْ أَقْوَامِ الْأَعْرَابِ - أَمَا الَّذِي لَمْ تُخْتِ إِلَيْهِ إِنَّمَا
 هُوَ مِثْلُ قَوْلِ الصَّلْتَانِ الْعَبْدِيِّ مُعَاوِيَةَ الْفَرَزْدَقِ وَجَرِيرٍ (١) :

أَرَى أُمَّةً شَهْرَتْ سِيفُهَا وَقَدْ زِيدَ فِي سَوْطِهَا الْأَصْبَحِي
 بِنَجْدِيَّةٍ وَحَرُورِيَّةٍ وَأَزْرَقَ يَدْعُو إِلَى أَزْرَقِ
 فَمِلَّتُنَا أَنْتَنَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى دِينِ صَدِّيقِنَا وَالنَّبِيِّ

(١) الكامل للمبرد ص ٥٤٠ من طبعة ليسك أو ج ٢ ص ١٢٩ من طبعة مصر ١٣٢٣ -
 ١٣٢٤ - أما الأصبحي فقال المبرد : « تسمى هذه السياط التي يعاقب بها السلطان الأصبحية وتنسب
 إلى ذئب أصبح الحميري . . . وهو أول من اتخذها » [ومن الممكن أن الشاعر يشير إلى اليمنيين الذين
 نالوا الخطوة عند بني أمية] . - أما النجدية فقال المبرد : « تنسب إلى نجدة بن عويمر . . . كان رأساً
 ذا مقالة منفردة من مقالات الخوارج » - الحرورية من الخوارج أيضاً - وأزرق يدعو إلى أزرق
 يقال يعني من كان من أصحاب نافع بن الأزرق .

أو مثل قول نهار بن تَوْسِعة شاعر بني بكر بن وائل بخراسان في أيام قتيبة بن مسلم^(١) :

أبي الإسلام لا أبَ لي سِواه إذا هتَفُوا بِبَكْرِ أو تَمِيم
دَعَى القوم يَنْصُرُ مُدَّعِيَهُ فَيُلْحِقَهُ بِلِى النِّسَبِ الصِّمِيمِ
وما كَرَّمَ ولو شَرُفَتْ جُدُودُ وَلَكِنَّ التَّقَى هو الكَرِيمُ

لكن مثل هذه الأقوال الكريمة نادرة جداً عند شعراء عهد الأمويين.

٧- فلنشرع في بيان الصنف السابع من الشعر في أيام بني أمية وهو شعر أهل الحضر في مدن العراق والشام .

بُنيت الكوفة والبصرة بعد تمام فتح العراق سنة $\frac{١٧}{٦٣٨}$ تقريباً في خلافة عمر بن الخطاب . فكان لهذا الخليفة الأجل الماهر بأمور السياسة غرضان من تأسيس تينك المدينتين^(٢) أعنى نقصان شأن المدن العراقية الفارسية الأصل مثل المدائن والحيرة لئلا تفوق العجم العرب قدرة وتأثيراً وجعل مقامات للأعراب المفتحين في أطراف البادية متوسطة بين البدو والحضر ليعتادوا العيشة المدنية شيئاً فشيئاً وتزال رَغْبَتُهُمْ في الرجوع إلى براريهم وكراهتُهُمْ للاستقرار في المدن كما تقدّم بيان ذلك في أحد الأبواب الماضية (ص ١٤٣) . فزاد عدد من استوطن الكوفة سريعاً لا سيّما لما نقل على ابن أبي طالب دار الخلافة إليها سنة $\frac{٣٦}{٦٥٧}$ فأضحت مدّة أربعة أعوام قاعدة المُلْك للمَنقُطِعين إلى شيعة عليّ . ثمّ في أيام الدولة الأموية لم تنزل عامرة

(١) انظر كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٨٢ من طبعة ليدن والكامل للمبرد ص ٥٣٨ من طبعة ليسك أوج ٢ ص ١٢٧ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٤ (فيه البيت الأول والثاني فقط) والبيت الأول مروي أيضاً في الفصل الحادي والمائة من كتاب المفصل للزحشرى (ص ٧٨ من طبعة مصر ١٣٢٣) .
(٢) راجع أيضاً : J.L. CAETANI, *Annali dell' Islām*, vol. III, P. 774-776; 833-845

زاهرة في غاية النضارة^(١) بل صارت للآداب العربية سوقاً حفيلاً لم ينقص
نفاقه عن در مثله بدمشق فوفدت الشعراء إليها جمّاً غفيراً وإن كانت سكناهم
الاعتيادية في أنحاء بعيدة عنها . كيف لا وأغلب ولاتها مائلون إلى سماع
الشعر مُنعمون على الشعراء الصّلات الجزيلة محبّون للأنس والاجتماع والسمر
مثل بشر بن مروان الذي يروى فيه أن أيمن بن خزيمة الشاعر لما أتاه
«نظر الناس يدخلون عليه أفواجا فقال من يؤذن لنا الأمير أو يستأذن لنا
عليه ؟ فقيل له ليس على الأمير حجاب ولا ستر فدخل وهو يقول^(٢) :

يُرى بارزاً للناس بشر كأنه إذا لاح في أثوابه قمرٌ بندرٌ
ولو شاء بشرٌ أغلق الباب دونه طماطمٌ سودٌ أو صقالبه شقرٌ
أبى ذا ولكن سهل الإذن للتي يكون له في غيبها الحمد والشكر

فضحك إليه. بشر وقال : إنا قوم نحجب الحرّم وأما الأموال والطعام
فلا . ثم تأملوا أمراً آخر وهو أن دمشق حينئذ كانت دار الخلافة وأهلها
وأهل جميع الشام كثيروا التعصّب للأمويين بل أشدّ أركانهم حتى إن لفظ
الشاميّ استعمل أحياناً بمعنى المنقطع إلى بني أمية^(٣) فربّما من لم يمل من
الشعراء إلى الدولة الأموية كره دخول الشام خوفاً من عداوة أهلها أو من
أن يتهم بخيانة حزبه . أمّا العراق فإن قطعنا النظر عن ولاية الحجاج
ابن يوسف كانت رعاية الأمويين فيها أخفّ منها بالشام فصارت البصرة
والكوفة مقصّد ناس من كلّ شيعة وحزب ومذهب فنزل فيها بدون عائق
ومانع من لعلّ صعب عليه قدوم الشام . فكثير من الشعراء المذكورين فيما

(١) أما رفاة العيش في الكوفة والحيرة في عصر بني أمية فانظر ما قيل مثلاً في كتاب الأغاني ج ٢

ص ١٢٢ و ١٢٤ و ١٢٥ من طبعة بولاق .

(٢) انظر كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٢ .

(٣) ويوجد « الشامي الأخطل » بهذا المعنى في قصيدة للفرزدق فانظر النقا ص ٢٠٢ عدد

٣٩ بيت ٦٢ من طبعة ليدن [ردوان الفرزدق ص ٧٢١ سطر ٧ من طبعة مصر ١٣٥٤] .

تقدّم وفدوا الكوفة مراراً أو أقاموا بها على اختلاف مذاهبهم ومنهم الأخطل والفرزدق وجريير وذو الرمة والراعي وعبد الله بن الزبير وأعشى بنى ربيعة من مُدّاح الخلفاء والأمراء الأمويّين وكثير الكمّيت من أهل الشيعة والطّرمّاح من الخوارج وهلمّ جرّاً . فلماذا لا غرو أن تكون للكوفيين منزلة خاصّة في تاريخ الشعر العربيّ في أيام بنى أميّة .

أمّا أنواع الشعر المألوفة لأهل مدن العراق سوى الشعر السياسيّ المتقدّم بيانه والمرأئيّ فثلاثة: الخمريّات والغزل والمديح . وجميع ذلك متّصل بأنواع الشعر العربيّ الجاهليّ في أقطار العراق الجنوبيّة الغربيّة .

أسست مدينة الكوفة على مسافة قليلة أي ستّة كيلومترات تقريباً من الحيرة فلا شكّ أنّ جملة من أهل الحيرة انتقلوا إلى المدينة الجديدة واستوطنوها للتجارة فيها . وأحوال الحيرة قبل الفتح الإسلاميّ وتأسيس الكوفة معروفة فلا أحد يجهل أنّها كانت قاعدة مُلك اللّخميّين إلى نحو سنة ٢٠ قبل الهجرة وأنّ مُعظم سكّانها نصارى معروفون بالعباد اشتهروا عند عرب البادية في الجاهليّة لبيع الخمر . ونبغت فيها الشعراء من أهل الحضر ووفدت إليها أيضاً شعراء أهل الوبر من بلاد نجد واليمامة والبحرين لما كانوا يجدون فيها من رواج الشعر وحسن القبول عند ملوك بنى لخم ومن سعة الأرزاق ورغد العيش وكثرة الحوانيت والخمّارات التي كانوا يبيتون فيها معاقرين للشراب مستمعين لأغاني القينات . فخمريّات أهل الحيرة أو من نزل فيها من الفحول مثل عديّ بن زيد والأعشى وطرفة والنابغة الذبيانيّ أشهر من أن احتاج إلى الإطناب في الكلام عليها . فإن تأملتم هذا وتأثير أهل الحيرة وعاداتهم في العرب الذين عمروا الكوفة واختلط المسلمون بأصحاب ديانات شتى في العراق ثم إن تذكّرت ما تقدّم بيانه من تمسك الأعراب بعاداتهم

القديمة وكراحتهم لبعض الأحكام الإسلامية ما استغربتم وفرة الأشعار في وصف الخمر ومدحه عند من نسج القريض في الكوفة والبصرة في أيام بني أمية . وزيدوا على ذلك كله حب شعراء العرب لاحتذاء مثال المتقدمين والافتداء بأساليبهم وأخذ معانيهم فكما تجدون حتى الآن شعراء يبكون على أطلال قوم المعشوقة ويشكون مشاق قطع الفياض التي لم يروها أبداً ولا من بعيد كذلك ليس من المحال أن بعض الشعراء ذهبوا إلى وصف الخمر وذكر لذاتها بدون أن ذاقوا منها قطرة كأن غرضهم تقليد أشعار فحول الجاهلية لا التعبير عما في قلوبهم حقيقة .

وعلى كل حال لم يزل خمارو الحميرة مشهورين إلى نحو أواخر القرن الثاني أو بعدها بقليل كما يُستنتج مما رواه صاحب كتاب الأغاني في ترجمة بكر ابن خازجة شاعر من أهل الكوفة مُغرم بشرب الخمر . قال (١) : « حرم بعض الأمراء بالكوفة بيع الخمر على خمائر الحيرة وركب فكسر نبيذهم فجاء بكر يشرب عندهم على عادته فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق فبكى طويلاً وقال :

يا لقوى لِمَا جَنَى السُّلْطَانُ لَا يَكُونُنْ لِمَا أَهَانَ الْهَوَانُ
قهوة في التراب من حَلَبِ الْكَرْمِ عُقَارًا كَأَنَّهُ الزَّعْفَرَانُ
قهوة في مكان سوء لقد صا دف سعد السعود ذاك المكانُ
من كُمَيْتٍ بدا المزاجُ لها لَوْ لَوْ نَظُمَ وَالْفَضْلُ مِنْهَا جُمَانُ
... كيف صبري عن بعض نفسي وهل يص ر عن بعض نفسه الإنسانُ

والشواهد على انتشار شرب الخمر عند بعض الأفاضل المسلمين في العراق في القرن الأول غير نادرة منها ما يروى في كتاب سيرة الرسول لابن هشام

(١) كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ٨٧ . العقار : الخمر . جان : التلوذة الواحدة .

أن النعمان بن عدى^(١) بعد ما استعمله عمر بن الخطاب على ميسان موضع من أرض البصرة قال :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها بميسان يُسقى في زجاج وحنتم
إذا شئت عنتى دهاقين قرية ورُقاصة تجدوا على كل منسم
فإن كنت ندماني فبالأكبر أسقني ولا تسقني بالأصغر المتثلّم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادئنا في الجوسق المتهدّم

فلما بلغت عمر هذه الأبيات عزله . فنذكر عن قريب أمثلة أخرى متعددة من حب الخمر في العراق في عهد بني أمية .

أما الغزل فهو عند أهل الحضرة المترفين كالنسيب عند أهل البادية فقد أحسن ابن رشيّق القيرواني في وصف الفرق بينهما حيث قال^(٢) :
«ومقاصد الناس تختلف فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال وتوقع البين والإشفاق منه وصفة الطلول والحمول والتشوق بحنين الإبل ولمع البروق ومرّ النسيم وذكر المياه التي يلتقون عليها والرياض التي يُحِلُّون بها من خزامى وأقحوان وبهار وحنوة وظبانٍ وعرار وما أشبهها من زهر البرية الذي تعرفه العرب وتنبئه الصحارى والجبال وما يلوح لهم من النيران في الناحية التي بها أحبابهم ولا يعدون النساء إذا تغزلوا ونسبوا فإن وقع مثل قول طرفة^(٣) :

وفي الحي أخوى ينفض المرّد شادين مظاهِرُ سَمَطَى لؤلؤ وزبرجدٍ

(١) سيرة الرسول ص ٧٨٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨ - ١٩٥٩ ويروى البيت الأول والرابع في معجم ما استعجم للبكري ص ٥٦٧ من طبعة غوتنجن والبيت الأول في لسان العرب ج ١٥ ص ٥١ - حنتم الجرة الحصراء - الجوسق القصر معرب كوشك بالفارسية وهو أيضاً من مصانع الفرس بالكوفة (راجع معجم البكري ص ٢٥٧) .

(٢) كتاب العمد ج ١ ص ١٥٠ من طبعة مصر ١٢٢٥ .

(٣) وهو البيت السادس من معلقة طرفة .

فإنَّما هو كناية بالغزل عن المرأة . وأهل الحاضرة يأتى أكثر تغزليهم في ذكر الصدود والهجران والواشين والرقباء ومنعة الحرس والأبواب وفي ذكر الشراب والندامى والورد والتسرين والنيلوفر وما شاكل ذلك من النواوير البلدية والرياحين البستانية وفي تشبيه التفاح والتحية به ودس الكتب وما شاكل ذلك ممّا هم به منفردون .

أمّا المديح فسبب اعتناء الشعراء به واضح لا يحتاج إلى شرح . ومن الشعراء المقيمين بالكوفة والبصرة حارثة بن بدر الغداني^(١) من قرّسان بنى تميم ووجوههم حسب صاحب الأغاني على وجه التخمين أنّه قد أدرك النبي في صباه وحداثته وكان له حظّ عظيم عند زياد بن أبي سفيان الذي لم يزل طول عمره مُكرِّماً له «قابلاً لرأيه محتملاً لما يعلمه من تناوله الشراب»^(٢) وكذلك أكرمه عبيد الله بن زياد والى الكوفة من سنة ٦٦ إلى سنة ٦٦ حتى استعمل مدّة على نيسابور . وأكثر أشعاره من الخمريات منها^(٣) .

أَذْهَبَ عَنِّي الْغَمُّ وَالْهَمُّ وَالَّذِي بِهِ تَطَرَّقُ الْأَحْدَاثُ شُرْبُ الْمُرُوقِ
فَوَاللَّهِ مَا أَنْفَكُ بِالرَّاحِ مَهْتَرًا وَلَوْ لَمْ فِيهَا كُلُّ خَرٍّ مَوْقُ
فَمَا لَأَمِي فِيهَا وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا بِأَعْلَمَ مِنِّي بِالرَّحِيقِ الْمَعْتَقِ
وَلَكِنْ قَلْبِي مُسْتَهَامٌ بِحُبِّهَا وَحُبُّ الْقِيَانِ رَأَى كُلَّ مُحَقِّقِ
أَحِبُّ الْتَى لَا أَمْلِكُ الدُّخْرَ بُغْضَهَا وَذَلِكَ فِعْلٌ مُعْجِبٌ كُلَّ أَخْرَقِ
سَأَشْرَبُهَا صِرْفًا وَأَسْقِي صَحَابَتِي وَأَطْلُبُ غِرَاتِ الْغَزَالِ الْمُنْطَقِ

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٠ - ٤٤ وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٣١١ - ٣١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ (وليه اسم الشاعر حارثة بن زيد) و ٣١٣ .
(٢) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢١ وراجع أيضاً ص ٣٩ - ٤٠ .
(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٤١ . وفي الشطر الثاني من البيت الخامس اقرأ : « وذلك فعلٌ معجبٌ كل أخرق » بدلا من « وذلك فعلٌ معجبٌ كل أخرق » كما في الطبع .

فدّمه أنس بن زُنييم الليثي ووعظه قائلا (١) :

أحار بن بدرٍ باكرٍ الراحٍ إنها
تُنسبك أسباباً عظيماً ركبها
... فَدَعُ عَنْكَ شَرْبَ الْخَمْرِ وَارْجِعْ إِلَى الْتِي
عليك نبيذُ التَّمْرِ إِنْ كُنْتَ شَارِباً
أَلَا إِنَّ شَرْبَ الْخَمْرِ يُزْرِى بِذِي الْحِجَى
فَصَبِّراً عَنْ الصَّهْبَاءِ وَأَعْلَمْ بِأَنِّي
تُنسبك ما قَدَّمْتَ فِي سَائِلِ الدَّهْرِ
وأنت على عَمِيَاءٍ فِي سَنَنِ تَجْرِي
بِهَا يَرْتَضَى أَهْلُ النَّبَاهَةِ وَالذُّكْرِ
فَإِنَّ نَبِيذَ التَّمْرِ خَيْرٌ مِنَ الْخَمْرِ
وَيَذْهَبُ بِالْمَالِ التَّلَادِ وَبِالْوَفْرِ
نَصِيحٌ وَأَنِّي قَدْ كَبُرْتُ عَلَى الزُّجْرِ
ولكن لم تنفعه المواعظ والنصائح .

ومن الشعراء الكوفيّين الذين كانوا في أواخر القرن الأوّل وأوائل الثاني
عمار بن عمرو الملقّب بذي كِنَاز (٢) قال فيه صاحب الأغاني ما نصّه :
« كَانَ لَيْنَ الشَّعْرِ مَاجِناً خَمِيْراً مَعَاقِراً لِلشَّرَابِ وَقَدْ حُدَّ فِيهِ مَرَّاتٌ وَكَانَ
يَقُولُ شَعْراً ظَرِيفاً يُضْحَكُ مِنْ أَكْثَرِهِ شَدِيدَ التَّهَامَاتِ جَمُّ السَّخْفِ .. وَكَانَ
هُوَ وَحَمَادُ الرَّاوِيَةِ وَمُطِيعُ بْنُ إِيَّاسٍ يَتَنَادَمُونَ وَيَجْتَمِعُونَ عَلَى شَأْنِهِمْ
لَا يَفْتَرِقُونَ وَكُلُّهُمْ كَانَ مَتَّهِماً بِالزُّنْدَقَةِ ، وَعَمَّارٌ مِمَّنْ نَشَأَ فِي دَوْلَةِ بَنِي أُمَيَّةٍ
وَلَمْ أَسْمَعْ لَهُ بِخَبَرٍ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ » . ومن الجدير بالذكر أَنَّ شِعْرَ عَمَّارٍ
ذِي كِنَازٍ أَوْ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْهُ كُلُّهُ مَنْسُوجٌ فِي الْأَعَارِيضِ الْقَصِيرَةِ دَائِرٌ عَلَى
الْعِزَاحِ وَالْخَمْرِ وَالْغَزَلِ وَمِثَالُهُ (٣) :

شَجَا	قَلْبِي	غَزَالٌ	ذُو	دَلَالٍ	وَاضِحٍ	السُّنَّةُ
أَسِيلٌ	الْخَدَّ	مَرْبُوبٌ	وَفِي	مَنْطِقِهِ	غُنَّةُ	
أَلَا	إِنَّ	الْغَوَانِي	قَدْ	بَرَى	جَسْمِي	هَوَاهُنَّ

(١) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٣٣ .

(٢) توجد ترجمته في كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٧٤ - ١٨٠ .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢٠ ص ١٧٩ .

وقالوا شَفَّكَ الحورُ هَوَى قلت لهم إِنَّهُ
ولكنى على ذاك معننى بأذاكُنَّه
أراح الله عَمَّاراً من الدنيا ومنهنة
بعيدات قريبات فلا كان ولا كنه
فقد أذهل منى العقد لى والقلب شجَاهُنَّه
يُمَنِّينَ الأباطيلَ ويجحدن الذى قُلْنَه

ومن هولاء الشعراء حُنَيْنُ بن بلوع الحيرى^(١) « كان شاعراً مغنياً
فحلا من فحول المغنين وله صنعة فاضلة متقدمة وكان يسكن الحيرة ويكرى
الجمال إلى الشام وغيرها وكان نصرانياً وهو القائل يصف الحيرة ومنزله
بها : (من المنسرح)

أنا حُنَيْنٌ ومنزلى النَّجَفُ وما ندىمى إلَّا الفتى القَصِيفُ
أقرعُ بالكأس ثغر باطية . مُتَرَعَّةٌ تارةً وأغترفُ
من قهوة باكرَ التُّجَارِ بها بيتَ يهودٍ قرارها الخَزَفُ
والعيش غَضٌ ومنزلى خَصِيبٌ لم تُغْلِنى شَقْوَةٌ ولا عَنَفٌ^(٢)

وكان من معاصرى هشام بن عبد الملك وبشر بن مروان وخالد القسرى.
وفى ترجمته فى كتاب الأغاني تجدون عدة أخبار دالة على رغد العيش والرفاهية
بمدينتى البصرة والكوفة بعد منتصف القرن الأول .

ومن الشعراء الكوفيين الذين غلب فى أشعارهم ذكر الشراب والمزاح والمجون

(١) راجع كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٢٠ - ١٢٧ من طبعة بولاق والشاعر غير مذكور فى
خزانة الأدب ولا فى كتاب الشعر لابن قتيبة [ولا فى طبقات الشعراء لابن سلام ولا فى كتاب المؤلف
والمتلف للآملى . أما اسم أبيه فهو فى طبعة دار الكتب المصرية (ج ٢ ص ٢٤١) بفتح الباء وسكون
اللام وفتح الواو] .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٢٠ من طبعة بولاق .

الأقيشِر الأسدي^(١) الذي ابتداءً يقول الشعر في أيام الخلفاء الراشدين ومات في حدود الثمانين تقريباً^(٢) وهو الذي يقول لنفسه^(٣) :

فإنَّ أبا معرضٍ إذ حَسَا من الراح كَأْساً على المَنبَرِ
خطيبُ لبیبُ أبو مُعْرِضٍ فإنَّ لیمَ فی الخمرِ لم یَصْبِرِ
أحلُّ الحرامِ أبو مُعْرِضٍ فصار خلیعاً على المَکبِرِ
یُجِلُّ اللُّثَامَ ویَلْحَى الکَرَامَ وإنَّ أقصروا عنه لم یُقْصِرِ
فقیل إنَّه کان لا یسأل أحداً أكثر من خمسة دراهم یجعل درهمین
فی کراء بغلٍ إلى الحیرة ودرهمین للشراب ودرهماً للطعام^(٤) ، وحکایاته مع أهل
الشُّرطة معروفة^(٥) . وإلیه ینسب ابن قتیبة هذه الأبیات^(٦) :

(١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٤ - ٩٦ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٥٢ - ٣٥٤ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ٢ ص ٢٧٩ - ٢٨٢ . وتروى له ثلاثة أبيات في شرح التبريزي على حاشية أبي تمام ص ٨١١ - ٨١٢ من طبعة بن أوج ٤ ص ١٧٦ من طبعة بولاق (وراجع أيضاً كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٧) فاختلف في اسمه وقيل في كتاب الأغاني وخزانة الأدب وكتاب المقاصد النحوية للعينی (ج ٣ ص ٥٠٨ و ج ٤ ص ٥١٦ من طبعة بولاق ١٢٩٩ بهامش الخزانة) [وكتاب التنبيه للبكري (ص ٣٨ - ٣٩ من طبعة مصر ١٣٤٤)] إنه المغيرة بن عبد الله بن معرض فقال ابن قتيبة إنه المغيرة بن الأسود بن وهب وقال العينی (ج ١ ص ٣٧٧) إنه المغيرة بن أسود بن عبد الله بن معرض [وقال الآمدي في المؤلف والمختلف (ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٥٤) إنه المغيرة بن عبد الله من بني معرض بن عمر بن أسد وقال المرزباني في معجم الشعراء (ص ٣٦٩ من طبعة مصر ١٣٥٤) إنه المغيرة بن عبد الله بن أسود بن وهب من بني ناصح بن عمرو بن أسد وقيل من بني معرض بن عمرو بن أسد أما اسم معرض فضبط في طبعة مصر ١٣٤٤ من كتاب التنبيه للبكري بضم الميم وفتح العين وكسر الراء المشددة فأظن أن الصحيح معرض بضم الميم وسكون العين وكسر الراء لأن أبا معرض كنية الشاعر وهي مذكورة في ثلاثة أبيات له (وسأتي ذكرها) فالقراءة « معرض » بتشديد الراء غير ممكنة فيها لأجل الوزن فلذكر صاحب تاج العروس (ج ٥ ص ٥٤) علمي معرض (بسكون العين) ومعرض (بتشديد الراء) .

(٢) خزانة الأدب ج ٢ ص ٢٨٢ مدح بشر بن مروان وهو والي الكوفة من سنة ٧١ إلى ٧٤ / ٦٩٠

(٣) انظر كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٩٤ من طبعة بولاق .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٥ .

(٥) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٨٩ وانظر ص ٩١ .

(٦) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ٩٠ و ٩١ و ٩٢ .

(٦) كتاب الشعر والشعراء ص ٣٥٤ من طبعة ليدن وفيه لا يروى البيت الثاني فأخذه من كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٥ ومعجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٥١ من طبعة ليبسك .

وصَهْبَاءُ جُرْجَانِيَّةٍ لَمْ يَطْفُفَ بِهَا حَنِيفٌ وَلَمْ تَنْفَرْ بِهَا سَاعَةً قِذْرُ
وَلَمْ يَشْهَدْ الْقَسُ الْمُهَيَّنِمُ نَارَهَا طَرَوْقًا وَلَا صَلَّى عَلَى طَبْخِهَا حَبْرُ
أَتَانِي بِهَا يَحْيَى وَقَدْ نِمْتُ نَوْمَةً وَقَدْ غَابَتِ الشُّعْرَى وَقَدْ خَفَقَ النَّسْرُ
فَقُلْتُ أَصْطَبِخُهَا أَوْ لَغَيْرِي فَأَقْدِمَهَا فَمَا أَنَا بَعْدَ الشَّيْبِ وَيَحَاكَ وَالْخَمْرُ
إِذَا الْمَرْءُ وَفَى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءٌ وَلَا يَسْتُرُ
فَدَعُهُ وَلَا تَنْفَسْ عَلَيْهِ الَّذِي أَتَى وَإِنْ جَرَّ أَرْسَانَ الْحَيَاةِ لَهُ الدَّهْرُ

أما صاحب كتاب الأغاني^(١) فينسبها إلى شاعر كوفي آخر وهو أيمن ابن خُرَيْم الأسدي^(٢) من الشعراء المتغزلين والمادحين لعبد العزيز وبِشْر ابْنِ مروان. وأيمن هذا مع تفضله ومدحه لأمرء من بني أمية كان يتشيع في أيام عبد الملك بن مروان (٦٨٥ - ٧٠٥) نسج في مديح بني هاشم قصيدة رائعة منها^(٣) :

نَهَارُكُمْ مُكَابِدَةٌ وَصَوْمُ وَلَيْلَتُكُمْ صَلَاةٌ وَافْتِرَاءُ
وَلَيْتُمْ بِالْقُرَانِ وَبِالتَّزَكَّى فَاسْرَعَ فِيكُمْ ذَاكَ الْبَلَاءُ
بَكِي نَجْدٌ غَدَاةٌ غَدٍ عَلَيْكُمْ وَمَكَّةُ وَالْمَدِينَةُ وَالْجَوَاءُ
وَحَقٌّ لِكُلِّ أَرْضٍ فَارَقُوهَا عَلَيْكُمْ لَا أَبَا لَكُمْ الْبُكَاءُ
أَجْعَلُكُمْ وَأَقْوَامًا سَوَاءً وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْهَوَاءُ
وَهُمْ أَرْضٌ لَأَرْجُلِكُمْ وَأَنْتُمْ لَأَرْوُسِهِمْ وَأَعْيُنُهُمْ سَمَاءُ

ومثل هذا الكلام التقى غريب جدًا عند شاعر مثل هؤلاء الكوفيين .

(١) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٥ .

(٢) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٧ - ١٣ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٥ -

٣٤٧ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٠ . - والجواء جبل بينه وبين الريلة ثمانية فراسخ (معجم

البكري ص ٣٥٥) .

ومنهم مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري^(١) كانت آباؤه من سادة غطفان لكنه حضريّ مقيم بالكوفة فتزوج الحجاج بن يوسف أخته هنّدا . ومالك أشعار في الخمر تشبه خمريات شعراء بغداد في عهد بني العباس منها^(٢) :

حَبْدًا لَيْلَتِي بَتَلْ بُوْنَا إِذْ نُسَقَى شَرَابَنَا وَنُغْنَى
من شراب كأنه دَمٌ جَوْفٍ يترك الشيخ والفتى مُرَجَحِنَا
حيث دارت بنا الزُّجاجة دُرْنَا يحسب الجاهلون أَنَّا جُنُنَا
ومررنا بنِشوة عَطِراتٍ وسَمَاعٍ وَقَرَقَفٍ فَتَزَلْنَا

وله أشعار ظريفة أيضًا من نوع الغزل وروى البُخترى^(٣) له أبيات في ذهاب الشباب وابتداء الشيب .

ومنهم إسماعيل بن عمار بن عُبيّنة^(٤) الذي أدرك أوائل الدولة العبّاسيّة وقال الشعر في الرثاء والهجاء والمديح والغزل والفكاهات والخمر وله وصف طويل لقيّان بن رامين بالكوفة .

ومنهم الحكم بن عبدل الأسديّ الأعرج^(٥) منزله ومنشؤه بالكوفة إلا أنه انتقل إلى الشام لما بُويع لعبد الله بن الزبير بالعراق سنة ٦٤٤ هـ فكان من

(١) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤١ - ٤٧ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٩٢ - ٤٩٣ من طبعة ليدن ويروى له بيتان في خزانة الأدب ج ٢ ص ٤٨٤ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٩٢ من طبعة ليدن ومعجم البلدان لياقوت ص ٨٦٥ من طبعة ليبسك وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ٤٠ ويختلف في الرواية .

(٣) حماسة البخترى ص ٢٨٧ - ٢٨٨ من طبعة ليدن أو ص ١٩٧ - ١٩٨ عدد ١٠٣٨ و ١٠٣٩ من طبعة بيروت (وفيها « المرادى » بدلا من « الفزاري ») .

(٤) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١٣٥ - ١٤٢ وليس بذكر في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في خزانة الأدب [ولا في طبقات الشعراء لابن سلام] .

(٥) راجع كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٤٩ - ١٥٩ من طبعة بولاق وخزانة الأدب ج ٤ ص ٩٥ [والمؤلف للأمدى ص ١٦١] وأبيات له مروية في كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١١٧ و ١١٨ - ١٢٠ و ١٧١ و ج ٢ ص ١١١ من طبعة مصر ١٣٢٣ - ١٣٢٥ .

الداخلين إلى عبد الملك بن مروان $(\frac{70}{780} - \frac{86}{700})$ السامريين عنده ثم رجع إلى الكوفة وصار منقطعاً إلى بشر بن مروان فلما مات بشر جزع عليه ورثاه. وكان شاعراً مجيداً خبيث اللسان مُدْمِناً للخمر كالشعراء المتقدم ذكرهم وشعره كله في الهجاء والمجون والمديح. وكان له الشعر مكسباً كما كان لسائر شعراء طبقته فقال (١):

أَطْلُبُ مَا يَطْلُبُ الْكَرِيمُ مِنْ الـ رَزَقَ لِنَفْسِي وَأَجْمِلُ الطَّلَبَا
وَأَحْلُبُ الثَّرَّةَ الصَّفَى وَلَا أَجْهَدُ أَخْلَافَ غَيْرِهَا حَلَبَا
إِنِّي رَأَيْتُ الْفَتَى الْكَرِيمَ إِذَا رَغَبْتَهُ فِي صَنِيعَةٍ رَغِبَا
وَالْعَبْدُ لَا يَطْلُبُ الْعِلَاءَ وَلَا يُعْطِيكَ شَيْئًا إِلَّا إِذَا رَهَبَا
مِثْلُ الْحِمَارِ الْمَوْقِعِ السَّوْءِ لَا يُحْسِنُ مَشْيًا إِلَّا إِذَا ضَرَبَا
ويروى أَنَّ «الشعراء اجتمعوا إلى الحجاج وفيهم ابن عبدل فقالوا للحجاج إنما شعر ابن عبدل كله هجاء وشعر سخيّف فقال له قد سمعت قولهم فاستمع مني قال هات» (٢) فأنشده قصيدة مروية في كتاب أُمالي القالي (٣) وصف نفسه فيها بما لم يكن له حقيقة من الشوق إلى المكارم والمعالى منها:

وَإِنِّي لِأَسْتَعْنِي فَمَا أَبْطَرُ الْغِنَى وَأَعْرِضُ مَيْسُورِي لِمَنْ يَبْتَغِي عَرَضِي
وَأَعْسِرُ أَحْيَانًا فَتَشْتَدُّ عُسْرَتِي فَأَذْرِكُ مَيْسُورَ الْغِنَى وَمَعِيَ عَرَضِي
وَمَا نَالَنِي حَتَّى تَجَلَّتْ فَأَسْفَرْتُ أَخُوثِقَةٍ فِيهَا بَقَرَضٌ وَلَا فَرَضٌ
وَلَكِنَّهُ سَيَّبُ الْإِلَهَ وَجِرَفَتِي وَشَدَى حَيَازِيمَ الْمَطِيَّةِ بِالْفَرَضِ

(١) حاشية أبي تمام ص ٥٣٥ من طبعة بن أوج ٣ ص ١١٠ من طبعة بولاق.

(٢) كتاب الأغاني ج ٢ ص ١٥٨ من طبعة بولاق.

(٣) كتاب الأُمالي للقالي (المتوفى سنة ٢٥٦) ج ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٦ من طبعة بولاق

١٣٢٤ [أوج ٢ ص ٢٦٠ - ٢٦١ من طبعة مصر ١٣٤٤].

لَأُكْرِمَ نَفْسِي أَنْ أَرَى مَتَخَشُّعًا لِيَذِي مِنْهُ يُعْطَى الْقَلِيلَ عَلَى النَّحْضِ
وَأَخْرَاهَا :

ولستُ بذي وجهين فيمن عرفته ولا البخلُ فاعلم من سائي ولا أرضي
إنَّ كلَّ من سبق من هؤلاء الشعراء الكوفيّين يليق به أن يوصف بهذا
القول : « شاعر خليع ماجن منهمك في شرب الخمر » فنذكر الآن من كان
عن الخمر عفيفاً وهو المتوكل بن عبد الله اللبّبي^(١) من أهل الكوفة الذي
كان في عصر معاوية (٤١١ - ٦٨٠) وابنه يزيد (٦٨٠ - ٦٨٣) فصاغ
في مدحهما عدّة قصائد . وربما تعاطى الهجاء مُعْرِضاً عَمَّنْ هجّاه ولم يفعل
ذلك إلا كارهياً كما يظهر من قوله^(٢) :

نَدِمْتُ عَلَى شَتَمِي الْعَشِيرَةَ بَعْدَ مَا تَغْنَى بِهَا عُودٌ وَحَنٌّ يَمَانِي
قَلْبْتُ لَهُمْ ظَهَرَ الْمِجَنُّ وَلَبِنْتِي رَجَعْتُ بِفَضْلٍ مِنْ يَدِي وَلَسَانِي
عَلَى أَنْفِي لَمْ أَرَمَ فِي الشَّعْرِ مُسْلِمًا وَلَمْ أَهْجُ إِلَّا مِنْ رَوِي وَهْجَانِي
ومثل هذا الكلام لعمرى نادر في ذلك العصر . ومما يدلّ أيضاً على رقة
عواطفه الشعر اللطيف الذي قاله في امرأته أم بكر وصف فيه قدر هواه لها^(٣)
وله أبيات في الحكيم منها^(٤) :

(١) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ١١ ص ٣٩ - ٤٤ وخزانة الأدب ج ٣ ص ٦١٧ - ٦١٨ من طبعة بولاق [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٢ - ١٤٣ ومعجم للمرزباني ص ١٠٩ - ١١٠] وحاسة أبي تمام ص ٥٢٧ و ٧٧٢ و ٧٧٥ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٠٣ و ج ٤ ص ١٤٠ و ١٤٣ من طبعة بولاق وحاسة البحترى ج ١٧٤ و ٣٤٥ من طبعة ليدن أو ص ١١٧ و ٢٣٨ عدد ٥٧٣ و ١٣٠٠ من طبعة بيروت .

(٢) كتاب الأغاني ج ١١ ص ٤٢ وراجع حاسة البحترى ص ٣٤٥ من طبعة ليدن أو ص ٢٣٨ عدد ١٣٠٠ من طبعة بيروت .

وقلب له ظهر المجن مثل يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية ثم حال عن العهد (راجع مجمع الأمثال للميداني ج ٢ ص ٣٢ من طبعة مصر ١٣١٠) .

(٣) كتاب الأغاني ج ١١ ص ٤٠ و ٤١ من طبعة بولاق .

(٤) حاسة أبي تمام ص ٧٧٢ من طبعة بن أوج ٤ ص ١٤٠ من طبعة بولاق .

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ يوماً على الأحسابِ نتكلُ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَتَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا
ومنها أيضاً^(١) :

إِنِّي إِذَا مَا الْخَلِيلُ أَحْدَثَ لِي صُرماً وَمَلُّ الصَّفَاءِ أَوْ قَطْعاً
لَا أُحْتَسِي مَاءَهُ عَلَى رَتَقِي وَلَا يَرَانِي لِبَيِّنِهِ جَزَعاً
أَهْجُرُهُ تَمَّ يَنْقُضِي غُبْرُ الْـ يَهْجُرَانِ عَنَّا وَلَمْ أَقُلْ قَذَعاً
إِخْذَرِ وَصَالَ اللَّثْمُ إِنَّ لَهُ عَضُهَا إِذَا حَبَلٌ وَضَلِهِ انْقَطَعاً

ثم من شعراء الكوفة المشهورين الرماد بن أبرد (وقيل يزيد) من بني مرة بن عوف المعروف بابن ميادة^(٢) كان في أيام هشام بن عبد الملك (١٢٥ - ١٢٤) وأدرك خلافة المنصور العباسي (١٣٦ - ١٥٨) . وأشعاره في الهجاء والمديح والنسيب فقيل إنه كان متعرضاً للشرطاً للمهاجرة الناس ومُسَابَّة الشعراء وكان مع ذلك فصيحاً يحتاج أهل اللغة بشعره . ومدح بني أمية لا سيما الوليد بن يزيد (١٢٥ - ١٢٦) . ومدح من العباسيين المنصور وجعفر بن سليمان وإلى المدينة . ومن شعره في الوليد بن يزيد^(٣) :

هَمِمْتُ بِقَوْلٍ صَادِقٍ أَنْ أَقُولَهُ وَإِنِّي عَلَى رَغَمِ الْعَدُوِّ لَقَائِلُهُ
رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مَبَارِكاً شَدِيداً بِأَخْنَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلُهُ
أَضَاءَ سِرَاجِ الْمُلْكِ فَوْقَ جَبِينِهِ غُدَاةً تُنَاجِي بِالنَّجَاحِ قَوَابِلُهُ

(١) حساسة أبي تمام ص ٥٢٧ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٠٣ من طبعة بولاق .
(٢) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ٢ ص ٨٨ - ١٢٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٨٤ - ٤٨٥ من طبعة ليدن وخزانة الأدب ج ١ ص ٧٧ - ٧٨ و ٣٢٧ - ٣٢٨ من طبعة بولاق .
(٣) كتاب خزانة الأدب ج ١ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ من طبعة بولاق - أما البيت الثاني فهو الشاهد في أن العلم إذا وقع فيه اشتراك اتفاق جاز تعريفه باللام - أحناء جمع حنو وهو الجانب والجهة وقيل هو هنا بمعنى السرج والفتب كنى به عن أمور الخلافة .

ومن جيد شعره في الاشتياق إلى بلاده وطلب الجوائز من الوليد بن يزيد^(١) :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً بَحْرَةً لَيْلِي حَيْثُ رَبَّتَنِي أَهْلِي
بِلَادَتِهَا نَيْطَتْ عَلَيَّ تَمَائِي وَقُطُّعْنَ عَنِّي حِينَ أَدْرَكْنِي عَقْلِي
وَهَلْ أَسْمَعَنَّ الدُّهْرَ أَصْوَاتَ هَجْمَةٍ تَطَالَعُ مِنْ هَجَلٍ خَصِيبٍ إِلَى هَجَلٍ
فَإِنْ كُنْتَ عَنْ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ حَاسِي فَأَقْشِرْ عَلَيَّ الرِّزْقَ وَأَجْمَعْ إِذَا شَمَلِي

ومن ساكني الكوفة أيضاً أبو كلدة بن عُبيد اليشكري^(٢) كان أولاً من أخص الناس بالحجاج بن يوسف ثم ثار عليه مع ابن الأشعث وصار شديد التحريض عليه بالشعر فقتله الحجاج . وأقام أبو كلدة مدة بمدن وقرى شتى من بلاد العجم مثل سجستان وخراسان وكان كثير الغزل والهجاء معاقراً للخمر . فقال في آخر إحدى خمرياته^(٣) :

سَارَكُضَ فِي التَّقْوَى فِي الْعِلْمِ بَعْدَمَا رَكُضْتُ إِلَى أَمْرِ الْغَوَى الْمَشْهُرِ
وَبِاللَّهِ حَوْلِي وَاحْتِيَالِي وَمِنْ عِنْدِهِ عَرَفِي الْكَثِيرُ وَمُنْكَرِي

وفي نفس بلاد العجم التي أقام أبو كلدة بها أعنى خراسان وسجستان عاش شاعر عربي مطبوع آخر لا أعرف أهو كوفي الأصل أيضاً أم لا وهو أبو الهندي^(٤) الذي مات بسجستان في أوائل الدولة العباسية . قال فيه

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٨٥ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ٢ ص ١٠٨ من طبعة بولاق ومجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٢٥١ من طبعة ليبسك .

(٢) راجع ترجمته في كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١١٠ - ١٢٠ ولم يذكر في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في خزائن الأدب [ولا في طبقات الشعراء لابن سلام] .

(٣) كتاب الأغاني ج ١٠ ص ١١٩ .

(٤) وهو المذكور في كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٧ - ٢٨٠ وكتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٩ - ٤٣٠ من طبعة ليدن واسمه غالب بن عبد القدوس في كتاب الأغاني وعبد المؤمن بن عبد القدوس في كتاب الشعر .

صاحب كتاب الأغاني^(١) « كان جَزَلُ الشعر حَسَنَ الألفاظ. لطيف المعاني وإنما أخمله وأمات ذكره بَعْدَهُ من بلاد العرب ومقامه بسجستان وبخراسان وشغفُهُ بالشراب ومعاقرتُهُ إِيَّاهُ وفسقُهُ وما كان يُتَّهَمُ به من فساد الدين واستفرغ شعرُهُ بصفة الخمر ». ومن قوله^(٢) :

إذا ما أَلَحَّ البَرْدُ فَاجْعَلْ دِثَارَهُ إذا أَلْتَحَفَ الأَقْوَامُ دُكْنَ المَطَارِ
ثلاثةَ أَرْطالٍ نَبِيذًا مُعَسَّلًا تَكُنْ آمِنًا مِنْهُ لَهْ غَيْرِ خَائِفِ
فإنَّ التحافَ المرءَ في جَوْفِ بطنِهِ أَشَدُّ وَأَذْفًا مِنْ جِيَادِ المَلاحِفِ
وهو أيضاً القائل^(٣) :

اجْعَلُوا إِن مِتُّ يَوْمًا كَفَنِي وَرَقَ الكَرَمِ وَقَبْرِي مَقْصَرَةً
إِنِّي أَرْجُو مِنْ اللَّهِ غَدًا بَعْدَ شُرْبِ الرَّاحِ حُسْنَ المَغْفِرَةِ
فلنتكلم الآن في شعر أهل الحضرة بالشام في أيام بني أمية .

إنَّ قدر نبوغ الشعر العربي في الأصقاع الإسلامية فيما مضى من الزمان مختلف باختلاف أمرين وهما ميل الخلفاء والسلطين والأمراء وأكابر الناس إلى استماع الأشعار وأحوال البلاد من حيث العمران والرفاهية والأخلاق والتقلبات السياسية . أما ميل الخلفاء والأمراء الأمويين إلى الشعر فلا يُنكَر فتشهد عليه جملة وافرة من الحكايات والأخبار والأشعار نُعْثِرُ عليها في كتب الأدب والتاريخ . فلو تأملتم مثلاً حال معاوية مؤسس الدولة الأموية لوجدتم أنَّ والده أي أبا سفيان بن حرب كان له اليد الطولى في الشعر فضلاً عن التجارة

(١) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٧ .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٣٠ من طبعة ليدن .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ٢٧٩ وحلقة الكيت للتواحي ص ٩٧ من طبعة مصر ١٢٩٩

(في الباب التاسع) وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

والسياسة فترَوَى مقطعات من أشعاره في سيرة الرسول لابن هشام وكتاب الأغاني وغيرهما . أما هند بنت عتبة أم معاوية فهي أيضاً من شواعر العرب فمن أبياتها المشهورة معازمتها الخنساء بمصائبها^(١) .. وكان معاوية كثير الميل إلى قصائد فحول الشعراء الجاهلية محباً لسماع إنشادها عارفاً بفضائلها ومحاسنها حافياً بمن أتاه من أهل الشعر كما يتضح أيضاً مما جاء في كتاب العقد الفريد^(٢) من ذكر الوافدات عليه وأكثرهن شواعر كان معاوية يعرف جملة من أبياتهن . ولم يقتصر على سماع الإنشاد بل كان هو ذاته ينسج الشعر أحياناً ويُدرج الأبيات في مكاتباته الرسمية ويتمثلها في محاورته حسبما يلوح مما يروى منها في كتب الأدب والتاريخ^(٣) . أما يزيد بن معاوية فكان شاعراً^(٤) مولعاً بالمنادمة على الشراب ومصاحبة الشعراء فصليته بالأخطل شهيرة . ومن المشهور أيضاً عظم قدر الشعر عند أكثر سائر الخلفاء الأمويين

(١) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٣٥ من طبعة بولاق وأنيس الجلساء في ديوان الخنساء ص ٥٨ - ٥٩ من طبعة بيروت ١٨٩٦ وقيل في ص ٥٨ : « وجلت تعاظم العرب في مصيبتها وتقول : أنا أعظم العرب مصيبة . وتبكيهم (يعني أباهما وإخوتها) في شعرها حتى عرفت العرب ذلك منها » .

(٢) كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ١١٩ - ١٢٥ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

(٣) راجع LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia ler*, P. 255 ومحاوره معاوية في كتاب العقد ج ٢ ص ١٠٧ و ١١٣ من طبعة مصر ١٣٠٥ - يروى له أبيات في الباب السادس والثمانين من مروج الذهب للمسعودي ج ٥ ص ٣٠ - ٣١ من طبعة باريس وكتاب الأغاني ج ١٦ ص ٣٣ .

(٤) تروى له أبيات في كتاب الأغاني ج ١ ص ١٠٤ و ج ٢ ص ١٣٦ و ج ٧ ص ١٧٨ و ج ١٣ ص ٦٤ و ١٥٤ و ج ١٤ ص ٦٣ و ١١٩ و ج ١٦ ص ٣٣ و ٨٨ وفي الباب الثاني والتسعين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٥ ص ١٥٧ و ١٦١ - ١٦٢ من طبعة باريس) وكتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ٢٢ من طبعة ١٣٢٣ - ١٣٢٥ (وينسب هذان البيتان إلى « بعض شعراء الشام » في الباب الثاني والتسعين من مروج الذهب للمسعودي (ج ٥ ص ١٥٨) وديوان الأخطل ص ٣٥٩ و ٣٦٠ و ٣٨٩ « وله ديوان مشهور وقيل إن معظم الشعر المنسوب إليه منحول »

(LAMMENS, *Etudes sur ... Mo'awia ler*, P. 419)

(وراجع أيضاً : LAMMENS, *Le Califat de Yazid ler*, Beyrouth 1921, P. 453; P. SCHWARZ, *Escorial-Studien zur arabischen Literatur-und Sprachkunde*, Stuttgart 1922, I, P.28-72; G.LEVI DELLA VIDA, *Alcuni versi del califfo Yazid I*, (Islamica, II, 1926, p. 373-379).

وجليل خطبه في قلوبهم لاسيما عبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد . فبالجملة كان الشعر لهم غريزة كما كان من سليفة أغلب العرب الصميم . ولتحنينهم هذا على الشعر دواعٍ أخرى أيضاً عدا ما وصفناه من ميلهم الطبيعي إليه . قد تقدم غير مرة الإشارة إلى عظيم مرتبة الشعر في سياسة العرب في الجاهلية والقرن الأول للهجرة فشبهنا منزلة الأبيات والقصائد السائرة على ألسنتهم بجرائد عصرنا الشائعة في الأقطار المتكلمة عن لسان رجال الأحزاب . فجميع ما بيّناه عند الكلام في الصنف السادس من الشعر في أيام بني أمية برهان على ذلك واضح قاطع فلا غرور إذاً أن الأمراء قصدوا اجتذاب الشعراء إليهم بالمكافآت الجميلة والصلوات الجزيلة لينتفعوا بهم ويتخذوهم دفاعاً عن أغراضهم بالمديح ومضادةً للأخصام بالهجاء . فترون أحياناً والياً من الولاة ذاهباً إلى مركزه الجديد ومعه بعض الشعراء كأنهم من مستغمليه ومعاونيه في أمور ولايته . وفي الحقيقة ربّما اتخذت أرباب الدولة الشعراء وأبياتهم لتغيير الرأي العام حسب أغراضهم الخاصة وحمل الناس على ما كانوا في أول الأمر يكرهونه فمثال ذلك مسألة بيعة يزيد في أيام والده معاوية . لا يخفى عليكم أن العرب الصميم كانوا أبعد الناس عن الرضاء بتوارث الخلافة كابراً عن كابر لمصادته سننهم القديمة المألوفة في اختيار سادة أقوامهم فلما أراد معاوية إثارة ابنه بالعهد دون من سواه أظهر قوم في المجلس شدة كراحتهم لذلك وبعد ما غلب في الوفد الرأي بقبول تولية يزيد العهد احتاج معاوية إلى إغراء سائر الناس بذلك لاسيما في العراق والحجاز فأصبحت شعراء الدولة مساعدين له على هذا الأمر فجاء في كتاب الأغاني ما نصّه ^(١) : « كان يزيد بن معاوية يؤثر مسكيناً الدارمي

ويصله ويقوم بحوائجه عند أبيه فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهيب ذلك وخاف أن لا يملكه عليه الناس لحسن البقية فيهم وكثرة من يرشح للخلافة وبلغه في ذلك ذرؤ كلام^(١) بلغه كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر فأمر يزيد مسكيناً أن يقول أبياتاً ويُنشدها معاوية في مجلسه إذا كان جافلاً وحضره وجوه بني أمية فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس وابنه يزيد عن يمينه وبنو أمية حوالته وأشرف الناس في مجلسه فمَثَل بين يديه وأنشأ يقول « شعراً منه هذه الأبيات^(٢) :
 ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سعيدُ
 بني خلفاء الله مهلاً فإنما يبوئوها الرحمن حيث يريدُ
 إذا المنبرُ الغربيُّ خلاه ربُّه فإنَّ أميرَ المؤمنين يزيدُ
 ومن الشعراء الذين قالوا الشعر في هذه البيعة الأخطل^(٣) العظيم الخطُّ
 عند يزيد فكثرة سماع مثل تلك الأبيات كانت تؤثر في نفوس الناس تأثيراً
 خفياً وتعودهم شيئاً فشيئاً ما كانوا يُنكرونه - ومن هذا الباب أيضاً ما رواه
 أبو زكرياء يحيى التبريزي في شرح الحماسة^(٤) أنَّ عبد الله بن همام السُّلُويَّ
 كان «مكيناً عند آل مروان وهو الذي بعث يزيد بن معاوية على البيعة
 لابنه معاوية في قوله » :

تعزوا يا بني حرب بصير فمَنْ هذ الذي يرجو الخلودا
 خلافة ربكم حاموا عليها ولا ترموا بها الغرض البعيدا
 تلقفها يزيد عن أبيه فخذها يا معاوي عن يزيدا

(١) قال الميداني في المثل « ذرى بما عندك يا ليخاء » : « اللرو الطرف والقليل من الكلام . . .
 يقال سمعت ذرواً من الخبر إذا لم تستقبه » .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٨ ص ٧١ ، فراجع كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٤٧ من طبعة
 ليدن وخراتة الأدب ج ١ ص ٤٦٦ . (٣) ديوان الأخطل ص ٩٥ سطر ٦ .

(٤) حماسة أبي تمام ص ٥٠٧ من طبعة بن أو ج ٣ ص ٨٤ من طبعة بولاق .

وجاء في كتاب البيان والتبيين للجاحظ^(١) أَنَّ عِمْرَانَ بْنَ عِصَامِ الْعُرَيْ^(٢) الشاعر الخطيب «هو الذي أشار على عبد الملك بمخلع أخيه عبد العزيز والبيعة للوليد بن عبد الملك في خطبته المشهورة وقصيدته المذكورة». فإليه ملح صاحب كتاب الأغاني^(٣) في رواية أوردتها بحروفها: «قال الحجاج يوماً لأهل - ثقته من جلسائه: ما من أحد من بني أمية أشدَّ نَصَباً لي من عبد العزيز بن مروان وليس يومٌ من الأيام إلا وأنا أتخوَّف أن تأتيني منه قارعة فهل من رجل اتدبوني عليه له لسان وشعروجلد؟ قالوا نعم عمران بن عِصَام العنزي فدعاه فأخلاه ثم قال له اخرج بكتابي هذا إلى أمير المؤمنين فاقدح في قلبه من ابنه شيئاً في الولاية. فقال له عمران: دُسَّ أيها الأمير إلى دُسا. فقال له الحجاج: إِنْ الْعَوَانَ لَا تَعْلَمُ الْخِمْرَةَ. فخرج بكتاب الحجاج فلما دخل على عبد الملك دفع إليه الكتاب وسأله عن الحجاج وأمر العراق فاندفع يقول:

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ أَهْدَى عَلَى الشَّحَطِ التَّحِيَّةَ وَالسَّلَامَا
أَمِيرٌ مِنْ بَنِيكَ يَكُنْ جَوَابِي لَهُمْ أَكْرَوْمَةٌ وَلَنَا نِظَامَا
فَلَوْ أَنَّ الْوَلِيدَ أَطَاعَ فِيهِ جَعَلْتُ لَهُ الْإِمَامَةَ وَالذُّمَامَا
فكفى بذلك برهاناً على أحد أسباب ميل أهل العقد والحل إلى الشعراء.
وسبب آخر ما في طبيعة أكثر الناس من حبِّ الفخر والتقريظ والمدح فمن

(١) كتاب البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٣ من طبعة مصر ١٣١٣.

(٢) ليست نسبة الشاعر بالعرف بل هي العنزي في كتاب الأغاني (ج ١٦ ص ٦٠). ولم يذكر الشاعر في خزنة الأدب ولا في كتاب الشعر لابن قتيبة ولا في حماسي أبي تمام والبحري [ولا في طبقات ابن سلام ولا في المؤلف للامدي. فضبط العنزي بضم العين وفتح الراء في كتاب البيان للجاحظ ج ١ ص ٥٦ من طبعة مصر ١٣٥١].

(٣) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٦٠ - عوان النصف في سنها من كل شيء. قال الميداني في مجمع الأمثال (ج ١ ص ١٣ من طبعة مصر ١٣١٠): «والخمر من الاختار كاجلسة من الجلوس اسم للهية. والحال أي أنها لا تحتاج إلى تعليم الاختار. يضرب للرجل المجرب». تاريخ الآداب العربية

سليقتهم أن يَصْغَوْا إلى سماع كلام يملقهم لا سيما إذا كان ذلك الكلام مجبراً شديداً الوقوع في القلوب لرونقه وانسجامه . وإن راجت مدائح الشعراء عاد الرواج على الممدوحين بمنفعة لا تُنكَر فلم تفت الجاحظ. (١) أهمية ذلك حيث قال : « ولولا أن دولة بني العباس أعجمية خرسانية وذولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجناد شامية والعرب أوعى لما تسمع وأحفظ . لما تأتى ولها الأشعار التي تُقيد عليها مآثرها وتخلد لها محاسنها رجرت من ذلك في إسلامها على مثل عاداتها في جاهليتها فبنت بذلك لبني مروان شرفاً كثيراً ومجداً كبيراً وتدبيراً لا يُخفى ، ولو أن أهل خراسان حفظوا على أنفسهم وقائعهم في أهل الشام وتدبير ملوكهم وسياسة كبرائهم وما جرى في ذلك من فوائد الكلام وشريف المعاني ، كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه وأسس لمن بعده ما يني بجماعة ملوك بني مروان » . فإن تأملنا ذلك ما استغربنا ما يروى في كتاب الأغاني (٢) : « أتى نَصِيب عبد الله بن جعفر فحملة وأعطاه وكساه فقال له قائل يا أبا جعفر أعطيت هذا العبد الأسود هذه العطايا فقال والله لئن كان أسود إن ثناءه لأبيض وإن شعره لعربي ولقد استحق بما قال أكثر مما نال وما ذاك إنما هي رواحل تُنقى وثياب تُبلى ودراهم تُفنى وثناء يبقى ومدائح تُروى » .

إلا أن المديح كان سبب هيجان طمع الشعراء في المال وهمتهم الساقطة فقل عدد الذين لم يجعلوا الشعر متجراً وأنفوا من السؤال بالمدائح مثل جميل ابن عبد الله بن مَعَر الذي يُحكى أنه لم يمدح أحداً قط . سوى ذويه وأقاربه (٣) .

(١) كتاب البيان للجاحظ ج ٢ ص ١٥٤ من طبعة مصر ١٣١٣ (أرج ٣ ص ١١٧ من طبعة ١٣٥١) .

(٢) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٣٧ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب العدة لابن رشيقي ج ١ ص ٥١ من طبعة ١٣٢٥ .

أما أغلبهم فلم يستحوا من إظهار طمعهم أي إظهار وجعل أنفسهم بمنزلة
الفقراء السائلين كما قال نصيب^(١) :

لعبد العزيز على قومٍ وغيرهم من غامرة
فبابك ألين أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكليبك آنس بالمعتفين من الأم بابنتها الزائرة
وكفك حين ترى السائلين ن أزدى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومننا الثناء بكل محبرة سائرة

فألف حاجب بن ذبيان المازني قصيدة يمدح بها يزيد بن المهلب بخراسان
فابتداً قائلاً^(٢) :

إليك امتطيت العيس تسعين ليلة أرجى ندى كفيك يا ابن المهلب
وأنت امرؤ جادت سماء يمينه على كل حي بين شرق ومغرب

ومن هذا الباب أيضاً ما قاله إسماعيل بن يسار في قصيدة أنشدها بين

يدى عبد الملك بن مروان^(٣) :

إليك إمام الناس من بطن يثرب ونعم أخو ذي الحاجة المتعمد
رحلنا لأن الجود منك خليفة وأنت لم يذمم جنابك مجتد

قد مر عند بيان سائر أصناف الشعر أو عند الكلام في الكوفيين

ذكر شعراء متعددين امتدحوا بني أمية في بعض قصائدهم الشهيرة ولهم منزلة
عالية في الصناعة مثل كعب بن جعيل والمتوكل اللبني في أيام معاوية والأخطل

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٢٤٤ من طبعة ليدن وكتاب الأغاني ج ١ ص ١٣٣ وشرح

التبريزي على حماسة أبي تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن أوج ص ٣ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٥٠ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ٤ ص ١٢٥ من طبعة بولاق .

في أيام يزيد وهلمّ جرّاً وسند كر غيرهم أيضاً فيما يتلو . غير أننا نجد مع هؤلاء النوابغ عدداً غير يسير ممن لم يغلّ أبداً عن رتبة الشّويعر أو الشّعور واجتهد على ذلك في نسج القصائد على أسلوب فحول الجاهلية في المديح وملاها ألفاظاً طنانة رنانة وتشابيه غريبة وبالع في إطرائه أيّ مبالغة مثل قول طريح ابن إسماعيل الثّقفي من أهل الطائف في الوليد بن يزيد بن عبد الملك^(١) :

أنت ابنٌ مُسْلَنْطِجُ البِطَاحِ ولم تُعْطَفْ عَلَيْكَ الحُسْنَى والْوَلَجُ
لو قُلْتَ للسَّيْلِ دَغَ طَرِيقِكَ وال مَوْجُ عَلَيْهِ كَالهَضْبِ يَغْتَلِجُ
لَارْتَدُّ أَوْ سَمَاخَ أَوْ لَكَانَ لَهُ فِي سَائِرِ الأَرْضِ عَنْكَ مُنْعَرَجُ

ومثل هذه الأبيات التي لا يستحسنها من له الذوق السليم ومثل هذه التشابيه المضحكة لم تندر عند أصاغر المدّاح فيروى^(٢) أن عبد الملك بن مروان قال يوماً : « يا معشر الشعراء تشبهوننا مرّة بالأسد الأبخر ومرّة بالجبل الأوغر ومرّة بالبحر الأجاج ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم » (الأبيات المروية ص ٢٧٩) .

فخلاصة القول أن أسباب نبوغ الشعر ونضارته بالشام في أيام بني أمية خمسة :

(١) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٤٢٨ من طبعة ليدن فراجع في كتاب الأغاني ج ٤ ص ٧٦ - ٨٦ ترجمة طريح بن إسماعيل الثّقفي الذي (ص ٧٧) « نشأ في دولة بني أمية واستفرغ شعره في الوليد ابن يزيد وأدرك دولة بني العباس ومات في أيام المهدي وقيل الهادي » وتروى الأبيات المذكورة في كتاب الأغاني ج ٤ ص ٨٠ - ٨١ وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٠٢ من طبعة مصر ١٣٠٥ وقيل فيه إن طريح قالها في أبي جعفر المنصور وهذا غير صحيح فانظر كتاب الأغاني في الموضع المذكور وكتاب العقد ج ٢ ص ٢٦٩ .

(٢) كتاب الأغاني ج ٢١ ص ١٠ ويوجد قول عبد الملك هذا أيضاً في كتاب الأغاني ج ١٣ ص ٦٣ ولكن الخليفة ينشد فيه أبياتاً لكعب الأشقري .

(١) ما هو مغرور في قلوب العرب الصميم من الولوع بالشعر منذ الزمان القديم .

(٢) ميل الخلفاء والأمراء الأمويين إلى الشعر وتعطفهم على قائله بل كون كثير منهم شعراء مطبوعين .

(٣) محلُّ الأشعار وتأثيرها فيما يتصل بالأمور السياسيّة .

(٤) حُظوة المديح عند الخلفاء والولاة وأكابر الناس سواء لمجرد استلذاذهم المَلَق أم لانتفاعهم بالمدائح السائرة في الأقطار .

(٥) زيادة الترف والرفاية التي يزيد بها نفاق أسواق الآداب .

ومما يُستغرب بادئ نظر قلة الشعراء الشاميين من أهل الحضر في خلافة معاوية وابنه يزيد على كثرة الوافدين إليهما المجتمعين بأبوابهما من شعراء أهل البادية . قد بيّنا فيما سبق (ص ١١٩ - ١٣٥) قدر نبوغ نوع جديد من الشعر وهو الغزل عند الحضريين الحجازيين حتى لا نكاد نعثر عندهم على غيره من فنون الشعر مدّة القرن الأوّل (بعد خلافة عمر بن الخطّاب) وفي أوائل القرن الثاني . ووضحنا أيضاً ما بلغه من الانتشار والرونق الشعر في الغزل والخمريات في مدن العراق الجنوبيّة في ذلك الزمن فضلاً عن الكلام المنظوم المتّصل بأغراض الأحزاب والفرق . فمن أين خمول الشعر ذلك عند الحضرة بالشام ومن أين فتورهم في الاعتناء بنسج القريض ؟ ولم امتنعوا مدّة عن الغزل والخمريات على الأسلوب المحدث بالحجاز والعراق كأنهم لم يعرفوا إلا القصائد على منوال القدماء وأهل البادية . إنّ لذلك أسباباً . تفكّروا أولاً فيما تقدّم بيانه الطويل عند الكلام عن الصنف الثالث من الشعر أعني أنّ الذين انتقوا إلى الشام من جزيرة العرب حين الفتح الإسلامي وبعده كانوا أعراباً ما عدا القليل ونصفهم أو

أكثر كانوا يمنيّين أو منتسبين إلى قبائل اليمن . وقد سبق أن هؤلاء المنتقلين لم يعتادوا الإقامة بالأمصار ولا ألفوا عيشة المدن إلّا شيئاً فشيئاً بعد مدّة غير قليلة فمكثوا يأنفون سُكنى المدن يحذّون إلى التعرّب أى الرجوع إلى براريهم المتّسعة ومفاوزهم الفيحاء بل ذات الخلفاء الأمويّين سوى معاوية وعبد الملك كانوا يقصّدون البادية وقصورهم في أرض البلقاء كلّما لم يمنّهم عن الخروج إليها مانع مهمّ . - أمّا العراق فما ارتحل إليها الأعراب فقط . بل توجّهت إليها واستقرّت فيها جملة من حضريّ الحجاز لما نقل على بن أبي طالب دار الخلافة إلى الكوفة ثمّ في أيّام ذهاب الحسن بن عليّ وآل الزبير إلى نواحي السواد .

ثمّ تأملوا ما وقع من الفرق بين أحوال العرب في العراق وأحوالهم في الشام قبيل ظهور الإسلام . من المشهور أن المسلمين حين احتلالهم العراق وجدوا في الجنوبية حضريّين من العرب وهم قسم من سكّان مملكة الحيرة قد تركوا البداوة منذ الزمان الطويل واتّخذوا جزءاً من الحضارة العجميّة . فرأينا أن الخمريّات التي اشتهر بها شعراء الكوفة والبصرة في أيّام بني أميّة إنّما كانت من جنس الخمريّات المتداولة عند شعراء الحيرة أو الوافدين إليها في عهد الجاهليّة كأنّها بأسرها مذهب شعريّ واحد متواتر لم يزل في تلك البلاد من قديم الزمان إلى أيّام الدولة العبّاسيّة . فواضح أيضاً أن وجود أولئك العرب الحضريّين في العراق سهّل وعجّل اختلاط المحتلّين الإسلاميّين بمن جاورهم من العجم هنالك . - أمّا في الشام فالأمر خلاف ذلك . كان اللّخميّون في العراق في القرن السابق للهجرة من أهل الحضرة أمّا بنو غسان بالشام فلم يزلوا متوسّطين فيما بين البداوة والحضارة فكان رؤساء قبائلهم يقيمون تارة بمساكن ثابتة بالبناء والمدن وتارة بنوع من المعسكرات والمضارب

كانوا ينقلونها من مكان إلى مكان لدفاع غارات قبائل الأعراب المستقلة عن حدود مملكة الروم فأصبحت محلاتهم مثل جلق والجابية قارنة بين صفات المعسكر المتنقل والقرية الثابتة جامعة بين أحوال البادية وخواص الحضارة . وكانت نتيجة ذلك أن الجيوش الإسلامية لما فتحوا بلاد الشام ما وجدوا في مدنها وقراها سكّاناً من العرب خلافاً لما اتفق لهم في العراق فأعدّتهم من يكون واسطة بينهم وبين الأهالي . ولكن أغلب المحتلّين من أهل البادية الكارهين القرار في الأمصار تهادى بالشام البون الكبير بين العرب وبين سكّان المدن وهم سريان وروم فما ابتدأ اختلاط عامّ بينهم بالمعاشرة والمصاهرة إلا نحو أواخر القرن الأول . فتأخّر الاختلاط وتأخّر انتقال معظم المتغلّبين من حال بداوتهم إلى حال الحضارة وتأخّر أيضاً عندهم نبوغ الشعر من النوع المألوف للحضر .

ثمّ لبقاء الشعر في الشام على منوال قصائد النوايح من عهد الجاهلية سببان آخران أعنى ميل الخلفاء الأولين من بني أمية إلى ذلك النوع من الشعر وشدة سلطة معاوية في بلاد الشام . يروى في كتاب العقد الفريد لابن عبد ربّه (١) أن هذا الخليفة الأجلّ قال مرّة لعبد الرحمن بن الحكم : « يا ابن أخي إنك شهرت بالشعر فإياك والتشبيب بالنساء فإنك تُعرّ الشريفة في قومها والعفيفة في نفسها ، والهجاء فإنك لاتعدو أن تُعادي كريماً أو تستشير به لثيماً ولكن افخرُ ببيت قومك وقُلْ من الأمثال ما توقّر به نفسك وتودّب به غيرك » . فلا شك أن هذا القول ولو لم تصحّ راويته على هذه الصفة هو ترجمان فكر معاوية في الشعر كما يظهر من غيره من الأخبار . وحرّم معاوية بالشام شرب الخمر وصناعة الغناء على جواز هذه الصناعة بالحجاز . فيروى على نصفة استثناء أن عبد الله بن جعفر بن

(١) كتاب العقد ج ٣ ص ٨٧ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

أبي طالب قدم عليه بالشام فأنزله معاوية في دار عياله ولم ير به بأساً أن يغني ليلة في تلك الدار ^(١) . ونفذ ذلك التحريم بالشام مدة القرن الأول على غرام بعض الخلفاء بسماع الألحان . ويروى في موضع من كتاب الأغاني ^(٢) أن يزيد بن معاوية كان « أول من سنّ الملاحى ^(٣) في الإسلام من الخلفاء وآوى المغنين وأظهر الفتك وشرب الخمر . . وكان يأتيه من المغنين سائب خاثر فيقيم عنده فيخلع عليه ويصليه » . ولكن إن راجعنا الأخبار عن يزيد والمغنين وجدنا أنه كان يلقاهم عادةً بالحجاز ولم يقبلهم بدمشق إلا في أندر النادر وسراً بمساعدة أصدقائه المدنيين لا سيما عبد الله بن جعفر ^(٤) . وسائب خاثر المذكور فيما تقدم إنما كان من ساكني المدينة ^(٥) . أما أول الأمويين الذي أدخل المغنين في الشام فالوليد بن يزيد (١٠١ - ١٠٥) وهو أراد أولاً أن يدخلهم خفية مراعاة لخواطر أهل تلك البلاد كما يلوح من رواية كتاب الأغاني ^(٦) : « إن الوليد بن يزيد لما ولي الخلافة بعث إلى المغنين بالمدينة ومكة فأشخصهم إليه وأمرهم أن يتفرقوا ولا يدخلوا نهراً لئلا يُعرفوا وكان إذ ذاك يتستر في أمره ولا يُظهره فسبقهم ابن عائشة فدخل نهراً وشهر أمره فحبسه الوليد وأمر به فقيد وأذن للمغنين وفيهم معبد فدخلوا عليه دخلات ثم إنه جمعهم ليلة فغنوا له حتى طرب وطابت نفسه إلخ » .

(١) كتاب المقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ١٨٢ - ١٨٣ من طبعة مصر ١٣٠٥ وراجع الحكاية في كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٨٩ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ١٦ ص ٧٠ .

(٣) والملاحى (جمع ملهى) هنا الآلات الموسيقية .

(٤) ولعله لم يقبل شاعراً في الشام إلا مرة واحدة (راجع كتاب الأغاني ج ٧ ص ١٠٣ - ١٠٤ و ١٨٩ من طبعة بولاق) . . .

(٥) قتل سائب خاثر في سنة ٦٣ / ٦٨٣ يوم الحرة (راجع آنفاً ص ١٢٣ حاشية ٢) .

(٦) كتاب الأغاني ج ٤ ص ٨١ - ٨٢ من طبعة بولاق فراجع كتاب المقد لابن عبد ربه

ج ٢ ص ٢٦٩ من طبعة ١٣٠٥ (وفيه محمد بن أبي عائشة بدلا من محمد بن عائشة) .

لعلكم تسألون لماذا هذا الكلام في صناعة الغناء وإدخالها في بلاد الشام ؟ ألم نكن نبحت عن صناعة الشعر لا غير ، أقول إن بين الصناعتين صلة قوية لا يجوز إهمال الفحص عنها لمن يريد بيان سير الشعر وتقلباته في أيام بنى أمية . لما تكلمت عن الغزل الحقيقي بمدن الحجاز أثناء القرن الأول أوضحت تعلقه بتقلب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الحرمين وزيادة الترف والرّفه بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى وما فاز المسلمون من الأموال والرقاب وأشرت إلى الاتفاق الواقع بين قدوم المغنين والمغنيات من الموالي بمكة والمدينة وبين أوائل انتشار الشعر الغزليّ فيهما . وذكرت أن أولئك الموالي كانوا في بدء الأمر يغنون بالروميّ أو الفارسيّ ثم عدلوا إلى الغناء بالعربيّ فأصبحوا من أشدّ العوامل في إهمال نسج القصائد على منوال المعلقات وتغيير ذوق الظرفاء والمتأدّبين . إنّ الألحان التي دخل بها الموالي والمماليك في المدن الحجازيّة كانت من الأنواع المُسرّة والمُطربة وهي مما اخترعه الروم والفرس من أصحاب صناعة الأنغام ترويحاً للنفوس وبسيلة للقلوب لا سيّما في أيام العيد والفرح أو عند المنادمة والمجاسة، فما صلّحت لها الأعاريف الطويلة الثقيلة ولا أشعار مدارها على وصف أعضاء الناقة ومخاوف الفياق ومتاعب السفر في الرمال وغزوات القبائل إذ لا يُنكر الارتباط الواقع بين نوع النغمة والغناء المُتقن الصنعة وبين عروض الشعر وفحواه . وزيدوا على ذلك أن أولئك المغنين أصلهم من العجم والحضر استصعبوا فهم القصائد على المنوال القديم وحفظها بما فيها من غريب الألفاظ وتوحّش المعنى . فإن تأملتم أيضاً أن الشعراء من حضريّ العراق والحجاز وجدوا الشعرَ أسرعَ رواجاً وأوسعَ شهرةً وألذّ للنفوس وأوقع في قلوب الناس إذا غنّى على آلات السماع تمكّنتم من تقدير ما كان لصناعة الغناء

والألحان من التأثير في تقلب أفانين الشعر . - فالمحتمل عندى أنه أولا منع الغناء الممتقن والسماع إلى أواخر القرن الأول في بلاد الشام لما تأخر نبوغ الغزل والخمريات عن وقت نبوغهما بالعراق والحجاز بمدة طويلة .

فلجملة هذه الأسباب قل بالشام الشعراء من الحضر^(١) إلى أواخر القرن الأول فشعرهم على ما أدخلت فيه العيشة المدنية من رقة العواطف ولينة الألفاظ. وعدوبة الكلام لم يزل متوسطاً بين الشعر الجاهلي وبين الغزل الغالب عند شعراء مدن الحجاز والعراق . أما الخمريات فامتنعوا عنها أثناء القرن الأول وما ذكروا الخمر إلا لمجرد وصفها أو للتشبيه بها مثل قول عدى ابن الرقاع^(٢) :

أَمِيدُ كَأَنِّي شَارِبٌ لَعِبَتْ بِهِ عَقَارُ ثَوْتُ فِي سِجْنِهَا حِجَجًا سَبْعًا
مَقْدِيَّةٌ صَهْبَاءُ تُشْخِنُ شَرِبَهَا إِذَا مَا أَرَادُوا أَنْ يَرَاوُهَا صَرْعَى
عُصَارَةٌ كَرَمٍ مِنْ حُدَيْجَاءَ لَمْ يَكُنْ مَنَابِتُهَا مُسْتَحْدَثَاتٌ وَلَا قُرْعَا
أَوْ مِثْلُ قَوْلِهِ^(٣) :

كُمَيْتٌ إِذَا شُجَّتْ فِي الْكَأْسِ وَرْدَةٌ لَهَا فِي عِظَامِ الشَّارِبِينَ دَبِيبٌ

(١) لا أجد في شعراء الشام من الحضر عبد الرحمن بن الحكم أشأ الخليفة مروان بن الحكم (٦٤٣ - ٦٥٠) لأنه أقام بالحجاز مدة أطول من إقامته بالشام بل لم يزل في بلاد الحرمين حتى نفاه عبد الله بن الزبير عنها مع سائر بني أمية . وكان « متوسط الحال في شعراء زمانه وكان يهاجى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت » (كتاب الأغاني ج ١٢ ص ٧٢) ومن شعره القريب من نوع الخمريات والخلاعة الأبيات الثلاثة المروية له في كتاب الكامل للمبرد (ص ٧٢ من طبعة ليبسك أو ج ١ ص ٦٠ من طبعة مصر ١٣٢٣-١٣٢٤) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١٢ ص ٧٢-٧٦ .
(٢) كتاب معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٨٩ من طبعة ليبسك . يروى البيت الأول والثاني في لسان العرب ج ٤ ص ١٧ من طبعة بولاق بالرواية « باكرت شهرها » . وهذه الرواية صار الشاعر شارب خمر .
(٣) كتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ١١٨ من طبعة مصر ١٣٠٥ .

تُريك القَدَى من دونها وهى دونه لوجد أخيها فى الإناء قُطوبُ
 فيروى أنَّ سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩) لما سمع هذين البيتين
 قال لعدى بن الرقاع : شربتها ورب الكعبة . قال عدى والله يا أمير المؤمنين
 لئن رابك وصنى لها قد رابى معرفتك بها . فتضحكا وأخذوا فى الحديث .
 - فنفس هذه الحكاية تدل على ما أردنا بيانه أى ندرة شرب الخمر عند
 أهل الحضر بالشام وإمساك شعراءهم عن الخمرات أثناء القرن الأول خلافاً
 لحضر العراق . وما هو مشهور من انهماك الأخطل فى الشراب وأشعاره فيه
 لا يدحض قولى إذ كان الأخطل بدوياً عراقياً نصرانياً .

كان عدى بن الرقاع ^(١) السابق ذكره من أقدام شعراء الحضر بالشام
 مداحاً لبني أمية كثير الحفظ . عندهم لاسيما الوليد بن عبد الملك (٨٦ -
 ٩٦) ومنزله بدمشق وهو من المُجيدىين فى المديح والنسيب الرقيق اللطيف
 الخالى عن تغزل شعراء الحجاز والعراق . ومن أبياته التى ذكر فيها عنايته
 بإتقان بنية شعره وخبرته بأحوال الحياة ^(٢) :

وَقَصِيدَةٍ قَدْ بَتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا	حَتَّى أَقُومَ مِثْلَهَا وَسِنَادَهَا
نَظَرَ الْمُثَقَّفِ فِي كُؤُوبِ قَنَاتِهِ	حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافَهُ مُنَادَهَا
أَوْ مَا تَرَى شَيْباً تَفْشَعُ لِمْنَى	حَتَّى عَلَا وَضَحُ يَلُوحُ سَوَادَهَا
فَلَقَدْ تَبَيَّتُ يَدُ الْفَتَاةِ وَسَادَةً	لِي جَاعِلًا لِخَدَى يَدَى وَسَادَهَا
وَلَقَدْ أَصَبْتُ مِنَ الْمَعِيشَةِ لَذَّةً	وَلَقَيْتُ مِنْ شَطَفِ الْخُطُوبِ شِدَادَهَا
وَعِمِرْتُ حَتَّى لَسْتُ أَسْأَلُ عَالِمًا	عَنْ حَرْفٍ وَاحِدَةٍ لَكِنِّي أَزْدَادَهَا
صَلَّى الْمَلِكُ عَلَى أَمْرِي وَدَعَّتُهُ	وَأَنْتُمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِ وَزَادَهَا

(٦) . وهو مذكور فى كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٧٩ - ١٨٤ من طبعة بولاق وكتاب الشعر
 لابن قتيبة ص ٣٩١ - ٣٩٣ (ج ١ ص ١٧) من طبعة ليدن وترى له أبيات فى الكامل للمبرد ص ٨٥ من
 طبعة ليبسك أوج ١ ص ٧١ من طبعة مصر ١٣٢٢ - ١٣٢٤ [وطبقات الشعراء لابن سلام ص ١٤٤ -
 ١٤٥] .

(٢) كتاب الشعر لابن قتيبة ص ٣٩٢ من طبعة ليدن .

ومن لطيف شعره^(١) :

ومما شجاني أنني كنت نائماً أغلُّ من بردِ الكرى بالتنسّم
إلى أن بكت ورقاء في غضنِ أَيْكَةٍ تُردُّ مَبْكَاهَا بِحُسْنِ التَّرنَمِ
فلو قبلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً بسُعْدَى شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
ولكن بكت قبلي فهاج لي البكا بُكَاهَا فَقُلْتُ الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ
ومن نصّ وارد في كتاب الأغاني^(٢) ومما نقلته آنفاً من كتاب العقد
الفريد يستنج أنه أدرك خلافة سليمان بن عبد الملك .

ومن معاصري عدى بن الرقاع المشهورين شاعر ليس أصله من العرب وهو
أول من قال الشعر الجيد اللطيف بالعربي من السود أغنى به نصيب بن
رباح^(٣) مولى عبد العزيز بن مروان . واختلفوا في أصله فلو صحّت رواية
من قال إنه من أهل وُدَّان^(٤) وعبد لرجل من بني كنانة الساكنين هناك
اشتراه عبد العزيز لكان من المغاربة . والمحتمل إذاً أن عبد العزيز^(٥) اشتراه
في أيام ولايته مصر في خلافة معاوية وعبد الملك بن مروان . وعلى كل حال
عاش نصيب بالشام وبها قال . أكثر شعره فيعدُّ من المقدمين عند خلفاء

(١) الكامل للمبرد ص ٥١٤ من طبعة ليبسك أو ج ٣ ص ١٠٤ من طبعة مصر ١٣٢٣ -
١٣٢٤ ، ويروى البيتان الأخيران أيضاً في شرح التبريزي على حماسة أبي تمام ص ٥٦٧ من طبعة
بن أوج ٣ ص ١٤٢ من طبعة بولاق .

(٢) كتاب الأغاني ج ٨ ص ١٧٩ من طبعة بولاق .

(٣) وهو مذكور في كتاب الأغاني ج ١ ص ١٢٩ - ١٥٠ من طبعة بولاق وكتاب الشعر لابن

قتيبة ص ٢٤٢ - ٢٤٤ من طبعة ليدن [وراجع *U. RIZZITANO, Ada Mihgan Nuqayb ibn*

Rabāh [*Rivista degli Studi Orientali*, XX, Roma 1943, P. 421-472; XXII, 1947, P. 23-35]

(٤) وهل الأوجه ليست ودان نصيب المدينة المشهورة في أفريقية بل هي موضع بين مكة والمدينة

المنورة يذكروه نصيب في أبياته (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٤ ص ٩١٠ من طبعة ليبسك) .

(٥) توفي عبد العزيز بن مروان سنة ٨٥ / ٧٠٤ .

بنى أمية الذين أثنى عليهم الثناء الوافر ونال منهم الجوائز الجزيلة^(١) وهو أجاد المديح والمراثي والنسيب، ونسيبه عفيف بعيد عن الغزل الخليع فيقال إنه لم ينسب قط. إلا بامراته . وتجدون عدة أشعاره في كتاب الأغاني فأقتصر على ذكر بيتين له مرويين في حماسة أبي تمام^(٢) معناه كثير الشبه بمعنى أبيات عدى بن الرقاع المذكورة آنفاً :

لقد هتفت في جنح ليل حمامة على فتن وهنا وإننى لنائم
كلبت وبيت الله لو كنت عاشقاً لما سبقتني بالبكاء الحمائم
رما وقفت على سنة وفاته فالواضح عما جاء في كتاب الأغاني^(٣) أنه كان في قيد الحياة حين أفضت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك سنة ٨٥/٧٠٤.

كنى ما تقدم دليلاً على قدر الفرق بين شعر الحضر بالشام وشعرهم بالعراق والحجاز في القرن الأول غير أن هذا الفرق اضمحل بعد أوائل القرن الثاني بقليل إذا تقلبت أحوال مدن الشام لاختلاط العرب والأعجمين فيها ولزوال شدة الخلفاء في حكومتهم وأخذهم في تقليد أبهة قدماء الملوك من بني ساسان بالمدائن وفخامة ملوك الروم بالقسطنطينية في اللباس والطعام والأواني وجميع أنواع الترف . وجلبت الخيضان من بلاد الروم وأدخلت في دمشق المغنون والمغنيات علناً في أيام الوليد بن يزيد (١٢٥/٧٤٣ - ١٢٦/٧٤٤) حسبما شرحته فيما تقدم، وأظهر شرب الخمر وفسدت الأخلاق ودبت في عرب المدن الخلاعة فبتقلب الأخلاق والعوائد والأهواء تقلبت أفانين الشعر فعمت الشام الأشعار في الخمر والغزل .

ورئيس هولاء الشعراء الذين ذهبوا . بدمشق المذهب الجديد الوليد بن

(١) انظر الآيات المروية له سابقاً ص ٢٩١ .

(٢) كتاب الحماسة لأبي تمام ص ٥٦٧ من طبعة بن أوج ٣ ص ١٤١ - ١٤٢ من طبعة

بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ١ ص ١٤٨ من طبعة بولاق .

يزيد^(١) الذى وصفه صاحب الأغاني قائلاً^(٢) : « وكان من فتیان بنى أمية وظرفانهم وشعرانهم وأجوادهم وأشدائهم وكان فاسقاً خليعاً متهماً فى دينه مرمياً بالزندقة وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكره الناس فقتل وله أشعار كثيرة تدل على خبثه وكفره ومن الناس من ينسب ذلك عنه وينكره ويقول إنه نحله وألصق إليه والأغلب الأشهر غير ذلك » . وقال بعض الرواة إن الذى أضله مودبه عبد الصمد بن عبد الأعلى وهو كان فيما يقال زنديقاً فحمل الوليد على الشراب والاستخفاف بدينه^(٣) . فلو جمعنا ما يعزى إلى الوليد من الأشعار وما يروى فى حقه من الأخبار وما ينسب إليه من الكلام الكثير الوقاحة والدناءة لاستغربناه كل الاستغراب وتعجبنا منه بتقيلده منصب الإمامة ولو مدة يسيرة . كيف لا إذ هو القائل على ما نطلع عليه فى بعض الكتب^(٤) :

أنا الإمام الوليدُ مفتخرًا أجُرُّ بُردى وأسمعُ الغزلا
أشحبُ ذيلى إلى منازلها ولا أبالى من لأم أو عدلا
ما العيش إلا سماعٌ مُحسنةٍ وقهوةٌ تتركُ الفقى ثملا
لا أرتجى الحورَ فى الخلود وهل يأمل حورَ الجنانِ من عقلا
إذا حَبَّتكَ الوصالُ غانيةٌ فجازها بذلها كمن وصل

(١) وهو مذكور فى كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٠١ - ١٤١ و ج ٨ ص ١٦١ - ١٦٢ من طبعة بولاق وكتاب العقد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٢٦٩ - ٢٧١ من طبعة مصر ١٣٠٥ وفى باب الحادى بعد المائة من مروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ٥ - ١١ من طبعة باريس ورسالة الففران لأبى العلاء المعرى ص ١٤٥ - ١٤٦ من طبعة مصر ١٣٢١ [١٣٢٥ -] ويروى له بيتان « فى الهجاءات بالخير والشر مثلاً يمثّل » فى حاشية البحرى ص ٢٣٧ من طبعة ليدن أو ص ١٦١ عدد ٨٥٤ من طبعة بيروت [وراجع F. GABRIELI, *al-Walid ibn Yazid, il califfo e il poeta* (Rivista degli Studi Orientali, XV, 1934, PP. 1-64)] .

(٢) كتاب الأغاني ج ٦ ص ١٠١ من طبعة بولاق .

(٣) كتاب الأغاني ج ٢ ص ٧٨ .

(٤) رسالة الففران ص ١٤٦ من طبعة مصر ١٣٢١ - ١٣٢٥ .

ويقال إنه لما أحيط به دخل القصر وأغلق بابه وقال^(١) :

دَعَا لِي هِنْدًا وَالرَّبَابَ وَفَرْتَنَى وَمُسْمِعَةً حَسْبِي بِذَلِكَ مَا لَا
خُذُوا مُلْكَكُمْ لَا ثَبَتَ اللَّهُ مُلْكَكُمْ فَلَيْسَ يُسَاوِي بَعْدَ ذَلِكَ عِقَالًا
وَنُحِلُّوا سَبِيلِي قَبْلَ عَيْرٍ وَمَا جَرَى وَلَا تَحْسُدُونِي أَنْ أَمُوتَ هُنَا لَا

غير أن الحكم المُنْصِف في الوليد بن يزيد صعب علينا إذا تأملنا مصادر أخباره وأخبار أكثر الأمويين . فقدت التصانيف التاريخية القديمة فمعظم ما نعرفه من سير بني أمية منقول من مؤلفات أعدائهم سواء من أهل الشيعة أم من المنقطعين إلى الدولة العباسية . فأهل الشيعة أفرطوا في تسويد معاوية ويزيد لما جرى بينهما وبين علي بن أبي طالب وآله . أما المتعصبون ببني العباس فاجتهدوا في تسويد ذكر الآخرين من خلفاء بني أمية لما وقع من العداوة بينهم وبين بني هاشم . ثم تفكروا في أمر آخر تقدم التلميح إليه فيما سبق وهو أن الدولة الأموية كانت دولة عربية محضة فأبغضها المسلمون من غير العرب وأسرعوا في قبول روايات الحاقدين على بني أمية بدون إجراء النقد فيها لميل الناس إلى تصديق ما يوافق أهواءهم ؛ فنتيجة كل ذلك أن المؤرخين المتأخرين مثل ابن الأثير وأبي الفداء اغتروا وضلوا أي ضلال في بعض ما رووه من أخبار الأمويين . ومن الجدير بالاعتبار ما ذهب إليه بعض الناس منذ أواخر القرن الأول من وضع الأحاديث بُغْضاً لبني أمية وأمرائهم فعزوا مثلاً إلى النبي القول بأن سيقوم في بني ثقيف كاذب ومُبِيرٌ فلأنهم فسروا هذا الحديث قائلين بأن الكاذب مختار بن أبي عبيد والمُبِير الحجاج

(١) رسالة النفران ص ١٤٦ وراجع العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٣ ص ٣١٦ من طبعة

مصر ١٣٠٥ وفيه تنسب الأبيات إلى يزيد بن الوليد .

ابن يوسف^(١) . وفي حديث آخر مختلق كالسابق يُظهر النبي وهو مُشْرِف على الموت كراهته لثلاث من قبائل العرب أى بنى ثقيف وبنى حنيفة وبنى أمية^(٢) . وكذلك نُسِبَ إلى النبي أنه لقي رجلاً قد سَمَّى ابنه الوليد فقال له : أنتم تسمون أولادكم بأسماء فراعنتكم إنه سيقوم رجل اسمه الوليد يضر أمتي أكثر مما ضرَّ فرعونُ شعبة^(٣) . فلو راجعتم الأحاديث الموضوعة من باب الفتن والملاحم والمهدى^(٤) عثرتم على مثل ذلك مما زور لتسويد أعراض الأمويين أو غيرهم من أصحاب الأحزاب السياسية . وفي وضع الأحاديث هذا لمثل هذه الأغراض في القرن الثاني والثالث دلالة على التقلب العظيم الذي حدث في ذلك العصر في هيئة المسلمين الاجتماعية . إنَّ العرب الصميم إلى أواخر الدولة الأموية إذا أرادوا تشنيع أخصامهم وشتمهم إنما استعملوا الأشعار كما سبق بيان ذلك بالتفصيل عند الكلام على الصنف الخامس والسادس من الشعر لأن الشعر فقط كان عند العرب منذ الزمان القديم ديوانَ مفاخرهم ومثالبهم . أما الشعوب الإسلامية غير العربية فما اتخذوا الشعر كسلاح في تخاصم الأحزاب والفرق والملل والتجئوا إلى المصنِّفات المنشورة على كثرة أنواعها . ومنها الأحاديث الموضوعة . فمن يرد البحث العميق في تاريخ الأمم الإسلامية فلا بد له من الاطلاع على تلك الأحاديث المختلقة المزورة لأنها في الحقيقة بخزانة آراء الفِرَق وأغراض الأحزاب التي كثيراً لا تتضح من الكتب المؤلفة في العلوم التاريخية فتشبه منزلتها بمنزلة الأشعار السياسية إلى منتصف القرن الثاني.

(١) رواه Goldziher في كتابه *Muhammedanische Studien* ج ١ ص ١٠٠ عن صحيح مسلم ومصابيح السنة للبغوي وابن بدرون .

(٢) راجع الموضع المذكور من كتاب Goldziher ومن الممكن أن بنى حنيفة لم يذكروا في هذا الحديث إلا لكون نافع بن الأزرق رئيس الأزارقة منهم .

(٣) راجع GOLDZIHNER, *Muhammedanische Studien*, II, 109-110

(٤) انظر مثلاً الترمذي وأبا داود وراجع GOLDZIHNER, *Muhammedanische Studien*, II, P.127

وبعد هذا الاستطراد أرجع إلى سياق الكلام فأقول إن الوليد يرى على المحتمل من أقبح ما يروى عنه من الأخبار والأشعار . ولكن ولو سلمنا ورود التزوير فيها والافتراء في حقه فلا ريب أنه تهادى في الشرب واللذات وأفرط وأن كثيراً مما يُروى من غزلياته وخمرياته صحيح الرواية موثق به . ولعل غرامه سماع أشعار القدماء الذين عاشوا في مملكة الحيرة لا سيما عدى ابن زيد العبادي أثر في أسلوب شعره تأثيراً عظيماً كما رأينا أنه أثر في شعر الحضرة من العراقيين أثناء القرن الأول والثاني للهجرة . فواضح أن منظومات شعراء الكوفة وشعراء دمشق في أواخر الدولة الأموية كانت كواسطة بين خمريات الجاهلية وخمريات البغداديين في أيام بني العباس .

٨- فعلينا الآن أن ننتقل إلى الصنف الثامن من الشعر في أيام بني أمية وهو الذي سمّيته الشعر القصصي اليماني .

لما تكلمت عن شعر النصارى في زمن الجاهلية أومأت إلى ما جاء به عدى بن زيد العبادي في بعض قصائده من ذكر حوادث الملوك والأمم السالفة ليكون ذلك الذكر عبرة للمعتبرين، وبرهاناً على زوال الأرضيات بأسرها وعدم بقاء هذه الدار على أحد ، ونصيحة لأولى الألباب لئلا يُغروا بطيب العيش وأبهة الملك . ومن هذا الباب أيضاً قصيدة حائية مشهورة منسوبة إلى نصراني آخر من أيام الجاهلية أعنى قيس بن ساعدة الإيادي يذكّر فيها بعض من هلك من ملوك حمير الكبار ليتفكّر الإنسان في فناء جميع ما ربّما يبغيه وينافس فيه من السودد والمال واللذات^(١).

ومن المشهور أن بعض المتأخرين سلكوا . هذا المسلك من الزهديات لنظم

(١) راجع مثلاً شعراء النصرانية ص ٢١٧ - ٢١٨ وأيضاً VON KREMER, *Altarabische*

Gedichte, Leipzig 1867, no. 12, p. 16-17.

ما يُشبه مختصر تاريخ الدول منهم عبد المجيد بن عبدون المتوفى سنة ٥٢٩
ناظم القصيدة الطويلة المسماة بالبشامة ألفها عند انقراض دولة بني
الأفطس بمدينة يابرة بيد المرابطين سنة ٤٨٥ فلمح فيها إلى أحوال جميع
دول الأندلس منذ الفتح الإسلامي فبادرت العلماء إلى شرحها بشروح مطولة
أصبحت كتاباً تاريخية لا غير^(١) . ومن أولئك الشعراء أيضاً الذين اتخذوا
الزهديات سبيلاً إلى وصف حوادث الدول نشوان بن سعيد الحميري المتوفى
سنة ٥٧٣ صاحب القصيدة الحميرية^(٢) المشتملة على ١٣٥ بيتاً فعلى صفة
سؤال أين فلان ذكر فيها مآثر جميع ملوك حمير . وهي قصيدة حائية مثل
القصيدة المنسوبة إلى قس بن ساعدة وأولها :

الأمرُ جدُّ وهَوَّ غَيْرُ مُزاحٍ فاعْمَلْ لِنَفْسِكَ صَالِحاً يا صاحِ
كَيْفَ البَقَاءِ مَعَ اخْتِلَافِ طَبَائِعٍ وَكَرُّ لَيْلٍ دَائِمٍ وَصَبَاحِ
وبعد المطلع المحتوى على تسعة أبيات في الزهد يبتدىء الشاعر يقول :

أفأين هودُّ ذو النُّقى وَوَصِيَّةٍ قَحْطَانُ زَرْعُ نُبُوَّةٍ وَصِلَاحِ
أَمْ أَيْنَ يَغْرُبُ وَهُوَ أَوَّلُ مُغْرِبٍ فِي النَّاسِ أَبْدَى النُّطْقِ بِالْإِفْصَاحِ
ثم ألف نشوان شرحاً مطولاً على قصيدته ليفصل بيان الأخبار الملمح
إليها في النظم وأدرج في الشرح جملة من أشعار منسوبة إلى أهل حمير
القدماء وملوكهم فتُعزى أبيات إلى الحارث الرائش أول التبابعة على رأى
أصحاب الكتب في السِّير والتواريخ من العرب وتُعزى أبيات أخرى إلى أسعد
تبع والتبع الأكبر الرائد وأسعد كامل وغيرهم فضلاً عما يُنسب إلى الشعراء

(١) فليراجع مثلاً شرح ابن بدرون المطبوع بليدن سنة ١٨٤٨ [وبمصر سنة ١٣٤٠] .

(٢) اعتنى المستشرق A. von Kremer بنشر متن القصيدة ونقلها إلى اللغة الألمانية

(A. VON KREMER, *Die himjarische Karideh*, Leipzig 1865).

غير الملوك ومدار الأشعار على مآثر أهل حمير ومفاخرهم وقصورهم المشيدة ومبانيهم العظيمة وما فتحوا من البلاد في أقاصى الأرض مثل فارس والهند والصين من جهة الشرق وطنجة وكانتبو من جهة الغرب وبلاد السودان .
فمثال هذا الشعر ما يُنسب إلى التبع الأكبر^(١) (من بحر الطويل) :

أنا تبع الأملاك من نسل حمير ملكنا عباد الله في الزمن الخالي
ملكناهم قهراً وسارت خيولنا إلى الهند والأنبار ترمى بأبطال
وكلّ عباد الله قد وطئت لنا خيولا لعمرى غير نكس وأعزال
فجالت لدى شرق البلاد وغربها لهتك ستور (فتية) ذات أحجال
وعُطِّلَ منها كل حصن ممنوع ونقل منها ما حوتهُ من المال
وتلك (تروع) الأرض منها وطاءها إلى الصين والأتراك حالا على حال
فأبنا جميعاً في السبايا وكلنا على كل محبوبك من الخيل صهال
بكل فتاة لم ترَ الشمس وجهها أسيلة مجرى الدمع بيضاء مكسال
صموت البرى غرثى الوشاح كأنها من الحسن بلر زال عن غيم هطال

وبعض أبيات التباينة المروية في شرح نشوان قد جاءت أيضاً في كتاب المعارف لابن قتيبة^(٢) المتوفى سنة ٢٧٦ من دون ذكر المصادر التي نُقلت عنها وقليل منها وَاِرد أيضاً في كتب غيره . - ومن المشهور القصيدة الظرفية لعلّقة ذي جَدَن الحِميرى^(٣) الشاعر الذى وصف فيها ما ذاق من اللذات

(١) طبع المتن في A. VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, No. 19, P. 17-18 والنقل في

VON KREMER, *Uebetr die sudarabische Sage*, Leipzig, 1866, p. 75-76.

(٢) كتاب المعارف ص ٣٠٤ - ٣١٦ من طبعة غوتنجن ١٨٥٠ أو ص ٣٠٩ - ٣١٤

من طبعة مصر ١٢٠٠ .

(٣) تروى له قصيدة أخرى في جمهرة أشعار العرب في باب أصحاب المرائى ص ١٢٧ - ١٢٨

من طبعة بولاق ١٢٠٨ وفي نيل الأريب في قصائد العرب ص ٧٠ - ٧١ من طبعة مصر ١٨٩٥ ولها ستة

وعشرون بيتاً وقيل في جمهرة أشعار العرب إن اسمه علقمة وقيل في كتاب الأغاني (ج ٤ ص ٢٧ - ٢٨ من

طبعة بولاق) إنه علس . أما ذو جَدَن فهو قوم شريف في اليمن فراجع HARTMANN, *Die arabische*

Frage, Leipzig 1909, P. 324-325.

سابقاً وما كان لقصر عُمدان من الفخامة قبل كَرِّ الدهور عليه وذَكَرَ هلاك
ذى نواس آخر ملوك حِمَيْرِ وهى قصيدة تُروى فى سيرة الرسول لابن هشام^(١)
وتاريخ الطبرى^(٢) وغيرهما . ويروى لذى رُعَيْنِ الحميرى الشاعر أبيات
مشهورة متعلّقة بأحوال اليمن القديمة^(٣) :

أَلَا مَنْ يَشْتَرِي يَوْمًا بِدَهْرٍ قَلِيلًا مَا يَبِيتُ قَرِيرَ عَيْنٍ
أَبَيْنَا الْغَدْرَ إِذْ رَغِبَتْ إِلَيْهِ مَقَاوِلُنَا فَأَمْسُوا رَهْنَ حَيْنٍ
فَإِنْ تَكِ حِمَيْرٌ غَدَرَتْ وَخَانَتْ فَمَعْدِرُهُ الْإِلَهَ لَذَى رُعَيْنٍ

وجميع هذه الأبيات والقصائد المتصلة بأخبار اليمن ومفاخرها فى زمان
الجاهلية المتداولة فى القرن الأول للهجرة حسبما نبينه عن قريب هى ما
سمّيته الشعر القصصى اليمنى مستنداً فى اختيار لفظ القصصى إلى اصطلاح
كُتّبة العرب فى القرون الوسطى . وهذا يستلزم شرحاً قصيراً على سبيل
استطراد .

لَمَّا نُقِلَتْ كُتُبُ أَرِسْطُوطَالِيْسٍ فى صناعة الشعر إلى العربية اشتد تحير
الترجمين فى تعريب الموضوع والاصطلاحات لعدم موافقة أنواع الشعر عند
اليونان لأنواعه عند العرب . ومن الأنواع المجهولة عند الناطقين بالضاد المسمى
باليونانية epiké وهو لفظ معناه الأصلى قصصى (من قصص القصص) غير
أنَّ اليونان اصطَلَحُوا به على جنس من الشعر ليس له مقابل فى الآداب
العربية . فلَمَّا قام ابن رشد الأندلسى بتلخيص كتاب أرسطوطاليس فى صناعة
الشعر استعمل لفظ القصصى وبيّنه بياناً يُظْهِرُ أَنَّهُ لم يكن يُحِيط بذلك

(١) سيرة الرسول ص ٣٦ - ٣٧ من طبعة غوتنجن ١٨٥٨ .

(٢) تاريخ الطبرى ج ١ ص ٩٢٨ - ٩٢٩ من طبعة ليدن .

(٣) تروى الأبيات فى سيرة الرسول لابن هشام ص ١٨ من طبعة غوتنجن وكتاب المعارف

لابن قتيبة ص ٣٠٩ من طبعة غوتنجن و A. VON KREMER, *Altarabische Gedichte*, p. 13, No. 49

النوع من الشعر اليونانيّ علماً يقيناً ولا رصنه معرفة فقال ^(١) : «الأشعار القصصية سبيلها في الأجزاء التي هي المبدأ والوسط. والنهاية سبيل أجزاء صناعة المديح وكذلك في المحاكاة إلا أن المحاكاة لا تكون للأفعال فيها وإنما تكون للأزمنة الواقعة فيها تلك الأفعال وذلك أنه إنما يحاكي في هذه كيف كانت أحوال المتقدم مع أحوال المتأخر وكيف تُنقل الدول والممالك والأيام . ومحاكاة هذا النوع من الوجود قليل في لسان العرب وهو كثير في الكتب الشرعية . وذكر مُجيدٍ في هذا الصنف من شعراهم وأثنى ثناء عاماً على أوميرش . ومن جيد ما في هذا المعنى للعرب قول الأسود ابن يعفر :

ماذا أوْمَلُ بعد آل مُحَرَّق تركوا منازلهم وبعد إِيَاد
أَرْضِ الْخَوَرَنَقِ وَالسَّيْدِ وَبَارِق والقصر ذى الشُّرَفَاتِ مِنْ سِنْدَاد
نَزَلُوا بِأَنْقِرَةَ يَسِيلُ عَلَيْهِمْ ماءُ الْفَرَاتِ يَجِيءُ مِنْ أَطْوَاد
جَرَّتِ الرِّيحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَاد
فَأَرَى النَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ يوماً يَصِيرُ إِلَى بِلَى وَنَفَادٍ ^(٢)

فيتضح من هذا النص أن ابن رشد لعدم دراية له بشيء من الآداب اليونانية لم يتوصل إلى فهم كلام أرسطوطاليس وزعم أن الأشعار القصصية هي الأشعار المتوسطة بين الزهد وتاريخ الأمم على منوال ما أشرت إليه من قصائد

(١) تلخيص كتاب أرسطوطاليس في الشعر لأبي الوليد بن رشد ص ٤٠ - ٤١ من طبعة فيرنية سنة ١٨٧٢ وكتاب علم الأدب : مقالات مشاهير العرب لشيخوخ ج ٢ ص ٢٩٤ من طبعة بيروت ١٨٨٩ . [راجع أيضاً F. GABRIELI, *Estetica e Poesia araba nell' interpretazione della poetica Aristotelica ... (Rivista degli Studi Orientali, XII, 1929-1930), p.294 n.2, PP. 322-324*]

(٢) الأبيات مروية في شعراء النصرانية ص ٤٨١ وكتاب الأغاني ج ١١ ص ١٣٤ - ١٣٥ من طبعة بولاق وكتاب صفة جزيرة العرب للهمداني ص ١٧١ و ٢٣١ من طبعة لندن ١٨٨٤ ومعجم البلدان لياقوت ج ١ ص ٣٩١ و ج ٢ ص ١٦٥ من طبعة ليسك .

عدى بن زيد وقُسم بن ساعدة . - وفي كتاب حديث وهو « تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو » تأليف المقدسي^(١) سُمي ذلك النوع من شعر اليونان بالشعر الحماسي وهو تعريب بعيد جداً يدل على قلة المعرفة بآداب الغرب . فقال المؤلف إن ذلك الشعر « رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشجعان » وإن « موضوعه الوقائع الملققة المشتملة على غرائب الشجاعة ونوادر الفروسيّة » ثم إن الشعر العربي « يوجد فيه أيضاً من الشعر الحماسي وهو الذي روى فيه أخبار الحروب وأطنب بشجاعة الشجعان » وبعد ذكر أسماء الأناشيد الشهيرة من ذلك النوع من الشعر عند أمم مختلفة أضاف إليها « كتب الحماسة للعرب وأشهرها كتاب الحماسة لأبي تمام » . فالواضح أن المقدسي اغترّ في وصفه هذا بنفس الاصطلاح الذي اختاره لتعريف ذلك الشعر .

إن الشعر القصصي المراد في كتب أرسطوطاليس الموجود عند اليونان والرومان والهند والفرس والأمم الإفرنجية عبارة عن أناشيد طويلة جداً مشتملة على ألوف أبيات لم يصغها الشاعر للتعبير عما في صدره من العواطف والشعائر أو عما رآه وعائنه وحضره من الأفعال والبلاد والحوادث والرجال كما هي العادة في أشعار العرب التي لا تلمح إلى آثار السلف إلا على سبيل الافتخار أو الهجاء أو الاعتبار الزهدي، بل نسجها الشاعر القصصي متكلماً عن لسان أمة بأسرها راوياً ما حدث لكلها من الحوادث العظمى في عصر من العصور القديمة أو ما اتفق لرجل من الأكابر أنخذ كالبطل الممثل لجلالة جميع الأمة وعمرانها فكانت الأنشودة القصصية عند القدماء مرآة أخلاق الأمة وأميالها ومستودع مآثرها وخلاصة مفاخرها المتوارث ذكرها جيلاً عن جيل ،

(١) طبع في مصر سنة ١٩٠٩ انظر ص ١٥٩ و ١٦٠ و ١٦١ .

وهي آثار نظمها الشاعر بعد مدة طويلة وزينها وحلأها بسحر البيان وجعلها متصلة بعضها ببعض وفيها الروايات الغرامية وحكايات شتى ليس لها صلة ضرورية بالحروب والحماسة وفيها ذكر الحوادث العجيبة لتدخل الآلهة والجنّ والشياطين وغيرهم مما كانت تلك الأمم تعتقد وجوده والغرض من تلك الأناشيد حفظ آثار الأمة المجيدة القديمة وتحريك النفس لقبول الفضائل والحث على الشجاعة وأنواع الكرم. فيسهل عليكم تصور ماهية تلك الأناشيد إذا أطلعتم على الوحيدة منها التي نقلت إلى العربية أعني إلياذة هميرس ترجمها حديثاً سليمان البستاني بما له من طول الباع في اللغتين اليونانية والعربية وبما له من الحظ. الوافر في صناعة القريض^(١).

فلنرجع إلى ما كنا فيه من الكلام . قد رأيت أن الأشعار المشار إليها المتعلقة بأخبار اليمن توافق تعريف ابن رشد للشعر القصصي توافقاً تاماً فحملني هذا الوفاق على انتخاب هذا الاصطلاح . فيبقى علينا أن نوضح ما أصل هذه الأشعار الحقيقية وما غرضها .

إن عدم الموافقة بين أخبار الأشعار المنسوبة إلى التبابعة وبين أخبار الكتابات الحميرية الحقيقية أدل دليل على أن الأشعار مختلفة . ولكن ولو لم نكتشف في السنين الأخيرة تلك الكتابات أو لم نتوصل إلى قراءتها وتفسيرها لكان تزوير الأشعار واضحاً من نفسه إذ من المعلوم أن قدماء اليمن لم يعرفوا العربية وإنما استعملوا السبئية أو الحميرية فليست رواية أبيات التبابعة أصح من رواية الأبيات العربية التي تعزى في بعض الكتب إلى سيدنا آدم . — هذا من أمر أشعار الملوك ومعاصريها .

(١) ولم يفت نقصان هذا النوع من الشعر ضياء الدين بن الأثير الجزري فليراجع ما قاله في آخر كتاب المثل السائر ص ٥٠٣ من طبعة بلاق ١٢٨٢ أو ص ٣٢٤ من طبعة مصر ١٣١٢ .

أما الأشعار المنسوبة إلى علقمة ذي جَدَن وإلى ذى رُعَيْن المتأخرة عن موت ذى نواس فيلوح من بعض عباراتها أنَّ أصحابها مسلمون . فليس من المُحال أنَّ علقمة ذا جَدَن وذا رعين شاعران عاشا في أوائل الإسلام . غير أن وجودهما لا يخلو من ريب فيه كما يتضح مما يتلو من كلامي .

يُستنتج من مقابلة الأشعار المتفرقة في كتب ابن قتيبة وابن هشام والطبري وغيرهم على روايتها الوسى في شرح نشوان بن سعيد على قصيدته أن المصدر الأصلي لجميعها إنما هو كتاب الملوك وأخبار الماضين^(١) لعبيد^(٢) ابن شُرَيْة الجُرهمي الذي أدرك خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥٠ - ٨٦٠) وكان من اليمنيين الذين وفدوا على معاوية بن أبي سفيان . وقيل إنه جمع أخبار اليمن من ألسنة أهل صنعاء ومن قدرته على اختلاق الأخبار مثال في كتاب ابن خلكان في ترجمة الشريف الرضي^(٣) . وتعرفون أيضاً أن القصص من اليمن كثيرون في القرن الأول ومن أشهرهم وهب بن منبه (المتوفى سنة ١١٠ أو ١١٤) صاحب الإسرائيليات وغيرها من الكتب التي هي أقرب إلى الخرافات منها إلى التواريخ الحقيقية . ومن المزورين المعاصرين لعبيد بن شرية يزيد بن مفرغ الحميري المتوفى سنة ٦٩ الذي سبق ذكره في شعراء الصنف السادس قيل في حقه في كتاب الأغاني^(٤) : وقال [أبو العيناء] : سئل الأصمعي عن شعر تبع وقصته ومن وضعها فقال

(١) [راجع ما قاله في هذا الكتاب وعنوانه الصحيح C. Brockelmann في *Geschichte der arabischen Litteratur, Erster Supplementband*, P.100]

(٢) واسمه عبید بضم العين وفتح الباء وبعدها الياء مسكنة راجع حواشي Goldziher ص ٢٩-٣٠ من كتاب المعمرين للسجستاني عدد ٣٩ من طبعة ليدن ١٨٩٩ وراجع أيضاً VON KREMER, *Sudarabische Sage*, P.47-49.

(٣) عدد ٦٧٨ من طبعة فونتنجن أو ٦٣٩ من الطبقات المصرية .

(٤) كتاب الأغاني ج ١٧ ص ٥٢ .

ابن مفرغ وذلك أن يزيد بن معاوية لما سيّره إلى الشام وتخلّصه من عبّاد ابن زياد أنزله الجزيرة وكان مقيماً برأس عين وزعم أنه من حمير ووضع سيرة تبّع وأشعاره .

أما أسباب الاختلاق فظاهرة وهى ميل الناس إلى الأخبار العجيبة وما رجا الرواة من المكسب بها وحبّ كلّ شعب للافتخار بأجداده ولاسيّما ما وقع من التخاصم والمنافرة بين عرب عدنان وعرب قحطان فى القرن الأول للهجرة . وغرض بعض الذين وضعوا تلك الأشعار فى أخبار ملوك حمير افتخار اليمنيين وحطّ عرب نزار الذين لم يكن لهم مآثر تقابل مآثر أهل اليمن فى قديم الزمان . وهى الطريق التى سلكها سائر الأمم الإسلامية فى مثل ذلك كما شرحته فى دروس السنة الفاتنة^(١) لما تكلمت عما اختلق ابن وحشية (أو بالحرى أبو طالب الزيات) من الكتب المنسوبة إلى النبط. وهى أيضاً منهج المصريين عند تزويرهم أخبار الفراعنة وتدوينها فى الكتب وهو أيضاً الداعى الذى حمل الشعراء الفارسيين دقيقى وفردوسى إلى تأليف الأنشودة العظيمة المسماة بشاهنامه . غير أن الفرس قد حفظوا كثيراً من كتبهم القديمة باللغة البهلوية فى السير والتواريخ فما اضطروا إلى تلفيق ما وصل إليهم من الأخبار .

ومن الجدير بالذكر أن المزورين اليمنيين لئلا يُظهروا غرضهم بل لتنال أشعارهم القبول عند الخلفاء وسائر العرب وضعوا أبياتاً للحارث الرائش أول التبابعة تنبئ مجىء النبى بعد قرون^(٢) ورووا أن أسعد كاملاً كان مؤمناً وآمن بالنبي (صلعم) قبل مبعثه بسبعمئة سنة وقال :

(١) [راجع علم الفلك تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى لكرلو نلينو ص ٢٠٨ - ٢١٠] .

(٢) كتاب مروج الذهب للمسعودى فى الباب السادس ج ١ ص ١٢٣ من طبعة باريس .

شهدتُ على أحمد أنه رسول من الله باري النسم
 فلو مدُّ عُمري إلى عمره لكنت وزيراً له وابنَ عمٍّ^(١)
 فستروا غشهم بإظهار التقى^(٢) .

٩- وعلينا الآن أن نتكلم عن النوع التاسع الأخير وهو المراثية وإننا نجد في معظم شعر الشعراء المتقدم ذكرهم شيئاً من المراثي ولكن هذا . النوع نفسه إنما خصت به النساء فلمن لم يأخذن يقلن الشعر في غير هذا الجنس إلا في عصر بني العباس ومما يعجبنا عند قراءة مراثي العصر الأموي مشابهتها لمراثي الجاهلية ولذلك أسباب شتى منها قلة التنوع الشعوري والإلهام الشعري عند العرب القدماء وعاداتهم أن ينسجوا على منوال الأولين وأخيراً اختصاص النساء بهذا النوع وهنَّ محافظات لسنة السلف دون غيرهن .

(١) يشير إلى ذلك von Kremer في كتابه *Ueber die sudarabische Sage*, P. 63

(٢) [انتهت هنا النسخة العربية من هذه الدروس فنقلت السطور التالية من المسودة التي كتبها أبي باللغة الإيطالية] .

فهرست الأعلام

- ابن أبي عبيدة ٢٤٦
 ابن سريج (مغن) ١٢٣
 ابن سيحان ١٢٩
 ابن عبدون ٣٠٦
 ابن محرز (مغن) ١٢٣
 ابن المعتز ٣٩ ، ٢١٥
 ابن مفرغ ٢٥٩ : ٣١٣
 ابن ميادة ٢٨٣
 أبو تمام ٥٨
 أبو خراش خويلد بن مرة الهذلي ١١١
 أبو دهبيل الجمحي ١٢٢
 أبو دؤاد الإيادي ٨٩
 أبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي ١١١
 أبو الزقاء البصري ٢٤٦
 أبو السائب الخزوي ١٣٤ ، ١٣٥
 أبو سفيان بن حرب ١٠٨ ، ٢٨٥
 أبو صخر الهذلي ١٤٢
 أبو العباس الأعمى ٢٥٨ ، ٢٦٣
 أبو العتاهية ١٤٠
 أبو عطاء أفلح بن يسار السندي ٢٧
 أبو فراس الحمداني ٢١٥
 أبو كلدة بن عبيد الشكري ٢٨٤
 أبو محنجن الثقفي ١٠٩
 أبو النجم العجلي ١٩١
 أبو نخيلة الحماني الراجز ٢١١
 أبو نواس الحسن بن هاني ٢١٥
 أبو الهندي ٢٨٤
 الأحوص الملقب الأنصاري ١٣٠
 أحيحة بن الجلاح الأوسي ٢١٤
 الأختل ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٧ ،
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ،
 ٢٧٢ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٩
 إسماعيل بن عمار بن عيينة ٢٨٠
 إسماعيل بن يسار النسائي ٢٦٥ :
 ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٩١
 الأسود بن يعفر ٣٠٩
 أعشى بن ربيعة ٢٥٧ ، ٢٧٢
 الأعشى ميمون ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٥
 أعشى همدان ٢٢٣ ، ٢٢٤
 الأغلب بن جشم العجلي ١٨٧ ، ١٨٨
 الأفوه الأودي ٧٩
 الأقيشر الأسدي ٢٧٨
 أم الثواب من بني هزان ٢٦
 امرؤ القيس بن حجر ٦٧ ، ٧٤ ،
 ٧٥ ، ٨٩ ، ١٨٦
 أمية بن أبي الصلت الثقفي ٩٣ ، ٢٠٨
 أنس بن زعيم الليثي ٢٧٦
 أوس بن حجر التميمي ٨٤ ، ٩٨
 أيمن بن خريم الأسدي ٢٧١ ، ٢٧٩
 البحري ٤١
 البعيث المجاشعي ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٩٠
 بكر بن خارجة ٢٧٣
 تأبط شراً الفهمي ٧٢

دكين بن رجاء من بني فقيم ٢١١
 دكين بن سعيد الدارمي ٢١١
 ذو الإصبع العدواني ٨٠
 ذو الرمة ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٩٠ ، ٢٧٢

ذو رعين الحميري ٣٠٨ ، ٣١٢
 ذو كنان انظر : عمار بن عمرو
 الراعي ١٨١ ، ٢٧٢
 الربيع بن أبي الحقيق ٧١
 ردي بن عبس الفقعسي ٢١٤
 الرماد بن أبرد انظر : ابن ميادة -
 رؤية بن العجاج ١٩٤ ، ٢١١
 زفر بن الحارث العامري ٢٢١
 الزفيان ٢١٢

زهير بن أبي سلمى المزني ٧٤ ، ٧٧ ، ١٨٧
 زهير بن جناب الكلبي ٨١
 زياد بن سلمى الأعجمي ٢٦٣
 زيد بن عمرو بن نفيل ٩٨
 سائب خاثر (مغن) ١٢٣ ، ٢٩٦
 سبحان بن زفر الوائلي ١١٨
 سبحان وائل ٢٢٢

السري بن عبد الرحمن ١٢٩
 سعيد بن المسيب ١٣٢ ، ١٣٣
 سلامة بن جندل التميمي ٨٠
 السموع بن عاديا ٧١
 سهم بن حنظلة الغنوي ٢٥
 السيد الحميري ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣
 سيرة بن غريض ٧١
 شعبة بن غريض انظر : سيرة بن
 غريض
 الشماخ بن ضرار الديلمي ١١٠ ، ١٨٩

التبع الأكبر ٣٠٧
 توبة بن الحمير ١٣٧
 ثابت قطنة ٢٥٣ ، ٢٥٥
 جامع بن مثنوية الكلابي ١٣٣
 جبير بن أيمن ١٢٩
 جروول بن أوس الخطيئة ١٠٩
 جرير ١٣٥ ، ١٦٨ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٧٢ ، ٢٦٥ ، ١٩٠

جزء بن ضرار ١١١
 جميل بن عبد الله بن معمر العذري
 ١٣٩ ، ١٤٠ ، ٢٩٠

جواس بن قطبة ١٤٠
 جواس بن قعطل ٢٢١
 حاتم بن عبد الله الطائي ٧٩
 حاجب بن ذبيان المازني ٢٩١
 الحارث بن حلزة ٧٤ ، ٧٥
 الحارث بن خالد العاصي الحزوي ١٢٤

الحارث بن الرائيش ٣٠٦
 الحارث بن هشام بن المغيرة ١٠٨
 حارثة بن بدر الغداني ٢٧٥
 حسان بن ثابت الأنصاري ٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٢٢٩

الخطيئة انظر: جروول بن أوس الخطيئة
 الحكم بن عبدل الأسدي ٢٨٠ ، ٢٨١
 حكيم بن عياش الأعور الكلبي ٢٤٦
 حميد الأرقط ١٩٠

حنين بن بلوغ الحميري ٢٧٧
 خالد بن أبي أيوب ١٢٩
 الحسناء ٨١
 دريد بن الصمة الجشمي ٨٠
 دعلج ٢٤٦

العجاج ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١
 العجير السلولى ١٨٣
 عدى بن الرقاع ٢٩٨ ، ٣٠١
 عدى بن زيد العبادى ٨٩ ، ٩١ ،
 ١٥٤ ، ٢٧٢ ، ٣٠٥
 العديل بن الفرخ العجلى ١٨٢
 العرجى انظر : عبدالله بن عمر العرجى
 عروة بن أذينة ١٣٣
 عروة بن حزام العذرى ١٣٨ ، ١٣٩
 عروة بن الورد ٧٨
 عطاء بن أبى رباح ١٣٥
 عقبة بن رؤبة بن العجاج ٢١٢
 عقيل بن علقمة المرى ١٨٣
 علقمة ذو جلدن الحميرى ٣٠٧ ، ٣١٢
 علقمة الفضل ١٨٧
 على بن أبى طالب ١١٧
 عمار بن عمرو ذو كنان ٢٧٦
 العماني ٢١٣
 عمر بن أبى ربيعة المخزومى ١٢٤ ،
 ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٥
 عمر بن لجأ ١٨٣ ، ١٩٠
 عمران بن حطان السدوسى ٢٣٥ ،
 ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩
 عمران بن عصام العرنى ٢٨٩
 عمرو بن كلثوم ٧٤ ، ٧٥ ، ١١٤
 عمرو بن معد يكرب الزبيلى ١١١
 عنزة بن شداد العبسى ٧٤ ، ٧٦ ،
 ١٢٠ ، ١٨٧
 عوف بن ذروة ٢١٤
 عويج الطائى ٢٢٢

الشمر دل بن شريك اليربوعى ١٩٠ ، ٢١٤
 الشنفرى الأزدي ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤
 الصلتان العبدى ١٨٣ ، ٢٦٩
 ضرار بن الخطاب الفهرى ١٠٨
 طرفة بن العبد ٢٨ : ٧٤ ، ٨٣ ، ٨٩
 ١٨٧ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤
 الطرماح بن حكيم ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٧٢
 طريح بن إسماعيل الثقفى ٢٩٢
 طويس (مغن) ١٢٣
 العباس بن الوليد بن عبد الملك ٢٦٠
 عبد الله بن أبى معقل بن نهيك بن
 إساف الأنصارى ١٢٩
 عبد الله بن الزبيرى ١٠٨
 عبد الله بن الزبير الأسدى ١٦٤ ،
 ٢٥٨ ، ٢٧٢
 عبد الله بن عمر العرجى ١٣١
 عبد الله بن كراع ٢١٤
 عبد الله بن مسلم بن جندب الهذلى ١٣٢
 عبد الله بن همام السلولى ٢٨٨
 عبد الرحمن بن أبى عمار الجشمى ١٣٥
 عبد الرحمن بن حسان بن ثابت
 الأنصارى ١٥٥ ، ٢٩٨
 عبد الرحمن بن الحكم ٢٩٥ ، ٢٩٨
 عبد الصمد بن المعدل ٢١٥
 عبد الوهاب بن على البغدادى ١٥٣
 عبيد بن الأبرص الأسدى ٨٢ ، ٨٣
 عبيد بن شرية الجهمى ٣١٢
 عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن
 مسعود ١٣٢
 عبيد الله بن قيس الرقيات ٢٥٦
 عثمان بن الوليد بن عمارة القرشى ١٥٠

عوف القوافى الفزاري ١٨٤

الغريض (مغن) ١٢٤

الفرزدق ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ،

١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٩٠ ، ٢٧٢

الفضل بن عبد الصمد الرقاش ٢١٥

قس بن ساعدة الإيادي ٩٨ ، ٣٠٥

القطامي ١٤٦ ، ٢٢٥

قطري بن الفجاءة ٢٣٥ ، ٢٣٨

قيس بن الخطيم الأوسي ٩٢

قيس بن ذريح الكناني ١٣٨

قيس المكشوح المرادي ١١٥

كثير عزة ١٤٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ،

٢٤٥ ، ٢٧٢

كعب الأشقرى ٢٢٥

كعب بن جعيل ١٥٥ ، ٢٣٠ ، ٢٩١

كعب بن زهير ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١١٤

الكميت بن زيد الأسدي ٢٤٥ ،

٢٥٠ ، ٢٧٢

ليد بن ربيعة العامري ٢٤ ، ٧٤ ،

٧٨ ، ٨٧ ، ١٨٦

مالك بن أبي السمح (مغن) ١٢٣

مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري ٢٨٠

التملسس ٢٥ ، ٨٤

متمم بن نويرة اليربوعي ١٠٨

المتوكل بن عبد الله الليثي ١٥٦ ،

٢٨٢ ، ٢٩١

مجنون ليلي ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢

محارب بن دثار الذهلي ٢٥٢

محمد بن عبد الله النخعي ١٣٢

محمد بن يسار ٢٦٣

مرة بن محكان السعدي ١٨٢

مزد بن ضرار ١١١

مسعود بن كبير الجرمي ٢١٤

مسكين الدارمي ٢٨٧ ، ٢٨٨

معاذ بن جوين بن حصين الخارجي ٢٣٦

معاوية بن أبي سفيان ١٤٤ ، ١٦٢ ،

١٦٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ،

٢٩٥ ، ٢٩٦

معبدة (مغن) ١٢٣

مقاتل بن مسعود العبدي ٢٧

مهلهل ٦٨

موسى شهوات ٢٦٣

ميسون بنت بحدل ١٤٤ ، ١٤٧ ،

ميسون بنت جندل الفزارية ١٤٧

النابعة الجعدي ١٤٥

النابعة الذبياني ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٩ ،

١٨٧ ، ٢٧٢

النابعة الشيباني ٢٦

الناشي الأكبر ٢١٥

نشوان بن سعيد الحميري ٣٠٦

نصر بن سيار ١٢٦ ، ٢٦٠ ، ٣٢٦١

نصيب بن رباح ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٣٠٠

النعمان بن عدي ٢٧٤

نهار بن توسعة ٢٧٠

هند بنت عتبة ٢٨٦

الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ١٢٨

الوليد بن عثمان بن عفان ١٢٨

الوليد بن يزيد ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥

وهب بن منبه ٣١٢

يزيد بن معاوية ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦

يزيد بن مفرغ انظر : ابن مفرغ

يعلى الأحول بن مسلم اليشكري ١٨٣ ،

فهرست

صفحة	
٥	تقديم
١٥	مقدمة
	الباب الأول :
	١ - لفظ « الأدب » بحث عن معناه الأصلي وما تفرع منه من
٢١	المعاني المتعددة المختلفة
٥٥	٢ - تعريف تاريخ الآداب
٥٧	٣ - كيف ينقسم تاريخ الآداب العربية
٦٥	الباب الثاني : الآداب العربية في العصر الجاهلي
٧٢	١ - شعر أهل البادية
٨١	٢ - شعر الوثنيين الملازمين ملوك الحيرة وغسان
٨٨	٣ - شعر النصاري بالحيرة وفي مملكة غسان
٩٢	٤ - شعر أهل الحضر في مدن الحجاز
٩٥	٥ - النثر الجاهلي
٩٩	٦ - المسائل المتعلقة بالقرآن
١٠٣	الباب الثالث : الآداب في صدر الإسلام وأيام الخلفاء الراشدين
١٠٤	١ - الشعر في مدح النبي
١٠٨	٢ - شعراء المشركين الحاقدون على النبي
	٣ - الشعراء الذين أسلموا من غير أن يهتموا في أبيانهم
١٠٨	بأمور دينهم
١١٥	٤ - شعر الفتوحات
١١٦	٥ - الديوان المنسوب إلى علي بن أبي طالب
١١٦	٦ - النثر

صفحة

١١٩	الباب الرابع : الشعر في عصر بني أمية
١٢٠	١ - الغزل في مدن الحجاز
١٣٥	٢ - النسيب عند الأعراب
١٤٢	٣ - الشعر على أسلوب فحول الجاهلية
١٨٥	٤ - الأراجيز
٢١٧	٥ - شعر الجنود
٢٢٥	٦ - شعر الفتن السياسية والدينية
٢٧٠	٧ - شعر أهل الحضر في ميدان العراق والشام
٣٠٥	٨ - الشعر القصصي اليمني
٣١٤	٩ - المراثي
٣١٥	فهرست الأعلام

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٠

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٦٩/٤٤٢٩

تاريخ الآداب العربية

لقد كان هذا الكتاب بحق سبباً في تكوين أعلام الأدب في عصرنا الحديث ، لقد وجد طلاب الجامعة المصرية القديمة في محاضرات نالينو في الأدب العربي وتاريخه شيئاً لم يألوه من قبل في الأساتذة أو في كتب الأدب القديمة . .

لقد فتح نالينو الطريق للدراسات جادة رصينة في الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي والشعر الأموي ، كما درس النثر وتطوره جاهلية وإسلاماً ، فهدانا بذلك إلى شعر الفتوح وشعر المشركين وشعر الغزل والشعر السياسي والشعر القصصي اليميني وغيرها من طريف الموضوعات .

٥١١٦

Bibliotheca Alexandrina



0640263